وقولهم)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم، يريدون بذلك التوسيع عليه، أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي)كما زعمت(إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد. وعنوا به قوله تعالى)إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء(وبقوله)وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم(، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب. وجعلوا)من(في قوله تعالى)كسفا من السماء(تبعيضية، أي قطعة من الأجرام السماوية، فلذلك أبوا تعدية فعل)تسقط(إلى ذات السماء. واعلم أن هذا يقتضي أن تكون هاتان الآيتان أو إحداها نزلت قبل سورة الإسراء وليس ذلك بمستبعد.

و)الكسف(بكسر الكاف وفتح السين جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وقرأه الباقون بسكون السين بمعنى المفعول، أي المكسوف بمعنى المقطوع.

والزعم: القول المستبعد أو المحال.

والقبيل: الجماعة من جنس واحد. وهو منصوب على الحال من الملائكة، أي هم قبيل خاص غير معروف، كأنهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة.

والزخرف: الذهب.

وإنما عدي)ترقى في السماء(بحرف)في(الظرفية للإشارة إلى أن الرقي تدرج في السماوات كمن يصعد في المرقاة والسلم.

ثم تفننوا في الاقتراح فسألوه إن رقي أن يرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرءونه، فيه شهادة بأنه بلغ السماء. قيل: قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية، قال: حتى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك.

ولعلهم إنما أرادوا أن ينزل عليهم من السماء كتابا كاملا دفعة واحدة، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن، توهما بأن تنجيمه لا يناسب كونه منزلا من عند الله لأن التنجيم عندهم يقتضي التأمل والتصنع في تأليفه. ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه.

واللام في قوله)لرقيك(يجوز أن تكون لام التبيين. على أن) رقيك(مفعول)نؤمن(مثل قوله)لن نؤمن لك(فيكون ادعاء الرقي منفيا عنه التصديق حتى ينزل عليهم كتاب. ويجوز أن تكون اللام لام العلة ومفعول)نؤمن(محذوفا دل عليه قوله قبله)لن نؤمن لك(. والتقدير: لن نصدقك لأجل رقيك هي تنزل علينا كتابا. والمعنى: أنه لو رقى في السماء لكذبوا أعينهم حتى يرسل إليهم كتابا يرونه نازلا من السماء.

وهذا تورك منهم وتهكم.

ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كرمهم بكلمة)سبحان ربي(التي تستعمل في التعجب كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي لست ربا متصرفا أخلق ما يطلب مني، فكيف آتي بالله والملائكة وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها.

وقرأ الجمهور)قل(بصيغة فعل الأمر. وقرأه ابن كثير، وابن عامر) قال(بألف بعد القاف بصيغة الماضي على أنه حكاية لجواب الرسول صلى الله عليه وسلم عن قولهم)لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(على طريقة الالتفات.

)وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا[94] قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا[95](

صفحة : 2501

بعد أن عدت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، وما قصدهم من مختلف المقترحات إلا إرضاء أوهامهم بالتنصل من الدخول في الدين، فلو أتاهم الرسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا: إن ذلك سحر، أو قلوبنا غلف، أو نحو ذلك. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم)أو تأتي بالله والملائكة قبيلا(ورد لقولهم)أو ترقى في السماء(إلى آخره.

وقوله)إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا(يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأن اعتقاد قائليه يمنع من

إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم جعله تذييلا لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم.

فالظاهر حمل التعريف في)الناس(على الاستغراق، أي ما منع جميع الناس أن يؤمنوا إلا ذلك التوهم الباطل لأن الله حكى مثل ذلك عن كل أمة كذبت رسولها فقال حكاية عن قوم نوح)ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكته ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين(. وحكي مثله عن هود)ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن الخاسرون(، وعن قوم صالح)ما أنت إلا بشر مثلنا(، وعن قوم شعيب)وما أنت إلا بشر مثلنا(. وحكي عن قوم فرعون)قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا(. وقال قوم محمد صلى الله عليه وسلم بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب(.

وإذا شمل العموم كفار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذا الشبهة بقوله)لو كان في الأرض يمشون مطمئنين(تلآية، فاختصر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يلقنه من سبق من الرسل، فإنهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوالهم فقال عن نوح)قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين(.

وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون،)فكذبوهما فكانوا من المهلكين(، فقد ادخر الله لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الظلال بما يناسب كونه خاتم الرسل، ولهذا قال في خطبة حجة الوداع: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

ومعنى قوله)لو كان في الأرض ملائكة يمشون(الخ: أن الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكن من المخالطة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة، قال تعالى)ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا(، أي في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس.

وجملة)يمشون(وصف ل)ملائكة(.

و)مطمئنين(حال. والمطمئن: الساكن. وأريد به هنا المتمكن غير المضطرب، أي مشي قرار في الأرض، أي لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل أنزلنا عليهم ملكا.

ولما كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى: لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكا فلما كنتم بشرا أرسلنا إليكم بشرا مثلكم.
ومجيء الهدى هو دعوة الرسل إلى الهدى.
)قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا[96] (بعد أن خص الله محمدا صلى الله عليه وسلم بتلقين الحجة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضا ما لقنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه. فأمره ب)قل كفى بالله(تسلية له وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود)رب انصرني بما كذبون(. وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك.
وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدمة على وجه الإجمال.
ومفعول)كفى(محذوف. تقديره: كفاني. والشهيد: الشاهد، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع.

صفحة : 2502

وأريد بالشهيد هنا الشهيد للمحق على المبطل، فهو كناية عن النصير والحاكم لأن الشهادة سبب الحكم. والقرينة قوله)بيني وبينكم(لأن ظرف بين يناسب معنى الحكم. وهذا بمعنى قوله تعالى)حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين(وقوله)يوم القيامة يفصل بينكم(.
والباء الداخلة على اسم الجلالة زائدة لتأكيد لصوق فعل) كفى(بفاعله. وأصله: كفى الله شهيدا.
وجملة)إنه كان بعباده خبيرا بصيرا(تعليل للاكتفاء به تعالى، والخبير: العليم. وأريد به العليم بالنوايا والحقائق، والبصير: العليم بالذوات والمشاهدات من أحوالها. والمقصود من اتباعه به إحاطة العلم وشموله.
)ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه(يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة)وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى(جمعا بين المانع الظاهر المعتاد من الهدى وبين المانع الحقيقي وهو حرمان التوفيق من الله تعالى. فمن أصر على الكفر مع وضوح الدليل لذوي العقول فذلك لأن الله تعالى لم يوفقه. وأسباب الحرمان غضب الله على من لا يلقي عقله لتلقي الحق ويتخذ هواه رائدا له في مواقف الجد.

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة)قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم(ارتقاء في التسلية، أي لا يحزنك عدم اهتدائهم فإن الله حرمهم الاهتداء لما أخذوا بالعناد قبل التدبر في حقيقة الرسالة.

والمراد بالهدى الهدى إلى الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

والتعريف في)المهتدي(تعريف العهد الذهني، فالمعرف مساو للنكرة، فكأنه قيل: فهو مهتد. وفائدة الإخبار عنه بأنه مهتد التوطئة إلى ذكر مقابله وهو)ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء(. كما يقال: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فلان.

ويجوز أن تجعل التعريف في قوله)فهو المهتدي(تعريف الجنس فيفيد قصر الهداية على الذي هداه الله قصرا إضافيا، أي دون من تريد أنت هداه وأضله الله. ولا يحتمل أن يكون المعنى على القصر الادعائي الذي هو بمعنى الكمال لأن الهدى المراد هنا هدي واحد وهو الهدي إلى الإيمان.

وحذفت ياء)المهتدي(في رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غير المنون بحذف الياء، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة. ورسمت بدون ياء لأن شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف. وأما في حال النطق في الوصل فقرأها نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل وهو الوجه، ولذلك كتبوا الياء في مصاحفهم باللون الأحمر وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة في المصحف تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كتاب المصحف. والباقون حذفوا الياء في النطق في الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف. وذلك وإن كان نادرا في غير الشعر إلا أن الفصحاء يجرون الفواصل مجرى القوافي. واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام، كما دل عليه تمثيل سيبويه في كتابة الفاصلة بقوله تعالى)والليل إذا يسر(وقوله)قال ذلك ما كنا نبغ(. وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى)عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال(في سورة الرعد.

والخطاب في)فلن تجد لهم أولياء من دونه(للنبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا الكلام مسوق لتسليته على عدم استجابتهم له. فنفي وجدان الأولياء كناية عن نفي وجود الأولياء لهم لأنهم لو كانوا موجودين لوجدهم هو وعرفهم.

والأولياء: الأنصار، أي لن تجد لهم أنصارا يخلصونهم من جزاء الضلال وهو العذاب. ويجوز أن يكون الأولياء بمعنى متولي شانهم،

أي لن تجد لهم من يصلح حالهم فينقلهم من الضلال كقوله تعالى)الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور(.
وجمع الأولياء باعتبار مقابلة الجمع بالجمع، أي لن تجد لكل واحد وليا ولا لجماعته وليا، كما يقال: ركب القوم دوابهم.
و)من دونه(أي غيره.
)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا[97](ذكر المقصود من نفي الولي أو المثال له بذكر صورة عقابهم بقوله)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم(الآية.

صفحة : 2503

والحشر: جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد. ولما كان ذلك يستدعي مشيهم عدي الحشر بحرف)على(لتضمينه معنى)يمشون(. وقد فهم الناس ذلك من الآية فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم. والمقصود من ذلك الجمع بين التشويه والتعذيب لأن الوجه أرق تحملا لصلابة الأرض من الرجل.
وهذا جزاء مناسب للجرم، لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق ووسموا الحق بسمات الضلال فكان جزاؤهم أن حولت وجوههم أعضاء مشي عوضا عن الأرجل. ثم كانوا)عميا وبكما(جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، و)صما(جزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب(. وقال عنهم) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى(، وقال عنهم)ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى(أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محروما من متعة النظر. وهذه حالتهم عند الحشر.
والمأوى محل الأوي، أي النزول بالمأوى، أي المنزل والمقر.
وخبت النار خبوا وخبوا: نقص لهيبها.
والسعير: لهب النار، وهو مشتق من سعر النار إذا هيج وقودها. وقد جرى الوصف فيه على التذكير تبعا لتذكير اللهب. والمعنى: زدناهم لهبا فيها.
وفي قوله)كلما خبت زدناهم سعيرا(إشكال لأن نار جهنم لا تخبو. وقد قال تعالى)فلا يخفف عنهم العذاب(. فعن ابن عباس: أن

الكفرة وقود للنار قال تعالى)وقودها الناس والحجارة(فإذا أحرقتهم النار زال اللهب الذي كان متصاعدا من أجسامهم فلا يلبثون أن يعادوا كما كانوا فيعود الالتهاب لهم.
فالخبو وازدياد الاشتعال بالنسبة إلى أجسادهم لا في أصل نار جهنم. ولهذه النكتة سلط فعل)زدناهم(على ضمير المشركين للدلالة على أن ازدياد السعير كان فيهم، فكأنه قيل: كلما خبت فيهم زدناهم سعيرا، ولم يقل: زدناها سعيرا.
وعندي: أن معنى الآية جار على طريق التهكم وبادئ الإطماع المسفر عن خيبة، لأنه جعل ازدياد السعير مقترنا بكل زمان من أزمنة الخبو، كما تفيده كلمة)كلما(التي هي بمعنى كل زمان. وهذا في ظاهره إطماع بحصول خبو لورود لفظ الخبو في الظاهر، ولكنه يؤول إلى يأس منه إذ يدل على دوام سعيرها في كل الأزمان، لاقتران ازدياد سعيرها بكل أزمان خبوها. فهذا الكلام من قبيل التمليح، وهو من قبيل قوله تعالى)ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمال في سم الخياط(، وقول إياس القاضي للخصم الذي سأله: على من قضيت؟ فقال: على ابن أخت خالك.
)ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أ إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا[98](استئناف بياني لأن العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركب هذه الهيئة من تلك الصورة المفظعة، فالجواب بأن ذلك بسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد.
فالإشارة إلى ما تقدم من قوله)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم(إلى آخر الآية بتأويل: المذكور.
والجزاء: العوض عن عمل.
والباء في)بأنهم كفروا(للسببية.
والظاهر أن جملة)وقالوا أ إذا كنا عظاما(الخ. عطف على جملة)بأنهم كفروا(، فذكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم. وذكر سببان: أحدهما: الكفر بالآيات ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلا وجمعا تناسبها العقوبة التي في قوله)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم(.
وثانيهما: إنكارهم البعث بقولهم)أ إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا(المناسب له أن يعاقبوا عقابا يناسب ما أنكروه من تجدد الحياة بعد المصير رفاتا، فإن رفات الإحراق أشد اضمحلالا من رفات العظام في التراب.
والاستفهام في حكاية قولهم)أإذا كنا عظاما(وقوله)إنا لمبعوثون(إنكاري. وتقدم اختلاف القراء في إثبات الهمزتين في قوله

)أإذا(وفي إثباتها في قوله)أإنا لمبعوثون(في نظير هذه الآية من هذه السورة.

صفحة : 2504

)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا[99](جملة)أولم يروا(عطف على جملة)ذلك جزاؤهم(باعتبار ما تضمنته الجملة المعطوف عليها من الردع عن قولهم)أإذا كنا عظاما ورفاتا(. فبعد زجرهم عن إنكارهم البعث بأسلوب التهديد عطف عليه إبطال اعتقادهم بطريق الاستدلال بقياس التمثيل في الإمكان، وهو كاف في إقناعهم هنا لأنهم إنما أنكروا البعث باعتقاد استحالة كما أفصح عنه حكاية كلامهم بالاستفهام الإنكاري. وإحالتهم ذلك مستندة إلى أنهم صاروا عظاما ورفاتا، أي بتعذر خلق امتثال تلك الجزاء، ولم يستدلوا بدليل آخر، فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من عدم أوغل في الفناء دليلا يقطع دعواهم.

والاستفهام في)أو لم يروا(إنكاري مثوب بتعجب من انتفاء علمهم لأنهم لما جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنهم علموا ذلك في نفس الأمر.

والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنها عديت إلى كون الله قادرا. وذلك ليس من المبصرات. والمعنى: أو لم يعلموا أن الله قادر على أن يخلق مثلهم.

وضمير)مثلهم(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)يروا(وهو)الناس(في قوله)وما منع الناس(أي المشركين.

والمثل: المماثل، أي قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأن الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أن الله قادر على أن يخلق خلقا آخر. ويكون في الآية إيماء إلى أن البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيخلق لكل ميت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتوضع فيه الروح التي كانت له.

ويجوز أن يكون لفظ)مثل(هنا كناية عن نفس ما أضيف أليه، كقول العرب: مثلك لا يبخل، وقوله تعالى)ليس كمثله شيء(على أحد تأويلين فيه، أي على جعل الكاف الداخلة على لفظ)مثله(غير زائدة. والمعنى: قادر على أن يخلقهم، أي أن يعيد خلقهم، فإن ذلك ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض.

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل تكون عن جميع ما تفرق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجب ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

ووصف اسم الجلالة بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأن خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

وجملة)وجعل لهم أجلا لا ريب فيه(معطوفة على جملة)أو لم يروا(لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي تحققوا أن الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

والأجل: الزمان المجعول غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدة المقدرة لكل حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.

ووجه كون هذا الجعل لهم أنهم داخلون في ذلك الأجل لأنهم من جملة من يبعث حينئذ، فتخصيصهم بالذكر لأنهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.

ومعنى كون الأجل لا ريب فيه: أنه لا ينبغي فيه: ريب، وأن ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله)ذلك الكتاب لا ريب فيه(.

ويجوز أن يكون الأجل أجل الحياة، أي وجعل لحياتهم أجلا، فيكون استدلالا ثانيا على البعث، أي ألم يروا أنه جعل لهم أجلا لحياتهم، فما أوجدهم وأحياهم وجعل لحياتهم أجلا إلا لأنه سيعيدهم إلى حياة أخرى، وإلا لما أفناهم بعد أن أحياهم، لأن الحكمة تقتضي أن ما يوجده الحكيم يحرص على بقائه وعدم فنائه، فما كان هذا الفناء الذي لا ريب فيه إلا فناء عارضا لاستقبال وجود أعظم من هذا الوجود وأبقى.

صفحة : 2505

وعلى هذا الوجه فوجه كون هذا الجعل لهم ظاهر لأن الآجال آجالهم. وكونه لا ريب فيه أيضا ظاهر لأنهم لا يرتابون في أن لحياتهم آجالا. وقد تضمن قوله)وجعل لهم أجلا(تعريضا بالمنة بنعمة الإمهال على كلا المعنيين وتعريضا بالتذكير بإفاضة الأرزاق عليهم في

مدة الأجل لأن في ذكر خلق السماء والأرض تذكيرا بما تحتويه السماوات والأرض من الأرزاق وأسبابها.
وجملة)فأبى الظالمون إلا كفورا(تفريع على الجملتين باعتبار ما تضمنتاه من الإنكار والتعجيب. أي علموا أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الأجسام ومع علمهم أبوا إلا كفورا. فالتفريع من تمام الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم.
واستثناء المفور من الإباية تأكيد للشيء بما يشبه ضده.
والكفور: جحود النعمة، وتقدم آنفا. واختير)الكفور(هنا تنبيها على أنهم كفروا بما يجب اعتقاده، وكفروا نعمة المنعم عليهم فعبدوا غير المنعم.
)قل لو تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا[100](اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهموا عدم حصولها دليلا على انتفاء إرسال بشير، فالكلام استئناف لتكملة رد شبهاتهم. وهذا رد لما تضمنه قولهم)حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(إلى قوله)تفجيرا(، وقولهم)أو يكون لك بيت من زخرف(من تعذر حصول ذلك لعظيم قيمته.
ومعنى الرد: أن هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء أن يظهره لكم.
وأدمج في هذا الرد بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير. وأدمج في ذلك أيضا تذكيرهم بأن الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم كل على قدر نصيبه.
وشأن)لو(أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصد بليغ: إما لقصد التقوي والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقوية؛ مثل قوله)وإن أحد من المشركين استجارك(وإما للانتقال من التقوي إلى الاختصاص، بناء على أنه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لقصد طريق غير مطروق. وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة لو غيرك قالها .
والمعنى: لو أنتم أخصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشد في التقريع وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم.

وكلا الاعتبارين لا يناكد اختصاص لو بالأفعال للاكتفاء بوقوع الفعل في حيزها غير موال إياها وموالاته إياها أمر أغلبي، ولكن لا يجوز أن يقال: لو أنت عالم لبذذت الأقران.
واختير الفعل المضارع لأن المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.
و)أمسكتم(هنا منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، لأن المقصود: إذن لاتصفتم بالإمساك، أي البخل. يقال: فلان ممسك، أي بخيل. ولا يراد أنه ممسك شيئا معينا.
وأكد جواب)لو(بزيادة حرف)إذن(فيه لتقويه معنى الجوابية، ولأن في إذن معنى الجزاء كما تقدم آنفا عند قوله)قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذن لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا(. ومنه قول بشر بن عوانة:
أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد
لقى الهزبر أخاك بسرا
إذن لرأيت ليثا أم ليثا هزبرا أغلبا
لاقى هزبرا وجملة)وكان الإنسان فتورا(حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلا لأنها عامة الحكم. فالواو فيها ليست عاطفة.
والقتور: الشديد البخل، مشتق من القتر وهو التضييق في الإنفاق.
)ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا[101] قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا[102](

صفحة : 2506

بقي قولهم)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(غير مردود عليهم، لأن له مخالفة لبقية ما اقترحوه بأنه اقتراح آية عذاب ورعب، فهو من قبيل آيات موسى عليه السلام التسع. فكان ذكر ما آتاه الله موسى من الآيات وعدم إجداء ذلك في فرعون وقومه تنظيرا لما سأله المشركون.
والمقصود: أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مثل للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول. والآيات التسع هي: بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز وهو الدمل، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات، وهي مذكورة في سورة الأعراف. وجمعها الفيروز آبادي في قوله:

عصا، سنة، بحر، جراد، وقمل يد، ودم، بعد الضفادع طوفان فقد حصلت بقوله)ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات(الحجة على المشركين الذين يقترحون الآيات.

ثم لم يزل الاعتناء في هذه السورة بالمقارنة بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة موسى عليه السلام إقامة للحجة على المشركين الذين كذبوا بالرسالة بعلة أن الذي جاءهم بشر، وللحجة على أهل الكتاب الذين ظاهروا المشركين ولقنوهم شبه الإلحاد في الرسالة المحمدية ليصفو لهم جو العلم في بلاد العرب وهم ما كانوا يحسبون لما وراء ذلك حسابا.

فالمعنى: ولقد آتينا موسى تسع آيات على رسالته.

وهذا مثل التنظير بين إيتاء موسى وإيتاء القرآن في قوله في أول السورة)وآتينا موسى الكتاب(الآيات، ثم قوله)إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(.

فتكون هذه الجملة عطفا على جملة)قل سبحان ربي كنت إلا بشرا رسولا(أو على جملة)قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي(الآية ثم انتقل من ذلك بطريقة التفريع إلى التسجيل ببني إسرائيل استشهادا بهم على المشركين، وإدماجا للتعريض بهم بأنهم ساووا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومظاهرتهم المشركين بالدس وتلقين الشبه، تذكيرا لهم بحال فرعون وقومه إذ قال له فرعون)إني لأظنك يا موسى مسحورا(.

والخطاب في قوله)فسأل(للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد: سؤال الاحتجاج بهم على المشركين لا سؤال الاسترشاد كما هو بين.

وقوله)مسحورا(ظاهره أن معناه متأثرا بالسحر، أي سحرك السحرة وأفسدوا عقلك فصرت تهرف بالكلام الباطل الدال على خلل العقل مثل الميمون والمشؤوم(. وهذا قول قاله فرعون في مقام غير الذي قال له فيه)يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره(، والذي قال فيه)أن هذا لساحر عليم(، فيكون إعراضا عن الاشتغال بالآيات وإقبالا على تطلع حال موسى فيما يقوله من غرائب الأقوال عندهم. ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنه)قال لمن حوله ألا تسمعون(. وكل تلك الأقوال صدرت من فرعون في مقامات محاوراته مع موسى عليه السلام فحكي في كل آية شيء منها.

و)إذا(ظرف متعلق ب)آتينا(. والضمير المنصوب في)جاءهم(عائد إلى بني إسرائيل. وأصل الكلام: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاء بني إسرائيل، فسألهم.

وكان فرعون تعلق ظنه بحقيقة ما أظهر من الآيات فرجح عنده أنها سحر، أو تعلق ظنه بحقيقة حال موسى فرجح عنده أنه أصابه

سحر، لأن الظن دون اليقين، قال تعالى)إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين(. وقد يستعمل الظن بمعنى العلم اليقين.
ومعنى)ولقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض(: أن فرعون لم يبق في نفسه شك في أن تلك الآيات لا تكون إلا بتسخير الله إذ لا يقدر عليها غير الله، وأنه إنما قال)وإني لأظنك يا موسى مسحورا(عنادا ومكابرة وكبرياء.
وأكد كلام موسى بلام القسم وحرف التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك. وإنما أيقن موسى بان فرعون قد علم بذلك: إما بوحي من الله أعلمه به، وإما برأي مصيب، لأن حصول العلم عند قيام البرهان الضروي حصول عقلي طبيعي لا يتخلف عن عقل سليم.
وقرأ الكسائي وحده)لقد علمت(بضم التاء ، أي أن تلك الآيات ليست بسحر كما زعمت كناية على أنه واثق من نفسه السلامة من السحر.

صفحة : 2507

والإشارة ب)هؤلاء(إلى الآيات التسع جيء لها باسم إشارة العاقل، وهو استعمال مشهور. ومنه قوله تعالى)إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا(، وقول جرير:
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش
بعد أولـئك الأيام والأكثر أن يشار ب)أولاء(إلى العاقل.
والبصائر: الحجج المفيدة للبصيرة، أي العلم، فكأنها نفس البصيرة.
وقد تقدم عند قوله تعالى)هذا بصائر من ربكم(في آخر الأعراف.
وعبر عن الله بطريق إضافة وصف الرب للسماوات والأرض تذكيرا بأن الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق.
والمثبور: الذي أصابه الثبور وهو الهلاك. وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه. وإنما جعله موسى ظنا تأدبا مع الله تعالى، أو لأنه علم ذلك باستقراء تام أفاده هلاك المعاندين للرسل، ولكنه لم يدر لعل فرعون يقلع عن ذلك وكان عنده احتمالا ضعيفا، فلذلك جعل توقع هلاك فرعون ظنا. ويجوز أن يكون الظن هنا مستعملا بمعنى اليقين كما تقدم آنفا.
وفي ذكر هذا من قصة موسى إتمام لتمثيل حال معاندي الرسالة المحمدية بحال من عاند رسالة موسى عليه السلام .

وجاء في جواب موسى عليه السلام لفرعون بمثل ما شافهه فرعون به من قوله)إني لأظنك يا موسى مسحورا(مقارعة له وإظهار لكونه لا يخافه وأنه يعامله المثل قال تعالى)فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم(.

)فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا[103] وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا[104](أكملت قصة المثل بما فيه تعريض بتمثيل الحالين إنذارا للمشركين بأن عاقبة مكرهم وكيدهم ومحاولاتهم صائرة إلى ما صار إليه مكر فرعون وكيده، ففرع على تمثيل حالي الرسالتين وحالي المرسل إليهما ذكر عاقبة الحال الممثل بها إنذارا للممثلين المصير.

فقد أضمر المشركون إخراج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من مكة، فمثلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر، قال تعالى)وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا(.

والاستفزاز: الاستخفاف، وهو كناية عن الإبعاد وتقدم عند قوله تعالى)وإن كادوا ليستفزونك من الأرض(في هذه السورة.

والمراد بمن معه جنده الذين خرجوا معه يتبعون بني إسرائيل.

والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إياها.

ووعد الآخرة ما وعد الله به الخلائق على ألسنة الرسل من البعث والحشر.

واللفيف: الجماعات المختلطون من أصناف شتى، والمعنى: حكمنا بينهم في الدنيا بغرق الكفرة وتمليك المؤمنين، وسنحكم بينهم يوم القيامة.

ومعنى)جئنا بكم(أحضرناكم لدينا. والتقدير: جئنا بكم إلينا.

)وبالحق أنزلناه وبالحق نزل(عود إلى التنويه بشأن القرآن متصل بقوله)ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا(. فلما عطف عليه)وقالوا لن نؤمن لك(الآيات إلى هنا وسمحت مناسبة ذكر تكذيب فرعون موسى عليه السلام عاد الكلام إلى التنويه بالقرآن لتلك المناسبة.

وقد وصف القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبر فيهما.

وقد ذكر فعل النزول مرتين، وذكر له في كل مرة متعلق متماثل اللفظ لكنه مختلف المعنى، فعلق إنزال الله إياه بأنه بالحق فكان معنى الحق الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب، فهو كقوله تعالى)

ذلك الكتاب لا ريب فيه(وهو رد لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحيا من عند الله.
وعلق نزول القرآن، أي بلوغه للناس بأنه بالحق فكان معنى الحق الثاني مقابل الباطل، أي مشتملا على الحق الذي به قوام صلاح الناس وفوزهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى)وقل جاء الحق وزهق الباطل(، وقوله)إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله(.
وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام.

صفحة : 2508

والباء في الموضعين للمصاحبة لأنه مشتمل على الحق والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية. ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان قوله)وبالحق نزل(مجرد تأكيد لقوله)وبالحق أنزلناه(لأنه إذا أنزل بالحق نزل به ولا ينبغي المصير إليه ما لم يتعين.
وتقديم المجرور في الموضعين على عامله للقصر ردا على المنكرين الذين ادعوا أنه أساطير الأولين أو سحر مبين أو نحو ذلك.
)وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا[105](جملة معترضة بين جملة) وبالحق أنزلناه(وجملة)وقرآنا فرقناه(. أي وفي ذلك الحق نفع وضر فأنت به مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين.
والقصر للرد على الذين سألوه أشياء من تصرفات الله تعالى والذين ظنوا أن لا يكون الرسول بشرا.
)وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا[106] (عطف على جملة)أنزلناه(.
وانتصب)قرآنا(على الحال من الضمير المنصوب في) فرقناه(مقدمة على صاحبها تنوبها الكون قرآنا، أي كونه كتابا مقروءا. فإن اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى)تلك آيات الكتاب وقرآن مبين(، وقد تقدم بيانه. فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام، ألا ترى إلى قوله تعالى)وقرآن الفجر(وقوله)فاقرأوا ما تيسر من القرآن(باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا، وإلى قوله)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا(في مقام كونه فارقا

بين الحق والباطل، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.
ومعنى)فرقناه(جعلناه فرقا، أي أنزلناه منجما مفرقا غير مجتمع صبره واحد. يقال: فرق الأشياء إذا باعد بيتها، وفرق الصبرة إذا جزأها. ويطلق الفرق على البيان لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون)فرقناه(محتملا معنى بيناه وفصلناه، وإذ قد كان قوله)قرآنا(حالا من ضمير)فرقناه(آل المعنى إلى: أنا فرقناه وأقرأناه.
وقد علل بقوله)لتقرأه على الناس على مكث(. فهما علتان: أن يقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأ على مكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه.
والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.
وجملة)ونزلناه تنزيلا(معطوفة على جملة)وقرآنا فرقناه(. وفي فعل)نزلناه(المضاعف وتأكيده بالمفعول المطلق إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله)وبالحق أنزلناه(.
وطوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله)لتقرأه على الناس على مكث(من اتحاد الحكمة. وهي ما صرح به قوله تعالى)كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا(.
ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله رعيا للأسباب والحوادث. وفي كلا الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا)لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة(.
)قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا[107] ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا[108] ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا 109](

صفحة : 2509

استئناف خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليلقنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله، فإنه بعد أن أوضح لهم الدلائل على أن مثل ذلك القرآن لا يكون إلا منزلا من عند الله من قوله)قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله(فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم بيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله)ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل(، ثم بالتعرض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثم يكشف شبهتهم التي يموهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة البشر، وبين لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثم بالأمر

بإقامة الله شهيدا بينه وبينهم، ثم بتهديدهم بعذاب الآخرة، ثم بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عجل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثم بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن، أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله)آمنوا به أو لا تؤمنوا(للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى. فالأمر في قوله)آمنوا(للتسوية، أي إن شئتم.

وجزم)لا تؤمنوا(بالعطف على المجزوم. ومثله قوله في سورة الطور)فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم، فحرف)لا(حرف نفي وليس حرف نهي، ولا يقع مع الأمر المراد به التسوية إلا كذلك، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم، ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجملة)إن الذين أوتوا العلم(تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أو تعليل لفعل)قل(، أو لكليهما، شأن العلل التي ترد بعد جمل متعددة. ولذلك فصلت. وموقع)إن(فيها موقع فاء التفريع، أي إنما كان إيمانكم بالقرآن وعدمه سواء لأنه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله. فهم أرجح منكم أحلاما وأفضل مقاما، وهم الذين أوتوا العلم، فإنهم يسمعونه ويؤمنون به ويزيدهم إيمانا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه.

وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة وأهل جاهلية.

والمراد بالذين أوتوا العلم أمثال: ورقة بن نوفل، فقد تسامع أهل مكة بشهادته للنبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن بعد نزول هذه السورة من مثل: عبد الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبار بمغيب.

وضمائر)به، ومن قبله، ويتلى(عائدة إلى القرآن. والكلام على حذف مضافا معلوم من المقام معهود الحذف، أي آمنوا بصدقه ومن قبل نزوله.

والخرور: سقوط الجسم. قال تعالى)فخر عليهم السقف من فوقهم(.

وقد تقدم في قوله)وخر موسى صعقا(في سورة الأعراف.

واللام في)للأذقان(بمعنى)على(كما في قوله تعالى)وتله للجبين(، وقول تأبط شرا:

..... صريعا لليدين وللجرذان وأصل هذه اللام أنها استعارة تبعية. استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء للدلالة على مزيد التمكن كتمكن الشيء بما هو مختص به.

والأذقان: جمع الذقن بفتح الذال وفتح القاف مجتمع اللحيين وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى.
و)سجدا(جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير)
يخرون(لبيان الغرض من هذا الخرور. وسجودهم سجود تعظيم لله عند مشاهدة آية من دلائل علمه وصدق رسله وتحقيق وعده.
وعطفت)ويقولون سبحان ربنا(على)يخرون(للإشارة إلى أنهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم. ونظيره قوله)خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم(. على أن في قولهم)سبحان ربنا(دلالة على التعجب والبهجة من تحقق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.
وجملة)إن كان وعد ربنا لمفعولا(من تمام مقولهم. وهو المقصود من القول. لأن تسبيحهم قبله تسبيح تعجب واعتبار بأنه الكتاب الموعود به وبرسوله في الكتب السابقة.
و)إن(مخففة من الثقيلة. وقد بطل عملها بسبب التخفيف. ووليها فعل من نواسخ المبتدأ جريا على الغالب في استعمال المخففة. وقرن خبر الناسخ فاللام الفارقة بين المخففة والنافية.

صفحة : 2510

والوعد باق على أصله من المصدرية. وتحقيق الوعد يستلزم تحقيق الموعود به فحصل التصديق بالوعد والموعود به.
ومعنى)مفعولا(أن الله يفعل ما جاء في وعده، أي يكونه ويحققه. وهذا السجود سجود تعظيم لله إذ حقق وعده بعد سنين طويلة.
وقوله)ويخرون للأذقان يبكون(تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بها. أعيدت الجملة تمهيدا لذكر الحال. وقد يقع التكرير مع العطف لأجل اختلاف القيود. فتكون تلك المغايرة مصححة العطف، كقول مرة بن عداء الفقعي:
فهلا أعدوني لمثلي تفاقدوا إذا الخصم أبزى ماثل الرأس أنكب
وهلا أعدوني لمثلي تفاقدوا وفي الأرض مثبوت شجاع وعقرب فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول، وأنما خروا خرورا واجدا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتماما بما صحبه من علامات الخشوع.
وذكر)يبكون(بصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

والبكاء بكاء فرح وبهجة. والبكاء: يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق.
ويزيدهم القرآن خشوعا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم.
ومن السنة سجود القارئ والمستمع له بقصد هذه الآية اقتداء بأولئك الساجدين بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلا وهو يرى أجدر بالسجود عند تلاوة القرآن.
)قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى(لا شك أن لنزول هذه الآية سببا خاصا إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز وغيرهما من الصفات الحسنى.
ثم لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة.
فأما سبب نزولها فروى الطبري والواحدي عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى)قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى(. وعليه فالاقتصار على التخيير في الدعاء بين اسم الله وبين صفة الرحمان اكتفاء، أي أو الرحيم.
وفي الكشاف: عن ابن عباس سمع أبو جهل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا الله يا رحمان. فقال أبو جهل: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر. وأخرجه ابن مردويه. وهذا أنسب بالآية لاقتصارها على اسم الله وصفة الرحمان.
وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدث حين نزول الآية التي قبلها.
والكلام رد وتعليم بان تعدد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمى، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.
و)أي(اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها)ما(الزائدة أفادت الشرط كما تفيده كيف إذا اقترنت بها ما الزائدة. ولذلك جزم الفعل بعدها وهو)تدعوا(شرطا، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء، وهو)فله الأسماء الحسنى(.
والتحقيق أن)فله الأسماء الحسنى(علة الجواب. والتقدير: أي اسم من أسمائه تعالى تدعون فلا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى وإذ المسمى واحد.

ومعنى)ادعوا الله أو ادعوا الرحمان(ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمسمى واحد. وعلى هذا التفسير قد وقع تجوز في فعل)ادعوا(مستعملا في معنى اذكروا أو سموا في دعائكم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في معنى سموا، وهو حينئذ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سموا ربكم الله أو سموه الرحمان، وحذف المفعول الأول من الفعلين وأبقي الثاني لدلالة المقام.

)ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا[110](لا شك أن لهذه الجملة اتصالا بجملة)قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان(يؤيد ما تقدم في وجه اتصال قوله)قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان(بالآيات التي قبله، فقد كان ذلك بسبب جهر النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه باسم الرحمان.

صفحة : 2511

والصلاة: تحتمل الدعاء، وتحتمل العبادة المعروفة. وقد فسرها السلف هنا بالمعنيين. ومعلوم أن من فسر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنما أراد قراءتها خاصة لأنها التي توصف بالجهر والمخافتة.

وعلى كلا الاحتمالين فقد جهر النبي صلى الله عليه وسلم بذكر الرحمان، فقال فريق من المشركين: ما الرحمان؟ وقالوا: إن محمدا يدعو إلهين، وقام فريق منهم يسب القرآن ومن جاء به، أو يسب الرحمان ظنا أنه رب آخر غير الله تعالى وغير آلهتهم، فأمر الله رسوله أن لا يجهر بدعائه أو لا يجهر بقراءة صلاته في الصلاة الجهرية.

ولعل سفهاء المشركين توهموا من صدع النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة أو بالدعاء أنه يريد بذلك التحكك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجردا عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبوا. فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنبا لما من شأنه أن يثير حفائظهم ويزيد تصلبهم في كفرهم في حين أن المقصود تليين قلوبهم.

والمقصود من الكلام النهي عن شدة الجهر.

وأما قوله تعالى)ولا تخافت بها(فالمقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سرا أو صلاته كلها سرا فلا يبلغ أسماع المتهيئين للاهتداء به، لأن المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يتوهم منه الكفار تحككا أو تطاولا كما قلنا.

والجهر: قوة صوت الناطق بالكلام.

والمخافتة مفاعلة: من حفت بكلامه، إذا أسر به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدة، أي لا تسرها.
وقوله)ذلك(إشارة إلى المذكور، أي الجهر والمخافتة المعلومين من فعلي)تجهر(و)وتخافت(أي اطلب سبيلا بين الأمرين ليحصل المقصود من إسماع الناس القرآن وينتفي توهم قصد التطاول عليهم.
)وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا[111](لما كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سدا لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهم من توهموا أن الرحمان اسم لمسمى غير مسمى اسم الله، فيعضهم توهمه إلها شريكا، ويعضهم توهمه معينا وناصرا، أمر النبي بان يقول ما يقلع ذلك كله وأن يعظمه بأنواع من التعظيم.
وجملة)الحمد لله(تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنه أعظم مستحق لأن يحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم، كما تقدم في سورة الفاتحة.
و)من(في قوله)من الذل(بمعنى لام التعليل.
والذل: العجز والافتقار، وهو ضد العز، أي ليس له ناصر من أجل الذل. والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكد، فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس. ويجوز تضمين) الولي(معنى المانع فتكون)من(لتعدية الاسم المضمن معناه.
ومعنى)كبره(اعتقد أنه كبير، أي عظيم العظم المعنوي الشامل لوجوب الوجود والغنى المطلق، وصفات الكمال كلها الكاملة التعلقات. لأن الاتصاف بذلك كله كمال، والاتصاف بأضداد ذلك نقص وصغار معنوي.
وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد لأن في هذه الصلات إيماء إلى وجه تخصيصه بالحمد.
والإتيان بالمفعول المطلق بعد)كبره(للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم. ولأن من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الكهف
سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الكهف.
روى مسلم، وأبو داود، عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف وفي رواية لمسلم: من آخر الكهف، عصم من فتنة الدجال . ورواه

الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال . قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في صحيح البخاري.
قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو، وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن .

صفحة : 2512

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماها سورة أصحاب الكهف.
وهي مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية. قال: وروي عن فرقد أن أول السورة إلى قوله)جرزا(نزل بالمدينة، قال: والأول أصح.
وقيل قوله)واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم(الآيتين نزلتا بالمدينة، وقيل قوله)أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا(إلى آخر السورة نزل بالمدينة. وكل ذلك ضعيف كما سيأتي التنبيه عليه في مواضعه.
نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.
وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.
وقد ورد في فضلها أحاديث متفاوتة أصحها الأحاديث المتقدمة وهي من السور التي نزلت جملة واحدة. روى الديلمي في سند الفردوس عن أنس قال: نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة . وقد أغفل هذا صاحب الإتقان.
وعدت آيها في عدد قراء المدينة ومكة مائة وخمسا، وفي عدد قراء الشام مائة وستا، وفي عدد قراء البصرة مائة وإحدى عشرة، وفي عد قراء الكوفة مائة وعشرا، بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين.
وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسرين، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول: أن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه. قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم

من علم الأنبياء أي صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبئ وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي. فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدا وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها . ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر يوما، فأرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين. وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح)ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(في سورة الإسراء. قال السهيلي: وفي رواية عن ابن إسحاق من غير طريق البكائي أي زياد ابن عبد الله البكائي الذي يروي عنه ابن هشام أنه قال في هذا الخبر: فناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو أي الروح جبريل . وهذا خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش: سلوه عن الروح فإن أخبركم به فليس بنبئ وإن لم يخبركم به فهو نبي اه.

وأقول: قد يجمع بين الروايتين بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أجابهم عن أمر الروح بقوله تعالى)قل الروح من أمر ربي(بحسب ما عنوه بالروح عدل بهم إلى الجواب عن أمر كان أولى لهم العلم به وهو الروح الذي تكرر ذكره في القرآن مثل قوله) نزل به الروح(الأمين وقوله)والروح فيها(وهو من ألقاب جبريل على طريقة الأسلوب الحكيم مع ما فيه من الإغاظة لليهود، لأنهم أعداء جبريل كما أشار إليه قوله تعالى)قل من كان عدوا لجبريل(الآية. ووضحه حديث عبد الله ابن سلام في قوله للنبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر جبريل عليه السلام ذاك عدو اليهود من الملائكة فلم يترك النبي صلى الله عليه وسلم لهم منفذا قد يلقون منه التشكيك على قريش إلا سده عليهم.

وقد يعترضك هنا: أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء فلم تكن مقارنة للآية النازلة في شان الفنية وشأن الرجل الطواف فماذا فرق بين الآيتين، وأن سورة الإسراء يروي أنها نزلت قبل سورة الكهف فإنها معدودة سادسة وخمسين في عداد نزول السور، وسورة الكهف معدودة ثامنة وستين في النزول. وقد يجاب عن هذا بأن آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء فإنها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله، وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطا وإطنابا ففرقت آية الروح عن القصتين.
على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمرا إلى وقت نزول سورة الكهف، فأنزل قرآن موزع عليها وعلى سورة الكهف. وهذا على أحد تأويلين في معنى كون الروح من أمر ربي كما تقدم في سورة الإسراء. والذي عليه جمهور الرواة أن آية)ويسألونك عن الروح(مكية إلا ما روي عن ابن مسعود. وقد علمت تأويله في سورة الإسراء.

فاتضح من هذا أن أهم غرض نزلت فيه سورة الكهف هو بيان قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين. وقد ذكرت أولاهما في أول السورة وذكرت الأخرى في آخرها.
كرامة قرآنية: لوضع هذه السورة على هذا الترتيب في المصحف مناسبة حسنة ألهم الله إليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رتبوا المصحف فإنها تقارب نصف المصحف إذ كان في أوائلها موضع قيل هو نصف حروف القرآن وهو التاء من قوله تعالى)لقد جئت شيئا نكرا(في أثنائها، وهو نهاية خمسة عشر جزءا من أجزاء القرآن وذلك نصف أجزائه، وهو قوله تعالى)قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا(، فجعلت هذه السورة في مكان قرابة نصف المصحف.
وهي مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن ب)الحمد لله(كما كان افتتاح النف الأول ب)الحمد لله(. وكما كان أول الربع الرابع منه تقريبا ب)الحمد لله فاطر السماوات والأرض(.

أغراض السورة
افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب.

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدا، وبشارة للمؤمنين، وتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أقوالهم حين تريث الوحي لما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.
وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تكسب النفوس تزكية.
وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.
وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.
وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.
وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيهم.
وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته. وأن الحق فيما أخبر به، وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين، ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرسل، وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله؛ ووعد المؤمنين بضدهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى. وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان في هذا الختام محسن رد العجز على الصدر.
)الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا[1] قيما(موقع الافتتاح بهذا التحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهم.

صفحة : 2514

ولما كان إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم أجزل نعماء الله تعالى على عباده المؤمنين لأنه سبب نجاتهم في حياتهم الأبدية، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة بطيب الحياة وانتظام الأحوال والسيادة على الناس، ونعمة على النبي صلى الله عليه

وسلم بأن جعله واسطة ذلك ومبلغه ومبينه؛ لأجل ذلك استحق الله تعالى أكمل الحمد إخبارا وإنشاء. وقد تقدم إفادة جملة)الحمد لله(استحقاقه أكمل الحمد في صدر سورة الفاتحة.

وهي هنا جملة خبرية. أخبر الله نبيه والمسلمين بان مستحق الحمد هو الله تعالى لا غيره. فأجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويها بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر.

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية لله تقريب لمنزلته وتنويه به بما في إنزال الكتاب عليه من رفعة قدره كما في قوله تعالى)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده(.

والكتاب: القرآن. فكل مقدار منزل من القرآن فهو)الكتاب(. فالمراد بالكتاب هنا ما وقع إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السورة، ويلحق به ما ينزل بعد هذه الآية ويزاد به مقداره.

وجملة)ولم يجعل له عوجا(معترضة بين)الكتاب(وبين الحال منه وهو)قيما(. والواو اعتراضية. ويجوز كون الجملة حالا والواو حالية.

والعوج بكسر العين وفتحها وبفتح الواو حقيقته: أنحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة. ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة.

والذي عليه المحققون من أئمة اللغة أن مكسور العين ومفتوحها سواء في الإطلاقين الحقيقي والمجازي. وقيل: المكسور العين يختص بالإطلاق المجازي وعليه درج في الكشاف. ويبطله قوله تعالى لما ذكر نسف الجبال)فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا(حيث اتفق القراء على قراءته بكسر العين . وعن ابن السكيت: أن المكسور أعم يجيء في الحقيقي والمجازي وأن المفتوح خاص بالمجازي.

والمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد.

والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم افتراه، وأساطير الأولين، وقول كاهن ، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج. قال تعالى)أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا(.

وضمير)له(عائد إلى)الكتاب(.

وإنما عدي الجعل باللام دون في لأن العوج المعنوي يناسبه حرف الاختصاص دون حرف الظرفية لأن الظرفية من علائق الأجسام، وأما معنى الاختصاص فهو أعم.

فالمعنى : أنه متصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته

وهو مقتض أنه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بأنه)لا ريب فيه(في سورة البقرة.
و)قيما(حال من)الكتاب(أو من ضميره المجرور باللام، لأنه إذا جعل حالا من أحدهما ثبت الاتصاف به للآخر إذ هما شيء واحد، فلا طائل فيما أطالوا به من الإعراب.
والقيم: صفة مبالغة من القيام المجازي الذي يطلق على دوام تعهد شيء وملازمة صلاحه، لأن التعهد يستلزم القيام لرؤية الشيء والتيقظ لأحواله، كما تقدم عند قوله تعالى)الحي القيوم(في سورة البقرة.
والمراد به هنا أنه قيم على هدي الأمة وإصلاحها، فالمراد أن كماله متعد بالنفع، فوزانه وزان وصفه بأنه)هدى للمتقين(في سورة البقرة.
والجمع بين قوله)ولم يجعل له عوجا(وقوله)قيما(كالجمع بين) لا ريب فيه(وبين)هدى للمتقين(، وليس هو تأكيدا لنفي العوج.
)لينذر بأسا شديدا من لدنه( )لينذر(متعلق ب)أنزل(. والضمير المرفوع عائد إلى اسم الجلالة، أي لينذر الله بأسا شديدا من لدنه، والمفعول الأول ل)ينذر(محذوف لقصد التعميم، أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأن المقصود المنذر به وهو البأس الشديد تهويلا له ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.

صفحة : 2515

والبأس: الشدة في الألم. ويطلق على القوة في الحرب لأنها تؤلم العدو. وقد تقدم في قوله تعالى)وللصابرين في البأساء والضراء وحين البأس(من سورة البقرة. والمراد هنا: شدة الحال في الحياة الدنيا، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن. وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى لأنه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه، فاستعمال)لدن(هنا في معنييه الحقيقي والمجازي.
وليس جعل الإنذار ببأس الدنيا علة لإنزال الكتاب ما يقتضي اقتصار علل إنزاله على ذلك، لأن الفعل الواحد قد تكون له علل كثيرة يذكر بعضها ويترك بعض.
وإنما آثرت الحمل على جعل البأس الشديد بأس الدنيا للتفضي مما يرد على إعادة فعل)وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا(كما سيأتي.

ويجوز أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنه بأس شديد، ويكون قوله)من لدنه(مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين.
ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة وبأس عذاب الدنيا، وعلى هذا درج ابن عطية والقرطبي، ويكون استعمال من)لدنه(في معنييه الحقيقي والمجازي. أما في عذاب الآخرة فظاهر، وأما عذاب الدنيا فلأن بعضه بالقتل والأسر وهما من أفعال الناس ولكن الله أمر المسلمين بهما فهما من لدنه.
وحذف مفعول)ينذر(لدلالة السياق عليه لظهور أنه ينذر الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا بالمنزل عليه، ولدلالة مقابلة عليه في قوله) ويبشر المؤمنين(.
)ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا[2] ماكثين فيه أبدا[3](عطف على قوله)لينذر بأسا(، فهو سبب آخر لإنزال الكتاب أثارته مناسبة ذكر الإنذار ليبقى الإنذار موجها غيرهم.
وقوله)أن لهم أجرا حسنا(متعلق ب)يبشر(بحذف حرف الجر مع)أن(أي بأن لهم أجرا حسنا. وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أن استحقاق ذلك الأجر بحصول ذلك لأمرين. ولا يتعرض القرآن في الغالب لحالة حصول الإيمان مع شيء من الأعمال الصالحة كثير أو قليل، ولحكمه أدلة كثيرة.
والمكث: الاستقرار في المكان، شبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حاله للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين، فليس قوله)أبدا(بتأكيد لمعنى)ماكثين(بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام.
)وينذر الذين اتخذ الله ولدا[4] ما لهم به من علم ولا لآبائهم(تعليل آخر لإنزال الكتاب على عبده، جعل تاليا لقوله)لينذر بأسا شديدا من لدنه(باعتبار أن المراد هنا إنذار مخصوص مقابل لما بشر به المؤمنين. وهذا إنذار بجزاء خالدين فيه وهو عذاب الآخرة، فإن جريت على تخصيص البأس في قوله)بأسا شديدا(بعذاب الدنيا كما تقدم كان هذا الإنذار مغايرا لما قبله، وإن جريت على شمول البأس للعذابين كانت إعادة فعل)ينذر(تأكيدا، فكان عطفه باعتبار إن لمفعوله صفة زائدة على معنى مفعول فعل)ينذر(السابق يعرف بها الفريق المنذرون بكلا الإنذارين. وهو يومئ إلى المنذرين المحذوف في قوله)لينذر بأسا شديدا(ويغني عن ذكره. وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها، وقد حذف هنا المنذر به اعتمادا على مقابله المبشر به.
والمراد ب)الذين قالوا أتخذ الله ولدا(هنا المشركون الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأن

عيسى ابن الله تعالى، لأن القرآن المكي ما تعرض للرد على أهل الكتاب مع تأهلهم للدخول في العموم لاتحاد السبب.
والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنهم قد عرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم بهذه المقالة، وإيماء إلى أنهم استحقوا ما أنذروا به لأجلها ولغيرها، فمضمون الصلة من موجبات ما أنذروا به لأن العلل تتعدد.
والولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدم في قوله)قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه(في سورة يونس.
وجملة)ما لهم به من علم(حال من)الذين قالوا(. والضمير المجرور بالباء عائد إلى القول المفهوم من)قالوا(.

صفحة : 2516

و)من(لتوكيد النفي. وفائدة ذكر هذه الحال أنها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة، فأطلق العلم على سبب العلم كما دل عليه قوله تعالى)ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه(.
وضمير)به(عائد على مصدر مأخوذ من فعل)قالوا(، أي ما لهم بذلك القول من علم.
وعطف)ولا لآبائهم(لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون(، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلدوهم.
)كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا[5](استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع.
ووجه فصل الجملة أنها مخالفة للتي قبلها بالإنشائية المخالفة للخبرية.
وفعل)كبرت(بضم الباء . أصله: الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازا في الشدة والقوة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام. ودل على قصد التعجب منها انتصاب)كلمة(على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنه تمييز نسبة التعجب، ومن أجل هذا مثلوا بهذه الآية لورود فعل الأصلي والمحول لمعنى المدح والذم في معنى نعم وبئس بحسب المقام.
والضمير في قوله)كبرت(يرجع إلى الكلمة التي دل عليها التمييز.

وأطلقت الكلمة على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى) إنها كلمة هو قائلها(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وجملة)تخرج من أفواههم(صفة ل)كلمة(مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخيلا لفظاعتها. وفيه إيماء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه، لأنه لاستحالة تتلقاه وتنطق به أفواههم وتسمعه أسماعهم ولا تعقله عقولهم لأن المحال لا يعتقده العقل ولكنه يتلقاه المقلد دون تأمل.

والأفواه: جمع فم بوزن أفعال، لأن أصل فم فوه بفتحتين بوزن جمل، أو فيه بوزن ريح، فحذفت الهاء من آخره لثقلها مع قلة الكلمة بحيث لا يجد الناطق حرفا يعتمد عليه لسانه، ولأن ما قبلها حرف ثقيل وهو الواو المتحركة فلما بقيت الكلمة مختومة بواو متحركة أبدلت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار)فا(ولا يكون اسم على حرفين أحدهما تنوين، فأبدلت الألف المنونة بحرف صحيح وهو الميم لأنها تشابه الواو التي هي الأصل في الكلمة لأنهما شفهيتان فصار فم ولما جمعوه ردوه إلى أصله.

وجملة)أن يقولون إلا كذبا(مؤكدة لمضمون جملة)تخرج من أفواههم(لأن الشيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقق له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب، أي تخرج من أفواههم خروج الكذب، فما قولهم ذلك إلا كذب، أي ليست له صفة إلا صفة الكذب.

هذا إذا جعل القول المأخوذ من)يقولون(خصوص قولهم)اتخذ الله ولدا(. ولك أن تحمل)تقولون(على العموم في سياق النذفي، أي يصدر منهم قول إلا الكذب، فيكون قصرا إضافيا، أي ما يقولونه في القرآن والإسلام، أو ما يقولونه من معتقداتهم المخالف لما جاء به الإسلام فتكون جملة إن)يقولون(تذييلا.

)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا[6](تفريع على جملة)وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا(باعتبارهم مكذبين كافرين بقرينة الذين قالوا اتخذ الله ولدا(.

و)لعل(حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقع، وتستعمل في الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل لأنهما لازمان الأمر المكروه.

وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول)عليه الصلاة والسلام(من الاغتمام والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه. وذلك في معنى التسلية لقلة الاكتراث بهم.

والباخع: قاتل نفسه، كذا فسره ابن عباس ومجاهد والسدي وابن جبير. وفسره البخاري بمهلك. وتفسيره يرجع إلى أبي عبيدة.

صفحة : 2517

وفي اشتقاقه خلاف، فقيل مشتق البخاع بالباء الموحدة بوزن كتاب وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البخاع فذلك أعمق الذبح، قاله الزمخشري في قوله تعالى)لعلك باخع نفسك(في سورة الشعراء. وانفرد الزمخشري بذكر هذا الاشتقاق في الكشاف والفائق والأساس. قال ابن الأثير في النهاية: بحثت في كتب اللغة والطب فلم أجد البخاع بالموحدة يعني أن الزمخشري انفرد بهذا الاشتقاق وبإثبات البخاع اسما لهذا العرق. قلت: كفى بالزمخشري حجة فيما أثبته. وقد تبعه عليه المطرزي في المغرب وصاحب القاموس. فالبخع: أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ.

والآثارة: جمع أثر وهو ما يؤثره، أي يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطئ أقدامه وأخفاف راحلته. والأثر أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحلوا عنها من تافه آلاتهم التي كانوا يعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرماد.

وحرف)على(للاستعلاء المجازي فيجوز أن يكون المعنى: لعلك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يعرض السائر عن المكان الذي كان فيه. فتكون)على(للتعليل.

ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وسلم في شدة حرصه على اتباع قومه له وفي غمه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم. ويكون حرف)على(مستقرا في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى)على(الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سبق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر أوقات رجائه في إيمانهم إلى أنهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة لنفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم رأفة من ربه، ولذلك قال)إن لم يؤمنوا بهذا الحديث(بصيغة الفعل المضارع المقتضية الحصول في المستقبل، أي إن استمر عدم إيمانهم.

واسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبين بأنه الحديث.

والحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمن أخبارا وقصصا. سمي الحديث حديثا باعتبار اشتماله على الأمر الحديث، أي الذي حدث وجد، أي الأخبار المستجدة التي لا يعلمها المخاطب، فالحديث فعيل بمعنى مفعول. وانظر ما يأتي عند قوله تعالى)الله نزل أحسن الحديث(في سورة الزمر.

و)أسفا(مفعول له من)باخع نفسك(أي قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين، ولا جواب له للاستغناء عن الجواب بما قبل الشرط.

)إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا[7] وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا[8](مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية أعوز المفسرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت.

والذي يبدوا: أنها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على إعراض المشركين بأن الله أمهلهم وأعطاهم الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فأن الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام .

ولهذا اتصال بقوله)لينذر بأسا شديدا من لدنه(.

وموقع)إن(صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى)فلعلك باخع نفسك على آثارهم(.

ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة الناس وموتهم، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلها عبر لمن يعتبر بالتغير ويأخذ إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب.

وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعلقهم، كما قال تعالى)أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت(، وقال)وفي الأرض آيات للموقنين(.

صفحة : 2518

وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإن الإخبار

عن خلق ما على الأرض زينة يجمع الامتنان على الناس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف. والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(، وقال)زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث(.

ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها. وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها وإن كان الزوال يعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاص أخرى من نوعها. فيتضمن هذا امتنانا ببث الحياة في الموجودات الأرضية.

ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موف بحق الشكر، ومقصر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إياها إلى غير موجدها. ومن لوازمها أيضا أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها فتستشار من ذلك مختلف الكيفيات في تناولها وتعارض الشهوات في الاستيثار بها مما يفضي إلى تغالب الناس بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض. وذلك الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط لهم أحوال معاملاتهم، ولذلك علل جعل ما على الأرض زينة بقوله)لنبلوهم أيهم أحسن عملا(، أي أفوت في حسن من عمل القلب الراجع إلى الإيمان والكفر، وعمل الجسد المتبدي في الامتثال للحق والحيدة عنه.

فمجموع الناس متفاوتون في حسن العمل. ومن درجات التفاوت في هذا الحسن تعلم بطريق الفحوى درجة انعدام الحسن من أصله وهي حالة الكفر وسوء العمل، كما جاء في حديث مثل المنافق الذي يقرأ القرآن ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن .

والبلو: الاختبار والتجربة. وقد تقدم عند قوله تعالى)هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت(في سورة يونس. وهو هنا مستعار لتعلق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء قبل وقوعه فهو مستغن عن الاختبار والتجربة. وفائدة هذه الاستعارة الانتقال منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكل الناس حتى لا يلتبس عليهم الصالح بضده. وهو كقول قيس بن الخطيم:

واقبلت والخطى يخطر بيننـا لأعلم

من جبانها من شجاعها وقوله)وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا(تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم. فقوله)جاعلون(اسم فاعل مراد به االمستقبل، أي سنجعل ما على الأرض كله معدوما فلا

يكون على الأرض إلا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم، قال تعالى)يوم تبدل الأرض غير الأرض(.
والصعيد: التراب. والجرز: القاحل الأجود. وسيأتي بيان معنى الصعيد عند قوله)فتصبح صعيدا زلقا(في هذه السورة.
)أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا[9]( )أم(للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض. ولما كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضابا بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدمة إلى المقصود.
على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا(، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.
و)أم(هذه هي)أم(المنقطعة بمعنى)بل(، وهي ملازمة لتقدير الاستفهام معها. يقدر بعدها حرف استفهام، وقد يكون ظاهرا بعدها كقول أفنون التغلبي:
أني جزوا عامرا سوءا بضـعـتـه أم
كيف يجزونني السوأى عن الحسن والاستفهام المقدر بعد)أم(تعجيبي مثل الذي في البيت.

صفحة : 2519

والتقدير هنا: أحسبت أن أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا،أي أعجب من بقية آياتنا، فإن إماتة الأحياء بعد حياتهم من عجب إنامة أهل الكهف، لأن في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنهم كانوا يعرضون عن ذكر فناء العالم ويقولون)ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر(. أي إن الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأن الدهر يهلكنا وهو باق.
وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله)إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشدا(، فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله)وإنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم

هدى(الآيات.. الدال على أنهم أبطلوا الشرك وسفهوا أهله تعريضا بأن حق السامعين أن يقتدوا بهداهم.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد: قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلب بيانها. ويظهر أن الذين لقنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى الذين لهم صلة بأهل مكة من التجار الواردين إلى مكة، أو من الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكة إلى الشام وهي رحلة الصيف. ومحل التعجب هو قوله)من آياتنا(، أي من بين آياتنا الكثيرة المشاهدة لهم وهم لا يتعجبون منها ويقصرون تعجبهم على أمثال هذه الخوارق، فيؤول المعنى إلى أن أهل الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة منها ما هو أعجب من حال أهل الكهف ومنها ما يساويها.
فمعنى)من(في قوله)من آياتنا(التبعيض، أي ليست قصة أهل الكهف منفردة بالعجب من بين الآيات الأخرى، كما تقول: سأل فلانا فهو العالم منا، أي المنفرد بالعلم من بيننا.
ولك أن تجعلها للظرفية المجازية، أي كانوا عجبا في آياتنا، أي وبقية الآيات ليست عجبا. وهذا نداء على سوء نظرهم إذ يعلقون اهتمامهم بأشياء نادرة وبين يديهم من الأشياء ما هو أجدر بالاهتمام.
وأخبر عن أصحاب الكهف بالعجب وإنما العجب حالهم في قومهم، فثم مضاف محذوف يدل عليه الكلام.
وأخبر عن حالهم بالمصدر مبالغة، والمراد عجيب.
والكهف: الشق المتسع الوسط في جبل، فإن لم يكن متسعا فهو غار.
والرقيم: فعيل بمعنى مفعول من الرقم وهو الكتابة. فالرقيم كتاب كان مع أصحاب الكهف في كهفهم. قيل: كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التوحيد، وقيل: هو كتاب دينهم، دين كان قبل عيسى عليه السلام ، وقيل: هو دين عيسى، وقيل: كتبوا فيه الباعث الذي بعثهم على الالتجاء إلى الكهف فرارا من كفر قومهم.
وابتدأ القرآن من قصتهم بمحل العبرة الصادقة والقدوة الصالحة منها، وهو التجاؤهم إلى ربهم واستجابته لهم.
وقد أشارت الآية إلى قصة نفر من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحق في وقت شيوع الكفر والباطل فانزووا إلى الخلوة تجنبا لمخالطة أهل الكفر فأووا إلى كهف استقروا فيه فرارا من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نوما بقوا فيه مدة طويلة ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم. وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء

إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البلى كرامة لهم.
وقد عرف الناس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا رقيمهم، ولذلك اختلفوا في شأنهم، فمنهم من يثبت وقوع قصتهم ومنهم من ينفيها.
ولما كانت معاني الآيات لا تتضح إلا بمعرفة ما أشارت إليه من قصة أهل الكهف تعين أن نذكر ما صح عند أعلام المؤرخين على ما فيه من اختلاف. وقد ذكر ابن عطية ملخصا في ذلك دون تعريج على ما هو من زيادات المبالغين والقصاص.

صفحة : 2520

والذي ذكره الأكثر أن في بلد يقال له أبسس بفتح الهمزة وسكون الموحدة وضم السين بعدها سين أخرى مهملة وكان بلدا من ثغور طرطوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية.
وليست هي أفسس بالفاء أخت القاف المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها فإنها من بلاد اليونان وإلى أهلها كتب بولس رسالته المشهور. وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين. وهي قريبة من مرعش من بلاد أرمينية، وكانت الديانة النرانية دخلت في تلك الجهات، وكان الغالب عليها دين عبادة الأصنام على الطريقة الرومية الشرقية قبل تنصر قسطنطين، فكان من أهل أبسس نفر من صالحي النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وكانوا في زمن الامبراطور دوقيوس ويقال دقيانوس الذي ملك في حدود سنة 237. وكان ملكه سنة واحدة. وكان متعصبا للديانة الرومانية وشديد البغض للنصرانية، فأظهر كراهية الديانة الرومانية. وتوعدهم دوقيوس بالتعذيب، فاتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة فرسخان يقال له بنجلوس فيه كهف أووا إليه وانفردوا فيه بعبادة الله. ولما بلغ خبر فرارهم مسامع الملك وأنهم أووا إلى الكهف أرسل وراءهم فألقى الله عليهم نومة فظنهم أتباع الملك أمواتا. وقد قيل: إنه أمر أن تسد فوهة كهفهم بحائط، ولكن ذلك لم يتم فيما يظهر لأنه لو بني على فوهة كهفهم حائط لما أمكن خروج من انبعث منهم. ولعل الذي حال دون تنفيذ ما أمر به الملك أن مدته لم تطل في الملك إذ لم تزد مدته على عام واحد، وقد بقوا في رقدتهم مدة طويلة قربها ابن العبري بمائتين وأربعين سنة، وكان انبعاثهم في مدة ملك ثاوذ وسيوس قيصر الصغير، وذكر القرآن أنها ثلاثمائة سنة.

ثم إن الله جعلهم آية لأنفسهم وللناس فيبعثهم من مرقدهم ولم يعلموا مدة مكثهم وأرسلوا أحدهم إلى المدينة. وهي أبسس . بدراهم ليشتري لهم طعاما. تعجب الناس من هيئته ومن دراهمه وعجب هو مما رأى من تغيير الأحوال. وتسامع أهل المدينة بأمرهم، فخرج قيصر الصغير مع أساقفة وقسيسين وبطارقة إلى الكهف فنظروا إليهم وكلموهم وآمنوا بآيتهم، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم. وكانت آية تأيد بها دين المسيح.

والذي في كتاب الطبري أن الذين ذهبوا إلى مشاهدة أصحاب الكهف هم رئيسا المدينة أريوس و أطيوس ومن معهما من أهل المدينة، وقيل لما شاهدهم الناس كتب واليا المدينة إلى ملك الروم. فحضر وشاهدهم وأمر بأن يبنى عليهم مسجد. ولم يذكروا هل نفذ بناء المسجد أو لم ينفذ. ولم يذكر أنه وقع العثور على هذا الكهف بعد ذلك. ولعله قد انسد بحادث زلزال أو نحوه كرامة من الله لأصحابه. وإن كانت الأخبار الزائفة عن تعيينه في مواضع من بلدان المسلمين من أقطار الأرض كثيرة. وفي جنوب القطر التونسي موضع يدعى أنه الكهف. وفي مواضع أخرى من بادية القطر مشاهد يسمونها السبعة الرقود اعتقادا بأن أهل الكهف كانوا سبعة. وستعلم مثار هذه التوهمات.

وفي تفسير الآلوسي عن ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزو المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف. فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك من هو خير منك، فقال: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالا وقال: اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا. فذهبوا فلما دخلوه بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم. وروى عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عكرمة: أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام. فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف. فقال ابن عباس: لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة.

وفي تفسير الفخر عن القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم: أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف، فسافر إلى الروم فوجه ملك الروم معه أقواما إلى الموضع الذي يقال إنهم فيه، قال: وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعني من الدخول عليهم، قال: فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم، قال: وعرفت أنه تمويه واحتيال، وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره اه.

وقوله)فسافر إلى الروم(مبني على اعتقادهم أن الكهف كان حول مدينة أفسوس بالفاء أخت القاف وهو وهم حصل من تشابه اسمي البلدين كما نبهنا عليه آنفا، فإن بلد أفسس في زمن الواثق لا تزال في حكم قياصرة الروم بالقسطنطينية، ولذلك قال بعض المؤرخين: إن قيصر الروم لما بلغته بعثة الجماعة الذين وجههم الخليفة الواثق، أمر بأن يجعل دليل في رفقة البعثة ليسهل لهم ما يحتاجونه. أما مدينة أبسس بالباء الموحدة فقد كانت حينئذ من جملة مملكة الإسلام.

قال ابن عطية: وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إثارة، ويزعم الناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة، وهم بهذه الحال وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم كأنه قصر محلق كذا بحاء مهملة لعله بمعنى مستدير كالحلقة وقد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض حزنة، وبأعلى حضرة أغرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب في قبورها ونحوها اه.

وقصة أهل الكهف لها اتصال بتاريخ طور كبير من أطوار ظهور الأديان الحق، وبخاصة طور انتشار النصرانية في الأرض.

وللكهوف ذكر شائع في اللوذ إليها والدفن بها.

وقد كان المتنصرون يضطهدون في البلاد فكانوا يفرون من المدن والقرى إلى الكهوف يتخذونها مساكن فإذا مات أحدهم دفن هنالك. وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبدون فيها. ولذلك يوجد في رومية كهف عظيم من هذه الكهوف اتخذه النصارى لأنفسهم هنالك، وكانوا كثيرا ما يستصحبون معهم كلبا ليدفع عنهم الوحوش من ذئاب ونحوها. وما الكهف الذي ذكره ابن عطية إلا واحد من هذه الكهوف.

غير أن ما ذكر في سبب نزول السورة من علم اليهود بأهل الكهف، وجعلهم العلم بأمرهم أمارة على نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم يبعد أن يكون أهل الكهف هؤلاء من أهل الدين المسيحي فإن اليهود يتجافون عن كل خبر فيه ذكر للمسيحية. فيحتمل أن بعض اليهود أووا إلى بعض الكهوف في الاضطهادات

التي أصابت اليهود وكانوا يأوون إلى الكهوف. ويوجد مكان بأرض سكرة قرب المرسى من أحواز تونس فيه كهوف صناعية حقق لي بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس أنها كانت مخابئ لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين لهم.

ويجوز أن يكون لأهل كلتا الملتين اليهودية والنصرانية خبرا عن قوم من صالحيهم عرفوا بأهل الكهف أو كانوا جماعة واحدة ادعى أهل كلتا الملتين خبرها لصالحي ملته. وبني على ذلك اختلاف في تسمية البلاد التي كان بها كهفهم.

قال السهيلي في الروض الأنف: وأصحاب الكهف من أمة عجمية والنصارى يعرفون حديثهم ويؤرخون به اه. وقد تقدم طرف من هذا عند تفسير قوله تعالى)ويسألونك عن الروح(في سورة الإسراء.

)إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا[10]( )إذ(ظرف مضاف إلى الجملة بعده. وهو متعلق ب)كانوا(فتكون هذه الجملة متصلة بالتي قبلها.

ويجوز كون الظرف متعلقا بفعل محذوف تقديره: اذكر، فتكون مستأنفة استئنافا بيانيا للجملة التي قبلها. وأيا ما كان فالمقصود إجمال قصتهم ابتداء، تنبيها على أن قصتهم ليست أعجب آيات الله. مع التنبيه على أن ما أكرمهم الله به من العناية إنما كان تأييدا لهم لأجل إيمانهم. فلذلك عطف عليه قوله)فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة(.

وأوى أويا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدم عند قوله تعالى)أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون(في سورة يونس.

صفحة : 2522

والفتنة: جمع قلة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدم عند قوله تعالى في سورة يوسف. والمراد بالفتية: أصحاب الكهف. وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السن. وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحق، ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل: أذ أووا إلى الكهف.

ودلت الفاء في جملة)فقالوا(على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله.

ودعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، أي أن يمن عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي أمر به، فزيادة)من لدنك(للتعلق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأن في من معنى الابتداء وفي)لدن(معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة، ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألما، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين.

ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناواة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشي.

و)من(في قوله)من أمرنا(ابتدائية.

والأمر هنا: الشأن والحال الذي يكونون فيه، وهو مجموع الإيمان والاعتصام إلى محل العزلة عن أهل الشرك. وقد أعد الله لهم من الأحوال ما به رشدهم. فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم. وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة، وأن أنامهم نوما طويلا ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحق وشاهدوه منصورا متبعا. وجعلهم آية للناس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث.

والرشد بفتحتين : الخير وإصابة الحق والنفع والصلاح، وقد تكرر في سورة الجن باختلاف هذه المعاني. والرشد بضم الراء وسكون الشين مرادف الرشد. وغلب في حسن تدبير المال. ولم يقرأ هذا اللفظ هنا في القراءات المشهورة إلا بفتح الراء بخلاف قوله تعالى)قد تبين الرشد من الغي(في البقرة. وقوله)فإن آنستم منهم رشدا(في سورة النساء فلم يقرأ فيهما إلا بضم الراء .

ووجه إيثار مفتوح الراء والشين في هذه السورة في هذا الموضع وفي قوله الآتي)وقل عسى أن يهدني ربي لأقرب من هذا رشدا(: أن تحريك الحرفين فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل. ألا ترى أن الجمهور قرأوا قوله في هذه السورة)على أن تعلمني مما علمت رشدا(بضم الراء لأنه أنسب بالقرائن المجاورة له وهي)من لدنا علما معي صبرا ما لم تحط به خبرا ولا أعصي لك أمرا(إلى آخره. ولم يقرأه هنالك بفتح الراء والشين إلا أبو عمرو ويعقوب.

)فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا[11] ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا[12](تفريع هذه الجملة بالفاء

إما على جملة دعائهم، فيؤذن بأن مضمونها استجابة دعوتهم، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم. بأن سلمهم من التعذيب بأيدي أعدائهم. وأيد بذلك أنهم على الحق. وأرة الناس ذلك بعد زمن طويل.
وإما على جملة)إذ أوى الفتية(الخ فيؤذن بأن الله عجل لهم حصول ما قصدوه مما لم يكن في حسبانهم.
والضرب: هنا بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى) ضربت عليهم الذلة(، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى)إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما(.
وحذف مفعول)ضربنا(لظهوره. أي ضربنا على آذانهم غشاوة أو حائر عن السمع، كما يقال: بنى على امرأته، تقديره: بنى بيتا.
والضرب على الآذان كناية عن الإنامة لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم، بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان.
وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.

صفحة : 2523

و)عددا(نعت)سنين(. والعدد: مستعمل في الكثرة، أي سنين ذات عدد كثير. ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد تريد الكثيرة. وقد أجمل العدد هنا تبعا لإجمال القصة.
والبعث: هنا الإيقاظ، أي أيقظناهم من نومتهم يقظة مفزوع. كما يبعث البعير من مبركه. وحسن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصة إثبات البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن في هذه الإفاقة دليلا على إمكان البهث وكيفيته.
والحزب: الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد. فالحزبان فريقان: أحدهما مصيب والآخر مخطئ في عد الأمد الذي مضى عليهم.
فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم على أنه المشار إليه بقوله تعالى)قال قائل منهم كم لبثتم(. وفي هذا بعد من لفظ حزب إذ كان القائل واحدا والآخرون شاكين، وبعيد أيضا من فعل) أحصى(لأن أهل الكهف ما قصدوا الإحصاء لمدة لبثهم عند إفاقتهم بل خالوها زمنا قليلا. فالوجه: أن المراد بالحزبين حزبان من الناس أهل بلدهم اختلفت أقوالهم في مدة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم. أحد الفريقين مصيب والآخر مخطيء، والله يعلم

المصيب منهم والمخطئ. فهما فريقان في جانبي صواب وخطإ كما دل عليه قوله)أحصى(.

ولا ينبغي تفسير الحزبين بأنهما حزبان من أهل الكهف الذين قال الله فيهم)قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم(الآية.

وجعل حصول علم الله بحال الحزبين علة لبعثه إياهم كناية عن حصول الاختلاف في تقدير مدتهم فإنهم إذا اختلفوا علم الله اختلافهم علم الواقعات، وهو تعلق للعلم يصح أن يطلق عليه تنجيزي وإن لم يقع ذلك عند علماء الكلام.

وقد تقدم عند قوله تعالى)لنبلوهم أيهم أحسن عملا(في أول السورة.

و)أحصى(يحتمل أن يكون فعلا ماضيا، أن يكون اسم تفضيل مصوغا من الرباعي على خلاف القياس. واختار الزمخشري في الكشاف تبعا لأبي علي الفارسي الأول تجنبا لصوغ اسم التفضيل على غير قياس لقلته. واختار الزجاج الثاني. ومع كون صوغ اسم التفضيل من غير الثلاثي ليس قياسا فهو كثير في الكلام الفصيح وفي القرآن.

فالوجه، أن)أحصى(اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة. والمعنى: لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاء. أي عدا بأن يكون هو الموافق للواقع ونفس الأمر ويكون ما عداه تقريبا ورجما بالغيب وذلك هو ما فصله قوله تعالى)سيقولون ثلاثة(الآية.

ف)أي(اسم استفهام مبتدأ وهو معلق لفعل)لنعلم(عن العمل،) وأحصى(خبر عن)أي(و)أمدا(تمييز لاسم التفضيل تمييز نسبة، أي نسبة التفضيل إلى موصوفه كما في قوله)أنا أكثر منك مالا(. ولا يريبك أنه لا يتضح أن يكون هذا التمييز محولا عن الفاعل لأنه لا يستقيم أن تقول: أفضل أمده. إذ التحويل أمر تقديري يقصد منه التقريب.

والمعنى: ليظهر اضطراب الناس في ضبط تواريخ الحوادث واختلال حرصهم وتخمينهم إذا تصدوا لها، ويعلم تفريط كثير من الناس في تحديد الحوادث وتاريخها، وكلا الحالين يمت إلى الآخر بصلة.

)نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى[13] وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا[14](لما اقتضى قوله)لنعلم أي الحزبين أحصى(أن في نبأ أهل الكهف تخرصات ورجما بالغيب أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم، من أصل وجود القصة إلى تفاصيلها من مخبر لا يشك في

صدق خبره كانت جملة)نحن نقص عليك نبأهم بالحق(استئنافا بيانيا لجملة)لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا(.
وهذا شروع في مجمل القصة والاهتمام بمواضع العبرة منها. وقدم منها ما فيه وصف ثباتهم على الإيمان ومنابذتهم قومهم الكفرة ودخولهم الكهف.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة)نحن نقص عليك(يفيد الاختصاص، أي نحن لا غيرنا يقص قصصهم بالحق.
والحق: هنا الصدق. والصدق من أنواع الحق، ومنه قوله تعالى) حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق(في سورة الأعراف.

والباء للملابسة، أي القصص المصاحب للصدق لا للتخرصات.
والقصص: سرد خبر طويل فالإخبار بمخاطبة مفرقة ليس بقصص وتقدم في طالع سورة يوسف.
والنبأ: الخبر الذي فيه أهمية وله شأن.
وجملة)إنهم فتية(مبينة للقصص والنبأ. وافتتاح الجملة بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار.
وزيادة الهدى يجوز أن يكون تقوية هدى الإيمان المعلوم من قوله)آمنوا بربهم(بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات، فكل ذلك هدى زائد على هدى الإيمان.
ويجوز أن تكون تقوية فضل الإيمان بفضل التقوى كما في قوله تعالى)والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم(.
والزيادة: وفرة مقدار شيء مخصوص، مثل وفرة عدد المعدود، ووزن الموزون، ووفرة سكان المدينة.
وفعل)زاد(يكون قاصرا مثل قوله تعالى)وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون(. ويكون متعديا كقوله)فزادهم الله مرضا(. وتستعار الزيادة لقوة الوصف كما هنا.
والربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردد فيه. فلما شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت على عقده. كما قال تعالى)لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين(. ومنه قولهم: هو رابط الجأش. وفي ضده يقال: اضطرب قلبه. وقال تعالى)وبلغت القلوب الحناجر(. استعير الاضطراب ونحوه للتردد والشك في حصول شيء.
وتعدية فعل)ربطنا(بحرف الاستعلاء للمبالغة في الشد لأن حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكن من الفعل.

و)إذ قاموا(ظرف للربط، أي كان الربط في وقت في قيامهم. أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارنا لربط الله على قلوبهم، أي لولا ذلك لما أقدموا على مثل ذلك العمل وذلك القول.

والقيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك. ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجسر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما، كقول النابغة:

بأن حصنا وحيا من بنـي أسـد قاموا

فقالوا حمانا غير مقروب فليس في ذلك قيام بعد قعود بل قد يكونون قالوه وهم قعود.

وعرفوا الله بطريق الإضافة إلى ضميرهم: إما لأنهم عرفوا من قبل بأنهم عبدوا الله المنزه عن الجسم وخصائص المحدثات، وإما لأن الله لم يكن معروفا باسم علم عند أولئك المشركين الذين يزعمون أن رب الأرباب هو جوبتير الممثل في كوكب المشتري، فلم يكن طريق لتعريفهم الإله الحق إلا طريق الإضافة. وقريب منه ما حكاه الله عن قول موسى لفرعون بقوله تعالى)قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين(.

وهذا إن كان القول مسوقا إلى قومهم المشركين قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وإظهار عدم الاكتراث بتهديد الملك وقومه، فيكون موقفهم هذا كموقف بني إسرائيل حين قالوا لفرعون)لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون(أو قصدوا به موعظة قومهم بدون مواجهة خطابهم استنزالا لطائرهم على طريقة التعريض من باب إياك أعني فاسمعي يا جارة . واستقصاء لتبليغ الحق إليهم. وهذا هو الأظهر لحمل القيام على حقيقته، ولأن القول نسب إلى ضمير جمعهم دون بعضهم. بخلاف الإسناد في قوله)قال قائل منهم كم لبثتم(تقتضي أن يكون المقول له ذلك فريقا آخر، ولظهور قصد الاحتجاج من مقالهم. ويكون قوله)رب السماوات والأرض(خبر المبتدأ إعلاما لقومهم بهذه الحقيقة وتكون جملة)لن ندعو(استئنافا. وإن كان هذا القول قد جرى بينهم في خاصتهم تمهيدا لقوله)وإذ اعتزلتموهم(الخ. فالتعريف بالإضافة لأنها أخطر طريق بينهم، ولأنها تتضمن تشريفا لأنفسهم. ويكون قوله)رب السماوات والأرض(صفة كاشفة، وجملة)لن ندعو من دونه إلها(خبر المبتدأ.

وذكروا الدعاء دون العبادة لأن الدعاء يشمل الأقوال كلها من إجراء وصف الإلهية على غير الله ومن نداء غير الله عند السؤال.

وجملة)لقد قلنا إذن شططا(استئناف بياني لما أفاده توكيد النفي ب لن . وإن وجود حرف الجواب في خلال الجملة بنادي على كونها متفرعة على التي قبلها. واللام للقسم.

صفحة : 2525

والشطط: الإفراط في مخالفة الحق والصواب. وهو مشتق من الشط، وهو البعد عن الموطن لما في البعد عنه من كراهية النفوس، فاستعير للإفراط في شيء مكروه، أي لقد قلنا قولا شططا، وهو نسبة الإلهية إلى من دون الله.
)هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا[15](استئناف بياني لما اقتضته جملة)لقد قلنا إذن شططا(إذ يثور في نفس السامع أن يتساءل عمن يقول هذا الشطط إن كان في السامعين من لا يعلم ذلك أو بتنويل غير السائل منزلة السائل.
وهذه الجملة من بقية كلام الفتية كما اقتضاه ضمير قوله) دونه(العائد إلى)ربنا(.
والإشارة إلى قومهم ب)هؤلاء(لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم. وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجب من حالهم وتفضيح صنعهم. وهو من لوازم قصد التمييز.
وجملة)اتخذوا(خبر عن اسم الإشارة، وهو خبر مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين، فليس الإخبار به بمفيد فائدة الخبر.
ومعنى)من دونه(من غيره، و)من(ابتدائية، أي آلهة ناشئة من غير الله، وكان قومهم يومئذ يعبدون الأصنام على عقيدة الروم ولا يؤمنون بالله.
وجملة)لولا يأتون عليهم بسلطان بين(مؤكدة للجملة التي قبلها باعتبار أنها مستعملة في الإنكار، لأن مضمون هذه الجملة يقوي الإنكار عليهم.
و)لولا(حرف تحضيض. حقيقته: الحث على تحصيل مدخولها. ولما كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذرا بقرينة أنهم أنكروه عليهم انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط، أي اتخذوا آلهة من دون الله لا برهان على إلهيتهم.
ومعنى)عليهم(على آلهتهم، بقرينة قوله)اتخذوا من دونه آلهة(.
والسلطان: الحجة والبرهان.

والبين: الواضح الدلالة. ومعنى الكلام: إذ لم يأتوا بسلطان على ذلك فقد أقاموا اعتقادهم على الكذب والخطأ، ولذلك فرع عليه جملة) فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا(.

و)من(استفهامية، وهو إنكار، أي لا أظلم ممن افترى. والمعنى: أنه أظلم من غيره. وليس المراد المساواة بينه وبين غيره، كما تقدم في قوله تعالى)ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه(.

والمعنى: أن هؤلاء افتروا على الله كذبا، وذلك أنهم أشركوا معه غيره في الإلهية فقد كذبوا عليه في ذلك إذ أثبتوا له صفة مخالفة للواقع.

وافتراء الكذب تقدم في قوله تعالى)ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب(في سورة العقود.

ثم إن كان الكلام من مبدئه خطابا لقومهم أعلنوا به إيمانهم بينهم كما تقدم كانت الإشارة في قولهم)هؤلاء قومنا(على ظاهرها، وكان ارتقاء في التعريض لهم بالموعظة، وإن كان الكلام من مبدئه دائرا بينهم في خاصتهم كانت الإشارة إلى حاضر في الذهن كقوله تعالى)فإن يكفر بها هؤلاء(أي مشركو مكة.

)وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا[16](يتعين أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة. وليس يلزم في حكاية أقوال القائلين أن تكون المحكيات كلها صادرة في وقت واحد، فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد اليأس من ارعواء قومهم عن فتنتهم في مقام آخر. ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضا، وهو ضرب من الالتفات. فعلى الوجه الأول يكون فعل)اعتزلتموهم(مستعملا في إرادة الفعل مثل)إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(، وعلى الوجه الثاني يكون الاعتزال قد حصل فيما بين مقام خطابهم قومهم وبين مخاطبة بعضهم بعضا. وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهم منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك مما لا أثر له في الغرض وإنما هو مجرد قصص.

و)إذ(للظرفية المجازية بمعنى التعليل.

والاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم. ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام.

والاستثناء في قوله)إلا الله(منقطع لأن الله تعالى لم يكن يعبده القوم.
والفاء للتفريع على جملة)وإذ اعتزلتموهم(باعتبار إفادتها معنى: اعتزلتم دينهم اعتزالا اعتقاديا، فيقدر بعدها جملة نحو: اعتزلوهم اعتزال مفارقة فأووا إلى الكهف، أو يقدر: وإذ اعتزلتم دينهم يعذبونكم فأووا إلى الكهف. وجوز الفراء أن تضمن)إذ(معنى الشرط ويكون)فأووا(جوابها. وعلى الشرط يتعين أن يكون) اعتزلتموهم(مستعملا في إرادة الاعتزال.
والأوي تقدم آنفا، أي فاسكنوا الكهف.
والتعريف في)الكهف(يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل)وأخاف أن يأكله الذئب(، أي فأووا إلى كهف من الكهوف. وعلى هذا الاحتمال يكون إشارة منهم إلى سنة النصارى التي ذكرناها في أول هذه الآيات، أو عادة المضطهدين من اليهود كما ارتأيناه هنالك.
ونشر الرحمة: توفر تعلقها بالمرحومين. سبه تعليق الصفة المتكرر بنشر الثوب في انه لا يبقي من الثوب شيئا مخفيا، كما شبه بالبسط وشبه ضده بالطي وبالقبض.
والمرفق بفتح الميم وكسر الفاء : ما يرتفق به وينتفع. وبذلك قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، وبكسر الميم وفتح الفاء وبه قرأ الباقون.
وتهيئته مستعارة للإكرام به والعناية، تشبيها بتهيئة القرى للضيف المعتنى به. وجزم)ينشر(في جواب الأمر. وهو مبني على الثقة بالرجاء والدعاء. وساقوه مساق الحاصل لشدة ثقتهم بلطف ربهم بالمؤمنين.
)وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه(عطف بعض أحوالهم على بعض، انتقل إلى ذكره بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربهم حين قال بعضهم لبعض)ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا(. وهذا حال عظيم وهو ما هيأ الله لهم في أمرهم من مرفق، وأن ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم.
والخطاب لغير معين. والمعنى: يرى من تمكنه الرؤية. وهذا كثير في الاستعمال، ومنه قول النابغة:

ترى عافيات الطير قد وثقت لها
بشبع من السخل العتاق الأكايل وقد أوجز من الخبر أنهم لما قال بعضهم لبعض)فأووا إلى الكهف(أنهم أووا إليه. والتقدير: فأخذوا بتصيحته فأووا إلى الكهف. ودل عليه قوله في صدر القصة)إذ أوى الفتية إلى الكهف(فرد عجز الكلام على صدره.
و)تزاور(مضارع مشتق من الزور بفتح الزاي ، وهو الميل. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح الواو . وأصله: تتزاور بتاءين أدغمت تاء التفاعل في الزاي تخفيفا .
وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين وهي تاء المضارعة للتخفيف اجتزاء برفع الفعل الدال على المضارعة . وقرأه ابن عامر ويعقوب)تزور(بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء بوزن تحمر. وكلها أبنية مشتقة من الزور بالتحريك، وهو الميل عن المكان، قال عنتره:
فازور من وقع القنا بلبانه أي مال بعض بدنه إلى بعض وانقبض.
والإتيان بفعل المضارعة للدلالة على تكرر ذلك كل يوم.
و)تقرضهم(أي تنصرف عنهم. وأصل القرض القطع، أي أنها لا تطلع في كهفهم.
و)ذات اليمين وذات الشمال(بمعنى صاحبة، وهي صفة لمحذوف يدل عليه الكلام، أي الجهة صاحبة اليمين. وتقدم الكلام على) ذات(عند قوله تعالى)وأصلحوا ذات بينكم(في سورة الأنفال.
والتعريف في)اليمين، والشمال(عوض عن المضاف إليه، أي يمين الكهف وشماله، فيدل على أن فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها.
وهذا وضع عجيب يسره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله.
والفجوة: المتسع من داخل الكهف، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو.
)ذلك من آيات الله(الإشارة بقوله)ذلك(إلى المذكور من قوله) وترى الشمس(.

وآيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيدي دين الحق.

والجملة معترضة في خلال القصة للتنويه بأصحابها.
والإشارة للتعظيم.
)من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا[17](استئناف بياني لما اقتضاه اسم الإشارة من تعظيم أمر الآية وأصحابها.
وعموم)من(الشرطية يشمل المتحدث عنهم بقرينة المقام.
والمعنى: أنهم كانوا مهتدين لأن الله هداهم فيمن هدى، تنبيها على أن تيسير ذلك لهم من الله هو أثر تيسيرهم لليسرى والهدى، فأبلغهم الحق على لسان رسولهم. ورزقهم أفهاما تؤمن بالحق. وقد تقدم الكلام على نظير)من يهد الله فهو المهتد(. وعلى كتابة) المهتد(بدون ياء في سورة الإسراء.
والمرشد: الذي يبين للحيران وجه الرشد، وهو إصابة المطلوب من الخير.
)وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال(عطف على بقية القصة، وما بينهما اعتراض. والخطاب فيه كالخطاب في قوله)وترى الشمس(. وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبوة لمن لو رآهم من الناس مدمج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شانهم، وهو تعجيب من حالهم لمن رآه من الناس.
ومعنى حسبانهم أيقاظا: أنهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم، فقيل: كانت أعينهم مفتوحة.
وصيغ فعل)تحسبهم(مضارعا للدلالة على أن ذلك يتكرر مدة طويلة.
والأيقاظ: جمع يقظ. بوزن كتف، وبضم القاف بوزن عضد.
والرقود: جمع راقد.
والتقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه، قال تعالى) فأصبح يقلب كفيه(.
و)ذات اليمين وذات الشمال(أي إلى جهة أيمانهم وشمائلهم.
والمعنى: أن الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس. وذلك لحكمة لعل لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.
والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدد بحسب الزمن المحكي. ولا يلزم أن يكونوا كذلك حين نزول الآية.
)وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد(هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة الأحياء وعناية بهم، ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه شأن جلسة الكلب.

والوصيد: مدخل الكهف، شبه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق.
وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم. وقد يقال: إنهم لم يفنوا وأما كلبهم ففنى وصار رمة مبسوطة عظام ذراعيه.
)لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا[18]
(الخطاب لغير معين، أي لو اطلعت عليهم أيها السامع حين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم الله، إذ ليس في الكلام أنهم لم يزالوا كذلك زمن نزول الآية.والمعنى: لو اطلعت عليهم ولم تكن علمت بقصتهم لحسبتهم لصوصا قطاعا للطريق، إذ هم عدد في كهف وكانت الكهوف مخابئ لقطاع الطريق، كما قال تأبط شرا:
أقول للحيان وقد صفـرت لـهـم
وطابي ويومي ضيق الجحر معور فقررت منهم وملكك الرعب من شرهم، كقوله تعالى)نكرهم وأوجس منهم خيفة(. وليس المراد الرعب من ذواتهم إذ ليس في ذواتهم ما يخالف خلق الناس، ولا الخوف من كونهم أمواتا إذ لم يكن الرعب من الأموات من خلال العرب، على أنه قد سبق)وتحسبهم أيقاظا وهم رقود(.
والاطلاع: الإشراف على الشيء ورؤيته من مكان مرتفع، لأنه افتعال من طلع إذا ارتقى جبلا، فصيغ الافتعال للمبالغة في الارتقاء، وضمن معنى الإشراف فعدي ب)على(، ثم استعمل مجازا مشهورا في رؤية الشيء الذي لا يراه أحد، وسيأتي ذكر هذا الفعل عند قوله تعالى)أطلع الغيب(في سورة مريم. فضلا عن أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وفي الكشاف عن ابن عباس ما يقتضي ذلك وليس بصحيح.
وانتصب)فرارا(على المفعول المطلق المبين لنوع)وليت(.
و)ملئت(مبني للمجهول، أي ملاك الرعب وملا بتشديد اللام مضاعف ملا وقرئ بهما.

صفحة : 2528

والملء: كون المظروف حالا في جميع فراغ الظرف بحيث لا تبقى في الظرف سعة لزيادة شيء من المظروف، فمثلت الصفة النفسية بالمظروف، ومثل عقل الإنسان بالظرف، ومثل تمكن الصفة من النفس بحيث لا يخالطها تفكير في غيرها بملء الظرف

بالمظروف، فكان في قوله)ملئت(استعارة تمثيلية، وعكسه قوله تعالى)وأصبح فؤاد أم موسى فارغا(.

وانتصب)رعبا(على تمييز النسبة المحول عن الفاعل في المعنى لأن الرعب هو الذي يملأ. فلما بني الفعل إلى المجهول لقصد الإحمال ثم التفصيل صار ما حقه أن يكون فاعلا تمييزا. وهو إسناد بديع حصل منه التفصيل بعد الإجمال، وليس تمييزا محولا عن المفعول كما قد يلوح بادئ الرأي.

والرعب تقدم في قوله تعالى)سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب(في سورة آل عمران.

وقرأ نافع وابن كثير)ولملئت(بتشديد اللام على المبالغة في الملء. وقرأ الباقون بتخفيف اللام على الأصل.

وقرأ الجمهور)رعبا(بسكون العين . وقرأه ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين .

)وكذلك بعثناهم ليتسالوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا[19] إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا[20](عطف لجزء من القصة الذي فيه عبرة لأهل الكهف بأنفسهم ليعلموا من أكرمهم الله به من حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث، فإن علمه عظيم وقد قال إبراهيم)رب أرني كيف تحيي الموتى(.

والإشارة بقوله)وكذلك(إلى المذكور من إنامتهم وكيفيتها، أي كما أنمناهم قرونا بعثناهم. ووجه الشبه: أن في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة.

ويجوز أن يكون تشبيه البعث المذكور بنفسه للمبالغة في التعجب كما تقدم في قوله)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(.

وتقدم الكلام على معنى البعث في الآية المتقدمة، وفي حسن موقع لفظ البعث في هذه القصة، وفي التعليل من قوله) ليتساءلوا(عند قوله)ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى(. والمعنى: بعثناهم فتساءلوا بينهم.

وجملة)قال قائل منهم(بيان لجملة)ليتساءلوا(. وسميت هذه المحاورة تساؤلا لأنهما تحاور عن تطلب كل رأي الآخر للوصول إلى تحقيق المدة. والذين قالوا)لبثنا يوما أو بعض(هم من عدا الذي قال)كم لبثتم(.

واسند الجواب إلى ضمير جماعتهم: إما لأنهم تواطأوا عليه، وإما على إرادة التوزسع، أي منهم من قال: لبثنا يوما، ومنهم من قال:

لبثنا بعض يوم. وعلى هذا يجوز أن تكون)أو(للتقسيم في القول بدليل قوله بعد)قالوا ربكم أعلم بما لبثتم(، أي لما اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بالظن إلى تفويض العلم إلى الله تعالى، وذلك من كمال إيمانهم. فالقائلون)ربكم أعلم بما لبثتم(يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر، ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم لأنهم رأوه صوابا.

وتفريع قولهم)فابعثوا أحدكم(على قولهم)ربكم أعلم بما لبثتم(لأنه في معنى فدعوا الخوض في مدة اللبث فلا يعلمها إلا الله وخذوا في شيء آخر مما يهمكم، وهو قريب من الأسلوب الحكيم. وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيها على أن غيره أولى بحاله، ولولا قولهم)ربكم أعلم بما لبثتم(لكان قولهم)فابعثوا أحدكم(عين الأسلوب الحكيم.

والورق بفتح الواو وكسر الراء: الفضة. وكذلك قرأه الجمهور. ويقال ورق بفتح الواو وسكون الراء وبذلك قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وخلف. والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم. قيل: كانت من دراهم دقيوس سلطان الروم.

والإشارة بهذه إلى دراهم معينة عندهم، والمدينة هي أبسس بالباء الموحدة . وقد قدمنا ذكرها في صدر القصة.

صفحة : 2529

و)أيها(ما صدقه أي مكان من المدينة، لأن المدينة كل له أجزاء كثيرة منها دكاكين الباعة، أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاما، أي أزكى طعامه من طعام غيره.

والنصب)طعاما(على التمييز لنسبة)أزكى(إلى)أي(.

والأزكى: الأطيب والأحسن، لأن الزكو الزيادة في الخير والنفع.

والرزق: القوت. وقد تقدم عند قوله تعالى)قال لا يأتيكما طعام ترزقانه(في سورة يوسف، والفاء لتفريع أمرهم من يبعثونه بأن يأتي بطعام زكي وبأن يتلطف.

وصيغة الأمر في قوله)فليأتكم وليتلطف(أمر لأحد غير معين سيوكلونه، أي أن تبعثوه يأتكم برزق، ويجوز أن يكون المأمور معينا بينهم وإنما الإجمال في حماية كلامهم لا في الكلام المحكي. وعلى الوجهين فهم مأمورون بأن يوصوه بذلك.

قيل التاء من كلمة)وليتلطف(هي نصف حروف القرآن عدا. وهنالك قول اقتصر عليه ابن عطية هو أن النون من قوله تعالى) لقد جئت شيئا نكرا(هي نصف حروف القرآن.

والإشعار: الإعلام، وهو إفعال منشعر من باب نصر وكرم شعورا، أي علم. فالهمزة للتعدية مثل همزة)أعلم(من علم الذي هو عليم العرفان يتعدى إلى واحد.

وقوله)بكم(متعلق ب)شعرن(. فمدخول الباء هو المشعور، أي المعلوم. والمعلوم إنما يكون معنى من المعاني ما علق الضمير المجرور بفعل)شعرن(من قبيل تعليق الحكم بالذات. والمراد بعض أحوالها. والتقدير: ولا يخبرن بوجودكم أحدا. فهنا مضاف محذوف دلت عليه دلالة الاقتضاء فيشمل جميع أحوالهم من عددهم ومكانهم وغير ذلك. والنون لتوكيد النهي تحذيرا من عواقبه المضمنة في جملة) إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم(الواقعة تعليلا للنهي، وبيانا لوجه توكيد النهي بالنون. فهي واقعة موقع العلة والبيان، وكلاهما يقتضي فصلها عما قبلها.

وجملة)إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم(علة للأمر بالتلطف والنهي عن إشعار أحد بهم.

وضمير)إنهم(عائد إلى ما أفاده العموم في قوله)ولا يشعرن بكم أحدا(، فصار)أحدا(في معنى جميع الناس على حكم النكرة في سياق شبه النهي.

والظهور أصله: البروز دون سائر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة على الغير، وهو المراد هنا.

قال تعالى)أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء(وقال)وأظهره الله عليه(وقال)تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان(.

والرجم: القتل برمي الحجارة على المرجوم حتى يموت، وهو قتل إذلال وإهانة وتعذيب.

وجملة)يرجموكم(جواب شرط)إن يظهروا عليكم(. ومجموع جملتي الشرط وجوابه دليل على خبر)إن(المحذوف لدلالة الشرط وجوابه عليه.

ومعنى)يعيدوكم في ملتهم(يرجعلوكم إلى الملة التي هي من خصائصهم، أي لا يخلو أمرهم عن أحد الأمرين إما إرجاعكم إلى دينهم أو قتلكم.

والملة. الدين. وقد تقدم في سورة يوسف عند قوله)إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله(.

وأكد التحذير من الإرجاع إلى ملتهم بأنها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل، لما دلت عليه حرف)إذا(من الجزائية.

و)أبدا(ظرف للمستقبل كله. وهو تأكيد لما دل عليه النفي ب)لن(من التأييد أو ما يقاربه.
)وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها(انتقل إلى جزء القصة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم وانتفاعهم وباطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره.
وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان.
فالكلام عطف على قوله)وكذلك بعثناهم(الآية.
والقول في التشبيه والإشارة في)وكذلك(نظير القول في الذي قبله آنفا.
والعثور على الشيء: الاطلاع عليه والظفر به بعد الطلب. وقد كان الحدث عن أهل الكهف في تلك المدينة يتناقله أهلها فيسر الله لأهل المدينة العثور عليهم للحكمة التي في قوله)ليعلموا أن وعد الله حق(الآية.
ومفعول)أعثرنا(محذوف دل عليه عموم)ولا يشعرن بكم أحدا(. تقديره: أعثرنا أهل المدينة عليهم.
وضمير)ليعلموا(عائد إلى المفعول المحذوف المقدر لأن المقدر كالمذكور.

صفحة : 2530

ووعد الله هو إحياء الموتى للبعث. وأما علمهم بأن الساعة لا ريب فيها. أي ساعة الحشر، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي تعتري المؤمن في اعتقاده حين لا يتصور كيفية العقائد السمعية وما هو بريب في العلم ولكنه في الكيفية، وهو الوارد فيه أنه لا يخطر إلا لصديق ولا يدوم إلا عند زنديق.
)إذ يتنازعون بينهم أمرهم(الظرف متعلق ب)أعثرنا(، أي أعثرنا عليهم حين تنازعوا أمرهم. وصيغ ذلك بصيغة الظرفية للدلالة على اتصال التنازع في أمر أهل الكهف بالعثور عليهم بحيث تبادروا إلى الخوض في كرامة يجعلونها لهم. وهذا إدماج لذكر نزاع جرى بين الذين اعتدوا عليهم في أمور شتى جمعها قوله تعالى)
أمرهم(فضمير)يتنازعون و بينهم(عائدان إلى ما عاد الله ضمير) ليعلموا(.

وضمير)أمرهم(يجوز أن يعود إلى أصحاب الكهف. والأمر هنا بمعنى الشأن.
والتنازع: الجدال القوي، أي يتنازع أهل المدينة بينهم شأن أهل الكهف، مثل: أكانوا نياما أم أمواتا، وأيبقون أحياء أم يموتون، وأيبقون في ذلك الكهف أم يرجعون إلى سكنى المدينة، وفي مدة مكثهم.
ويجوز أن يكون ضمير)أمرهم(عائدا إلى ما عاد عليه ضمير) يتنازعون(. أي شأنهم فيما يفعلونه بهم.
والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة التنازع.
)فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا[21](طوي هنا وصف العثور عليهم، وذكر عودهم إلى الكهف لعدم تعلق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة لأن المصير إلى مرقدهم وطرو الموت عليهم شأن معتاد لكل حي.
وتفريع)فقالوا(على)يتنازعون(.
وإنما ارتأوا أن يبنوا عليهم بنيانا لأنهم خشوا عليهم من تردد الزائرين غير المتأدبين، فلعلهم أن يؤذوا أجسادهم وثيابهم باللمس والتقليب، فأرادوا أن يبنوا عليهم بناء يمكن غلق بابه وحراسته.
وجملة)ربهم أعلم بهم(يجوز أن تكون من حكاية كلام الذين قالوا، ابنوا عليهم بنيانا. والمعنى: ربهم أعلم بشؤونهم التي تنزعنا فيها، فهذا تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية تنازع الذين أعثروا عليهم، أي رب أهل الكهف أو رب المتنازعين في أمرهم أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه.
والذين غلبوا على أمرهم ولاة الأمور بالمدينة، فضمير)أمرهم(يعود إلى ما عاد إليه ضمير)فقالوا(، أي الين غلبوا على أمر القائلين: ابنوا عليهم بنيانا.
وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدا ليكون إكراما لهم ويدوم تعهد الناس كهفهم. وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى، ونهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ، أي لأبرز في المسجد النبوي ولم يجعل وراء جدار الحجرة.
واتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهي عنه، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيه بفعل من يعبدون صالحي ملتهم. وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما

يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميت. وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية، فإن كان شرعا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر.
)سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل(لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرصات في معرفة عددهم، وحصر مدة مكثهم في كهفهم، وربما أملى عليهم المتنصرة من العرب في ذلك قصصا، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل علم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك.

صفحة : 2531

وضمير)يقولون(عائد إلى غير مذكور لأنه معلوم من المقام، أي يقول الناس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنهم نبهوا إلى أن جميعه لا حجة لهم فيه. ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين، وليس في الانتهاء إلى عدد الثمانية إيماء إلى أنه العدة في نفس الأمر.
وقد أعلم الله أن قليلا من الخلق يعلمون عدتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك. وفي مقدمتهم محمد صلى الله عليه وسلم لأن قصتهم جاءت على لسانه فلا شك أن الله أطلعه على عدتهم. وروي أن ابن عباس قال: أنا من القليل.
وكأن أقوال الناس تمالأت عل أن عدتهم فردية تيمنا بعدد المفرد، وإلا فلا دليل على ذلك دون غيره، وقد سمى الله قولهم ذلك رجما بالغيب.
والرجم حقيقته: الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير روية ولا تثبت، قال زهير:
وما هو عنها بالحديث المرجم والباء في)بالغيب(للتعدية، كأنهم لما تكلموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.
وكل جملة)رابعهم كلبهم(وجملة)سادسهم كلبهم(في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

وجملة)وثامنهم كلبهم(الواو فيها واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو إن كان نكرة فإن وقوعه خبر على معرفة أكسبه تعريفا. على أن وقوع الحال جملة مقترنة بالواو قد عد من مسوغات مجيء الحال من النكرة. ولا وجه لجعل الواو فيه داخلة على جملة هي صفة للنكرة لقصد تأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما ذهب إليه في الكشاف لأنه غير معروف في فصيح الكلام: وقد رده السكاكي في المفتاح وغير واحد.

ومن غرائب فتن الابتكار في معاني القرآن قول من زعم: إن هذه الواو. واو الثمانية، وهو منسوب في كتب العربية إلى بعض ضعفه النحاة ولم يعين مبتكره. وقد عد ابن هشام في مغني اللبيب من القائلين بذلك الحريري وبعض ضعفة النحاة كابن خالويه والثعلبي من المفسرين.

قلت: أقدم هؤلاء هو ابن خالويه النحوي المتوفى سنة 370 فهو المقصود ببعض ضعفه النحاة. وأحسب وصفه بهذا الوصف أخذه ابن هشام من كلام ابن المنير في الانتصاف على الكشاف من سورة التحريم إذ روي عن ابن الحاجب: أن القاضي الفاضل كان يعتقد أن الواو في قوله تعالى)ثيبات وأبكارا(في سورة التحريم هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية. وكان القاضي يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة، أحدها: التي في الصفة الثامنة في قوله تعالى)والناهون عن المنكر(في سورة براءة. والثانية: في قوله)وثامنهم كلبهم(. والثالثة: في قوله)وفتحت أبوابها(في الزمر. قال ابن الحاجب ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكره يوما بحضرة أبي الجود النحوي المقري، فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بالواو هنا لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد آخره.

وقال في المغنى: سبق الثعلبي الفاضل إلى عدها من المواضع في تفسيره. وأقول: لعل الفاضل لم يطلع عليه. وزاد الثعلبي قوله تعالى)سبع ليال وثمانية أيام حسوما(في سورة الحاقة حيث قرن اسم عدد ثمانية بحرف الواو.

ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إما بلفظة كما هنا وآية الحاقة، وإما بالانتهاء إليه كما في آية براءة وآية التحريم، وإما بكون مسماه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر. ولقد بعد الانتباه إلى ذلك من اللطائف، ولا يبلغ أن يكون من المعرف. وإذا كانت كذلك ولم يكن لها ضابط مضبوط فليس من البعيد عد القاضي الفاضل منها

آية سورة التحريم لأنها صادفت الثامنة في الذكر وإن لم تكن ثامنة من صفات الموصوفين، وكذلك لعد آية سورة الحاقة، ومثل هذه اللطائف كالزهرة تشم ولا تحك.
وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)والناهون عن المنكر(في سورة براءة.

صفحة : 2532

وجملة)قل ربي أعلم بعدتهم(مستأنفة استئنافا بيانيا لما تثيره جملة)سيقولون ثلاثة رابعه كلبهم(إلى آخرها من ترقب تعيين ما يعتمد عليه من أمر عدتهم. فأجيب بأن بحال العلم بذلك على علام الغيوب. وإسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.
وجملة)ما يعلمهم إلا قليل(كذلك مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا: هل يكون بعض الناس عالما بعدتهم علما غير كامل. فأجيب بأن قليلا من الناس يعلمون ذلك ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأغلبية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك.
)فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا[22] (تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصة.
والتماري: تفاعل مشتق من المرية، وهي الشك. واشتقاق المفاعلة يدل على أنها إيقاع من الجانبين في الشك، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لما ساوى الحقيقة. والمراد بالمراء فيهم: المراء في عدتهم كما هو مقتضى التفريع.
والمراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله)قل ربي أعلم بعدتهم(وقوله)ما يعلمهم إلا قليل(، فإن هذا مما لا سبيل إلى إنماره وإبايته لوضوح حجته وما وراء ذلك محتاج إلى الحجة فلا ينبغي الاشتغال به لقلة جدواه.

والاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي مما لا يعلمه كل أحد. ومعنى)فيهم(أي في أمرهم، أي أمر أهل الكهف. والمراد من النهي عن استفنائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف، فضمير)منهم(عائد إلى عاد إليه ضمير)سيقولون ثلاثة(، وهم أهل مكة الدين سألوا عن أمر أهل الكهف.
أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يعلم المشركين بما علمه الله من شأن أهل الكهف، وتكون)من(تعليلية، والضمير المجرور بها عائدا إلى السائلين المتعنتين، أي لا تسأل علم ذلك من أجل حرص السائلين على أن تعلمهم بيقين أمر أهل الكهف فإنك علمته ولم تؤمر بتعليمهم إياه، ولو لم يحمل النهي على هذا المعنى لم يتضح له وجه. وفي التقييد ب)منهم(محترز ولا يستقيم جعل ضمير)منهم(عائدا إلى أهل الكتاب، لأن هذه الآيات مكية باتفاق الرواة والمفسرين.
)ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا[23] إلا أن يشاء الله(عطف على الاعتراض. ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق والطبري في أول هذه السورة والواحدي في سورة مريم: أن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يقل)إن شاء الله(، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلا بعد خمسة عشر يوما. وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدم، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتابا رمزيا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كما عاتب سليمان عليه السلام فيما رواه البخاري: أن سليمان قال: لأطوفن الليلة على مائدة امرأة تلد كل واحدة ولدا يقاتل في سبيل الله فلم تحمل منهن إلا واحدة ولدت شق غلام . ثم كان هذا عتابا صريحا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أهل الكهف وعد بالإجابة ونسي أن يقول)إن شاء الله(كما نسي سليمان، فأعلم الله رسوله بقصة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله.

صفحة : 2533

وقوله)إلا أن يشاء الله(استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله. وفي كيفية نظمه اختلاف للمفسرين، فمقتضى كلام الزمخشري أنه من بقية جملة النهي، أي هو استثناء من حكم النهي، أي لا تقولن: إني فاعل الخ... إلا أن يشاء الله أن تقوله. ومشيئة الله تعلم من

إذنه بذلك، فصار المعنى: إلا أن يأذن الله لك بأن تقوله. وعليه فالمصدر المسبك من)أن يشاء الله(مستثنى من عموم المنهيات وهو من كلام الله تعالى. ومفعول)يشاء الله(محذوف دل عليه ما قبله كما هو شأن فعل المشيئة. والتقدير: إلا قولا شاءه الله فأنت غير منهي عن أن تقوله.

ومقتضى كلام الكسائي والأخفش والفراء أنه مستثنى من جملة) إني فاعل ذلك غدا(، فيكون مستثنى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم المنهي عنه. أي إلا قولا مقترنا ب)إن شاء الله(فيكون المصدر المنسبك من أن والفعل في محل نصب على نزع الخافض وهو باء الملابسة. والتقدير: إلا ب)إن يشاء الله(أي بما يدل على ذكر مشيئة الله، لأن ملابسة القول حقيقة المشيئة محال. فعلم أن المراد تلبسه بذكر المشيئة بلفظ)إن شاء الله(ونحوه. فالمراد بالمشيئة إذن الله له.

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم من ثلاث جهات: الأولى: أنه أجاب سؤله، فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف عادة الله مع المكابرين.

الثانية: أنه علمه علما عظيما من أدب النبوة.

الثالثة: أنه ما علمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤله استئناسا لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه، كيلا يتوهم أن النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرم. ومثاله ما في الصحيح: أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذة بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا . فعلم حكيم أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك ليس القصد منه منعه من سؤله وإنما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم: أن لا يأخذ عن أحد غير رسول الله شيئا. ولم يقل: لا أسألك بعد هذه المرة شيئا.

فنظم الآية أن اللام في قوله)لشي(ليست اللام التي يتعدى بها فعل القول إلى المخاطب بل هي لام العلة، أي لا تقولن: إني فاعل كذا لأجل شيء تعد به، فاللام بمنزلة في و)شيء(اسم متوغل في التنكير يفسره المقام، أي الشيء تريد أن تفعله.

والإشارة بقوله)ذلك(عائدة إلى)شيء(، أي أني فاعل الإخبار بأمر يسألونه.

و)غدا(مستعمل في المستقبل مجازا. وليست كلمة)غدا(مرادا بها اليوم الذي يلي يومه، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي. وقد جمعها قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبلـه

ولكنني عن علم ما في غد عم وظاهر الآية اقتصار إعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاء مثل الإيمان، فلذلك اختلف فقهاء الأمصار في شمول هذه الآية لإنشاء الأيمان ونحوها، فقال جمهورهم: يكون ذكر)إلا أن يشاء الله(حلا لعقد اليمين يسقط وجوب الكفارة. ولعلهم أخذوه من معنى)شيء(في قوله)ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك(الخ: بحيث إذا أعقبت اليمين بقول)إلا أن يشاء الله(ونحوه لم يلزم البر في اليمين. وروي ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك أن قوله)ولا تقولن لشيء إني فاعل(الخ.. إنما قصد بذلك ذكر الله عند السهو وليس باستثناء. يعني أن حكم الثنيا في الأيمان لا يؤخذ من هذه الآية بل هو مما ثبت بالسنة. ولذلك لم يخالف مالك في إعمال الثنيا في اليمين، وهي قول)إن شاء الله(. وهذا قول ابن حنيفة والشافعي.

)واذكر ربك إذا نسيت(

صفحة : 2534

عطف على النهي، أي لا تعد بوعد فإن نسيت فقلت: إني فاعل، فاذكر ربك، أي اذكر ما نهاك عنه. والمراد بالتذكير التدارك وهو هنا مشتق من الذكر بضم الذال وهو كناية عن لازم التذكر، وهو الامتثال، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه وفي تعريف الجلالة بلفظ الرب مضافا إلى ضمير المخاطب دون اسم الجلالة العلم من كمال الملاطفة ما لا يخفى.

وحذف مفعول)نسيت(لظهوره من المقام، أي إذا نسيت النهي فقلت: إني فاعل. وبعض الذين أعملوا به آية)إلا أن يشاء الله(في حل الأيمان بذكر الاستثناء بمشيئة الله جعلوا قوله)واذكر ربك إذا نسيت(ترخيصا في تدارك الثنيا عند تذكر ذلك، فمنهم من لم يحد ذلك بمدة. وعن ابن عباس: لا تحديد بمدة بل ولو طال ما بين اليمين والثنيا. والجمهور على أن قوله)واذكر ربك إذا نسيت(لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا، واستدلوا بأن السنة وردت بخلافة.

)وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا[24](لما أبر الله وعد نبيه صلى الله عليه وسلم الذي وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربه. ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به، أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنه يرجوا أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا.

وجملة)وقل عسى أن يهديني(الخ.. معطوفة على جملة)فلا تمار فيهم(. ويجوز أن تكون جملة)وقل عسى أن يهديني ربي(عطفا على جملة)واذكر ربك إذا نسيت(، أي اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، أي ادع الله بهذا.

وانتصب)رشدا(على تمييز نسبة التفضيل من قوله)لأقرب من هذا(ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول مطلق مبين لنوع فعل)أن يهديني(لأن الرشد نوع من الهداية.

ف)عسى(مستعملة في الرجاء تأدبا، واسم الإشارة عائد إلى المذكور من قصة أهل الكهف بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا في أثنائها.

ويجوز أن يكون المعنى: وارج من الله أن يهديك فيذكرك أن لا تعيد وعدا ببيان شيء دون إذن الله.

والرشد بفتحتين : الهدى والخير. وقد تقدم القول فيه عند قوله تعالى في هذه السور)وهيئ لنا من أمرنا رشدا(.

)ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا[25](رجوع إلى بقية القصة بعد أن تخلل الاعتراض بينها بقوله)فلا تمار فيهم(إلى قوله)رشدا(.

فيجوز أن تكون جملة)ولبثوا(عطفا على مقولهم في قوله) سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم(. أي ويقولون: لبثوا في كهفهم، ليكون موقع قوله)قل الله أعلم بما لبثوا(كموقع قوله السابق)قل ربي أعلم بعدتهم(، وعليه فلا يكون هذا إخبار عن مدة ليثهم. وعن ابن مسعود أنه قرأ)وقالوا لبثوا في كهفهم(إلى آخره، فذلك تفسير لهذا العطف.

ويجوز أن يكون العطف على القصة كلها. والتقدير: وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين.

وعلى اختلاف الوجهين يختلف المعنى في قوله)قل الله أعلم بما لبثوا(كما سيأتي. ثم إن الظاهر أن القرآن أخبر بمدة لبث أهل الكهف في كهفهم، وأن المراد لبثهم الأول قبل الإفاقة وهو المناسب لسبق الكلام على اللبث في قوله)قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم(، وقد قدما عند قوله تعالى)أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم(الخ... أن مؤرخي النصارى يزعمون أن مدة نومة أهل الكهف مائتان وأربعون سنة. وقيل: المراد لبثهم من وقت موتهم الأخير إلى زمن نزول هذه الآية.

صفحة : 2535

والمعنى: أن يقدر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين. فعبر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع. ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم. قال السهيلي في الروض الأنف: النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به. وأقول: واليهود الذين لقنوا قريشا السؤال عنهم يؤرخون الأشهر بحساب القمر ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية. فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية بثلاث سنين زائدة قمرية. كذا نقله ابن عطية عن النقاش المفسر. وبهذا تظهر نكتة التعبير عن التسع السنين بالازدياد. وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به.

وقرأ الجمهور)ثلاثمائة(بالتنوين. وانتصب)سنين(على البدلية من اسم العدد على رأي من يمنع مجيء تمييز المائة منصوبا، أو هو تمييز عند من يجيز ذلك.

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بإضافة مائة إلى سنين على أنه تمييز للمائة. وقد جاء تمييز المائة جمعا، وهو نادر لكنه فصيح.

)قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا[26] (إن كان قوله تعالى)ولبثوا في كهفهم(إخبارا من الله عن مدة لبثهم يكون قوله)قل الله أعلم بما لبثوا(قطعا للمماراة في مدة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب، أي الله أعلم منكم بمدة لبثهم.

وإن كان قوله)ولبثوا(حكاية عن قول أهل الكتاب في مدة لبثهم كان قوله)قل الله أعلم بما لبثوا(تفويضا إلى الله في علم ذلك كقوله)قل ربي أعلم بعدتهم(.

وغيب السماوات والأرض ما غاب علمه عن الناس من موجودات السماوات والأرض وأحوالهم. واللام في)لله(للملك. وتقديم الخبر المجرور لإفادة الاختصاص، أي لله لا لغيره، ردا على الذين يزعمون علم خبر أهل الكهف ونحوهم.

و)أبصر به وأسمع(صيغتا تعجيب من عموم علمه تعالى بالمغيبات من المسموعات والمبصرات، وهو العلم الذي لا يشاركه فيه أحد.

وضمير الجمع في قوله)ما لهم من دونه من ولي(يعود إلى المشركين الذين الحديث معهم. وهو إبطال لولاية آلهتهم بطريقة التنصيص على عموم النفي بدخول)من(الزائدة على النكرة المنفية.

وكذلك قوله)ولا يشرك في حكمه أحدا(هو رد على زعمهم بأن الله اتخذ آلهتهم شركاء له في ملكه.

وقرأ الجمهور)ولا يشرك(برفع)يشرك(وبياء الغيبة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله)قل الله أعلم(. وقرأه ابن عامر بتاء الخطاب وجزم و)يشرك(على أن)لا(ناهية. والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مراد به أمته، أو الخطاب لكل من يتلقاه.

وهنا انتهت قصة أصحاب الكهف بما تخللها، وقد أكثر المفسرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها.

)واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا[27](عطف على جملة)قل الله أعلم بما لبثوا(بما فيها من قوله)ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا(.

والمقصود من هذا الرد على المشركين إذ كانوا أيامئذ لا يبين لهم شيء إلا وانتقلوا إلى طلب شيء آخر فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو ذلك، كما تقدم ذلك عند قوله تعالى) وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا(في سورة الإسراء.

والمعنى: لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض ما أوحى إليك واتل جميع ما أوحى إليك فإنه لا مبدل له. فلما وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبر الله وعده إياهم قطعا لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين ذيل ذلك بأن أمر نبيه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنه لا مبدل لكلمات الله، ولكي لا يطمعهم الإجابة عن بعض ما سألوه بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه.

وأصل النفي ب)لا(النافية للجنس أنه نفي وجود اسمه. والمراد هنا نفي الإذن في أن يبدل أحد كلمات الله.

والتبديل: التغيير بالزيادة والنقص. أي بإخفاء بعضه بترك تلاوة ما لا يرضون بسماعه من إبطال شركهم وضلالهم. وهذا يؤذن بأنهم طعنوا في بعض ما اشتملت عليهم القصة في القرآن كما أشار إليه قوله)سيقولون ثلاثة(وقوله)ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين(.

وقد تقدم نظير هذا عند قوله تعالى)ولا مبدل لكلمات الله(في سورة الأنعام.

فالأمر في قوله)واتل(كناية عن الاستمرار. و)ما أوحى(مفيد للعموم، أي كل ما أوحي إليك، ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه. وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطرا من التصويب.

والتلاوة: القراءة. وقد تقدم عند قوله تعالى)واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان(في سورة البقرة وقوله)وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا(في الأنفال.

والملتحد: اسم مكان ميمي يجيء على زنة اسم المفعول من فعله. والملتحد: مكان الالتحاد، والالتحاد: الميل إلى جانب. وجاء بصيغة الافتعال لأن أصله تكلف الميل. ويفهم من صيغة التكلف أنه مفر من مكروه يتكلف الخائف أن يأوي إليه. فلذلك كان الملتحد بمعنى الملجأ. والمعنى: لن تجد شيئا ينجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم مما طمعوا فيه.

)واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا(هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أهل الكهف. فهو مشارك لقوله)واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك(الآية. وتقدم في سورة الأنعام عند قوله تعالى)ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه(أن سادة المشركين كانوا زعموا أنه لولا أن من المؤمنين ناسا أهل خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأتوا إلى مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عيهم بما في سورة الأنعام وما في هذه السورة.

وما هنا آكد إذ أمره بملازمتهم بقوله)واصبر نفسك(، أي احبسها معهم حبس ملازمة. والصبر: الشد بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه

سميت المصبورة وهي الدابة تشد لتجعل غرضا للرمي. ولتضمين فعل)اصبر(معنى الملازمة علق به ظرف مع .
و)الغداة(قرأه الجمهور بألف بعد الدال : اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس. والعشي: المساء والمقصود أنهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة. والدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.
والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة. وقرأ ابن عامر)بالغدزة(بسكون الدال وواو بعد الدال مفتوحة وهو مرادف الغداة.
وجملة)يريدون وجهه(في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.
ثم أكد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم.
وظاهر)لا تعد عيناك عنهم(نهي العينين عن أن تعدوا عن الذين يدعون ربهم. أي أن تجاوزاهم، أي تبعدا عنهم. والمقصود: الإعراض، ولذلك ضمن فعل العدو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول ب)عن(وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدي عينيك عنهم. وهو إيجاز بديع.
وجملة)تريد زينة الحياة الدنيا(حال من كاف الخطاب، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت.
وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الرجحة والقلوب النيرة وجعلوا همهم الصور الظاهرة.
)ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان أمره فرطا[28](

صفحة : 2537

هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون. والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجاه رغائب المشركين وتأييس المشركين من نوال شيء مما رغبوه من النبي صلى الله عليه وسلم.
وما صدق)من(كل من اتصف بالصلة. وقيل نزلت في أمية بن خلف الجمحي، دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طرد فقراء

المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش.
والمراد بإغفال القلب جعله غافلا عن التفكر في الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، فإن ذلك ناشئ عن خلقه عقول ضيقة التبصر مسوقة بالهوى والإلف.
وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة، وهي الغفلة المستمرة المستفادة من جعل الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في خلقه تلك القلوب. وما بالطبع لا يتخلف.
وقد اعتضد هذا المعنى بجملة)واتبع هواه(، فإن اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خلقة في قلوبهم، واتباع الهوى كسب من قدرتهم.
والفرط بضمتين : الظلم والاعتداء. وهو مشتق من الفروط وهو السبق لأن الظلم سبق في الشر.
والأمر: الشأن والحال.
وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكن الخبر من الاسم، أي حالة تمكن الإفراط والاعتداء على الحق.
)وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا[29](بعد أن أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما فيه نقض ما يقتلونه من مقترحاتهم وتعريض بتأييسهم من ذلك أمره أن يصارحهم بأنه لا يعدل عن الحق الذي جاءه من الله، وأنه مبلغه بدون هوادة، وأنه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض. ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحق الذي جاء به، وأن إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنهم بوعد الإيمان يستنزلون النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أوحى إليه.
و)الحق(خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام، أي هذا الحق. والتعبير ب)ربكم(للتذكير بوجوب توحيده.
والأمر في قوله)فيؤمن(وقوله)فليكفر(للتسوية المكنى بها عن الوعد والوعيد.
وقدم الإيمان على الكفر لأن إيمانهم مرغوب فيه.
وفاعل المشيئة في الموضعين ضمير عائد إلى من الموصولة في الموضعين.
وفعل)يؤمن، ويكفر(مستعملان للمستقبل، أي من شاء أن يوقع أحد الأمرين ولو بوجه الاستمرار على أحدهما المتلبس به الآن فإن العزم على الاستمرار عليه تجديد لإيقاعه.

وجملة)إنا أعتدنا للظالمين نارا(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما دل عليه الكلام من إيكال الإيمان والكفر إلى أنفسهم وما يفيده من الوعيد كلاهما يثير في النفوس أن يقول قائل: فماذا يلاقي من شاء فاستمر على الكفر، فيجاب بأن الكفر وخيم العاقبة عليهم.
والمراد بالظالمين: المشركون قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(.
وتنوين)نارا(للتهويل والتعظيم.
والسرادق بضم السين قيل: هو الفسطاط، أي الخيمة. وقيل: السرادق: الحجزة بضم الحاء وسكون الزاي ، أي الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها، فقد يكون من جنس الفسطاط أديما أو ثوبا وقد يكون غير ذلك كالخندق. وهو كلمة معربة من الفارسية. أصلها سراطاق قالوا: ليس في كلام العرب اسم مفرد ثالثه ألف وبعده حرفان. والسرادق: هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وأثبت لها سرادق مبالغة في إحاطة دار العذاب بهم، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية.
والاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدة وبتخفيف الألم. وشمل)يستغيثوا(الاستغاثة من حر النار يطلبون شيئا يبرد عليهم، بأن يصبوا على وجوههم ماء مثلا، كما في آية الأعراف)ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء(. والاستغاثة من شدة العطش الناشئ عن الحر فيسألون الشراب. وقد أومأ إلى شمول الأمرين ذكر وصفين لهذا الماء بقوله)يشوي الوجوه بئس الشراب(.
والإغاثة: مستعارة للزيادة مما استغيث من أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

صفحة : 2538

والمهل بضم الميم له معان كثيرة أشبهها هنا أنه دردي الزيت فإنه يريدها التهابا قال تعالى)يوم تكون السماء كالمهل(.
والتشبيه في سواد اللون وشدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقب بقوله)يشوي الوجوه(وهو استئناف ابتدائي.
والوجه أشد الأعضاء تألما من حر النار قال تعالى)تلفح وجوههم النار(.
وجملة)بئس الشراب(مستأنفة ابتدائية أيضا لتشنيع ذلك الماء مشروبا كما شنع مغتسلا. وفي عكسه الماء الممدوح في قوله تعالى)هذا مغتسل بارد وشراب(.

والمخصوص بذم)بئس(محذوف دل عليه ما قبله. والتقدير: بئس الشراب ذلك الماء.
وجملة)وساءت مرتفقا(معطوفة على جملة)يشوي الوجوه(، فهي مستأنفة أيضا لإنشاء ذم تلك النار بما فيها.
والمرتفق: محل الاتفاق، وهو اسم مكان مشتق من اسم جامد إذ اشتق من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سمي مرفقا لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فلما سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المرتفق. فالمرتفق هو المتكأ، وتقدم في سورة يوسف.
وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق.
وفعل)ساء(يستعمل)بئس(فيعمل عمل)بئس(، فقوله) مرتفعا(تمييز. والمخصوص بالذم محذوف كما تقدم في قوله)بئس الشراب(.
)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا[30](جملة مستأنفة استئنافا بيانيا مراعي فيه حال السامعين من المؤمنين، فإنهم حين يسمعون ما أعد للمشركين تتشوف نفوسهم إلى معرفة ما أعد للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأعلموا أن عملهم مرعي عند ربهم. وجريا على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب.
وافتتاح الجملة بحرف التوكيد)إن(لتحقيق مضمونها. وإعادة حرف إن في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق كقوله تعالى في سورة الحج)إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة(وقوله تعالى)قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم(ومثله قول جرير:
إن الخليفة إن الله سربله سربال ملك به تزجى الخواتيم وموقع)إن(الثانية في هذه الآية أبلغ منه في بيت جرير لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها من حيث هي مفيدة حكما يعم ما وقعت خبرا عنه وغيره من كل من يماثل الخبر عنهم في عملهم، فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه بخرف بيت جرير.
وأما آية سورة الحج فقد اقتضى طول الفصل حرف التأكيد حرصا على إفادة التأكيد.

والإضاعة: جعل الشيء ضائعا. وحقيقته الضيعة: تلف الشيء من مظنة وجوده. وتطلق مجازا على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنه قد ضاع وتلف، قال تعالى)أني لا أضيع عمل عامل منكم(في سورة آل عمران، وقال)وما كان الله ليضيع إيمانكم(في البقرة. ويطلق على منع التمكين من شيء والانتفاع به تشبيها للممنوع بالضائع في اليأس من التمكن منه كما في هذه الآية، أي أنا لا نحرم من أحسن عملا أجر عمله. ومنه قوله تعالى)والله لا يضيع أجر المحسنين(.

)أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا[31](والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقب ما بين هذا الأجر.

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات.

واللام في)لهم جنات عدن(لام الملك. و)من(للابتداء، جعلت جهة تحتهم منشئا لجري الأنهار. وتقدم شبيه هذه الآية في قوله تعالى) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تضجري من تحتها الأنهار(في سورة براءة.

صفحة : 2539

و)عدن(تقدم في قوله تعالى)ومساكن طيبة في جنات عدن(في سورة براءة.

و)من تحتهم(بمنزلة)من تحتها(، لأن تحت جناتهم هو تحت لهم.

ووجه إيثار إضافة)تحت(إلى ضميرهم دون ضمير الجنات زيادة تقرير المعنى الذي أفادته لام الملك، فاجتمع في هذا الخبر عدة مقررات لمضمونه، وهي: التأكيد مرتين، وذكر اسم الإشارة. ولام الملك، وجر اسم الجهة ب)من(، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتم تقرر.

وجملة)يحلون(في موضع الصفة)لجنات عدن(.

والتحلية: التزيين، والحلية: الزينة.

وأسند الفعل إلى المجهول، لأنهم يجدون أنفسهم محلين بتكوين الله تعالى.

والأساور: جمع سوار على غير قياس. وقيل: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. فصيغة جمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلون به منها، فإن الحلية تكون مرصعة بأصناف اليواقيت.
و)من(في قوله)من أساور(مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش. وسيأتي وجهه في سورة الحج. ويجوز أن تكون للابتداء، وهو متعين عند الذين يمنعون زيادتها في الإثبات.
والسوار: حلي من ذهب أو فضة يحيط بموضع الذراع، وهو اسم معرب عن الفارسية عند المحققين وهو في الفارسية دستوراه بهاء في آخره كما في كتاب الراغب، وكتب بدون هاء في تاج العروس.
وأما قوله)من ذهب(فإن)من(فيه للبيان، وفي الكلام اكتفاء، أي من ذهب وفضة كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله)وحلوا أساور من فضة(، ولكل من المعدنين جمالة الخاص.
واللباس: ستر البدن بثوب من قميص أو إزار أو رداء، وجميع ذلك للوقاية من الحر والبرد وللتجمل.
والثياب: جمع ثوب، وهو الشقة من النسيج.
واللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:
يصونون أجسادا قديما نعيمـها
بخالصة الأردان خضر المناكب والسندس: صنف من الثياب، وهو الديباج الرقيق يلبس مباشرا للجلد ليقيه غلظ الإستبرق.
والإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب مباشرة للجلد.
وكلا اللفظين معرب. فأما لفظ)سندس(فلا خلاف في أنه معرب وإنما اختلفوا في أصله، فقال جماعة: أصله فارسي، وقال المحققون: أصله هندي وهو في اللغة الهندية سندون بنون في آخره. كان قوم من وجوه الهند وفدوا على الإسكندر يحملون هدية من هذا الديباج، وأن الروم غيروا اسمه إلى سندوس ، والعرب نقلوه عنهم فقالوا سندس فيكون معربا عن الرومية وأصله الأصيل هندي.
وأما الإستبرق فهو معرب عن الفارسية. وأصله في الفارسية إستبره أو إستبر بدون هاء أو استقره أو إستفره . وقال ابن دريد: هو سرياني عرب وأصله إستروه وقال ابن قتيبة: هو رومي عرب، ولذلك فهمزته همزة قطع عند الجميع، وذكره بعض علماء اللغة في باب الهمزة وهو الأصوب، ويجمع على أبارق قياسا، على أنهم صغروه على أبريق فعاملوا السين والتاء معاملة الزوائد.

وفي الإتقان للسيوطي عن ابن النقيب: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذا اللفظ يقوم مقامه في الفصاحة لعجزوا.
وذلك: أن الله تعالى إذا حث عبادة على الطاعة بالوعد والوعيد. والوعد بما يرغب فيه العقلاء وذلك منحصر في: الأماكن، والمآكل، والمشارب، والملابس، ونحوها مما تتحد فيه الطباع أو تختلف فيه. وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، والحرير كلما كان ثوبه أثقل كان أرفع فإذا أريد ذكر هذا فالأحسن أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، وذلك ليس إلا الإستبرق ولا يوجد في العربية لفظ واحد يدل على ما يدل عليه لفظ إستبرق. هذه خلاصة كلامه على تطويل فيه.
و)من(في قوله)من سندس(للبيان.
وقدم ذكر الحلي على اللباس هنا لأن ذلك وقع صفة للجنات ابتداء، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنات، فقدم ذكر الحلي وأخر اللباس لأن اللباس أشد اتصالا بأصحاب الجنة لا بمظاهر الجنة، وعكس ذلك في سورة الإنسان في قوله)عاليهم ثياب سندس(لأن الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنة.
وجملة)متكئين فيها على الأرائك(في موضع الحال من ضمير) يلبسون(.
والاتكاء: جلسة الراحة والترف. وتقدم عند قوله تعالى)وأعتدت لهن متكأ(في سورة يوسف عليه السلام .

صفحة : 2540

والأرائك: جمع أريكة. وهي اسم لمجموع سرير وحجلة. والحجلة: قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها. ولذلك يقال للنساء: ربات الحجال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فهي أريكة. ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة، وذلك من شعار أهل الترف.
وجملة)نعم الثواب(استئناف مدح، ومخصوص فعل المدح محذوف لدلالة ما تقدم عليه. والتقدير: نعم الثواب الجنات الموصوفة.
وعطف عليه فعل إنشاء ثان وهو)وحسنت مرتفقا(لأن)حسن(و) ساء(مستعملان استعمال)نعم(و)بئس(فعملا عملهما. ولذلك كان التقدير: وحسنت الجنات مرتفقا. وهذا مقابل قوله في حكاية حال أهل النار)وساءت مرتفقا(.
والمرتفق: هنا مستعمل في معناه الحقيقي بخلاف مقابله المتقدم.
)واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا[32] كلتا الجنتين آتت أكلها ولم

تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا[33] وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا[34] ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا[35] وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منهما منقلبا[36](عطف على جملة)وقل الحق من ربكم(الآيات، فإنه بعد أن بين لهم ما أعد لأهل الشرك وذكر ما يقابله مما أعده للذين آمنوا صرب مثلا لحال الفريقين بمثل قصة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين من عصر أهل الكهف، فضرب مثلا للفريقين للمشركين وللمؤمنين بمثل رجلين كان حال أحدهما معجبا مؤنقا وحال الآخر بخلاف ذلك؛ فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تباتا وخسارة، وكانت عاقبة الآخر نجاحا، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضا للصلاح والنجاح.

واللام في قوله)لهم(يجوز أن يتعلق بفعل)واضرب(كقوله تعالى)ضرب لكم مثلا من أنفسكم(. ويجوز أن يتعلق بقوله)مثلا(تعلق الحال بصاحبها، أي شبها لهم، أي للفريقين كما في قوله تعالى)فلا تضربوا لله الأمثال(، والوجه أن يكون متنازعا فيه بين)ضرب، ومثلا(.

والضمير في قوله)لهم(يعود إلى المشركين من أهل مكة على الوجه الأول ولم يتقدم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني.

ثم إن كان حال هذين الرجلين الممثل به حالا معروفا فالكلام تمثيل حال محسوس بحال محسوس. فقال الكلبي: المعني بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود ابن عبد الأشد بشين معجمة وقيل بسين مهملة بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل. ووقع في الإصابة: بن هلال، وكان زوج أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ولعلهما كانت بالطائف فإن فيه جنات أهل مكة.

وعن ابن عباس: هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا فاشترى أحدهما أرضا وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصه الله تعالى في هذه السورة، وحكى مصيرهما في الآخرة بما حكاه الله في سورة الصافات في قوله)فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل

منهم إني كان لي قرين يقول إنك لمن المصدقين(الآيات.. فتكون قصتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف.
وإن كان حال الرجلين حالا مفروضا كما جوزه بعض المفسرين فيما نقله عنه ابن عطية فالكلام على كل حال تمثيل محسوس بمحسوس لأن تلك الحالة متصورة متخيلة. قال ابن عطية: فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى)ومثل للذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة(الآيات.

صفحة : 2541

والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب مثل قوله)قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب(الخ فقد جاء) قال(غير مقترن بفاء وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة، ومثل قوله)ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا(أن يكون هذا المثل قصة معلومة ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية.
ومعنى)جعلنا لأحدهما(قدرنا له أسباب ذلك.
وذكر الجنة والأعناب والنخل تقدم في قوله تعالى)أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب(في سورة البقرة.
ومعنى)حففناهما(أحطناهما، يقال: حفه بكذا، إذا جعله حافا به، أي محيطا، قال تعالى)وترى الملائكة حافين من حول العرش(، لأن حف يتعدى إلى مفعول واحد فإذا أريد تعديته إلى ثان عدي إليه بالباء، مثل: غشيه وغشاه بكذا. ومن محاسن الجنات أن تكون محاطة بالأشجار المثمرة.
ومعنى)وجعلنا بينهما زرعا(ألهمناه أن يجعل بينهما. وظاهر الكلام أن هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين: كانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة. وتقدم ذكر الزرع في سورة الرعد.
و)كلتا(اسم دال على الإحاطة بالمثنى يفسره المضاف هو إليه، فهو اسم مفرد دال على شيئين نظير زوج. ومذكره)كلا(. قال سيبويه: أصل كلا كلو واصل كلتا كلوا فحذفت لام الفعل من كلتا وعوضت التاء عن اللام المحذوفة لتدل التاء على التأنيث. ويجوز في

خبر كلا وكلتا الإفراد اعتبارا للفظه وهو أفصح كما في هذه الآية. ويجوز تثنيته اعتبارا لمعناه كما في قول الفرزدق:

كلاهما حين جد الجري بينهما قد

أقلعا وكلا أنفيهما رابـي و)أكلها(قرأه الجمهور بضم الهمزة وسكون الكاف . وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف وهو الثمر، وتقدم.

وجملة)كلتا الجنتين آتت أكلها(معترضة بين الجمل المتعاطفة. والمعنى: أثمرت الجنتان إثمارا كثيرا حتى أشبهت المعطي من عنده.

ومعنى)ولم تظلم منه شيئا(لم تنقص منه، أي من أكلها شيئا، أي لم تنقصه عن مقدار ما تعطيه الأشجار في حال الخصب. ففي الكلام إيجاز بحذف مضاف. والتقدير: ولم تظلم من مقدار أمثاله. واستعير الظلم للنقص على طريقة التمثيلية بتشبيه هيئة صاحب الجنتين في إتقان خبرهما وترقب إثمارهما بهيئة من صار له حق في وفرة غلتها بحيث إذا لم تأت الجنتان بما هو مترقب منهما أشبهتا من حرم ذا حق حقه فظلمه، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار.

والتفجير تقدم عند قوله تعالى)حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(في سورة الإسراء.

والنهر بتحريك الهاء لغة في النهر بسكونها. وتقدم عند قوله تعالى)قال إن الله مبتليكم بنهر(في سورة البقرة.

وجملة)وكان له ثمر(في موضع الحال من)لأحدهما(. والثمر بضم الثاء والميم : المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع. وهو مأخوذ من ثمر ماله بتشديد الميم بالبناء للنائب، يقال: ثمر الله ماله إذا كثر. قال النابغة:

فلما رأى أن ثمر الله ماله وأثل

موجودا وسد مفاقره مشتقا من اسم الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة لأن الأرباح وعفو المال يشبهان ثمر الشجر. وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة. قال النابغة:

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر

من مال ومن ولد وقرأ الجمهور)ثمر(بضم المثلثة وضم الميم . وقرأه أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم . وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم .

فقالوا: إنه جمع ثمار الذي هو جمع ثمر، مثل كتب جمع كتاب فيكون دالا على أنواع كثيرة مما تنتجه المكاسب، كما تقدم آنفا في جمع أساور من قوله)أساور من ذهب(. وعن النحاس بسنده إلى ثعلب عن الأعمش: أن الحجاج قال: لو سمعت أحدا يقرأ)وكان له

ثمر(أي بضم الثاء لقطعت لسانه. قال تعلب: فقلت للأعمش: أنأخذ بذلك. قال: لا ولا نعمة عين، وكان يقرأ: ثمر، أي بضمتين.
والمعنى: وكان لصاحب الجنتين مال، أي غير الجنتين. والفاء لتفريع جملة)قال(على الجمل السابقة، لأن ما تضمنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس ينطق ربه عن مثل ذلك القول.

صفحة : 2542

و الصاحب هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به الملابس المخاصم، كما في قول الحجاج يخاطب الخوارج ألستم أصحابي بالأهواز .
والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين، أي فقال: من ليس له جنات في حوار بينهما. ولم يتعلق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة.
وجملة)وهو يحاوره(حال من ضمير)قال(.
والمحاورة: مراجعة الكلام بين متكلمين.
وضمير الغيبة المنفصل عائد على ذي الجنتين. والضمير المنصوب في)يحاوره(عائد على صاحب ذي الجنتين، ورب الجنتين يحاور صاحبه. دل فعل المحاورة على أن صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول شأن أهل الغطرسة والنقائض أن يعدلوا عن المجادلة بالتي هي أحسن إلى إظهار العظمة والكبرياء.
و)أعز(أشد عزة. والعزة: ضد الذل. وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته.
والنفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه. وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه بقوله)إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا(. وانتصب)نفرا(على تمييز نسبة)أعز(إلى ضمير المتكلم.
وجملة)ودخل جنته(في موضع الحال من ضمير)قال(، أي قال ذلك وقد دخل جنته مرافقا لصاحبه. أي دخل جنته بصاحبه، كما يدل عليه قوله)قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا(، لأن القول لا يكون إلا خطابا لآخر، أي قال له، ويدل عليه أيضا قوله)قال له صاحبه وهو يحاوره(. ووقوع جواب قوله)أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا(في خلال الحوار الجاري بينهما في تلك الجنة.
ومعنى)وهو ظالم لنفسه(وهو مشرك مكذب بالبعث بطر بنعمة الله عليه.

وإنما أفرد الجنة هنا وهما جنتان لأن الدخول إنما يكون لإحداها لأنه أول ما يدخل إنما يدخل إحداهما قبل أن ينتقل منها إلى الأخرى، فما دخل إلا إحدى الجنتين.

والظن بمعنى: الاعتقاد، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده.

وتبيد: تهلك وتفنى.

والإشارة بهذا إلى الجنة التي هما فيها، أي لا أعتقد أنها تنتفض وتضمحل.

والأبد: مراد منه طول المدة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة.

ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه، ولذلك عقب ذلك بقوله)ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منهما منقلبا(تهكما بصاحبه. وقرينة التهكم قوله)وما أظن الساعة قائمة(. وهذا كقول العاصي ابن وائل السهمي لخباب بن الأرت ليكونن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه .

وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم.

وانتصب)منقلبا(على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي يرجع.

وضمير)منهما(للجنتين عودا إلى أول الكلام تفننا في حكاية كلامه على قراءة الجمهور)منهما(بالتثنية، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف)منها(بالإفراد جريا على قوله)ودخل جنته(وقوله)أن تبيد هذه(.

)قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا[37] لاكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا[38] ولو لا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله(حكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف للدلالة على أنه واقع موقع المحاورة والمجاوبة، كما قدمناه غير مرة.

والاستفهام في قوله)أكفرت بالذي خلقك(مستعمل في التعجيب والإنكار، وليس على حقيقته، لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له)ولا أشرك بربي أحدا(. فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث، ولذلك عرف بطريق الموصولية لأن مضمون الصلة من شأنه أن يصرف من يدركه عن الإشراك به، فإنهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق الناس فما كان غير الله مستحقا للعبادة.

ثم إن العلم بالخلق الأول من شأنه أن يصرف الإنسان عن إنكار الخلق الثاني، كما قال تعالى)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(، وقال)وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه(، فكان مضمون الصلة تعريضا بجهل المخاطب.

وقوله)من تراب(إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض، كما قال تعالى في الآية الأخرى)سبحان الذي خلق الزواج كلها مما تنبت الأرض(.

والنطفة: ماء الرجل، مشتقة من النطف وهو السيلان.

و)سواك(عدل خلقك، أي جعله متناسبا في الشكل والعمل.

و)من(في قوله)من تراب ثم من نطفة(ابتدائية، وقوله)لكنا هو الله ربي(كتب في المصحف بألف بعد النون. واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق بالألف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل، ورسم المصحف يسمح بكلتا الروايتين.

ولفظ)لكنا(مركب من لكن بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم أنا . وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفا كما قال الزجاج، أي على غير قياس لا لعلة تصريفية، ولذلك لم يكن للهمزة حكم الثابت فلم تمنع من الإدغام الذي يمنع منه ما هو محذوف لعلة بناء على أن المحذوف لعلة بمنزلة الثابت، ونقلت حركتها إلى نون)لكن(الساكنة دليلا على المحذوف فالتقى نونان متحركتان فلزم إدغامهما فصار)لكنا(. ولا يجوز أن تكون لكن المشددة النون المفتوحتها أشبعت فتحتها، لأن لكن المشددة من أخوات إن تقتضي أن يكون الاسم بعدها منصوبا وليس هنا ما هو ضمير نصب، ولا يجوز اعتبار ضمير) أنا(ضمير نصب اسم)لكن(لأن ضمير المتكلم المنصوب يجب أن يكون بياء المتكلم، ولا اعتباره ضمير المتكلم المشارك لمنافاته لإفراد ضمائره بعده في قوله)هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا(.

)فأنا(مبتدأ، وجملة)هو الله ربي(ضمير شأن وخبره. وهي خبر) أنا(، أي شأني هو الله ربي. والخبر في قوله)هو الله ربي(مستعمل في الإقرار، أي أعترف بأنه ربي خلافا لك.

وموقع الاستدراك مضادة ما بعد)لكن(لما قبلها، ولا سيما إذا كان الرجلان أخوين أو خليلين كما قيل فإنه قد يتوهم أن اعتقادهما سواء.

وأكد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة، وهي: الجملتان الاسميتان، وضمير الشأن في قوله)لكنا هو الله ربي(، وتعريف المسند والمسند إليه في قول)الله ربي(المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم قصرا إضافيا بالنسبة لمخاطبه، أي دونك إذ تعبد آلهة غير الله، وما القصر إلا توكيد مضاعف، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله)ولا أشرك بربي أحدا(.

وعطف جملة)ولولا إذ دخلت(على جملة)أكفرت(عطف إنكار على إنكار. و)لولا(للتوبيخ، كشأنها إذا دخلت على الفعل الماضي، نحو)لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء(، أي كان الشأن أن نقول)ما شاء الله لا قوة إلا بالله(عوض قولك)ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة(. والمعنى: أكفرت بالله وكفرت نعمته.

و)ما(من قوله)ما شاء الله(أحسن ما قالوا فيها إنها موصولة، وهي خبر عن مبتدأ محذوف يدل عليه ملابسة حال دخول الجنة، أي هذه الجنة ما شاء الله، أي الأمر الذي شاء الله إعطاءه إياي.

وأحسن منه عندي: أن تكون)ما(نكرة موصوفة. والتقدير: هذه شيء شاء الله، أي لي.

وجملة)لا قوة إلا بالله(تعليل لكون تلك الجنة من مشيئة الله، أي لا قوة لي على إنشائها، أو لا قوة لمن أنشأها إلا بالله، فإن القوى كلها موهبة من الله تعالى لا تؤثر إلا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكرة والصانعة. فما في جملة)لا قوة إلا بالله(من العموم جعلها كالعلة والدليل لكون تلك الجنة جزئيا من جزئيات منشئات القوى البشرية الموهوبة للناس بفضل الله.

)إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا[39] فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا[40] أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا[41](

جملة ابتدائية رجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله)أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا(، وعظه فيها بأنه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلة أو إلى اضمحلال وأن يصير القليل ماله ذا مال كثير.

وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية تخفيفا وهو كثير.

و)أنا(ضمير فصل، فلذلك كان أقل منصوبا على أنه مفعول ثان ل)ترني(ولا اعتداد بالضمير. و)عسى(للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعله أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه.

والحسبان: مصدر حسب كالغفران. وهو هنا صفة لموصوف محذوف، أي هلاكا حسبانا، أي مقدرا من الله، كقوله تعالى)عطاء حسابا(. وقيل: الحسبان اسم جمع لسهام قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد. وقيل: اسم جمع حسبانة وهي الصاعقة. وقيل: اسم للجراد. والمعاني الأربعة صالحة هنا، والسماء: الجو المرتفع فوق الأرض.

والصعيد: وجه الأرض. وتقدم عند قوله تعالى)فتيمموا صعيدا طيبا(. وفسروه هنا بذلك فيكون ذكره هنا توطئة لإجراء الصفة عليه وهي)زلقا(.

وفي اللسان عن الليث يقال للحديقة، إذا خربت وذهب شجراؤها: قد صارت صعيدا، أي أرضا مستوية لا شجر فيها اه. وهذا إذا صح أحسن هنا، ويكون وصفه ب)زلقا(مبالغة في انعدام النفع به بالمرة. لكني أظن أن الليث ابتكر هذا المعنى من هذه الآية وهو تفسير معنى الكلام وليس تبيينا لمدلول لفظ. صعيد. ونظيره قوله)وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا(في أول هذه السورة.

والزلق: مصدر زلقت الرجل، إذا اضطربت وزلت على الأرض فلم تستقر. ووصف الأرض بذلك مبالغة، أي ذات زلق، أي هي مزلقة.

والغور: مصدر غار الماء، إذا ساخ الماء في الأرض. ووصفه بالمصدر للمبالغة، ولذلك فرع عليه)فلن تستطيع له طلبا(. وجاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء.

)وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا[42] ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا[43](كان صاحبه المؤمن رجلا صالحا فحقق الله رجاءه، أو كان رجلا محدثا من محدثي هذه الأمة، أو من محدثي الأمم الماضية على الخلاف في المعني بالرجلين في الآية، ألهمه الله معرفة ما قدره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبر.

وإنما لم تعطف جملة)وأحيط(بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن، وإنما المهم التنبيه على أن ذلك حادث حل بالكافر عقابا له على كفره ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله وأن ليس بخصوصية لدعوة الرجل المؤمن.

والإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم. وقد تقدمت في قوله تعالى)إلا أن يحاط بكم(في سورة يوسف وقوله)إن ربك أحاط بالناس(في سورة الإسراء.
والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حسبان من السماء فأصبحت صعيدا زلقا وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه.
وتقدم اختلاف القراء في لفظ)ثمر(آنفا عند قوله تعالى)وكان له ثمر(.
وتقليب الكفين: حركة يفعلها المتحسر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسرا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة. فهو كناية عن التحسر، ومثله قولهم: قرع السن من ندم، وقوله تعالى)عضوا عليكم الأنامل من الغيظ(.
والخاوية: الخالية، أي وهي خالية من الشجر والزرع، والعروش: السقف. و)على(للاستعلاء. وجلسة)على عروشها(في موضع الحال من ضمير)خاوية(.
وهذا التركيب أرسله القرآن مثلا للخراب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدم في قوله)أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها(في سورة البقرة، على أن الضمير مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته بعروشها، إذ القرية هي المنازل المركبة من جدران وسقف، ثم جعل ذلك مثلا لكل هلاك تام لا يبقي معه من الشيء الهالك.
وجملة)ويقول(حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب.
والمضارع للدلالة على تكرر ذلك القول منه.

صفحة : 2545

وحرف النداء مستعمل في التلهف. و)ليتني(تمن مراد به التندم. وأصل قولهم)يا ليتني(أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل، كأنه يخاطب كلمة)ليت(يقول: احضري فهذا أوانك، ومثله قوله تعالى) أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله(.
وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذ.
وقوله)ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله(موعظة وتنبيه على جزاء قوله)وأعز نفرا(.

والفتنة: الجماعة. وجملة)ينصرونه(صفة، أي لم تكن له فئة هذه صفتها، فإن فتنة لم تغن عنه من عذاب الله.
وقوله)وما كان منتصرا(أي ولا يكون له انتصار وتخلص من العذاب.
وقرأه الجمهور)ولم تكن(بمثناة فوقية اعتدادا بتأنيث)فئة(في اللفظ. وقرأه حمزة والكسائي وخلف)يكن(بالياء التحتية. والوجهان جائزان في العمل إذا رفع ما ليس بحقيقي التأنيث.
وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر، لأن الله قد يمتع كافرين كثيرين طوال حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم. وإنما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سلبت النعمة عن قارون حين قال)إنما أوتيته على علم عندي(. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة لأنها تجمع قوما يرونهم أحط منهم وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم طردهم عن مجلسه كما تقدم.
)هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا[44](تذييل للجمل قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى المقتضي تحقيق جملة)ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا(، وجملة)ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله(، وجملة)وما كان منتصرا(، لأن الولاية من شانها أن تبعث على نصر المولى وأن تطمع المولى في أن وليه ينصره. ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جراء كفره التجأ إلى أن يقول)يا ليتني لم أشرك بربي أحدا(، إذ علم أن الآلهة الأخرى لم تغن ولايتهم عنه شيئا، كما قال أبو سفيان يوم أسلم)لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئا(. فاسم الإشارة مبتدأ و)الولاية لله(جملة خبر عن اسم الإشارة.
واسم إشارة المكان البعيد مستعار للإشارة إلى الحال العجيبة بتشبيه الحالة بالمكان لإحاطتها بصاحبها، وتشبيه غرابتها بالبعد لندرة حصولها. والمعنى: أن في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله.
فالولاية: جنس معرف بلام الجنس يفيد أن هذا الجنس مختص باللام على نحو ما قرر في قوله تعالى)الحمد لله(.
والولاية بفتح الواو مصدر ولي، إذا ثبت له الولاء. وتقدمت عند قوله تعالى)ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا(في سورة الأنفال.
وقرأه حمزة والكسائي وخلف)الولاية(بكسر الواو وهي اسم للمصدر أو اسم بمعنى السلطان والملك.

و)الحق(قرأه الجمهور بالجر، على أنه وصف الله تعالى، كما وصف بذلك في قوله تعالى)وردوا إلى الله مولاهم الحق(في سورة يونس. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف)الحق(بالرفع صفة للولاية، ف)الحق(بمعنى الصدق لأن ولاية غيره كذب وباطل.

قال حجة الإسلام: والواجب بذاته هو الحق مطلقا، إذ هو الذي يستبين بالعقل أنه موجود حقا، فهو من حيث ذاته يسمى موجودا ومن حيث إضافته إلى العقل الذي أدركه على ما هو عليه يسمى حقا اه.

وبهذا يظهر وجه وصفه هنا بالحق دون وصف آخر، لأنه قد ظهر في مثل تلك الحال أن غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له.

)وخير(يجوز أن يكون بمعنى أخير، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعقب غيره، فإن ما يأتي من ثواب من غيره ومن عقبى إما زائف مفض إلى ضر وإما زائل، وثواب الله خالص دائم وكذلك عقباه.

ويجوز أن يكون)خير(اسما ضد الشر، أي هو الذي ثوابه وعقبه خير وما سواه فهو شر.

والتمييز تمييز نسبة الخير إلى الله. و)العقب(بضمتين وبسكون القاف بمعنى العاقبة، أي آخرة الأمر. وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله.

وقرأ الجمهور)عقبا(بضمتين وبالتنوين. وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين.

صفحة : 2546

فكان ناله ذلك الشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيرا وكانت عاقبته شرا عليه.

)واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا[45](كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غر طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(، وقال)أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(.

وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء)وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر(. وما كان أحد الرجلين الذين تقدمت قصتهما إلا واحدا من المشركين إذ قال)وما أظن الساعة قائمة(.

فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها.

والحياة الدنيا: تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها. فإطلاق اسم)الحياة الدنيا(على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها، فهي دنيا.

وتطلق الحياة الدنيا على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد.

ووصفها ب)الدنيا(بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المستنظرة، كنى عن الحضور بالقرب، والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهي الحياة بعد الموت.

والكاف في قوله)كماء(في محل الحال من الحياة المضاف إليه)مثل(. أي اضرب لهم مثلا لها حال أنها كماء أنزلناه.

وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها. فهما مرادان منه.

وضمير)لهم(عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قوله)وحشرناهم فلم نغادر منهم وعرضوا بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا(.

واختلاط النبات: وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوة الخصب والازدهار.

والباء في قوله)به(باء السببية. والضمير عائد إلى)ماء(أي فاختلط النبات بسبب الماء، أي اختلط بعض النبات ببعض. وليست الباء لتعدية فعل)اختلط(إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه، وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء محسن الطباق.

و)أصبح(مستعملة بمعنى صار، وهو استعمال شائع.

والهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مهشوما محطما. والهشم: الكسر والتفتيت.

و)تذروه الرياح(أي تفرقه في الهواء. والذرو: الرمي في الهواء.

شبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زمانا بهجة خضرة ثم يصير نبتها بعد حين إلى اضمحلال. ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال شيء. وهذا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة. وأيضا شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجدة وزخرف العيش لأهله. ثم تقلص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه

في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركب محسوس بمركب محسوس ووجه الشبه كما علمت.
وجملة)وكان الله على كل شيء مقتدرا(جملة معترضة في آخر الكلام. موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله)على كل شيء(وهو بذلك العموم أشبه التذييل.
والمقتدر: القوي القدرة.
)المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا[46](اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنها إلى زوال، كقوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملا. والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب، قال طرفة:

فكان ناله ذلك الشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيرا وكانت عاقبته شرا عليه.
)واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا[45](كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غر طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(، وقال)أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(.
وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء)وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر(. وما كان أحد الرجلين الذين تقدمت قصتهما إلا واحدا من المشركين إذ قال)وما أظن الساعة قائمة(.
فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها.

والحياة الدنيا: تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها. فإطلاق اسم)الحياة الدنيا(على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها، فهي دنيا.
وتطلق الحياة الدنيا على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد.
ووصفها ب)الدنيا(بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المستنظرة، كنى عن الحضور بالقرب، والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهي الحياة بعد الموت.
والكاف في قوله)كماء(في محل الحال من الحياة المضاف إليه)مثل(. أي اضرب لهم مثلا لها حال أنها كماء أنزلناه.
وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها. فهما مرادان منه.
وضمير)لهم(عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قوله)وحشرناهم فلم نغادر منهم وعرضوا بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا(.
واختلاط النبات: وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوة الخصب والازدهار.
والباء في قوله)به(باء السببية. والضمير عائد إلى)ماء(أي فاختلط النبات بسبب الماء، أي اختلط بعض النبات ببعض. وليست الباء لتعدية فعل)اختلط(إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه، وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء محسن الطباق.
و)أصبح(مستعملة بمعنى صار، وهو استعمال شائع.
والهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مهشوما محطما. والهشم: الكسر والتفتيت.
و)تذروه الرياح(أي تفرقه في الهواء. والذرو: الرمي في الهواء.
شبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زمانا بهجة خضرة ثم يصير نبتها بعد حين إلى اضمحلال. ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال شيء. وهذا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة. وأيضا شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجدة وزخرف العيش لأهله. ثم تقلص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركب محسوس بمركب محسوس ووجه الشبه كما علمت.
وجملة)وكان الله على كل شيء مقتدرا(جملة معترضة في آخر الكلام. موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم

الذي في قوله)على كل شيء(وهو بذلك العموم أشبه التذييل.
والمقتدر: القوي القدرة.
)المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا[46](اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنها إلى زوال، كقوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملا. والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بـي
بنـون كـرام سـادة لـمـسـود)والباقيات الصالحات(صفتان جرتا على موصوف محذوف، أي الأعمال الصالحات البقيات، أي التي لا زوال لها، أي لا زوال لخيرها، وهو ثوابها الخالد، فهي خير من زينة الحياة الدنيا التي هي غير باقية.
وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدم) الصالحات(على)الباقيات(لأنهما وإن كانا وصفين لموصوف محذوف إلا أن أعرفهما في وصفيه ذلك المحذوف هو الصالحات. لأنه قد شاع أن يقال: الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال البقيات، ولأن بقاءها مترتب على صلاحها، فلا جرم أن الصالحات وصف قام مقام الموصوف وأغنى عنه كثيرا في الكلام حتى صار لفظ) الصالحات(بمنزلة الاسم الدال على عمل خير، وذلك كثير في القرآن قال تعالى)وعملوا الصالحات(، وفي كلامهم قال جرير
كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل
لأم بظهر الغيب تأتيني ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدم) الباقيات(للتنبيه على أن ما ذكر قبله إنما كان مفصولا لأنه ليس بباق، وهو المال والبنون، كقوله تعالى)وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع(، فكان هذا التقديم قاضيا لحق الإيجاز لإغنائه عن كلام محذوف، تقديره: أن ذلك زائل أو ما هو بباق والباقيات من الصالحات خير منه، فكان قوله)فأصبح هشيما تذروه الرياح(مفيدا للزوال بطريقة التمثيل وهو من دلالة التضمن، وكان قوله) والباقيات(مفيدا زوال غيرها بطريقة الالتزام، فحصل دلالتان غير

مطابقتين وهما أوقع في صناعة البلاغة، وحصل بثانيتهما تأكيد لمفاد الأولى فجاء كلاما مؤكدا موجزا.
ونظير هذه الآية آية سورة مريم قوله)والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا(فإنه وقع إثر قوله)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا(الآية.
وتقديم المال على البنين في الذكر لأنه أسبق خطورا لأذهان الناس، لأنه يرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ولذلك أيضا قدم في بيت طرفة المذكور آنفا.
ومعنى)وخير أملا(أن أمل الآمل في المال والبنين إنما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله ومقصور على مدته. وأما الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد. ويأمل شيئا تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(. فلا جرم كان قوله)وخير أملا(بالتحقق والعموم تذييلا لما قبله.
)ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا[47] وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا[48](عطف على جملة)واضرب لهم مثل الحياة الدنيا(فلفظ)يوم(منصوب بفعل مضمر. تقديره: اذكر. كما هو متعارف في أمثاله. فبعد أن بين لهم تعرض ما هم فيه من نعيم إلى الزوال على وجه الموعظة، أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال بتصوير حال البعث وما يترقبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضده المذكور في قوله)والباقيات الصالحات خير(.
ويجوز أن يكون الظرف متعلقا بمحذوف غير فعل)أذكر(يدل عليه مقام الوعيد مثل: يرون أمرا مفظعا أو عظيما أو نحو ذلك مما تذهب إلى تقديره نفس السامع. ويقدر المحذوف متأخرا عن الظرف وما اتصل به لقصد تهويل اليوم وما فيه.
ولا يجوز أن يكون الظرف متعلقا القول المقدر عند قوله)لقد جئتمونا(إذ لا يناسب موقع عطف هذه الجملة على التي قبلها. ولا وجه معه لتقديم الظرف على عامله.

وتسيير الجبال: نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم، وهو مثل قوله تعالى)وإذا الجبال سيرت(وقوله تعالى)وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب(. وقيل : أطلق التسيير على تناثر أجزائها. فالمراد ويوم نسير كل جبل من الجبال، فيكون كقوله) وتكون الجبال كالعهن المنفوس(وقوله)وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا(وقوله)وسيرت الجبال فكانت سرابا(. والسبب واحد، والكيفيتان متلازمتنا. وهو من أحوال انقراض نظام هذا العالم، وإقبال عالم الحياة الخالدة والبعث.

وقرأ الجمهور)نسير(بنون العظمة. وقرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو)ويوم تسير الجبال(بمثناة فوقية ببناء الفعل إلى المجهول ورفع)الجبال(.

والخطاب في قوله)وترى الأرض بارزة(لغير معين. والمعنى: ويرى الرائي، كقول طرفة:

ترى جشوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد وهو نظير قوله)فترى المجرمين مشفقين مما فيه(.

والبارزة: الظاهرة، أي الظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان، كقوله تعالى)فإذا هم بالساهرة(.

وجملة)وحشرناهم(في موضع الحال من ضمير)تسير(على قراءة من قرأ بنون العظمة، أو من الفاعل المنوي الذي يقتضيه بناء الفعل للنائب على قراءة من قرأ)تسير الجبال(بالبناء للنائب.

ويجوز أن نجعل جملة)وحشرناهم(معطوفة على جملة)نسير الجبال(على تأويله ب)نحشرهم(بأن أطلق الفعل الماضي على المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه.

والمغادرة: إبقاء شيء وتركه من تعلق فعل به. وضمائر الغيبة في)حشرناهم ومنهم وعرضوا(عائدة إلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في قوله)واضرب لهم مثل الحياة الدنيا(.

وعرض الشيء: إحضاره ليرى حاله وما يحتاجه. ومنه عرض الجيش على الأمير ليرى حالهم وعدتهم. وفي الحديث عرضت علي الأمم وهو هنا مستعار لإحضارهم حيث يعلمون أنهم سيتلقون ما يأمر الله به في شأنهم.

والصف: جماعة يقفون واحدا حذو واحد بحيث يبدو جميعهم لا يحجب أحد منهم أحدا. وأصله مصدر صفهم إذا أوقفهم، أطلق على المصفوف. وانتصب)صفا(على الحال من واو)عرضوا(. وتلك الحالة إيذان بأنهم أخضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحد إيقاعا للرعب في قلوبهم.

وجملة)وعرضوا على ربك(معطوفة على جملة)وحشرناهم(، فهي في موضع الحال من الضمير المنصوب في)حشرناهم(، أي حشرناهم وقد عرضوا تنبيها على سرعة عرضهم في حين حشرهم.
وعدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة في قوله)على ربك(دون أن يقال علينا لتضمن الإضافة تنويها بشأن المضاف إليه بأن في هذا العرض وما فيه من التهديد نصيبا من الانتصار للمخاطب إذ كذبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث.
وجملة)لقد جئتمونا(مقول لقول محذوف دل عليه أن الجملة خطاب للمعروضين فتهين تقدير القول. وهذه الجملة في محل الحال. والتقدير: قائلين لهم لقد جئتمونا. وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى وهم يعلمون أنه من جانب الله تعالى.
والخطاب في قوله)لقد جئتمونا(موجه إلى معاد ضمير)عرضوا(.
والخبر في قوله)لقد جئتمونا(مستعمل في التهديد والتغليظ والتنديم على إنكارهم البعث. والمجيء: مجاز في الحضور، شبهوا حين موتهم بالغائبين وشبهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب.
وقوله)كما خلقناكم أول مرة(واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة، أي جئتمونا مجيئا كخلقكم أول مرة. فالخلق الثاني أشبه الخلق الأول، أي فهذا خلق ثان. و)ما(مصدرية، أي كخلقنا إياكم المرة الأولى، قال تعالى)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(. والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث.
والإضراب في قوله)بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا(انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط إلى التصريح بالتغليط في قالب الإنكار؛ فالخبر مستعمل في التغليط مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي.
والزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرض للكذب. والموعد أصله: وقت الوعد بشئ أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت.
والمعنى: أنكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد للبعث بعد الموت أبدا.

صفحة : 2549

) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصياها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا[49](جملة)ووضع

الكتاب(معطوفة على جملة)وعرضوا على ربك(، فهي في موضع الحال، أي وقد وضع الكتاب.
والكتاب مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لأن لكل أحد كتابا، كما دلت عليه آيات أخرى منها قوله تعالى)وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا أقرأ كتابك(الآية. وإفراد الضمير في قوله)مما فيه(لمراعاة إفراد لفظ)الكتاب(. وعن الغزالي: أنه قال: يكون كتاب جامع لجميع ما هو متفرق في الكتب الخاصة بكل أحد. ولعله انتزعه من هذه الآية. وتفرع على وضع الكتاب بيان حال المجرمين عند وضعه.
والخطاب بقوله)فترى(لغير معين. وليس للنبي صلى الله عليه وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع.
والإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل.
والتعبير بالمضارع في)يقولون(لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرر قولهم ذلك وإعادته شأن الفزعين الخائفين.
ونداء الويل: ندبة للتوجع من الويل. وأصله نداء استعمل مجازا بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضورة، كأنه يقول: هذا وقتك فاحضري، ثم شاع ذلك فصار لمجرد الغرض من النداء وهو التوجع ونحوه.
والويلة: تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاك. كما أنثت الدار على دارة، للدلالة على سعة المكان. وقد تقدم عند قوله تعالى)قال يا وليتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب(في سورة العقود.
والاستفهام في قولهم)ما لهذا الكتاب(مستعمل في التعجيب. فما اسم استفهام، ومعناها: أي شيء، و)لهذا الكتاب(صفة ل)ما(الاستفهامية لما فيها من التنكير، أي ما ثبت لهذا الكتاب.
واللام للاختصاص مثل قوله)ما لك لا تأمنا على يوسف(.
وجملة)لا يغادر(في موضع الحال، هي مثار التعجيب، وقد جرى الاستعمال بملازمة الحال لنحو)ما لك(فيقولون: ما لك لا تفعل وما لك فاعلا.
والمغادرة: الترك، وتقدم آنفا في قوله)فلم نغادر منهم أحدا(.
والصغيرة والكبيرة: وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام، أي فعلة أو هنة. والمراد بالصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة. والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء ويكونان بحسب القوة والضعف.
وتقديم ذكر الصغيرة لأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأن

التعميم أيضا مما يثير التعجب. فقد عجبوا من إحاطة كاتب الكتاب بجميع الأعمال.
والاستثناء من عموم أحوال الصغيرة والكبيرة، أي لا يبقي صغيرة ولا كبيرة في جميع أحوالهما إلا في حال إحصائه إياها، أي لا يغادره غير محصي. فالاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لأنه إذا أحصاه فهو لم يغادره، فآل إلى معنى أنه لا يغادر شيئا، وانتفت حقيقة الاستثناء.
فجملة)أحصاها(في موضع الحال. والرابط بينها وبين ذي الحال حرف الاستثناء. والإحصاء: العد، أي كانت أفعالهم معدودة مفصلة.
وجملة)ووجدوا ما عملوا حاضرا(في موضع الحال من ضمير) يقولون(. أي إنما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كلها عند وضع ذلك الكتاب عرضا سريعا حصل به علم كل بما في كتابه على وجه خارق للعادة.
وجملة)ولا يظلم ربك أحدا(عطف على جملة)ووجدوا ما عملوا حاضرا(لما أفهمته الصلة من أنهم لم يجدوا غير ما عملوا، أي لم يحمل عليهم شيء لم يعملوه، لأن الله لا يظلم أحدا فيؤاخذه بما لم يقترفه، وقد حدد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله، وتوعدهم ووعدهم، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم. والمقصود: إفادة هذا الشان من شؤون الله تعالى، فلذلك عطفت الجملة لتكون مقصودة أصالة. وهي مع ذلك مفيدة معنى التذييل لما فيها من الاستدلال على مضمون الجملة قبلها، ومن العموم الشامل لمضمون الجملة قبلها وغيره، فكانت من هذا الوجه صالحة للفصل بدون عطف لتكون تذييلا.

صفحة : 2550

)وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا[50](عطف على جملة)ويوم نسير الجبال(بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفننا لغرض الموعظة الذي سبقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والأعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تكسب أصحابها كمالا نفسيا. وكما وعظوا بآخر أيام الدنيا ذكروا هنا بالموعظة بأول أيامها وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله)يوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم(الآية، فإن الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.

ولها أيضا مناسبة بما تقدم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميزوا بين الكمال الحق والغرور الباطل، كما أشار إليه قوله تعالى)واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي(، فكان في قصة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأن في هذه القصة تذكيرا بأن الشيطان هو أصل الضلال، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فرع على الأمرين قوله تعالى)أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو(.

وهذه القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة مثلا إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقس على ذلك.

و فسق: تجاوز عن طاعته. وأصله قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها فاستعمل مجازا في التجاوز. قال أبو عبيدة. والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة. قال أبو عبيدة: لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنما تكلم به العرب بعد نزول القرآن ، أي في هذه الآية ونحوها. ووافقه المبرد وابن الأعرابي. وأطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم، وتقدم في سورة البقرة عند قوله تعالى)وما يضل به إلا الفاسقين(.

والأمر في قوله)عن أمر ربه(بمعنى المأمور، أي ترك وابتعد عما أمره لله به.

والعدول في قوله)عن أمر ربه(إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله بأنه فسق عبد أمر من تجب عليه طاعته لأنه مالكه.

وفرع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء لأن تكبره على آدم يقتضي عداوته للنوع، ولأن عصيانه أمر مالكه يقتضي أنه لا يرجى منه خير وليس أهلا لأن يتبع.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين، إذ كانوا يعبدون الجن، قال تعالى)وجعلوا لله شركاء الجن(. ولذلك علل النهي بجملة الحال وهي جملة)وهم لكم عدو(.

والذرية: النسل، وذرية الشيطان الشياطين والجن.

والعدو: اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة(وقال)هم العدو(.

عومل هذا الاسم معاملة المصادر لأنه على زنة المصدر مثل القبول والولوع، وهما مصدران. وتقدم عند قوله تعالى)فإن كان من قوم عدو لكم(في سورة النساء.
والولي: من يتولى، أي يتخذ ذا ولاية بفتح الواو وهي القرب. والمراد به القرب المعنوي، وهو الصداقة والنسب والحلف.
و)من(زائدة للتوكيد، أي تتخذونهم أولياء مباعدين لي. وذلك هو إشراكهم في العبادة، فإن كل حالة يعبدون فيها الآلهة هي اتخاذ لهم أولياء من دون الله.
والخطاب في)أتتخذونه(وما بعده خطاب للمشركين الذين اتخذوه وليا. وتحذير للمسلمين من ذلك.
وجملة)بئس للظالمين بدلا(مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إياهم أولياء. أي بئس البدل للمشركين الشيطان وذريته، فقوله)بدلا(تمييز مفسر لاسم)بئس(المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل.
والظالمون هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم. ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذم لهم.

صفحة : 2550

)وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا[50](عطف على جملة)ويوم نسير الجبال(بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفننا لغرض الموعظة الذي سبقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والأعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تكسب أصحابها كمالا نفسيا. وكما وعظوا بآخر أيام الدنيا ذكروا هنا بالموعظة بأول أيامها وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله)يوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم(الآية، فإن الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.
ولها أيضا مناسبة بما تقدم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميزوا بين الكمال الحق والغرور الباطل، كما أشار إليه قوله تعالى)واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي(، فكان في قصة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأن في هذه القصة تذكيرا بأن الشيطان هو أصل الضلال، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى

اتباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فرع على الأمرين قوله تعالى)أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو(.

وهذه القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة مثلا إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقس على ذلك.

و فسق: تجاوز عن طاعته. وأصله قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها فاستعمل مجازا في التجاوز. قال أبو عبيدة. والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة. قال أبو عبيدة: لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنما تكلم به العرب بعد نزول القرآن ، أي في هذه الآية ونحوها. ووافقه المبرد وابن الأعرابي. وأطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم، وتقدم في سورة البقرة عند قوله تعالى)وما يضل به إلا الفاسقين(.

والأمر في قوله)عن أمر ربه(بمعنى المأمور، أي ترك وابتعد عما أمره لله به.

والعدول في قوله)عن أمر ربه(إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله بأنه فسق عبد أمر من تجب عليه طاعته لأنه مالكه.

وفرع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء لأن تكبره على آدم يقتضي عداوته للنوع، ولأن عصيانه أمر مالكه يقتضي أنه لا يرجى منه خير وليس أهلا لأن يتبع.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين، إذ كانوا يعبدون الجن، قال تعالى)وجعلوا لله شركاء الجن(. ولذلك علل النهي بجملة الحال وهي جملة)وهم لكم عدو(.

والذرية: النسل، وذرية الشيطان الشياطين والجن.

والعدو: اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة(وقال)هم العدو(.

عومل هذا الاسم معاملة المصادر لأنه على زنة المصدر مثل القبول والولوع، وهما مصدران. وتقدم عند قوله تعالى)فإن كان من قوم عدو لكم(في سورة النساء.

والولي: من يتولى، أي يتخذ ذا ولاية بفتح الواو وهي القرب. والمراد به القرب المعنوي، وهو الصداقة والنسب والحلف.

و)من(زائدة للتوكيد، أي تتخذونهم أولياء مباعدين لي. وذلك هو

إشراكهم في العبادة، فإن كل حالة يعبدون فيها الآلهة هي اتخاذ لهم أولياء من دون الله.
والخطاب في)أتتخذونه(وما بعده خطاب للمشركين الذين اتخذوه وليا. وتحذير للمسلمين من ذلك.
وجملة)بئس للظالمين بدلا(مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إياهم أولياء. أي بئس البدل للمشركين الشيطان وذريته، فقوله)بدلا(تمييز مفسر لاسم)بئس(المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل.
والظالمون هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم. ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذم لهم.

صفحة : 2551

)ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا[51](تتنزل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما)أفتتخذونه وذريته(إلى قوله)بدلا(، فإنهم لما لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقاء بان يعبدوا. وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به فإنهم يعترفون بأن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات.
والإشهاد: جعل الغير شاهدا، أي حاضرا، وهو هنا كناية عن إحضار خاص، وهو إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه. ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالفحوى أي، بالأولى، فإن خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذريته، فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم. وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، والقدم من لوازم الإلهية. وضمائر الغيبة في قوله)أشهدتم(وقوله)أنفسهم(عائدة إلى المتحدث عنه، أي إبليس وذريته كما عاد إليهم الضمير في قوله)وهم لكم عدو(.
ومعنى)أنفسهم(، أنفس بعضهم بقرينة استحالة مشاهدة المخلوق خلق نفسه، فإطلاق الأنفس هنا نظير إطلاقه في قوله تعالى)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم(وفي قوله)ولا تخرجون أنفسكم من دياركم(، أي أنفس بعضكم. فعلى هذا الوجه تتناسق الضمائر ويتقوم المعنى المقصود.
واعلم أن الله تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكانهما كما دل عليه قوله)قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض

في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها(. وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنا متصرفين فكانوا إذا نزلوا واديا مخوفا قالوا: أعوذ بعزيز هذا الوادي، ليكونوا في أمن من ضره.

وقرأ أبو جعفر)ما أشهدناهم(بنون العظمة، وقرأ)وما كنت(بفتح التاء على الخطاب، والخطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في النهي.

والمراد)بالمضلين(الشياطين، لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، كما قال تعالى)وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتومهم إنكم لمشركون(.

وجملة)وما كنت متخذ المضلين عضدا(تذييل لجملة)ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض(.

والعدول عن الإضمار بأن يقال: وما كنت متخذهم إلى) المضلين(لإفادة الذم، ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلا.

والعضد بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم. وفيه لغات أخرى أضعف. ونسب ابن عطية أن أبا عمرو قراه بضم العين وضم الضاد على أنها لغة في عضد وهي رواية هارون عن أبي عمرو وليست مشهورة. وهو: العظم الذي بين المرفق والكتف. وهو يطلق مجازا على المعين على العمل، يقال: فلان عضدي واعتضدت به.

والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرفي في الإنشاء، فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة، أي لا يعين المعين إلا على عمل أمثاله، ولا يكون إلا قرينا لأشكاله.

)ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا[52](عطف على جملة)وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم(فيقدر: واذكر يوم يقول نادوا شركائي، أو على جملة)ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض(، فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ. وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها، فإنه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها

استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة.

صفحة : 2552

وقرأه الجمهور)يقول(بياء الغيبة وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى لدلالة المقام عليه، وقرأ حمزة)نقول(بنون العظمة.
واليوم الذي يقع فيه يوم الحشر. والمعنى: يقول للمشركين، كما دل عليه قوله)الذين زعمتم(، أي زعمتموهم شركائي. وقدم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم تهكما بالمخاطبين وتوبيخا لهم، ثم أردف بما يدل على كذبهم فيما ادعوا بفعل الدال على اعتقاد باطل.
والنداء: طلب الإقبال للنصرة والشفاعة.
والاستجابة: الكلام الدال على سماع النداء والأخذ في الإقبال على المنادي بنحو قول: لبيكم.
وأمره إياهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمة وهو إظهار باطلهم بقرينة الزعم. ولذلك لم يسعهم إلا أن ينادوهم حيث قال)فدعوهم(لطمعهم، فإذا نادوهم تبين لهم خيبة طمعهم. ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب. وأتى به في صيغة المضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذ حتى كأنه قد انقضى.
والموبق: مكان الوبوق، أي الهلاك. يقال: وبق مثل وعد ووجل وورث. والموبق هنا أريد به جهنم، أي حين دعوا أصنامهم بأسمائهم كون الله فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فوهات جهنم، ويجوز أن تكون جملة)وجعلنا بينهم موبقا(جملة حال، أي وقد جعلنا بينهم موبقا تمهيدا لما من قوله)ورأى المجرمون النار(.
)ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا[53](عطف على جملة)وجعلنا بينهم موبقا(، أي جعلنا الموبق ورآه المجرمون، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على ما يفيد المجرمون من تلبسهم بما استحقوا به عذاب النار. وكذلك ب)النار(في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أن الموبق هو النار فهو شبيه بعطف البيان.
والظن مستعمل هنا في معنى التحقق وهو من استعمالاته. ولعل اختياره هنا ضرب من التهكم بهم، بأنهم رجحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك.

والمواقعة: مفاعلة من الوقوع، وهو الحصول لقصد المبالغة، أي واقعون فيها وقوع الشيء الحاصل في موقع يتطلبه فكأنه يقع هو فيه.
والمصرف: مكان الصرف، أي التخلص والمجاوزة. وفي الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفا، أي مخلصا.
)ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا[54](عطف على الجمل السابقة التي ضربت فيها أمثال من قوله)واضرب لهم مثلا رجلين(وقوله)واضرب لهم مثل الحياة الدنيا(. ولما كان في ذلك لهم مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن عودا ناظرا إلى قوله)واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك(وقوله)وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر(، فأشار لهم أن هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم هي من جملة هدي القرآن الذي تبرموا منه. وتقدم الكلام على نظير هذه الآية عند قوله)ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا(في سورة الإسراء، سوى أنه يتجه هنا أن يسال لم قدم في هذه الآية أحد متعلقي فعل التصريف على الآخر إذ قدم هنا قوله)في هذا القرآن(على قوله) للناس(عكس آية سورة الإسراء. وهو ما أشرنا إليه عند الآية السابقة من أن ذكر القرآن أهم من ذكر الناس بالأصالة، ولا مقتضى للعدول عنه هنا بل الأمر بالعكس لأن الكلام جار في التنويه بشأن القرآن وأنه ينزل بالحق لا بهوى الأنفس.
والناس: اسم عام لكل من يبلغه القرآن في سائر العصور المستقبلة، والمقصود على الخصوص المشركون. كما دل عليه جملة)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(، فوزانه وزان قوله)ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا(. وسيجيء قوله)ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق(. وهذا يشبه العام الوارد على سبب خاص وقرائن خاصة.

صفحة : 2553

وجملة)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(تذييل، وهو مؤذن بكلام محذوف على وجه الإيجاز، والتقدير: فجادلوا فيه وكان الإنسان أكثر جدلا، فإن الإنسان اسم لنوع بني آدم. وحرف)ال(فيه لتعريف الحقيقة فهو أوسع عموما من لفظ الناس. والمعنى: أنهم جادلوا. والجدال: خلق ، منه ذميم يصد عنه تأديب الإسلام ويبقى في خلق

المشركين. ومنه محمود كما في قوله تعالى)فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب(، فأشار بالثناء على إبراهيم إلى أن جداله محمود. وليس المراد بالإنسان الإنسان الكافر كما في قوله تعالى)يقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(ولا المراد بالجدل الجدل بالباطل، لأن هذا سيجيء في قوله تعالى)ويجادل الذين كفروا بالباطل(الآية، فقوله هنا)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(تمهيد لقوله بعده)ويجادل الذين كفروا بالباطل(.

و)شيء(اسم مفرد متوغل في العموم. ولذلك صحت إضافة اسم التفضيل إليه، أي أكثر الأشياء. واسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة مثل قوله)رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه(، وإنما أتي بصيغته لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما ترك الجدال في شأنه أحسن، بحيث إن شدة الوصف فيه تشبه تفوقه في الوصف على كل من يعرض أنه موصوف به.

وإنما ألجئنا إلى هذا التأويل في اسم التفضيل لظهور أن غير الإنسان من أنواع ما على الأرض لا يتصور منه الجدل. فالجدل خاص بالإنسان لأنه من شعب النطق الذي هو فصل حقيقة الإنسانية، أما الملائكة فجدلهم محمود مثل قولهم)أتجعل فيها من يفسد فيها(إلى قوله)ونقدس لك(. وأما الشياطين فهم أكثر جدلا من الإنسان، ولكن لما نبا المقام عن إرادتهم كانوا غير مرادين بالتفضيل عليهم في الجدل.

و)جدلا(تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان. والمعنى: وكان الإنسان كثيرا من جهة الجدل، أي كثيرا جدله. ويدل لهذا المعنى ما ثبت في الصحيح عن علي: أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال: ألا تصليان؟ فقال علي: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، قال: فانصرف رسول الله حين قلت له ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(. يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأولى بعلي أن يحمد إيقاظ رسول الله إياه ليقوم من الليل وأن يحرص على تكرر ذلك وأن يسر بما في الكلام رسول الله من ملام، ولا يستدل بما يحبذ استمرار نومه، فذلك محل تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جواب علي رضي الله عنه .

ولا يحسن أن يحمل التفضيل في الآية على بابه بأن يراد أن الإنسان أكثر جدلا من الشياطين والجن مما يجوز على حقيقته الجدل لأنه محمل لا يراد مثله في مثل هذا. ومن أنبأنا أن للشياطين والجن مقدرة على الجدل؟ والجدل: المنازعة بمعاوضة

القول، أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي أو عزم عليه: بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل، قال تعالى)ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن(، وقال)قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله(، وقال)يجادلنا في قوم لوط(، وقال)ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم(، وقال) يجادلونك في الحق بعد ما تبين(.

والمراد هنا مطلق الجدل وبخاصة ما كان منه بباطل، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله. وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل.

)وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا[55](

صفحة : 2554

عطف على جملة)ولقد صرفنا في هذا القرآن(الخ. ومعناها متصل تمام الاتصال بمعنى الجملة التي قبلها بحيث لو عطفت عليها بفاء التفريع لكان ذلك مقتضى الظاهر. وتعتبر جملة)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(معترضة بينهما أولا أن في جعل هذه الجملة مستقلة بالعطف اهتماما بمضمونها في ذاته، بحيث يعد تفريعه على مضمون التي قبلها يحيد به عن الموقع الجدير هو به في نفوس السامعين إذ أريد أن يكون حقيقة مقررة في النفوس. ولهذه الخصوصية فيما أرى عدل في هذه الجملة عن الإضمار إلى الإظهار بقوله)وما منع الناس(وبقوله)إذ جاءهم الهدى(دون أن يقول: وما منعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى قصدا لاستقلال الجملة بذاتها غير مستعانة بغيرها، فتكون فائدة مستقلة تستأهل توجه العقول إلى وعيها لذاتها لا لأنها فرع على غيرها.

على أن عموم)الناس(هنا أشتمل من عموم لفظ)الناس(في قوله)ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس(فإن ذلك يعم الناس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية، وهذا يعم الناس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله.

وكذلك عموم لفظ)الهدى(يشمل هدى القرآن وما قبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلها، فكانت هذه الجملة قياسا تمثيليا بشواهد التاريخ وأحوال تلقي الأمم دعوات رسلهم.

فالمعنى: ما منع هؤلاء المشركين من الإيمان بالقرآن شيء يمنع مثله، ولكنهم كالأمم الذين قبلهم الذين جاءهم الهدى بأنواعه من كتب وآيات وإرشاد إلى الخير.

والمراد ب)الأولين(السابقون من الأمم في الضلال والعناد. ويجوز أن يراد بهم الآباء، أي سنة آبائهم، أي طريقتهم ودينهم. ولكل أمة أمة سبقتها.

و)أن تأتيهم(استثناء مفرغ هو فاعل)ما منع(.)أن يؤمنوا(منصوب على نزع الخافض، أي من أن يؤمنوا.

ومعنى)تأتيهم سنة الأولين(تحل فيهم وتعتريهم. أي تلقى في نفوسهم وتسول إليهم. والمعنى: أنهم يشبهون خلق من كانوا قبلهم من أهل الضلال ويقلدونهم، كما قال تعالى)أتواصوا به بل هم قوم طاغون(.

وسنة الأولين: طريقتهم في الكفر. وإضافة)سنة(إليهم تشبه إضافة المصدر إلى فاعله. أي السنة التي سنها الأولون. وإسناد منعهم من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين استعارة.

والمعنى: ما منع الناس أن يؤمنوا إلا الذي منع الأولين قبلهم من عادة العناد والطغيان وطريقتهم في تكذيب الرسل والاستخفاف بهم.

وذكر الاستغفار هنا بعد ذكر الإيمان تلقين إياهم بأن يبادروا بالإقلاع عن الكفر وأن يتوبوا إلى الله من تكذيب النبي ومكابرته.

و)أو(هي التي بمعنى إلى ، وانتصاب فعل)يأتيهم العذاب(ب)أن(مضمرة بعد)أو(. و)أو(متصلة المعنى بفعل)منع(، أي منعهم تقليد سنة الأولين من الإيمان إلى أن يأتيهم العذاب كما أتى الأولين.

هذا ما بدا لي في تفسير هذه الآية وأراه أليق بموقع هاته الآية من التي قبلها.

فأما جميع المفسرين فقد تأولوا الآية على خلاف هذا على كلمة واحدة فجعلوا المراد بالناس عين المراد بهم في قوله)ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل(، أي ما منع المشركين من الإيمان بالله ورسوله. وجعلوا المراد بالهدى عين المراد بالقرآن، وحملوا سنة الأولين على معنى سنة الله في الأولين، أي الأمم المكذبين الماضين، أي فإضافة)سنة(إلى)الأولين(مثل إضافة المصدر إلى مفعوله، وهي عادة الله فيهم، أي يعذبهم عذاب الاستئصال.

وجعلوا إسناد المنع من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين، بتقدير مضاف، أي انتظار أن تأتيهم سنة الله في الأولين، أي ويكون الكلام تهكما وتعريضا بالتهديد بحلول العذاب بالمشركين، أي لا يؤمنون إلا عند نزول عذاب الاستئصال، أي على معنى قوله تعالى)فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا(.

وجعلوا قوله)أو يأتيهم العذاب قبلا(قسيما لقوله)إلا أن تأتيهم سنة الأولين(،فحرف)أو(للتقسيم، وفعل)يأتيهم(منصوب بالعطف على فعل)أن تأتيهم سنة الأولين(بالاستئصال المفاجئ أو يأتيهم العذاب مواجها لهم. وجعلوا)قبلا(حالا من)العذاب(، أي مقابلا. قال الكلبي: وهو عذاب السيف يوم بدر. ولعله يريد أنه عذاب مقابلة وجها لوجه، أي عذاب الجلاد بالسيوف. ومعناه: أن المشركين منهم من ذاق عذاب السيف في غزوات المسلمين، ومنهم من مات فهو يرى عذاب الآخرة. وعلى هذا التفسير الذي سلكوه ينسلخ من الآية معنى التذييل، وتقصر على معنى التهديد.

والإتيان: مجاز في الحصول في المستقبل، لوجود)أن(المصدرية التي تخلص المضارع للاستقبال، وهو استقبال نسبي فلكل أمة استقبال سنة من قبلها.

والسنة: العادة المألوفة في حال من الأحوال.

وإسناد منعهم الإيمان إلى إتيان سنة الأولين أو إتيان العذاب إسناد مجاز عقلي. والمراد: ما منعهم إلا سبب إتيان سنة الأولين لهم أو إتيان العذاب. وسبب ذلك هو التكبر والمكابرة والتمسك بالضلال، أي أنه لا يوجد مانع يمنعهم الإيمان يخولهم المعذرة به ولكنهم جروا على سنن من قبلهم من الضلال. وهذا كناية عن انتفاء إيمانهم إلى أن يحل بهم أحد العذابين.

وفي هذه الكناية تهديد وإنذار وتحذير وحث على المبادرة بالاستغفار من الكفر. وهو في معنى قوله تعالى)إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم(.

و)قبلا(حال من العذاب. وهو بكسر القاف وفتح الباء في قراءة الجمهور بمعنى المقابل الظاهر. وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف)قبلا(بضمتين وهو جمع قبيل، أي يأتيهم العذاب أنواعا.

)وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا[56](بعد أن أشار إلى جدالهم في هدى القرآن بما مهد له من قوله)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(. وأشار إلى أن الجدال فيه مجرد مكابرة وعناد، وأنه لا يحف بالقرآن ما يمنع من الإيمان به كما لم يحف بالهدى الذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أعقب ذلك بأن وظيفة الرسل التبليغ بالبشارة والنذارة لا التصدي للمجادلة، لأنها مجادلة لم يقصد منها الاسترشاد بل الغاية منها إبطال الحق.

والاستثناء من أحوال عامة محذوفة، أي ما نرسل المرسلين في حال إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين. والمراد بالمرسلين جميع الرسل.

وجملة)ويجادل الذين كفروا بالباطل(عطف على جملة)وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين(. وكلتا الجملتين مرتبط بجملتي)ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(. وترتيب هذه الجمل في الذكر جار على ترتيب معانيها في النفس بحيث يشعر بأن كل واحدة منها ناشئ معناها على معنى التي قبلها، فكانت جملة)ويجادل الذين كفروا بالباطل(مفيدة معنى الاستدراك، أي أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين بما فيه مقنع لطالب الهدى، ولكن الذين كفروا جادلوه بالباطل لإزالة الحق لا لقصد آخر. واختيار فعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة، أو لاستحضار صورة المجادلة.

والمجادلة تقدمت في قوله تعالى)يجادلنا في قوم لوط(في سورة هود.

والإدحاض: الإزلاق، يقال: دحضت القدم، إذا زلت، وهو مجاز في الإزالة، لأن الرجل إذا زلقت زالت عن موضع تخطيها، قال تعالى) فساهم فكان من المدحضين(.

وجملة)واتخذوا آياتي(عطف على جملة)ويجادل(فإنهم ما قصدوا من المجادلة الاهتداء، ولكن أرادوا إدحاض الحق واتخاذ الآيات كلها وبخاصة آيات الإنذار هزؤا.

والهزو: مصدر هزا، أي اتخذوا ذلك مستهزأ به. والاستهزاء بالآيات هو الاستهزاء عند سماعها، كما يفعلون عند سماع آيات الإخبار بالبعث وعند سماع آيات الوعيد والإنذار بالعذاب.

وعطف)وما أنذروا(على)الآيات(عطف خاص على عام لأنه أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم وحماقة عقولهم.

)وما أنذروا(مصدرية، أي وإنذارهم والإخبار بالمصدر للمبالغة.

وقرأ الجمهور)هزؤا(بضم الزاي. وقرأه حمزة)هزءا(بسكون الزاي.

صفحة : 2556

)ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا[57](لما بين حالهم من مجادلة الرسل لسوء نية، ومن استهزائهم بالإنذار، وعرض بحماقتهم أتبع ذلك بأنه أشد الظلم. وذلك لأنه ظلم المرء نفسه وهو أعجب

الظلم. فالذين ذكروا ما هم في غفلة عند تذكير بواسطة آيات الله وأعرضوا عن التأمل فيها مع أنها تنذرهم بسوء العاقبة. وشأن العاقل إذا سمع مثل ذلك أن يتأهب للتأمل وأخذ الحذر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش إذا أخبرتكم أن العدو مصبحكم غدا أكنتم مصدقي?: ما جربنا عليك كذبا فقال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

و)من(المجرورة موصولة، وهي غير خاصة بشخص معين بقرينة قوله)إنا جعلنا على قلوبهم أكنة(. والمراد بها المشركين من العرب الذين ذكروا بالقرآن فأعرضوا عنه.

وعطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمل.

ومعنى نسيان ما قدمت يداه أنه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم: أهي صالحة لا تخشى عواقبها أم هي سيئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة، والصلاح بين والفساد بين، ولذلك سني الأول معروفا والثاني منكرا، ولا سيما بعد أن جاءتهم الذكرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهم بمجموع الحالين أشد الناس ظلما، ولو تفكروا قليلا لعلموا أنهم غير مفلتين من لقاء جزاء أعمالهم.

ف)من(استفهام مستعمل في الإنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدث عنهم.

والنسيان: مستعمل في التغاضي عن العمل. وحقيقة النسيان تقدم عند قوله تعالى)ما ننسخ من آية أو ننسها(في سورة البقرة.

ومعنى)ما قدمت يداه(ما أسلفه من الأعمال. وأكثر ما يستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيء، فصار جاريا مجرى المثل، قال تعالى)ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد(، وقال)وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم(.

والآية مصوغة بصيغة العموم، والمقصود الأول: منها مشركو أهل مكة.

وجملة)إنا جعلنا على قلوبهم أكنة(مستأنفة بيانية نشأت على جملة)ونسي ما قدمت يداه(، أي إن لم تعلم سبب نسيانه ما قدمت يداه فأعلم أنا جعلنا على قلوبهم أكنة. وهو يفيد معنى التعليل بالمآل، وليس موقع الجملة التعليلية.

والقلوب مراد بها: مدارك العلم.

والأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء، لأنه يكن الشيء، أي يحجبه.

و)أن يفقهوه(مجرور بحرف محذوف، أي من أن يفقهوه، لتضمين)أكنة(معنى الحائل أو المانع.

والوقر: ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ.

والضمير المفرد في)يفقهوه(عائد إلى القرآن المفهوم من المقام والمعبر عنه بالآيات.
وجملة)وإن تدعهم إلى الهدى(عطف على جملة)إنا جعلنا على قلوبهم(، وهي متفرعة عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأن المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقل.
وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو)لن(، وبلفظ) أبدا(المؤكد لمعنى)لن(، وبحرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط.
وإنما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي ذلك مسبب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحق.
)وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا[58](جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب والترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم إمهالا للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون، موجها الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مفتتحا باستحضار الجلالة بعنوان الربوبية للنبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن مضمون الخبر تكريم له، كقوله)وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم(.

صفحة : 2557

والوجه في نظم الآية أن يكون)الغفور(نعتا للمبتدأ ويكون)ذو الرحمة(هو الخبر لأنه المناسب للمقام ولما بعده من جملة)لو يؤاخذهم(، فيكون ذكر)الغفور(إدماجا في خلال المقصود. فخص بالذكر من أسماء الله تعالى اسم)الغفور(تعريضا بالترغيب في الاستغفار.
والغفور: اسم يتضمن مبالغة الغفران لأنه واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يحصون ويغفر ذنوبا لا تحصى إن جاءه عبده تائبا منكسرا، على أن إمهاله الكفار والعصاة هو أيضا من أثر المغفرة إذ هو مغفرة مؤقتة.

وأما قوله)ذو الرحمة(فهو المقصود تمهيدا لجملة)لو يؤاخذهم بما كسبوا(، فلذلك كانت تلك الجملة بيانا لجملة)وربك الغفور الرحمة(باعتبار الغفور الخبر وهو الوصف الثاني.

والمعنى: أنهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة ولكن الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدر. وفي ذلك التأجيل رحمة بالناس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر، وفيه استبقاؤهم على حالهم زمنا.

فوصف)ذو الرحمة(يساوي وصف)الرحيم(لأن)ذو(رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه.

وإنما عدل عن وصف)الرحيم(إلى)ذو الرحمة(للتنبيه على أنه لا نعت تنبيها بطريقة تغيير الأسلوب، فإن اسم)الرحيم(صار شبيها بالأسماء الجامدة، لأنه صيغ بصيغة الصفة المشبهة فبعد عن ملاحظة الاشتقاق فيه واقترب من صنف الصفة الذاتية.

و)بل(للإضراب الإبطالي عن مضمون جواب)لو(، أي لم يعجل لهم العذاب إذ لهم موعد للعذاب متأخر، وهذا تهديد بما يحصل لهم يوم بدر.

والموئل: مفعل من وأل بمعنى لجأ، فهو اسم مكان بمعنى الملجأ.

وأكد النفي ب)لن(ردا على إنكارهم، إذ هم يحسبون أنهم مفلتون من العذاب حين يرون أنه تأخر مدة طويلة، أي لأن لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وعده أو مكان وعده، فهو ملجؤهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أي هم غير مفلتين منه.

)وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا[59](بعد أن أزيل غرورهم بتأخر العذاب، وأبطل الإفلات منه ببيان أن ذلك إمهال من أثر رحمة الله بخلقه. ضرب لهم المثل في ذلك بحال أهل القرى السالفين الذين أخر عنهم العذاب مدة ثم لم ينجوا منه بأخرة، فالجملة معطوفة على جملة)بل لهم موعد(.

والإشارة ب)تلك(إلى مقدر في الذهن، وكاف الخطاب المتصلة باسم الإشارة لا يراد بها مخاطب ولكنها من تمام اسم الإشارة، وتجري على ما يناسب حال المخاطب بالإشارة من واحد أو أكثر، والعرب يعرفون ديار عاد وثمود ومدين ويسمعون بقوم لوط وقوم فرعون فكانت كالحاضرة حين الإشارة.

والظلم: الشرك وتكذيب الرسل. والمهلك بضم الميم وفتح اللام مصدر ميمي من)أهلك(، أي جعلنا لإهلاكنا إياهم وقتا معينا في علمنا إذا جاء حل بهم الهلاك. وهذه قراءة الجمهور. وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام على أنه اسم زمان على وزن مفعل. وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام على أنه مصدر ميمي لهلك.

)وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا[60](لما جرى ذكر قصة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره جهلا بأسباب الفضائل ومكابرة في الاعتراف بها وحسدا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلا لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد، أعقب تلك القصة بقصة هي مثل في ضدها لأن تطلب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلغه الزيادة من الكمال، اعترافا للفاضل بفضلته. وفي ذلك إبداء المقابلة بين الخلقين ولإقامة الحجة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين.

ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أملوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. وقد تقضى الجواب عن القصة الأولى وما ذيلت به، وآن أن ينتقل إلى الجواب عن القصة الثانية فتختم بذلك هذه السورة التي أنزلت لبيان القصتين. قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح. وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى. وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدلوا الناس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.

فجملة)وإذ قال موسى(معطوفة على جملة)وإذ قلنا للملائكة(عطف القصة على القصة. والتقدير: واذكر إذ قال موسى لفتاه، أي اذكر ذلك الزمن وما جرى فيه. وناسبها تقدير فعل) اذكر(لأن في هذه القصة موعظة وذكرى كما في قصة خلق آدم.

فانتصب)إذ(على المفعولية به.

والفتى: الذكر الشاب، والأنثى فتاة، وهو مستعمل مجازا في التابع والخادم. وتقدم عند قوله تعالى)تراود فتاها(في سورة يوسف.

وفتى موسى: خادمه وتابعه، فإضافة الفتى إلى ضمير موسى على معنى الاختصاص، كما يقال: غلامه. وفتى موسى هو يوشع بن نون من سبط أفرايم. وقد قيل: إنه ابن أخت موسى، كان اسمه الأصلي هوشع فدعاه موسى حين بعثه للتجسس في أرض كنعان يوشع. ولعل ذلك التغير في الاسم تلطف به، كما قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لأبي هريرة يا أبا هر. وفي التوراة: أن إبراهيم كان اسمه أبرام فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاه إبراهام.

ولعل هذه التغييرات في العبرانية تفيد معاني غير معاني الأسماء الأولى فتكون كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخيل زيد الخير.

ويوشع أحد الرجال الاثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها ومكثوا أربعين يوما في التجسس. وهو أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض طنعان اللذين ذكرهما القرآن في آية)قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون(.

كان ميلاد يوشع في حدود سنة 1463 قبل المسيح ووفاته في حدود سنة 1353 وعمر مائة وعشر سنين. وكان موسى عليه السلام قد قربه إلى نفسه واتخذه تلميذا وخادما، ومثل ذلك الاتخاذ يوسف صاحبه بمثل فتى أو غلام. ومنه وصفهم الإمام محمد بن عبد الواحد المطرز النحوي اللغوي غلام ثعلب، لشدة اتصاله بالإمام أحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب.

وكان يوشع أحد الرجلين الذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسما الأرض بين أسباط بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام . وأمر الله موسى بأن يعهد إلى يوشع بتدبير أمر الأمة الإسرائيلية بعد وفاة موسى عليه السلام فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيا من يومئذ. ودبر أمر الأمة بعد موسى سبعا وعشرين سنة. وكتاب يوشع هو أول كتب الأنبياء بعد موسى عليه السلام .

وابتدئت القصة بحكاية كلام موسى عليه السلام المقتضي تصميما على أن لا يزول عما هو فيه، أي لا يشتغل بشيء آخر حتى يبلغ مجمع البحرين، ابتداء عجيبا في باب الإيجاز، فإن قوله ذلك يدل على أنه كان في عمل نهايته البلوغ إلى مكان، فعلم أن ذلك العمل هو سير سفر.

ويدل على أن فتاة استعظم هذه الرحلة وخشي أن تنالهما فيها مشقة تعوقهما عن إتمامها. أو هو بحيث يستعظمها للعلم بأنها رحلة بعيدة، وذلك شأن أسباب الأمور المهمة، ويدل على أن المكان الذي يسير إليه مكان يجد عنده مطلبه.

و)أبرح(مضارع برح بكسر الراء، بمعنى زال يزول. وتقدم في سورة يوسف عليه السلام . واستعير)لا أبرح(لمعنى: لا أترك، أولا أكف عن السير حتى أبلغ مجمع البحرين. ويجوز أن يكون مضارع برح الذي هو فعل ناقص لا يستعمل ناقصا إلا مع النفي

ويكون الخبر محذوفا بقرينة الكلام، أي لا أبرح سائرا. وعن الرضي أن حذف خبرها قليل.
وحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى عليه السلام لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق. له موقع عظيم في حكاية القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز.

صفحة : 2559

وتفصيل هذه القصة وارد في صحيح البخاري من حديث: عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدنا خضر هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى عليه السلام: يا رب اجعل لي علما أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتا فجعله في مكتل وقال لفتاه يوشع بن نون: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال أي فتاه : ما كلفت كثيرا. ثم انطلق وانطلق بفتاه حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وموسى نائم، فقال فتاه وكان لم ينم : لا أوقظه وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار الماء عليه مثل الطاق. فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به أي لأن الله ميسر أسباب الامتثال لأوليائه فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجبا. قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهى إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام... الحديث.
قوله)وأنى بأرضك السلام(استفهام تعجب. والكاف خطاب للذي سلم عليه فكان الخضر يظن ذلك المكان لا يوجد به قوم تحيتهم

السلام. إما لكون ذلك المكان كان خلاء وإما لكونه مأهولا بأمة ليست تحيتهم السلام.
وإنما أمسك الله عن الحوت جرية الماء ليكون آية مشهودة لموسى عليه السلام وفتاه زيادة في أسباب قوة يقينهما. ولأن المكان لما كان ظرفا لظهور معجزات علم النبوءة ناسب أن يحف به ما هو خارق للعادة إكراما لنزلاء ذلك المكان.
ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا. وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له.
ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوما من معاملة الناس لم يعلمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم. وهو تفاوت نسبي.
والخضر: اسم رجل صالح. قيل: هو نبي من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام. فهو الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر. فيكون ابن عم الجد الثاني لإبراهيم عليه السلام . وقيل: الخضر لقبه. وأما اسمه فهو بليا بموحدة أو إيليا بهمزة وتحتية.
واتفق الناس على أنه كان من المعمرين، ثم اختلفوا في أنه لم يزل حيا اختلافا لم يبن على أدلة مقبولة متعارفة ولكنه مستند إلى أقوال بعض الصوفية. وهي لا ينبغي اعتمادها لكثرة ما يقع في كلامهم من الرموز والخلط بين الحياتين الروحية والمادية، والمشاهدات الحسية والكشفية، وقد جعلوه رمز العلوم الباطنية كما سيأتي.
وزعم بعض العلماء أن الخضر هو جرجس: وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب.
وجرجس المعنى هو المعروف باسم مارجرجس. والعرب يسمونه: مار سرجس كما في كتاب سيبويه. وهو من أهل فلسطين ولد في الرملة في النصف الآخر من القرن الثالث بعد مولد عيسى عليه السلام وتوفي سنة 303 وهو من الشهداء. وهذا ينافي كونه في زمن موسى عليه السلام .

والخضر لقب له، أي الموصوف بالخضرة، وهي رمز البركة، قيل: لقب خضرا لأنه كان إذا جلس على الأرض أخضر ما حوله، أي أخضر بالنبات من أثر بركته. وفي دائرة المعارف الإسلامية ذكرت تخرصات تلصق قصة الخضر بقصص بعضها فارسية وبعضها رومانية وما رائده في ذلك إلا مجرد التشابه في بعض أحوال القصص، وذلك التشابه لا تخلو عنه الأساطير والقصص فلا ينبغي إطلاق الأوهام وراء أمثالها.

والمحقق أن قصة الخضر وموسى يهودية الأصل ولكنها غير مسطورة في كتب اليهود المعبر عنها بالتوراة أو العهد القديم. ولعل عدم ذكرها في تلك الكتب هو الذي أقدم نوفا البكالي على أن قال: إن موسى المذكور في هذه الآيات هو غير موسى بني إسرائيل كما ذكر ذلك في صحيح البخاري وأن ابن عباس كذب نوفا، وساق الحديث المتقدم.

وقد كان سبب ذكرها في القرآن سؤال نفر من اليهود أو من لقنهم اليهود إلقاء السؤال فيها على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى)وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(.

واختلف اليهود في أن صاحب الخضر هو موسى بن عمران الرسول وأن فتاه هو يوشع بن نون، فقيل: نعم، وقد تأيد ذلك بما رواه أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل: هو رجل آخر اسمه موسى بن ميشا أو منسه ابن يوسف بن يعقوب. وقد زعم بعض علماء الإسلام أن الخضر لقي النبي صلى الله عليه وسلم وعد من صحابته. وذلك توهم وتتبع لخيال القصاصين. وسمي الخضر بليا بن ملكان أو إيليا أو إلياس، فقيل: إن الخضر هو إلياس المذكور في سورة يس.

ولا يصح أن يكون الخضر من بني إسرائيل إذ لا يجوز أن يكون مكلفا بشريعة موسى وبقرة موسى على أفعال لا تبيحها شريعة. بل يتعين أن يكون نبيا موحى إليه بوحي خاص، وعلم موسى أنه من أمة غير مبعوث موسى إليها. ولما علم موسى ذلك مما أوحى الله إليه من قوله: بلى عبدنا خضر هو أعلم منك. كما في حديث أبي بن كعب، لم يصرفه عنه ما رأى من أعماله التي تخالف شريعة التوراة لأنه كان على شريعة أخرى أمة وحده. وأما وجوده في أرض بني إسرائيل فهو من السياحة في العبادة، أو أمره الله بأن يحضر في المكان الذي قدره للقاء موسى رفقا بموسى عليه السلام .

ومعنى)أو مضي(أو أسير. والمضي: الذهاب والسير.

والحقب بضمتين اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار، وجمعه أحقاب.

وعطف)أمضي(على أبلغ ب)أو(فصار المعطوف إحدى غايتين للإقلاع عن السير، أي إما أن أبلغ المكان أو أمضي زمنا طويلا. ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين وإلقاء طلبته عنده، لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيه زمنا يتحقق فيه الوصول إلى مجمع البحرين. فالمعنى: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو سير أزمانا طويلة فإني بالغ مجمع البحرين، وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما. كما دل عليه قوله بعد)لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا(.

أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في صحة العزم حتى يكونا على عزم متحد.

)فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا[61] فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا[62] قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا[63](الفاء للتفريع والفصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر، أي فسارا حتى بلغا مجمع البحرين. وضمير)بينهما(عائد إلى البحرين، أي محلا يجمع بين البحرين. وأضيف)مجمع(إلى)بين(على سبيل التوسع، فإن) بين(اسم لمكان.

متوسط شيئين، وشأنه في اللغة أن يكون ظرفا للفعل، ولكنه قد يستعمل لمجرد مكان متوسط إما بالإضافة كما هنا، ومنه قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم(، وهو بمنزلة إضافة المصدر أو اسم الفاعل إلى معموله، أو بدون إضافة توسعا كقوله تعالى) لقد تقطع بينكم(في قراءة من قرأ برفع)بينكم(.

صفحة : 2561

والحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر كما تقدم في سياق الحديث. والنسيان في قوله تعالى)أو ننسها(في سورة البقرة.

ومعنى نسيانهما أنهما نسيا أن يراقبا حاله أباق هو في مكتله حينئذ حتى إذا فقداه في مقامهما ذلك تحققا أن ذلك الموضع الذي فقداه هو الموضع الموقت لهما بتلك العلامة فلا يزيدا تعبا في المشي، فإسناد النسيان إليهما حقيقة، لأن يوشع وإن كان هو الموكل بحفظ الحوت فكان عليه مراقبته إلا أن موسى هو القاصد لهذا العمل فكان يهمه تعهده ومراقبته. وهذا يدل على لأن صاحب

العمل أو الحاجة إذا وكله إلى غيره لا ينبغي له ترك تعهده. ثم إن موسى عليه السلام نام وبقى فتاه يقظان فأضطرب الحوت وجعل لنفسه طريقا في البحر.

والسرب: النفق. والاتخاذ: الجعل. وقد انتصب)سربا(على الحال من)سبيله(مرادا بالحال التشبيه، كقول امرئ القيس:

إذا قامتا تضوع المسك منـها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقد مر تفسير كيف اتخذ البحر سربا في الحديث السابق عن أبي بن كعب.

وحذف مفعول)جاوزا(للعلم، أي جاوزا مجمع البحرين.

والغداء: طعام النهار مشتق من كلمة الغدوة لأنه يؤكل في وقت الغدوة، وضده العشاء، وهو طعام العشي. والنصب: التعب.

والصخرة: صخرة معهودة لهما. إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانت في مجمع البحرين. قيل: إن موضعها دون نهر يقال له: نهر الزيت، لكثرة ما عنده من شجر الزيتون.

وقوله)نسيت الحوت(أي نسيت حفظه وافتقاده. أي فانقلب في البحر.

وقوله)وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره(. هذا نسيان آخر غير النسيان الأول. فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه.

وقرأ حفص عن عاصم)وما أنسانيه(بضم هاء الضمير على أصل الضمير وهي لغة. والكسر أشهر لأن حركة الكسرة بعد الياء أخف.

و)أن أذكره(بدل اشتمال من ضمير)أنسانيه(لا من الحوت، والمعنى: ما أنساني أن أذكره لك إلا الشيطان. فالذكر هنا ذكر اللسان.

ووجه حصره إسناد هذا الإنساء إلى الشيطان أن ما حصل له من نسيان أن يخبر موسى بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدة الاهتمام بالأمر المنسي وشدة عنايته بإخبار نبيه به. ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تنسى يتعين أن الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعا في حدوث العوائق.

وجملة)واتخذ سبيله في البحر(عطف على جملة)فإني نسيت الحوت(وهي بقية كلام فتى موسى، أي وأنه اتخذ سبيله في البحر، أي سبح في البحر بعد أن كان ميتا زمنا طويلا.

وقوله)عجبا(جملة مستأنفة، وهي من حكاية قول الفتى، أي أعجب له عجبا. فانتصب على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله.

)قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا[64] فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما[65] قال له

موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا[66] قال إنك لن تستطيع معي صبرا[67] وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا[68] قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا[69] قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا[70]( )قال ذلك(الخ.. جواب عن كلامه، ولذلك فصلت كما بيناه غير مرة.
والإشارة ب)ذلك(إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنه وسيلة المبتغى. وإنما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت.

صفحة : 2562

وكتب)نبغ(في المصحف بدون ياء في آخره، فقيل: أراد الكاتبون مراعاة حالة الوقف، لأن الأحسن في الوقف على ياء المنقوص أن يوقف بحذفها. وقيل: أرادوا التنبيه على أنها رويت محذوفة في هذه الآية. والعرب يميلون إلى التخفيف. فقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف وإثباتها في الوصل. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، ويعقوب بإثباتها في الحالين، والنون نون المتكلم المشارك، أي ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح.
والارتداد: مطاوع الرد كأن رادا ردهما. وإنما ردتهما إرادتهما، أي رجعا على آثار سيرهما، أي رجعا على طريقهما الذي أتيا منه.
والقصص: مصدر قص الأثر، إذا توخى متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول.
والمراد بالعبد: الخضر، ووصف بأنه من عباد الله تشريفا له، كما تقدم عند قوله تعالى)سبحان الذي أسرى بعبده(.
وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى أن هذا الحال الغريب العظيم الذي ذكر من قصته ما هو إلا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى. وما منهم إلا له مقام معلوم.
وإيتاء الرحمة يجوز أن يكون معناه: أنه جعل مرحوما، وذلك بأن رفق الله به في أحواله. ويجوز أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرفه تصرفا يجلب الرحمة العامة. والعلم من لدن الله: هو الإعلام بطريق الوحي.
و)عند(و)لدن(كلاهما حقيقته اسم مكان قريب. ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما.

و)من(ابتدائية، أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلما صدر منه أيضا. وذلك أن ما أوتيه من الولاية أو النبوءة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنهما مما يدخر عند الله في مكان القرب التشريفي من الله فلا يعطى إلا للمصطفين.

والمخالفة بين)من عندنا(وبين)من لدنا(للتفنن تفاديا من إعادة الكلمة. وجملة)فقال له موسى(ابتداء محاورة، فهو استئناف ابتدائي، ولذلك لم يقع التعبير ب)قال(مجردة عن العاطف.

والاستفهام في قوله)هل أتبعك(مستعمل في العرض بقرينة أنه استفهام عن عمل نفس المستفهم. والاتباع: مجاز في المصاحبة كقوله تعالى)إن يتبعون إلا الظن(.

و)على(مستعملة في معنى الاشتراط لأنه استعلاء مجازي. جعل الاتباع كأنه مستعمل فوق التعليم لشدة المقارنة بينهما. فصيغة: أفعل كذا على كذا. من صيغ الالتزام والتعاقد.

ويؤخذ من الآية جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم. كما في حديث تزويج المرأة التي عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها، فزوجها من رغب فيها على أن يعلمها ما معه من القرآن.

وفيه أنه التزام يجب الوفاء به. وقد تفرع عن حكم لزوم الالتزام أن العرف فيه يقوم مقام الاشتراط فيجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم.

وذكر عياض في باب صفة مجلس مالك العلم من كتاب المدارك: أن رجلا خراسانيا جاء من خراسان إلى المدينة للسماع من مالك فوجد الناس يعرضون عليه وهو يسمع ولا يسمعون قراءة منه عليهم، فسأله أن يقرأ عليهم فأبى مالك، فاستدعى الخراساني قاضي المدينة. وقال: جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأبى مالك أن يقرأ علينا. فحكم القاضي على مالك: أن يقرأ له، فقيل لمالك: أأصاب القاضي الحق؟ قال: نعم.

وفيه أيضا إشارة إلى أن حق المعلم على المتعلم اتباعه والاقتداء به.

وانتصب)رشدا(على المفعولية ل)تعلمني(أي ما به الرشد، أي الخير.

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة، لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الذين وجدهم يأبرون النخل أنتم أعلم

بأمور دنياكم . ورجع يوم بدر إلى قول المنذر بن الحارث في أن المنزل الذي نزله جيش المسلمين بدر أول مرة ليس الأليق بالحرب.

صفحة : 2563

وإنما رام موسى أن يعلم شيئا من العلم الذي خص الله به الخضر لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيه)وقل رب زدني علما(. وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة تتعلق بمعينين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة. فلعل الله يسره لنفع معينين من عنده كما جعل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة عامة لكافة الناس، ومن هنا فارق سياسة التشريع العامة. ونظيره معرفة النبي صلى الله عليه وسلم أحوال بعض المشركين والمنافقين، وتحققه أن أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوما إلى الإيمان، وتحققه أن أولئك المنافقين غير مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين، وكان حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم إياه بهم.

وقرأ الجمهور)رشدا(بضم الراء وسكون الشين . وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بفتح الراء وفتح الشين مثل اللفظين السابقين، وهما لغتان كما تقدم.

وأكد جملة)إنك لن تستطيع معي صبرا(بحرف)إن(وبحرف) لن(تحقيقا لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف. ولما كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر علم أنه سينكر ما يشاهده من تصرفاته لاختلاف المشربين لأن الأنبياء لا يقرون المنكر.

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته إن شاء على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود منه الإخبار. فمناط التأكيدات في جملة)إنك لن تستطيع معي صبرا(إنما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تتحمل، ولو كان خبرا على أصله لم يقبل فيه المراجعة ولم يجبه موسى بقوله)ستجدني إن شاء الله صابرا(.

وفي هذا أصل من أصول التعليم أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة.

وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي لوقوعه نكرة في سياق النفي، وأن المنفي استطاعته الصبر المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطيع ذلك. فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه.

وزيادة)معي(إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر.

وجملة)وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا(في موضع الحال من اسم)إن(أو من ضمير)تستطيع(. فالواو واو الحال وليست واو العطف لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأن بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلة للأولى. وإنما أوثر مجيئها في صورة الجملة الحالية، دون أن تفصل عن الجملة الأولى فتقع علة مع أن التعليل هو المراد. للتنبيه على أن مضمونها علة ملازمة لمضمون التي قبلها إذ هي حال من المسند إليه في الجملة قبلها.

و)كيف(للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

والخبر بضم الخاء وسكون الباء : العلم. وهو منصوب على أنه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله)ما لم تحط به(، أي إحاطة من حيث العلم.

والإحاطة: مجاز في التمكن، تشبيها لقوة تمكن الاتصاف بتمكن الجسم المحيط بما أحاط به.

وقوله)ستجدني إن شاء الله صابرا(أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أن متعلق الصبر هنا هو الصبر على ما من شانه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة، ومن مشاهدة ما لا يتحمله إدراكه، ومن ترقب بيان الأسباب والعلل والمقاصد.

ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتسام بأكمل أحوال طالب العلم.

فجملة)ولا أعصي لك أمرا(معطوفة على جملة)ستجدني(، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفا على)صابرا(فيؤول بمصدر، أي وغير عاص. وفي هذا دليل على أن أهم ما يتسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلم.

وفي تأكيده ذلك بالتعليق على مشيئة الله استعانة به وحرصا على تقدم التيسير تأدبا مع الله إيذان بأن الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج، لأن خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب. إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذ، فلتجنب ذلك خشي الخضر أن يلقى من موسى هذه المعاملة فقال له)إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا(، فأكد له موسى أنه يصبر ويطيع أمره إذا أمره. والتزام موسى ذلك مبني على ثقته بعصمة متبوعه لأن الله أخبره بأنه آتاه علما.

والفاء في قوله)فإن اتبعتني(تفريع على وعد موسى إياه بأنه يجده صابرا، ففرع على ذلك نهيه عن السؤال عن شيء مما يشاهده من تصرفاته حتى يبينه له من تلقاء نفسه.

وأكد النهي بحرف التوكيد تحقيقا لحصول أكمل أحوال المتعلم مع المعلم، لأن السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربما كان الجواب عنه بدون شره نفس. وربما خالطه بعض القلق فيبكون الجواب غير شاف. فأراد الخضر أن يتولى هو بيان أعماله في الإبان الذي يراه مناسبا ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين.

والذكر. هنا: ذكر اللسان. وتقدم عند قوله تعالى)يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي(في سورة البقرة. أعني بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض.

وإحداث الذكر: إنشاؤه وإبرازه، كقول ذي الرمة:

أحدتنا لخالقها شكرا وقرأ نافع)فلا تسألني(بالهمز وبفتح اللام وتشديد النون على أنه مضارع سأل المهموز مقترنا بنون التوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلم.

وقرأ ابن عامر مثله. لكن بحذف ياء المتكلم. وقرأ البقية) تسألني(بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون . وأثبتوا ياء المتكلم.

)فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا[71](أي فعقب تلك المحاورة أنهما انطلقا.

والانطلاق: الذهاب والمشي، مشتق من الإطلاق وهو ضد التقييد. لأن الدابة إذا حل عقالها مشت. فأصله مطاوع أطلقه.

و)حتى(غاية للانطلاق. أي إلى أن ركبا في السفينة.

و)حتى(ابتدائية. وفي الكلام إيجاز دل عليه قوله)إذا ركبا في السفينة(. أصل الكلام: حتى استأجرا سفينة فركباها فلما ركبا في السفينة خرقها.

وتعريف)السفينة(تعريف العهد الذهني، مثل التعريف في قوله تعالى)وأخاف أن يأكله الذئب(.

و)إذا(ظرف للزمان الماضي هنا. وليست متضمنة معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بأخذه في خرق السفينة حين ركوبهما. وفي ذلك ما يشير إلى أن الركوب فيها كان لأجل خرقها لأن الشيء المقصود يبادر به قاصده لأنه يكون قد دبره وارتآه من قبل.

وبني نظم الكلام على تقديم الظرف على عامله للدلالة على أن الخرق وقع بمجرد الركوب في السفينة. لأن في تقديم الظرف اهتماما به، فيدل على أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه.

وضمن الركوب معنى الدخول لأنه ركوب مجازي. فلذلك عدي بحرف)في(الظرفية نظير قوله تعالى)وقال اركبوا فيها(دون نحو قوله)والخيل والبغال والحمير لتركبوها(. وقد تقدم ذلك في سورة هود.

والخرق: الثقب والشق. وهو ضد الالتئام.

والاستفهام في)أخرقتها(للإنكار. ومحل الإنكار هو العلة بقوله) لتغرق أهلها(. لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجه أن يغير موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر. وتأكيد إنكاره بقوله)لقد جئت شيئا إمرا(.

والإمر بكسر الهمزة : هو العظيم المفظع. يقال: أمر كفرح إمرا، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسره الراغب بالمنكر. لأن المقام دال على شيء ضار. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة. ولم يجعله نكرا كما في الآية بعدها لأن العمل الذي عمله الخضر ذريعة للغرق ولم يقع الغرق بالفعل.

صفحة : 2565

وقرأ الجمهور)لتغرق(بمثناة فوقية مضمونه على الخطاب. وقراه حمزة، والكسائي، وخلف)ليغرق(بتحتية مفتوحة ورفع)أهلها(على إسناد فعل الغرق للأهل.

)قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا[72](استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أتقر أني قلت إنك لا تستطيع معي صبرا.

و)معي(ظرف متعلق ب)تستطيع(، فاستطاعة الصبر المنفية هي التي تكون في صحبته لأنه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها.
وحذف متعلق القول تنزيلا له منزلة اللازم، أي ألم يقع مني قول فيه خطابك بعدم الاستطاعة.
)قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا[73]
(اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسى التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره.
والنهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة، لأنه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر. فالحزامة الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان، ولذلك بني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار.
والمؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنها من جانب واحد كقوله تعالى)ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم(.
و)ما(مصدرية، أي لا تؤاخذني بنسياني.
والإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي لا تغشني عسرا. وهو هنا مجاز في المعاملة بالشدة.
والإرهاق: مستعار للمعاملة والمقابلة.
والعسر: الشدة وضد اليسر. والمراد، هنا: عسر المعاملة، أي عدم التسامح معه فيما فعله فهو يسأله الإغضاء والصفح.
والأمر: الشأن.
و)من(يجوز أن تكون ابتدائية، فكون المراد بأمره نسيانه، أي لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا. ويجوز أن تكون بيانية فيكون المراد بأمره شأنه معه، أي لا تجعل شأني إرهاقك إياي عسرا.
)فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا[74](يدل تفريع قوله)فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما(عن اعتذار موسى، على أن الخضر قبل عذره وانطلقا مصطحبين.
والقول في نظم قوله)حتى إذا لقيا غلاما(كالقول في قوله)حتى إذا ركبا في السفينة(.
وقوله)فقتله(تعقيب لفعل)لقيا(تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها.
وكلام موسى في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة سوى أنه وصف هذا الفعل بأنه نكر، وهو بضمتين : الذي تنكره العقول وتستقبحه. فهو أشد من الشيء الإمر، لأن هذا فساد

حاصل والآخر ذريعة فساد كما تقدم. ووصف النفس بالزاكية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنبا فكان زكيا طاهرا. والزكاء: الزيادة في الخير.
وقرأ نافع ، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب)زاكية(بألف بعد الزاي اسم فاعل من زكا. وقرأ الباقون)زكية(. وهما بمعنى واحد.
قال ابن عطية: النون من قوله)نكرا(هي نصف القرآن. أي نصف حروفه. وقد تقدم أن ذلك مخالف لقول الجمهور: إن نصف القرآن هو حرف التاء من قوله تعالى)وليتلطف(في هذه السورة.
)قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا[75] قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصحبني قد بلغت من لدني عذرا[76](كان جواب الخضر هذا على نسق جوابه السابق إلا أنه زاد ما حكي في الآية بكلمة)لك(وهو تصريح بمتعلق فعل القول. وإذ كان المقول له معلوما من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيق لوقوع القول وتثبيت له وتقوية، والداعي لذلك أنه أهمل العمل به.

صفحة : 2566

واللام في قوله)لك(لام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع لقول أو ما في معناه، نحو: قلت له، وأذنت له، وفسرت له؛ وذلك عندما يكون المقول له الكلام معلوما من السياق فيكون ذكر اللام لزيادة تقوي الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذلك سميت لام التبليغ. ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة)ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا(. فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشد.
وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان: إما لأنه لم يكن نسي. ولكنه رجح تغيير المنكر العظيم. وهو قتل النفس بدون موجب. على واجب الوفاء بالالتزام؛ وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرر الاعتذار به. وعلى الاحتماليين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه بأنه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده.
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا ، فاحتمل كلام النبي الاحتمالين المذكورين.

وأنصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه.
وقرأ الجمهور:)لدني(بتشديد النون قال ابن عطية: وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم يعني أن فيها سندا خاصا مرويا فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير.
وقرأ نافع، وأبو بكر، وأبو جعفر)من لدني(بتخفيف النون على أنه حذف منه نون الوقاية تخفيفا, لأن)لدن(أثقل من)عن( ) ومن(فكان التخفيف فيها مقبولا دونهما.
ومعنى)قد بلغت من لدني عذرا(قد وصلت من جهتي إلى العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر على طريقة المكنية.
وأثبت له البلوغ تخييلا، أو استعار البلوغ لتعين حصول الشيء بعد المماطلة.
)فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا[77](نظم قوله)فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها (كنظم نظيريه السابقين.
والاستطعام: طلب الطعام. وموقع جملة)استطعم أهلها(كموقع جملة)خرقها(وجملة)فقتله(. فهو متعلق)إذا(. وإظهار لفظ) أهلها(دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطمعاهم، لزيادة التصريح. تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما وذلك لؤم لأن الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام وهي من المواساة المتبعة عند الناس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعد نفسه لذلك من كرام القبيلة، فإباية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية.
وقد أورد الصفدي على الشيخ تقي الدين السبكي سؤالا عن نكتة هذا الإظهار في أبيات. وأجابه السبكي جوابا طويلا نشرا ونظما بما لا يقنع. وقد ذكرهما الآلوسي.
وفي الآية دليل على أباحة طلب الطعام لعابر السبيل لأنه شرع من قبلنا، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه.
ودل لوم موسى الخضر، على أن لم يؤخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية، على أنه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم. وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الجي أو القرية. وفي حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة أي يتحفه ويبالغ في بره وضيافته

ثلاثة أيام أي إطعام وإيواء بما حضر من غير تكلف كما يتكلف في أول ليلة فما كان بعد ذلك فهو صدقة.
واختلف الفقهاء في وجوبها فقال الجمهور:الضيافة من مكارم الأخلاق وهي مستحبة وليست واجبة. وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي.وحمد بن عبد الحكم من المالكية: الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي. وقال الليث واحمد:الضيافة فرض يوما وليلة.
ويقال: ضيفه وأضافه. فهو مضيف بالتشديد. ومضيف بالتخفيف. والمتعرض للضيافة: ضائف ومتضيف بالتخفيف. والمتعرض للضيافة: ضائف ومتضيف. يقال: ضفته وتضيفته. إذا نزل به ومال إليه.
والجدار: الحائط المبني.

صفحة : 2567

ومعنى)يريد أن ينقض(أشرف على الانقضاض. أي السقوط. أي يكاد يسقط. وذلك بأن مال؛ فعبر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة المصرحة التبعية بتشبيه قرب انقضاضه بإرادة من يعقل فعل شيء فهو يوشك أن يفعله حيث أراده.
لأن الإرادة طلب النفس حصول شيء وميل القلب إليه.
وإقامة الجدار: تسوية ميله. وكانت إقامته بفعل خارق للعادة بأن أشار إليه بيده كالذي يسوي شيئا لينا كما ورد في بعض الآثار.
وقول موسى)لو شئت لاتخذت عليه أجرا(لوم، أي كان في مكنتك أن تجعل لنفسك أجرا على إقامة الجدار تأخذه ممن يملكه من أهل القرية ولا تقيمه مجانا لأنهم لم يقوموا بحق الضيافة ونحن بحاجة إلى ما ننفقه على أنفسنا. وفيه إشارة إلى أن الأتباع على المتبوع.
وهذا اللوم يتضمن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر. وليس هو لوما على مجرد إقامته مجانا، لأن ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم.
وقرأ الجمهور)لاتخذت(بهمزة وصل بعد اللام وبتشديد المثناة الفوقية على أنه ماضي)اتخذ(.
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب)لتخذت(بدون همزة على أنه ماضي)تخذت(المفتتح بتاء فوقية على أنه ماضي)تخذ(أوله فوقية، وهو من باب علم.
)قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا [78] أما السفينة فكانت لمسكين يعملون في البحر فأردت أن

أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا [79] وأما الغلام فكان أبوه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغينا وكفرا [80] فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاوة وأقرب رحما [81] وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صلحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا [82](المشار إليه بلفظ)هذا(مقدر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا، كما يقال: الشرط أملك عليك أم لك. وكثيرا ما يكون المشار إليه مقدار في الذهن كقوله تعالى)تلك الدار الآخرة(. وإضافة)فراق(إلى) بيني(من إضافة الموصوف إلى الصفة. وأصل: فراق بيني، أي حاصل بيننا، أو من إضافة المصدر العامل في الظرف إلى معموله، كما يضاف المصدر إلى مفعوله. وقد تقدم خروج)بين(عن الظرفية عند قوله تعالى)فلما بلغا مجمع بينهما (.

وجملة)سأنبأك(مستأنفة استئنافا بيانيا، تقع جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التي فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى فأنه قد وعده أن يحدث له ذكرا مما يفعله.

والتأويل: تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع. شبه تحصيل المعنى على تكلف بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه. وقد مضي في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير، وأيضا عند قوله تعالى)وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون(الخ من أول سورة آل عمران.

وفي صلة الموصول من قوله)ما لم تستطع عليه صبرا(تعريض باللوم على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله)فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا(.

والمساكين: هنا بمعنى ضعفاء المال الذين يرتزقون من جهدهم ويرق لهم لأنهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. فليس المراد أنهم فقراء أشد الفقر كما في قوله تعالى)إنما الصدقات للفقراء والمساكين (بل المراد بتسميتهم بالفقراء أنهم يرق لهم كما قال الحريري في المقامة الحادية والأربعين:)مسكين ابن آدم وأي مسكين(.

وكان أصحاب السفينة هؤلاء عملة يأجرون سفينتهم للحمل أو للصيد.

ومعنى)وكان وراءهم ملك(:هو ملك بلادهم بالمرصاد منهم ومن أمثالهم يسخر كل سفينة يجدها غصبا، أي بدون عوض وكان ذلك لنقل أمور بناء أو نحوه مما يستعمله الملك في مصالح نفسه وشهواته. كما كان الفراعنة يسخرون الناس للعمل في بناء الأهرام.
ولو كان ذلك لمصلحة عامة للأمة لجاز التسخير من كل بحسب حاله من الاحتياج لأن ذلك فرض كفاية بقدر الحاجة وبعد تحققها.
و)وراء(اسم الجهة التي خلف ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم،وهو ضد أمام وقدام.
ويستعار)الوراء(لحال تعقب شيء شيئا وحال ملازمة طلب شيء شيئا بحق وحال الشيء الذي سيأتي قريبا. كل ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتصل به كقوله تعالى)من ورائهم جهنم (في سورة الجاثية.
وقال لبيد:
أليس ورائي أن تراخت منـيتـي لزوم
العصا تحني عليها الأصابع وبعض المفسرين فسروا)وراءهم ملك(بمعنى أمامهم ملك. فتوهم بعض مدوني اللغة أن)وراء(من أسماء الأضداد، وأنكره الفراء وقال: لا يجوز أن تقول للذي بين يديك وهو وراءك. وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي تقول: وراءك برد شديد، وبين يديك برد شديد. يعني أن ذلك على المجاز، قال الزجاج: وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة.
ومعنى)كل سفينة(أي صالحة، بقرينة قوله)فأردت أن أعيبها (. وقد ذكروا في تعيين هذا الملك وسبب أخذه للسفن قصصا وأقوالا لم يثبت شيء منها بعينه، ولا يتعلق به غرض في مقام العبرة.
وجملة)فأردت أن أعيبها(متفرعة على كل من جملتي)فكانت لمساكين(،)وكان وراءهم ملك(، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، ولكنها قدمت خلافا لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام والعناية بإرادة إعابة السفينة حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في الإقدام على خرقها.
والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت. وإنما لم يقل: فعبتها، ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل. وقد تطلق الإرادة على القصد أيضا. وفي اللسان عزو ذلك إلى سيبويه.
وتصرف الخضر في أمر السفينة تصرف برعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرف في مصالح الضعفاء إذ كان الخضر عالما

بحال الملك أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ، فتصرف الخضر قائم مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. فتصرفه الظاهر إفساد وفي الواقع إصلاح لأنه من ارتكاب أخف الضرين.
وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلا الخضر. فلذلك أنكره موسى.
وأما تصرفه في قتل الغلام فتصرف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي، فليس من مقام التشريع، وذلك أن الله علم من تركيب عقل الغلام وتفكيره أنه عقل شاذ وفكر منحرف طبع عليه بأسباب معتادة من انحراف طبع وقصور إدراك، وذلك من آثار مفضية إلى تلك النفسية وصاحبها في أنه ينشأ طاغيا كافرا. وأراد الله اللطف بأبويه بحفظ إيمانهما وسلامة العالم من هذا الطاغي لطفا أراده الله خارقا للعادة جاريا على مقتضى سبق علمه، ففي هذا مصلحة للدين بحفظ أتباعه من الكفر، وهو مصلحة خاصة فيها حفظ الدين، ومصلحة عامة لأنه حق لله تعالى فهو كحكم قتل المرتد.
والزكاة: الطهارة، مراعاة لقول موسى)أقتلت نفسا زاكية(. والرحم بضم الراء وسكون الحاء: نظير الكثر للكثرة.
والخشية: توقع ذلك لو لم يتدارك بقتله.
وضميرا الجماعة في قوله)فخشينا(وقوله)فأردنا(عائدان إلى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال)فخشينا.. فأردنا(، ولم يقل مثله عند ما قال)فأردت أن أعيبها(لأن سبب الإعابة إدراكه لمن له علم بحال تلك الأصقاع. وقد تقدم عند قوله تعالى)قال معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون(في سورة يوسف.
وقرأ الجمهور)أن يبدلهما(بفتح الموحدة وتشديد الدال من التبديل. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بسكون الموحدة وتخفيف الدال من الإبدال.

وأما قضية الجدار فالخضر تصرف في شأنها عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه. إذ علم الله أن إياهما كان يهمه أمر عيشهما بعده. وكان قد أودع تحت الجدار مالا. ولعله سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادقة. فلو سقط الجدار قبل بلوغهما

لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر، فذلك أيضا لطف خارق للعادة. وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين.

وقوله)رحمة من ربك وما فعلته عن أمري(تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنها رحمة ومصلحة فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها.

ثم زاد بأنه فعلها عن وحي من الله لأنه لما قال)وما فعلته عن أمري(علم موسى أن ذلك بأمر من الله تعالى لأن النبي إنما يتصرف عن اجتهاد أو عن وحي، فلما نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعين أنه عن أمر الله تعالى. وإنما أوثر نفي كون فعله عن أمر نفسه على أن يقول: وفعلته عن أمر ربي، تكملة لكشف حيرة موسى وإنكاره، لأنه لما أنكر عليه فعلاته الثلاث كان يؤيد إنكاره بما يقتضي أنه تصرف عن خطأ.

وانتصب)رحمة(على المفعول لأجله فينازعه كل من أردت، وأردنا، وأراد ربك .

وجملة)ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا(فذلكة للجمل التي قبلها ابتداء من قوله)أما السفينة فكانت لمساكين(، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق وهو تلخيص للمقصود كحوصلة المدرس في آخر درسه.

و)تسطع(مضارع)اسطاع(بمعنى)استطاع(. حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء. والمخالفة بينه وبين قوله)سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا(للتفنن تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأن التخفيف أولى به لأنه إذا كرر)تستطع(يحصل من تكريره ثقل.

وأكد الموصول الأول الواقع في قوله)سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا(تأكيدا للتعريض باللوم على عدم الصبر.

واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة.

فأول ما أسوه منها أن الخضر لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا، وأن العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنه إلهام، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعا لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه.

وبنوا على ذلك أن الإلهام ضرب من ضروب الوحي، وسموه الوحي الإلهامي، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد فصله الشيخ محيي الدين ابن العربي في الباب الخامس والثمانين من كتابه الفتوحات المكية ، وبين الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منشورة في الأبواب الثالث والسبعين، والثامن والستين بعد المائتين، والرابع والستين بعد ثلاثمائة، وجزم بأن هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفا للشريعة، وأطال في ذلك، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجة. وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوما ولتفاوت مراتب الكشف عندهم. وقد تعرض لها النسفي في عقائده، وكل ما قاله النسفي في ذلك حق، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

والأظهر أن الخضر نبي عليه السلام وأنه كان موحى إليه بما أوحي، لقوله)وما فعلته عن أمري(، وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض، وأن يحمل ما يعزى إليه من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم.

فكونوا على حذر، ممن يقول: أخبرني الخضر.

صفحة : 2570

)ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا[83] إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا[84](افتتاح هذه القصة ب)يسألونك(يدل على أنها مما نزلت السورة للجواب عنه كما كان الابتداء بقصة أصحاب الكهف اقتضابا تنبيها على مثل ذلك.

وقد ذكرنا عند تفسير قوله تعالى)ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي(في سورة الإسراء عن ابن عباس أن المشركين بمكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسئلة بإغراء من أحبار اليهود في يثرب. فقالوا: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها كلها فليس بنبي وإن أجاب عن بعضها وأمسك عن بعض فهو نبي?. وبينا هنالك وجه التعجيل في سورة الإسراء النازلة قبل سورة الكهف بالجواب عن سؤالهم عن الروح وتأخير الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين إلى سورة الكهف.

وأعقبنا ذلك بما رأيناه في تحقيق الحق من سوق هذه الأسئلة الثلاثة في مواقع مختلفة.

فالسائلون: قريش لا محالة. والمسئول عنه: خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفية مجملة مغلقة، فسألوا النبي عن تحقيقها وتفصيلها. وأذن له الله أن يبين منها ما هو موضع العبرة للناس في شؤون للناس في شؤون الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق، فكان أحبار اليهود منفردين بمعرفة إجمالية عن هذه المسائل الثلاث وكانت من أسرارهم فلذلك جربوا بها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقية فلذلك قال الله) قل سأتلو عليكم منه ذكرا(.

والمراد بالسؤال عن ذي القرنين السؤال عن خبره فحذف المضاف إيجازا لدلالة المقام، وكذلك حذف المضاف في قوله) منه(أي من خبره و)من(تبعيضية.

والذكر: التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكرا مبالغة بالوصف بالمصدر، ولكن القرآن جاء بالحق الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين بما فيه إبطال لما خلط به الناس بين أحوال رجال عظماء كانوا في عصور متقاربة أو كانت قصصهم تساق مساق من جاسوا خلال بلاد متقاربة متماثلة وشوهوا تخليطهم بالأكاذيب، وأكثرهم في ذلك صاحب الشاهنامة الفردوسي وهو معروف بالأكاذيب والأوهام الخرافية.

اختلف المفسرون في تعيين المسمى بذي القرنين اختلافا كثيرا تفرقت بهم فيه أخبار قصصية وأخبار تاريخية واستروح من الاشتقاقات اللفظية، ولعل اختلافهم له مزيد اتصال باختلاف القصاصين الذين عنو بأحوال الفاتحين عناية تخليط لا عناية تحقيق فراموا تطبيق هذه القصة عليها. والذي يجب الانفصال فيه بادئ ذي بدء أن وصفه بذي القرنين يتعين أن يكون وصفا ذاتيا له وهو وصف عربي يظهر أن يكون عرف بمدلوله بين المثيرين للسؤال عنه فترجموه بهذا اللفظ.

ويتعين أن لا يحمل القرنان على الحقيقة بل هما على التشبيه أو على الصورة. فالأظهر أن يكونا ذؤابتين من شعر الرأس متدليتين، وإطلاق القرن على الضفيرة من الشعر شائع في العربية، قال عمر بن أبي ربيعة:

فلثمت فاها آخذا بـقـرونـهـا شرب
النزيف ببرد ماء الحشرج وفي حديث أم عطية في صفة غسل ابنة النبي صلى الله عليه وسلم قالت أم عطية: فجعلنا رأسها ثلاثة قرون، فيكون هذا الملك قد أطال شعر رأسه وضفره ضفرتين فسمي ذا القرنين، كما سمي خرباق ذا اليدين.
وقيل: هما شبه قرني الكبش من نحاس كانا في خوذة هذا الملك فنعت بهما. وقيل: هما ضربتان على موضعين من رأس الإنسان يشبهان منبتي القرنين من ذوات القرون.
ومن هنا تأتي الأقوال في تعيين ذي القرنين، فأحد الأقوال: إنه الإسكندر بن قيليبوس المقدوني. وذكروا في وجه تلقيبه بذي القرنين أنه ضفر شعره قرنين، وقيل: كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان، وقيل: رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه تمثيلا لنفسه بالمعبود آمون معبود المصريين وذلك حين ملك مصر.
والقول الثاني: إنه ملك من ملوك حمير هو تبع أبو كرب.

صفحة : 2571

والقول الثالث: أنه ملك من ملوك الفرس وأنه أفريدون بن أنفيان بن جمشيد . هذه أوضح الأقوال، وما دونها لا ينبغي التعويل عليه ولا تصحيح روايته.
ونحن تجاه هذا الاختلاف يحق علينا أن نستخلص من قصته في هذه الآية أحوال تقرب تعيينه وتزييف ما عداه من الأقوال، وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال بل الأمر في ذلك أوسع وهذه القصة القرآنية تعطى صفات لا محيد عنها:
إحداها: أنه كان ملكا صالحا عادلا.
الثانية: أنه كان ملهما من الله.
الثالثة: أن ملكه شمل أقطارا شاسعه.
الرابعة: أنه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.
الخامسة: أنه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنها كانت في جهة مما شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطا بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه.
السادسة: أنه أقام سدا يحول بين ياجوج وماجوج وبين قوم آخرين.
السابعة: أن ياجوج وماجوج هؤلاء كانوا عائثين في الأرض فسادا وأنهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين لهذا الملك.
الثامنة: أنه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء.

التاسعة: أن خبره خفي دقيق لا يعلمه إلا الأحبار علما إجماليا كما دل عليه سبب النزول.

وأنت إذا تدبرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين إسكندر المقدوني لأنه لم يكن ملكا صالحا بل كان وثنيا فلم يكن أهلا لتلقي الوحي من الله وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضا فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سدا بين بلدين.

وأما نسبة السد الفاصل بين الصين وبين بلاد ياجوج وماجوج إليه في كلام بعض المؤرخين فهو ناشئ عن شهرة الاسكندر فتوهم القصاصون أن ذلك السد لا يكون إلا من بنائه، كما توهم العرب أن مدينة تدمر بناها سليمان عليه السلام. وأيضا فإن هيرودوتس اليوناني المؤرخ ذكر أن الاسكندر حارب أمه)سكيثوس(. وهذا الاسم هو اسم ماجوج كما سيأتي قريبا.

وأحسب أن لتركيب القصة المذكورة في هذه السورة على اسم إسكندر المقدوني أثرا في اشتهار نسبة السد إليه. وذلك من أوهام المؤرخين في الإسلام.

ولا يعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب إلى عين حمئة، وفي الشرق إلى قوم مجهولين عراة أو عديمي المساكين، ولا أن أمته كانت تلقبه بذي القرنين. وإنما انتحل هذا اللقب له لما توهموا أنه المعني بذي القرنين في هذه الآية. فمنحه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين، وليس رسم وجهه على النقود بقرنين مما شأنه أن يلقب به. وأيضا فالإسكندر كانت أخباره مشهورة لأنه حارب الفرس والقبط وهما أمتان مجاورتان للأمة العربية.

ومثل هذه المبطلات التي ذكرناها تتأتى لإبطال أن يكون الملك المتحدث عنه هو أفريدون، فإما أن يكون من تبابعة حمير فقد يجوز أن يكون في عصر متوغل في القدم. وقد توهم بعض المفسرين أنه كان معاصرا إبراهيم عليه السلام وكانت بلاده التي فتحها مجهولة المواقع. ولكن يبعد أن يكون هو المراد لأن العرب لا يعرفون من خبره مثل هذا. وقد ظهر من أقوالهم أن سبب هذا التوهم هو وجود كلمة)ذو(التي اشتهر وجود مثلها في ألقاب ملوك اليمن وتبابعته.

فالذي يظهر لي أن ذا القرنين كان ملكا من ملوك الصين لوجود.

أحدهما: أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع.

الثاني: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.

الثالث: أن من سماتهم تطويل سعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.

الرابع: أن سدا ورد ما عظيما لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول. وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه.
الخامس: ما روت أن حبيبة عن زينب بنت جحش)رض(أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ليلة فقال:)ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا.وأشار بعقد تسعين أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام .
وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعين أن ياجوج وماجوج هم المغول وأن الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبانيه ملك من ملوكهم.

صفحة : 2572

وأن وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب فهو مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت. وهذا الملك هو الذي بنى السد الفاصل بين الصين ومنغوليا. واسم هذا الملك تسينشي هوانقتي أو تسين شى هو انق تي . وكان موجودا في حدود سنة سبع وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح فهو متأخر عن إسكندر المقدوني بنحو قرن. وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متدينة بدين كنفيشيوس المشرع المصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.
وهذا الملك يؤخذ من كتب التاريخ أنه ساءت حالته في آخر عمره وأفسد كثيرا وقتل علماء وأحرق كتبا، والله أعلم بالحقيقة وبأسبابها.
ولما ظن كثير من الناس أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو إسكندر بن قيليبوس نحلوه بناء السد. وزعموه من صنعه كما نحلوه لقب ذي القرنين. وكل ذلك بناء أوهام على أوهام ولا أساس لواحد منهما ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين المذكورة في هذه السورة..
والأمر في قوله)قل سأتلو عليكم(إذن من الله لرسوله بأن يعد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله)ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن شاء الله(على أحد تأويلين في معناه.
والسين في قول)سأتلو عليكم(لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى)قال سوف أستغفر لكم ربي(في سورة يوسف.

وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوة حسب شأن القرآن فإنه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص.
وقوله)منه ذكرا(تنبيه على أن أحواله وأخباره كثيرة وأنهم إنما يهمهم بعض أحواله المفيدة ذكرا وعظة. ولذلك لم يقل في قصة أهل الكهف: نحن نقص عليك من نبئهم. لأن قصتهم منحصرة فيما ذكر. وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما ذكر هنا.
وحرف)من(في قوله)منه ذكرا(للتبعيض باعتبار مضاف محذوف، أي من خبره.
والتمكين: جعل الشيء متمكنا، أي راسخا. وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد. وحق فعل مكنا التعدية بنفسه، فيقال: مكناه في الأرض كقوله)مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم(.
فاللام في قوله)مكنا له في الأرض(للتوكيد كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، والجمع بينهما تفنن. وعلى ذلك جاء قوله تعالى)مكناهم في الأرض ما لم نمن لكم(.
فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف.
والمراد بالأرض أهل الأرض، والمراد بالأرض أرض معينة وهي أرض ملكه. وتقدم عند قوله تعالى)وكذلك مكنا ليوسف في الأرض(.
والسبب حقيقته: الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات التسخير على وجه الاستعارة كقوله تعالى)وتقطعت بهم الأسباب(في سورة البقرة.
و)كل شيء(مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة كما تقدم في نظائره غير مرة منها قوله تعالى)ولو جاءتهم كل آية(أي آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة.
)فاتبع سببا[85] حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حميئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا[86] قال أما من ظلم فسوف نعذبه, ثم يرد إلى ربه فيعذبه, عذابا نكرا[87] وأما من آمن وعمل صلحا فله, جزاء الحسنى وسنقول له, من أمرنا يسرا[88](السبب: الوسيلة. المراد هنا معنى مجازي وهو الطريق، لأن الطريق وسيلة إلى المكان المقصود، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ في قوله)فاتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس(. والدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله تعالى)وآتيناه من كل شيء سببا(إظهار اسم السبب دون إظماره، لأنه لما أريد به معنى غير ما أريد بالأول حسن إظهار اسمه تنبيها على اختلاف المعنيين، أي فاتبع طريقا للسير وكان سيره للغزو، كما دل عليه قوله)حتى إذا بلغ مغرب الشمس(.

ولم يعد أهل اللغة معنى الطريق في معاني لفظ السبب لعلهم رأوه لم يكثر وينتشر في الكلام. ويظهر أن قوله تعالى)أسباب السماوات(من هذا المعنى، وكذلك قول زهير:
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه أي هاب طرق المنايا أن يسلكها تنله المنايا، أي تأتيه، فذلك مجاز بالقرينة.

صفحة : 2573

والمراد ب)مغرب الشمس(مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غزوته أو مملكته. وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة، إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل. والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو بحيرة قزوين فإنها غرب بلاد الصين.
والقول في تركيب)حتى إذا بلغ مغرب الشمس(كالقول في قوله)حتى إذا ركبا في السفينة خرقها(.
والعين:منبع ماء.
وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص)في عين حمئة(مهموزا مشتقا من الحمأة، وهو الطين الأسود. والمعنى: عين مختلط ماؤها بالحمأة فهو غير صاف.
وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف)في عين حامية(بألف بعد الحاء وياء بعد الميم، أي حارة من الحمو وهو الحرارة، أي أن ماءها سخن.
ويظهر أن هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة باكو ، وفيها منابع النفط الآن ولم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة.
وتنكير)قوما(يؤذن بأنهم أمة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم.
فجملة)قلنا يا ذا القرنين(استئناف بياني لما أشعر به تنكير) قوما(من إثارة سؤال عن حالهم وعما لاقاه بهم ذو القرنين.
وقد دل قوله)إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا(على أنهم مستحقون للعذاب، فدل على أن أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل.
وإسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنه قول إلهام، أي ألقينا في نفسه ترددا بين أن يبادر استئصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى

الإيمان وحسن العمل، ويكون قوله)قال أما من ظلم(، أي قال في نفسه معتمدا على حالة وسط بين صورتي التردد.
وقيل: إن ذا القرنين كان نبيا يوحى عليه فيكون القول كلاما موحى به إليه يخيره فيه بين الأمرين، مثل التخيير الذي في قوله تعالى)فإما منا بعد وإما فداء(، ويكون قوله)قال أما من ظلم(جوابا منه إلى ربه. وقد أراد الله إظهار سداد اجتهاده كقوله) ففهمناها سليمان(.
و)حسنا(مصدر. وعدل عن)أن تحسن إليهم(إلى)أن تتخذ فيهم حسنا(مبالغة في الإحسان إليهم حتى جعل كأنه اتخذ فيهم نفس الحسن، مثل قوله تعالى)وقولوا للناس حسنا(. وفي هذه المبالغة تلقين لاختيار أحد الأمرين المخير بينهما.
والظلم: الشرك، بقرينه قسيمة في قوله)وأما من آمن وعمل صالحا(.
واجتلاب حرف الاستقبال في قوله)فسوف نعذبه(يشير إلى أنه سيدعوه إلى الإيمان فإن أصر على الكفر يعذبه. وقد صرح بهذا المفهوم في قوله)وأما من آمن وعمل صالحا(أي آمن بعد كفره.
ولا يجوز أن يكون المراد من هو مؤمن الآن، لأن التخيير بين تعذيبهم واتخاذ الإمهال معهم يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير.
والمعنى: فسوف نعذبه عذاب الدنيا ولذلك أسنده إلى ضميره ثم قال)ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا(وذلك عذاب الآخرة.
وقرأ الجمهور)جزاء الحسنى(بإضافة)جزاء(إلى)الحسنى(على الإضافة البيانية. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف)جزاء الحسنى(بنصب)جزاء(منونا على أنه تمييز لنسبه استحقاقه الحسنى، أو مصدر مؤكد لمضمون جملة)فله جزاء الحسنى(، أو حال مقدمة على صاحبها باعتبار تعريف الجنس كالتنكير.
وتأنيث)الحسنى(باعتبار الخصلة أو الفعلة. ويجوز أن تكون) الحسنى(هي الجنة كما في قوله)للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(.
والقول اليسر: هو الكلام الحسن. وصف باليسر المعنوي لكونه لا يثقل سماعه. وهو مثل قوله تعالى)فقل لهم قولا ميسورا(أي جميلا.
فإن كان المراد من)الحسنى(الخصال الحسنى، فمعنى عطف) وسنقول له من أمرنا يسرا(أنه يجازي بالإحسان وبالثناء. وكلاهما من ذي القرنين، وإن كان المراد من)الحسنى(ثواب الآخرة فذلك من أمر الله تعالى وإنما ذو القرنين مخبر به خبرا مستعملا في فائدة

الخبر، على معنى. إنا نبشره بذلك، أو مستعملا في لازم الفائدة تأدبا مع الله تعالى، أي أني أعلم جزاءه عندك الحسنى.
وعطف عليه)وسنقول له من أمرنا يسرا(لبيان حظ الملك من جزائه وأنه البشارة والثناء.

صفحة : 2574

)ثم اتبع سببا[89] حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا[90](تقدم خلاف القراء في) اتبع سببا(فهو كذلك هنا.
ومطلع الشمس: جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يخال أن لا عمران وراءها، فالمطلع مكان الطلوع.
والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقا، فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها، أي لا جبل فيها يستظلون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس. ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوما عراة فكانوا يتقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب. فالمراد بالستر ما يستر الجسد.
وكانوا قد تعودوا ملاقاة حر الشمس، ولعلهم كانوا يتعرضون للشمس ليدفعوا عن أنفسهم ما يلاقونه من القر ليلا.
وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد وسيرتهم على نحو مناخهم.
)كذلك(الكاف للتشبيه، والمشبه به شيء تضمنه الكلام السابق بلفظة أو معناه.
والكاف ومجرورها يجوز أن يكون شبه جملة وقع صفة لمصدر محذوف يدل عليه السياق، أي تشبيها مماثلا لما سمعت.
واسم الإشارة يشير إلى المحذوف لأنه كالمذكور لتقرر العلم به، والمعنى: من أراد تشبيهه لم يشبهه بأكثر من أن يشبهه بذاته على طريقة ما تقدم في قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة.
ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف ميتدأ. والتقدير:أمر ذي القرنين كذلك، أي كما سمعت.
ويجوز أن يكون صفة ل)قوما(أي قوما كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي في كونهم كفارا، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال. ويجوز أن يكون المجرور جزء

جملة أيضا جلبت للانتقال من كلام إلى كلام فيكون فصل خطاب كما يقال: هذا الأمر كذا.
وعلى الوجوه كلها فهو اعتراض بين جملة)ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس(الخ وجملة)ثم اتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين(الخ..
)وقد أحطنا بما لديه خبرا[91](هذه الجملة حال من الضمير المرفوع في)ثم أتبع(.
و)ما لديه(: ما عنده من عظمة الملك من جند وقوة وثروة.
والخبر بضم الخاء وسكون الموحدة: العلم والإحاطة بالخبر. كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلا علام الغيوب.
)ثم أتبع سببا[92] حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا[93] قالوا يدا القرنين إن ياجوج وماجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا[94] قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما[95] آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله, نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا[96] فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له, نقبا[97] قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله, دكا وكان وعد ربي حقا[98](السد بضم السين وفتحها: الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنه يسد به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز.
وقرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وخلف، ويعقوب بضم السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاعصم بفتح السين على لغة عدم التفرقة. والمراد بالسدين هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عينت المراد من هذا اللفظ المشترك.
وتعريف)الدين(تعريف الجنس، أى بين سدين معينين، أي اتبع طريقا آخر في غزوة حتى بلغ بين جبلين معلومين.

صفحة : 2575

ويظهر أن هذا السبب اتجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق فيحتمل أنها الشمال أو الجنوب. وعينه المفسرون أنه للشمات، وبنوا على أن ذا القرنين هو إسكندر المقدوني، فقالوا: إن جهة السدين بين أرمينيا وأذربيجان . ونحن نبني على ما عيناه في الملقب بذي القرنين، فنقول: إن موضع السدين هو الشمال

الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب مغوليا . وقد وجد السد هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون وصورت صورا شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية.

ومعنى)لا يكادون يفقهون قولا(أنهم لا يعرفون شيئا من قول غيرهم فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأن شأن الملوك أن يتخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلمون بلغة غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة فلا يوجد من يستطيع إفهامهم مراد الملك ولا هم يستطيعون الإفهام.

ويجوز أن يكون المعنى أنهم قوم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم.

وقرأ الجمهور)يفقهون(بفتح الياء التحتية وفتح القاف أي لا يفهمون قول غيرهم. وقرأ حمزة،والكسائى بضم الياء وكسر القاف أي لا يستطيعون إفهام غيرهم قولهم. والمعنيان متلازمان. وهذا كما في حديث الإيمان نسمع دوي صوته ولا نفهم ما يقول .

وهؤلاء القوم مجاورون ياجوج وماجوج. وكانوا أضعف منهم فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد ياجوج وماجوج. ولم يذكر المفسرون تعين هؤلاء القوم ولا أسماء قبيلتهم سوى أنهم قالوا: كم في منقطع بلاد الترك نحو المشرق وكانوا قوما صالحين فلا شك أنهم من قبائل بلاد الصين التي تتأخم بلاد المغول والتتر.

وجملة)قالوا(استئناف للمحاورة. وقد بينا في غير موضع أن جمل حكاية القول في المحاورات لا تقترن بحرف العطف كما في قوله تعالى)قالوا أتجعل فسها من يفسد فيها(الآية. فعلى أول الاحتمالين في معنى)لا يكادون يفقهون قولا(أنهم لا يدركون ما يطلب منهم من طاعة ونظام ومع ذلك يعربون عما في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال. وعلى الاحتمال الثاني أنهم أمكنهم أن يفهم مرادهم بعد لأي.

وافتتاحهم الكلام بالنداء أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين. ونداؤهم إياه بلقب ذي القرنين على أنه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده.

وياجوج وماجوج أمة كثيرة العدد فيحتمل أن الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمة ذات شعبين. وهم المغول وبعض أصناف التتار. وهذا هو المناسب لأصل رسم الكلمة ولا سيما على القول بأنهما اسمان عربيان كما سيأتي فقد كان الصنفان متجاورين.

ووقع لعلماء التأريخ وعلماء الأنساب اختلاف إطلاق اسمي المغول والتتار كل على ما يطلق عليه الآخر لعسر التفرقة بين المتقاربين

منهما. وقد قال بعض العلماء: إن المغول هم ماجوج بالميم اسم جد لهم يقال أيضا سكيشوس . وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين ماجوج ثم أنقسمت الأمة فسميت فروعها بأسماء خاصة، فمنها ماجوج وياجوج وتتر ثم التركمان ثم الترك. ويحتمل أن الواو المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيبا مزجيا. فيتكون اسما لأمة وهم المغول.

والذي يجب اعتماده أن اعتماده أن ياجوج وماجوج هم المغول والتتر.

وقد ذكر أبو الفداء أن ماجوج هم المغول فيكون ياجوج هم التتر. وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين. وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أم حبيبة عن زينب بنت جحش أن النبي ص دخل عليها فزعا يقول: لا اله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب.فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه . وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. وقد تقدم آنفا.

ولا يعرف بالضبط وقت إنطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك. ويقدر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس الهجري. وتشتت ملك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة ست عشرة وستمائة من الهجرة ووصلوا ديار بكر سنة 628 هجرية ثم ماكان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة ملك العرب سنة 660 هجرية.

صفحة : 2576

ونظير إطلاق اسمين على حي مؤتلف من قبيلتين إطلاق طسم وجديس على أمة من العرب البائدة. وإطلاق السكاسك والسكرن في القبائل اليمنية، وإطلاق هلال وزغبة على أعراب إفريقية الواردين من صعيد مصر. وإطلاق أولاد يحيى على حي بتونس بالجنوب الغربي. ومرادة وفرجان على حي من وطن نابل بتونس.

وقرأ الجمهور)ياجوج وماجوج(كلتيهما بألف بعد التحتية بدون همز. وقرأه عاصم بالهمز.

واختلف المفسرون في أنه اسم عربي أو معرب. وغالب ظني أنه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمة المناسب لحال مجتمعهم فاشتق لهما من مادة الأج. وهو الخلط. إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطا من أصناف.

والاستفهام من قوله)فهل نجعل لك(مستعمل في العرض.
والخرج: المال الذي يدفع للملك. وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء. وكذلك قرأة حمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ الجمهور)سدا(بضم السين وقرأه ابن كثير،وأبو عمرو،وحفص، والكسائي، وخلف بفتح السين.
وقوله)ما مكنني فيه ربي خير(أي ما آتاني الله من المال والقوة خير من الخراج الذي عرضتموه من السد الذي سألتموه. أي ما مكنني فيه ربي يأتي بخير مما سألتم، فإنه لاح له أنه إن سد عليهم المرور من بين الصدفين تحيلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين، فأراد أن يبني سورا ممتدا على الجبال في طول حدود البلاد حتى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال.
ولذلك سماه ردما. والردم: البناء المردم. شبه بالثؤب المردم المؤتلف من رقاع فوق رقاع. أي سدا مضاعفا. ولعله بني جدارين متباعدين وردم الفراغ الذي بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقيبه.
ولما كان ذلك يستدعي عمله كثيرين قال لهم)فأعينوني بقوة(أي بقوة الأبدان. أراد تسخيرهم للعمل لدفع الضرر عنهم.
وقد بنى ذو القرنين وهو تسين شى هوانق تي سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبا في القرن الثالث قبل المسيح وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. فجعل طوله ثلاثة الآف وثلاثمائة كيلو متر.
وبعضهم يقول. ألفا ومائتي ميل. بحسب اختلاف الاصطلاح في تقدير الميل. أي البحر الاصفر شرقي مدينة بيكنغ عاصمة الصين في خط اتجاه مدينة مكدن الشهيرة. وذلك عند عرض 40.4 شمالا. وطول 12.02 شرقا. وهو يلاقي النهر الأصفر حيث الطول 111،50 شرقا. والعرض 39،50 شمالا.وأيضا في 37 عرض شمالي. ومن هنالك يتعطف إلى جهة الشمال الغربي وينتهي بقرب 99 طولا شرقيا و 40 عرضا شماليا.
وهو مبني بالحجارة ولآجر وبعضه من الطين فقط.
وسمكه عند أسفله نحو 25 قدما وعند أعلاه نحو 15 قدما وارتفاعه يتراوح بين 15 إلى 20 قدما. وعليه أبراج مبنية من القراميد ارتفاع بعضها نحو 40 قدما.
وهو الآن بحالة خراب فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع.
ولكنه بقي علامة على الحد الفاصل بين المقاطعات الأرضية فهو فاصل بين الصين ومنغوليا. ويخترق جبال بابلوني التي هي حدود طببيعية بين الصين وبلاد منغوليا فمنتهى طرفه إلى الشمال الغربي لصحراء قوبي .

وقرأ الجمهور مكنن بنون مدغمة. وقرأه ابن كثير بالفك على الأصل.
وقوله)آتوني زبر الحديد(هو أمر لهم بمناولة زبر الحديد. فالإيتاء مستعمل في حقيقة معناه وهو المناولة وليس تكليفا للقوم بأن يجلبوا له الحديد من معادنه لأن ذلك ينافي قوله)ما مكنني فيه ربي خير فأعينوني بقوة(أي أنه غني عن تكليفهم إنفاقا على جعل السد.وكأن هذا لقصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتى لا ينهدم البناء بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور الناس ولا تمنع انسياب الماء من بين قضبها، وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.
والزبر: جمع زبرة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد.

صفحة : 2577

والحديد: معدن من معادن الأرض يكون قطعا كالحصى ودون ذلك يكون فيها صلابة. وهو يصنف ابتداء إلى صنفين: لين، ويقال له الحديد الأنثى، وصلب ويقال له الذكر. ثم يصنف إلى ثمانية عشر صنفا. ألوانه متقاربة وهي السنجابي، منها ما هو إلى الحمرة.ومنها ما هو إلى البياض. وهو إذا صهر بنار قوية في أتون مغلق التأمت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالاسفنجة واشتدت صلابته لأنه بالصهر يدفع مكان فيه من الأجزاء الترابية وهي المسماة بالصدأ والخبث، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبد. وخبث الحديد الوارد في الحديث إن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الجزاء الغريبة الخبيثة يخلص الجزء الحديدي ويصفو ويصير زبرا. ومن تلك الزبر تصنع الأشياء الحديدية من سيوف وزجاج ودروع ولأمات،ولا وسيلة لصنعه إلا الصهر أيضا بالنار بحيث تصير الزبرة كالجمر، فحينئذ تشكل بالشكل المقصود بواسطة المطارق الحديدية.
وقوله)حتى ساوى بين الصدفين(أشعرت)حتى(بشيء مغيا قبلها، وهو كلام محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتى إذا جعل بين الصدفين. وهذا إيجاز الحذف. والمساواة ك جعل الأشياء متساوية، أي متماثلة في مقار أو وصف.
والصدفان بفتح الصاد وفتح الدال في فقراءة الجمهور، وهو الأشهر. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب بضم الصاد

والدال، وهو لغة. وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم الصاد وسكون الدال.
والصدف: جانب الجبل، وهما جانبا الجبلين وهما السدان. وقال ابن عطية والقزويني في الكشف: إلا صدفان بالثنية، ولا يقال لأحدهما صدف لأن أحدهما يصادف الآخر، أي فالصدفان اسم لمجموع الجانبين مثل المقصان لما يقطع به الثوب ونحوه.
وعن أبي عيسى: الصدف كل بناء عظيم مرتفع.
والخطاب في قوله)انفخوا(وقوله)آتوني(خطاب للعملة. وحذف متعلق)انفخوا(لظهوره من كون العمل من صنع الحديد. والتقدير: انفخوا في الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين وزبر الحديد.
وقرأ الجمهور)آتوني(مثل الأول.
وقرأه حمزة، وأبو بكر عن عاصم)ائتوني(على أنه أمر من الإتيان. أي أمرهم أن يحضروا للعمل.
والقطر بكسر القاف: النحاس المذاب.
وضمير)اسطاعوا(و)استطاعوا(ليأجوج وماجوج.
والظهور: العلو. كسر الردم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته.
و)اسطاعوا(تخفيف)استطاعوا(. والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ بالأخف منهما لأنه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف.
ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل)استطاعوا(ويثنى بفعل)اسطاعوا(لأنه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله آنف)سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا(.
ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى.
وقرأ حمزة وحده)فما اسطاعوا(الأول بتشديد الطاء مدغما فيها التاء.
وجملة)قال هذا رحمة من ربي(مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنه لما آذن الكلام بانتهاء حكاية وصف الردم كان ذلك مثيرا سؤال من يسأل: ماذا صدر من ذي القرنين حين أتم هذا العمل العظيم؟ فيجاب بجملة)قال هذا رحمة من ربي (.
والإشارة بهذا إلى الردم. وهو رحمة للناس لما فيه من رد فساد أمة ياجوج وماجوج عن أمة أخرى صالحة.

و)من(ابتدائية. وجعلت من الله لأن الله ألهمه لذلك ويسر له ما هو صعب.
وفرع عليه)فإذا جاء وعد ربي جعله دكا(نطقا بالحكمة لأنه يعلم أن كل حادث صائر إلى زوال. ولأنه علم أن عملا عظيما مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام. وعلم أن ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيض منه لكل ذي سلطان.
والوعد: هو الإخبار بأمر مستقبل، وأراد به ما في علم الله تعالى من الأجل الذي ينتهي إليه دوام ذلك الردم. فاستعار له اسم الوعد. ويجوز أن يكون الله قد أوحى إليه إن كان نبيا أو ألهمه إن كان صالحا أن لذلك الردم أجلا معينا ينتهي إليه.

صفحة : 2578

وقد كان ابتداء ذلك الوعد يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم ياجوج هكذا. وعقد بين إصبعيه الإبهام والسبابة كما تقدم.
والدك في قراءة الجمهور مصدر بمعنى المفعول للمبالغة، أي جعله مدكوكا، أي مسوى بالأرض بعد ارتفاع. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف)جعله دكاء(بالمد. والدكاء: اسم للناقة التي لا سنام لها، وذلك على التشبيه البليغ.
وجملة)وكان وعد ربي حقا(تذييل للعلم بأنه لا بد له من أجل ينتهي إليه لقوله تعالى) لكل أجل كتاب(و)لكل أمة أجل(أي وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلف. وهذه الجملة بعمومها وما فيها من حكمة كانت تذييلا بديعا.
)وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض [99](الترك: حقيقته مفارقة شيء شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة تمثيلا لحال إلفائه على حالة، تم تغييرها بحال من كان قرب شيء ثم ذهب عنه. وإنما يكون هذا المجاز مقيدا بحالة كان عليها مفعول ترك، فيقيد أن ذلك آخر العهد، وذلك يستتبع أنه يدوم على ذلك الحال الذي تركه عليها بالقرينة.
والجملة عطف على الجملة التي قبلها ابتداء من قوله)حتى إذا بلغ بين الدين(. فهذه الجملة لذكر صنع الله تعالى في هذه القصة الثالثة من قصص ذي القرنين إذ ألهمه دفع فساد ياجوج وماجوج. بمنزلة جملة)قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب(في القصة الأولى.

وجملة)كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا(فجاء أسلوب حكاية هذه القصص الثلاث على نسق واحد.
و)يومئذ(هو يوم إتمام بناء السد المستفاد من قوله فما استطاعوا أن يظهروه الآية.
و)يموج(يضطرب تشبيها بموج البحر.
وجملة)يموج(حال من)بعضهم(أو مفعول ثان ل)تركنا(على تأويله ب)جعلنا(. أي جعلنا ياجوج وماجوج يومئذ مضطربين بينهم فصار فسادهم قاصرا عليهم ودفع عن غيرهم.

والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما

تأكله لأنهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويهم على ضعيفهم بالاعتداء.
)ونفخ في الصور فجمعنهم جمعا[99] وعرضنا جهنم يومئذ للكفرين عرضا[100] الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا[101](تخلص من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلص يؤذن بتشبيه حال تموجهم بحال تموج الناس في المحشر، تذكيرا للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب. وقد تقدم أن من أهم أغراض هذه السورة إثبات البعث.
واستعمل الماضي موضع المضارع تنبيها على تحقيق وقوعه.
والنفخ في الصور تمثيلية مكنية تشبيها لحال الداعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير، وبحال بقية الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج. على أنه يجوز أن يكون الصور من مخلوقات الآخرة.
والحالة الممثلة حالة غريبة لا يعلم تفصيلها إلا الله تعالى.
وتأكيد فعلي)جمعناهم(و)عرضنا(بمصدريهما لتحقق أنه جمع حقيقي وعرض حقيقي ليسا من المجاز، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل.
ونعت الكافرين ب)الذين كانت أعينهم في غطاء(للتنبيه على أن مضمون الصلة هو سبب عرض جهنم لهم، أي الذين عرفوا بذلك في الدنيا.

والغطاء: مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية. وحرف)من(للظرفية المجازية. وهي تمكن الغطاء من أعينهم بحيث كأنها محوية للغطاء.
و)عن(للمجاوزة، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري.
ونفي استطاعتهم السمع أنهم لشدة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول)سمعا(لدلالة قوله)عن ذكري(عليه.
والتقدير: سمعا لآياتي، فنفي الاستطاعة مستعمل في نفي الرغبة وفي الإغراض كقوله)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر(.

صفحة : 2579

وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعملون أنها المهيئة لهم، فشبه ذلك بالعرض تهكما بهم، لأن العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة.
)أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء انا أعتدنا جهنم للكفرين نزلا[102](أعقب وصف حرمانهم الانتفاع بدلائل المشاهدات على وحدانية الله وإعراضهم عن سماع الآيات بتفريع الإنكار لاتخاذهم أولياء من دون الله يزعمونها نافعة لهم تنصرهم تفريع الإنكار على صلة الذين كانت أ'ينهم في غطاء عن ذكري، لأن حسبانهم ذلك نشأ عن كون أعينهم في غطاء وكونهم لا يستطيعون سمعا، أي حسبوا حسبانا باطلا فلم يغن عنهم ما حسبوه شيئا، ولأجله كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا.
وتقدم حرف الاستفهام على فاء العطف لأن للاستفهام صدر الكلام وهو كثير في أمثاله، والخلاف شهير بين علماء العربية في أن الاستفهام مقدم من تأخير، أو أن العطف إنما هو على ما بعد الاستفهام بعد حذف المستفهم عنه لدلالة المعطوف عليه. فيقدر هنا: آمنوا عذابي فحسبوا أن يتخذوا إلخ... وأول القولين أولى. وقد تقدمت نظائره منها قوله تعالى)أفتطمعون أن يؤمنوا لكم(في سورة البقرة.
والاستفهام إنكاري. والإنكار عليهم فيما يحسبونه يقتضي أن ما ظنوه باطل. ونظيره قوله)أحسب الناس أن يتركوا(.
و)أن يتخذوا(ساد مسد مفعولي)حسب(لأنه يشتمل على ما يدل على المفعولين فهو ينحل إلى مفعولين. والتقدير: أحسب الذين كفروا عبادي متخذين أولياء لهم من دوني.

والإنكار متسلط على معمول المفعول الثاني وهو)أولياء(المعمول ل)يتخذوا(بقرينة ما دل عليه فعل)حسب(من أن هنالك محسوبا باطلا. وهو كونهم أولياء باعتبار ما تقتضيه حقيقة الولاية من الحماية والنصر.

و)عبادي(صادق على الملائكة والجن والشياطين ومن عبدوهم من الأخيار مثل عيسى عليه السلام، ويصدق على الأصنام بطريق التغليب.

و)من دوني(متعلق ب)أولياء(إما يجعل)دوني(اسما بمعنى حول أي من حول عذابي، وتأويل)أولياء(بمعنى أنصارا، أي حائلين دون عذابي وما نعينهم منه. وإما يجعل دوني بمعنى غيري. أي أحسبوا أنهم يستغنون بولايتهم.

وصيغ فعل الاتخاذ بصيغة المضارع للدلالة على تجدده منهم وأنهم غير مقلعين عنه.

وجعل في الكشاف فعل)يتخذوا(للمستقبل. أي أحسبوا أن يتخذوا عبادي أولياء يوم القيامة كما اتخذوهم في الدنيا، وهو المشار إليه بقوله)وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا(ونظره بقوله تعالى) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم(.

وإظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لهم.

وجملة)إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا(مقررة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم فأكد بأن جهنم أعدت لهم نزلا فلا محيص لهم عنها ولذلك أكد بحرف)إن(.

و)أعتدنا(: أعددنا، أبدل الدال الأول تاء لقرب الحرفين، والإعداد: التهيئة، وقد تقدم آنفا عند قوله تعالى)إنا أعتدنا للظالمين نارا(.

وجعل المسند إليه ضمير الجلالة لإدخال الروع في ضمائر المشركين.

والنزل بضمتين: ما يعد للنزيل والضيف من القرى. وإطلاق اسم النزل على العذاب استعارة علاقتها التهكم، كقول عمرو ابن كلثوم:

قربناكم فعجلنا قـراكـم قبيل الصبح مرداة طحونا)قل هل ننبئكم بالأخسرين أعملا[103] الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا[104] (اعتراض باستئناف ابتدائي أثاره مضمون جملة)أفحسب الذين كفروا(الخ. فإنهم لما اتخذوا أولياء من ليسوا ينفعونهم فاختاروا الأصنام وعبدوها وتقربوا إليها بما أمكنهم من القرب اغترارا بأنها

تدفع عنهم وهي لا تغني عنهم شيئا فكان عملهم خاسرا وسعيهم باطلا. فالمقصود من هذه الجملة هو قوله)وهم يحسبون...(الخ.

صفحة : 2580

وافتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين لأن مثل هذا الافتتاح يشعر بأنه في غرض منهم، وكذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم استفهاما مستعملا في العرض لأنه بمعنى: أتحبون أن ننبئكم بالأخسرين أعمالا، وهو عرض تهكم لأنه منبئهم بذلك دون توقف على رضاهم.

وفي قوله)بالأخسرين أعمالا(إلى آخره تمليح إذ عدل فيه عن طريقه الخطاب بأن يقال لهم: هل ننبئكم بأنكم الأخسرون أعمالا، إلى طريقة الغيبة بحيث يستشرفون إلى معرفة هؤلاء الأخسرين فما يروعهم إلا أن يعملوا أن المخبر عنهم هم أنفسهم.

والمقول لهم: المشركون، توبيخا لهم وتنبيها على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم.

ونون المتكلم المشارك في قوله)ننبئكم(يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة الالتفات في الحكاية. ومقتضى الظاهر أن يقال: هل ينبئكم الله، أي سينبئكم ويجوز أن تكون للمتكلم المشارك راجعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الله تعالى لأنه ينبئهم بما يوحى إليه من ربه. ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين.

وقوله)الذين ضل سعيهم(بدل من)الأخسرين أعمالا(.

وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال.

والضلال: خطأ السبيل. شبه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة.

والسعي: المشي في شدة. وهو هنا محاز في العمل كما تقدم عند قوله)ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها(في سورة الإسراء، أي عملوا أعمالا تقربوا بها للأصنام يحسبونها مبلغة إياهم أغراضا وقد أخطأوها وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا.

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي. والمعنى: الذين ضلوا في سعيهم.

وبين)يحسبون(و)يحسنون(جناس مصحف، وقد مثل بهما في مبحث الجناس.

)أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا[105](جملة هي استئناف بياني بعد قوله)هل ننبئكم(.

وجيء باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تميز لئلا يلتبسوا بغيرهم على نحو قوله تعالى)وأولئك هم المفلحون(.

وللتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.

والآيات: القرآن والمعجزات.

والحبط: البطلان والدحض.

وقوله)ربهم(يجري على الوجه الأول في نون)هل ننبئكم(أنه إظهار في مقام الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يقال: أولئك الذين كفروا بآياتنا. ويجري على الوجهين الثاني والثالث انه على مقتضى الظاهر.

ونون)فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا(على الوجه الأول في نون) قل هل ننبئكم(جارية على مقتضى الظاهر.

وأما على الوجهين الثالث والرابع فإنها التفات عن قوله)بآيات ربهم(، ومقتضى الظاهر أن يقال: فلا يقيم لهم.

ونفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء. وفي حقارته لأن الناس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن، فشبهوا بالمحقرات على طريقة المكنية وأثبت لهم عدم الوزن تخييلا.

وجعل عدم إقامة الوزن مفرعا على حبط أعمالهم لأنهم بحبط أعمالهم صاروا محقرين لا شيء لهم من الصالحات.

)ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا[106] (الإشارة إما إلى ما تقدم من وعيدهم في قوله)إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا(، أي ذلك الإعداد جزاؤهم.

وقوله)جزاؤهم(خبر عن اسم الإشارة. وقوله)جهنم(بدل من) جزاؤهم(بدلا مطابقا لأن إعداد جهنم هو عين جهنم وإعادة لفظ جهنم أكسبه قوة التأكيد؛ وإما إلى مقدر في الذهن دل عليه السياق بينه ما بعده على نحو استعمال ضمير الشأن مع تقدير مبتدأ محذوف. والتقدير: الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنم.

والباء للسببية، و)ما(مصدرية، أي بسبب كفرهم.

و)اتخذوا(عطف على)كفروا(فهو من صلة)ما(المصدرية. والتقدير: وبما اتخذوا آياتي ورسلي هزوا، أي باتخاذهم ذلك كذلك.

والرسل يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخبارا عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذبين، ويجوز أن يراد به الرسول الذي أرسل إلى الناس كلهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيما كما في قوله)نجب دعوتك ونتبع الرسل(.

والهزو بضمتين مصدر بمعنى المفعول. وهو أشد مبالغة من الوصف باسم المفعول، أي كانوا كثيري الهزو بهم.

)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنت الفردوس نزلا[107] خالدين فيها لا يبغون عنها حولا[108](هذا مقابل قوله)إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا(على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار.

وتأكيد الجملة للاهتمام بها لأنها جاءت في مقابلة جملة)إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا(، وهي مؤكدة كي لا يظن ظان أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده مع ما في التأكيدين من تقوية الإنذار وتقوية البشارة.

وجعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة)إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها(ثم قوله)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(.

وفي الإتيان ب)كانت(دلالة على أن استحقاقهم الجنات أمر مستقر من قبل مهيأ لهم.

وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم، كما قال تعالى)وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون(.

وجمع الجنات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنها جنات كثيرة كما جاء في الحديث: إنها جنان كثيرة .

والفردوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين. وعن مجاهد هو معرب عن الرومية. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي، أي ليس معربا. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن.

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمى باب الفراديس.

وإضافة الجنات إلى الفردوس بيانية، أي جنات هي من صنف الفردوس. وورد في الحديث أ، الفردوس أعلى الجنة أو وسط الجنة. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنه علم بالغلبة.

فإن حملت هذه الآية عليه كانت إضافة جنات إلى الفردوس إضافة حقيقية، أي جناب هذا المكان.
والنزل تقدم قريبا.
وقوله)لا يبغون عنها حولا(أي ليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتود مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. أي هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى.
والحول: مصدر بوزن العوج والصغر. وحرف العلة يصحح في هذه الضيفة لكن الغالب فيما كان على هذه الزنة مصدرا التصحيح مثل: الحول، وفيما كان منها جمعا الإعلال نحو: الحيل جمع حيلة. وهو من ذوات الواو مشتق من التحول.
)قل لو كان البحر مدادا لكلمت ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمت ربي ولو جئنا بمثله مددا[109](لما ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه غيره وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى.
فهذا استئناف ابتدائي وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله تعالى مفيض العلم على رسوله صلى الله عليه وسلم لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها علمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبينها بأقصى ما تقبله أفهامهم وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا رد عجز السورة على صدرها.

صفحة : 2582

وقيل: نزلت لأجل قول اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقول، أي في سورة الإسراء)وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(في سورة الإسراء.
وقال الترمذي عن ابن عباس: قال حيي بن أخطب اليهودي: في كتابكم)ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا(ثم تقرأون)وما

أوتيتم من العلم إلا قليلا(؛ فنزل قوله تعالى)قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي...(الآية.

وكلمات الله: ما يدل على شيء من علمه مما يوحي إلى رسله أن يبلغوه، فكل معلوم يمكن أن يخبر به. فإذا أخبر به صار كلمة. ولذلك يطلق على المعلومات كلمات، لأن الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل. ونظيرها قوله تعالى)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله(. وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي ولإثبات التعلق الصلوحي لصفة العلم. وقل من يتنبه لهذا التعلق.

ولما كان شأن ما يخبر الله به على لسان أحد رسله أن يكتب حرصا على بقائه في الأمة، شبهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات، ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المداد الذي به الكتابة على طريقة المكنية، وإثبات المداد تخييل كتخيل الأظفار للمنية. فيكون ما هنا مثل قوله تعالى) ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله(فإن ذكر الأقلام إنما يناسب المداد بمعنى الحبر.

ويجوز أن يكون هنا تشبيه كلمات الله بالسراج المضيء، لأنه يهدي إلى المطلوب، كما شبه نور الله وهديه بالمصباح في قوله تعالى) مثل نوره كمشكاة فيها مصباح(ويكون المداد تخييلا بالزيت الذي يمد به السراج.

والمداد يطلق على الحبر لأنه تمد به الدواة، أي يمد به ما كان فيها من نوعه، ويطلق المداد على الزيت الذي يمد به السراج وغلب إطلاقه على الحبر. وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين فتتضمن الآية مكنيتين على الاحتمالين.

واللام في قوله)الكلمات(لام العلة، أي لأجل كلمات ربي. والكلام يؤذن بمضاف محذوف، تقديره: لكتابة كلمات ربي، إذ المداد يراد للكتابة وليس البحر مما يكتب به ولكن الكلام بني على المفروض بواسطة لو .

والمداد: اسم لما يمد به الشيء، أي يزاد به على ما لديه. ولم يقل مدادا، إذ ليس المقصود تشبيهه بالحبر لحصول ذلك بالتشبيه الذي قبله وإنما قصد هنا أن مثله يمده.

والنفاد: الفناء والاضمحلال. ونفاد البحر ممكن عقلا.

وأما نفاد كلمات الله بمعنى تعلقات علمه فمستحيل، فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف وهو)قبل(إمكان نفاد كلمات الله. ولكن لما بني الكلام على الفرض والتقدير بما يدل عليه)

لو(كان المعنى لو كان البحر مدادا لكلمات ربي وكانت كلمات ربي مما ينفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي.
وهذا الكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقتضي قوله)قبل أن تنفد كلمات ربي(أن لكلمات الله تعالى نفادا كما علمته.
وجملة)ولو جئنا بمثله مددا(في موضع الحال.
و)لو(وصلية، وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقق معها مفاد الكلام السابق فينبه السامع على أنها متحقق معها مفاد الكلام السابق. وقد تقدم عند قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران. وهذا مبالغة ثانية.
وانتصب)مددا(على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ) مثله(أي مثل البحر في الإمداد.
)قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله وحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صلحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[100](

صفحة : 2583

استئناف ثان، انتقل به من التنويه بسعة علم الله تعالى وأنه لا يعجزه أن يوحي إلى رسوله بعلم كل ما يسأل عن الإخبار به. إلى إعلامهم بأن الرسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية. ولا أن من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء فيتصدى للإجابة عن أسئلة تلقى إليه، ولكنه بشر علمه كعلم البشر أوحى إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة. ولا علم له إلا ما علمه ربه كما قال تعالى)قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي(.
فالحصر في قوله)إنما أنا بشر مثلكم(قصر الموصوف على الصفة وهو إضافي للقلب. أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات.
وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى. وهذا من رد العجز على الصدر من قوله في أول السورة)لينذر بأسا شديدا من لدنه(إلى قوله)إن يقولون إلا كذبا(.
وجملة)يوحى إلي(مستأنفة. أو صفة ثانية ل)بشر(.
و)أنما(مفتوحة الهمزة أخت إنما المكسورة الهمزة وهي مركبة من)أن(المفتوحة الهمزة و)ما(الكافة كما ركبت إنما المكسورة

الهمزة فتفيد ما تفيده)أن(المفتوحة من المصدرية، وما تفيده إنما من الحصر، والحصر المستفاد منها هنا قصر إضافي للقلب.
والمعنى: يوحي الله إلي توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة.
وتفريع)فمن كان يرجو لقاء ربه(هو من جملة الموحى به إليه. أي يوحى إلي بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة.
فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلا لها وفرع عليه الأصلان الآخران، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى. وحصل مع ذلك رد العجز على الصدر وهو أسلوب بديع.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة مريم
اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم. ورويت هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الطبراني والديلمي، وابن منده، وأبو نعيم، وأبو أحمد الحاكم: عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنه ولدت لي الليلة جارية، فقال: والليلة أنزلت علي سورة مريم فسمها مريم . فكان يكنى أبا مريم، واشتهر بكنيته. واسمه نذير، ويظهر أنه أنصاري.
وابن عباس سماها سورة كهيعص، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها. ولم يعدها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسماة باسمين ولعله لم ير الثاني اسما.
وهي مكية عند الجمهور. وعن مقاتل: أن آية السجدة مدنية. ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلا أن تكون ألحقت بها في النزول وهو بعيد.
وذكر السيوطي في الإتقان قولا بأن قوله تعالى)وإن منكم إلا واردها(الآية مدني، ولم يعزه لقائل.
وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول؛ نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه. وكان نزول سورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يؤخذ من قصة إسلامه فيكون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة مع أن السورة مكية، وليس أبو مريم هذا معدودا في المسلمين الأولين فلا أحسب الحديث المروي عنه مقبولا.

ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصل في غيرها. ولا يشبهها في ذلك إلا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة.
وعدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة تسعا وتسعين. وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمانا وتسعين.

أغراض السورة
ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير.

وهل يثبت الخطي إلا وشيجه ثم التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم. والإنحاء على بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا، وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولدا لله تعالى.

صفحة : 2584

والتنويه بشأن القرآن في تبشيره ونذارته. وأن الله يسره بكونه عربيا ليسر تلك اللغة.
والإنذار مما حل بالمكذبين من الأمم من الاستئصال.
واشتملت على كرامة زكريا إذ أجاب الله دعاءه فرزقه ولدا على الكبر وعقر امرأته.
وكرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها، وهو إرهاص لنبوءة عيسى عليه السلام، ومثله كلامه في المهد.
والتنويه بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليه السلام.
ووصف الجنة وأهلها.
وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أبي بن خلف والعاصي ابن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم.
وإنذار المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها.
ووعد الرسول النصر على أعدائه.
وذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى.

والتنويه بالقرآن ولملته العربية، وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم.

وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمان ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمان. والرد على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن(.

ووقع في هذه السورة استطراد بآية)وما نتنزل إلا بأمر ربك(.

)كهيعص[1](حروف هجاء مرسومة بمسمياتها ومقروءة بأسمائها فكأنها كتبت لمن يتهجاها. وقد تقدم القول في مجموع نظائرها. وفي المختار من الأقوال منها في سورة البقرة وكذلك موقعها من الكلام.

والأصل في النطق بهذه الحروف أن يكون كل حرف منها موقوفا عليه، لأن الأصل فيها أنها تعداد حروف مستقلة أو مختزلة من كلمات.

وقرأ الجمهور جميع أسماء هذه الحروف الخمسة بإخلاص الحركات والسكون بإسكان أواخر أسمائها.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب اسم الحرف الثني وهو)ها(بالإمالة. وفي رواية عن نافع وابن كثير قرأ) ها(بحركة بين الكسر والفتح.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي)يا(بالإمالة.

وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو جعفر بإظهار دال)صاد(. وقرأ الباقون بإدغامه في ذال)ذكر رحمة ربك(. وإنما لم يمد) ها(و)يا(مع أن القارئ إنما ينطق بأسماء هذه الحروف التي في أوائل السور لا بمسمياتها المكتوبة أشكالها، واسما هذين الحرفين مختومان بهمزة مخففة للوجه الذي ذكرناه في طالع سورة يونس وهو التخفيف بإزالة لأجل السكت.

واعلم أنك إن جربت على غير المختار في معاني فواتح السور، فأما الأقوال التي جعلت الفواتح كلها متحدة في المراد فالأمر ظاهر، وأما الأقوال التي خصت بعضها بمعان، فقيل في معنى) كهيعص(إن حروفها مقتضبة من أسمائه تعالى: الكافي أو الكريم أو الكبير، والهاء من هادي، والياء من حكيم أو رحيم، والعين من العليم أو العظيم، والصاد من الصادق، وقيل مجموعها اسم من أسمائه تعالى، حتى قيل هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وقيل اسم من أسماء القرآن، أي بتسمية جديدة، وليس في ذلك حديث يعتمد.

)ذكر رحمت ربك عبده زكريا[2] إذ نادى ربه نداء خفيا[3](افتتاح كلام، فيتعين أن)ذكر(خبر مبتدأ محذوف، مثله شائع الحذف في أمثال هذا من العناوين. والتقدير: هذا ذكر رحمة ربك عبده. وهو بمعنى: اذكر. ويجوز أن يكون)ذكر(أصله مفعولا مطلقا نائبا عن عامله بمعنى الأمر، أي اذكر ذكرا، ثم حول عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات كما حول في قوله)الحمد لله(. وقد تقدم في سورة الفاتحة. ويرجحه عطف)واذكر في الكتاب مريم(ونظائره.

وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال: رب الخ... فرحمة ربك، فكان في تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه، مع ما إضافة)رب(إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم وإلى ضمير زكريا من التنويه بهما.

وافتتحت قصة مريم وعيسى بما يتصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأن في تلك الأحوال كلها تذكيرا برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه.

صفحة : 2585

وزكريا نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو زكريا الثاني زوج خالة مريم، وليس له كتاب في أسفار التوراة، وأما الذي له كتاب فهو زكريا ابن برخيا الذي كان موجودا في القرن السادس قبل المسيح. وقد مضت ترجمة زكريا الثاني في سورة آل عمران ومضت قصة دعائه هنالك.

و)إذ نادى ربه(ظرف ل)رحمة(، أي رحمة الله إياه في ذلك الوقت، أو بدل من)ذكر(، أي اذكر ذلك الوقت.

والنداء: أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. وتقدم عند قوله تعالى) ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان(في سورة آل عمران وقوله) ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها(في سورة الأعراف. ويطلق الندار كثيرا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام، فلذلك سميت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء لأن شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهرا، أي تضرعا لأنه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلام: أن زكريا قال: يا رب، بصوت خفي. وإنما كان خفيا لأن زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس، فلذلك

لم يدعه تضرعا وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبا. فلعل يقينن زكريا كاف في تقوية التوجه. فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء. ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيا، لأنه نداء من يسمع الخفاء.

والمراد بالرحمة: استجابة دعائه، كما سيصرح به بقوله)يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى(. وإنما حكي في الآية وصف دعاء زكريا كما وقع فليس فيها إشعار بالثناء على إخفاء الدعاء.

)قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا[4] وإني خفت المولي من وراءي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا[5] يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا[6](جملة)قال رب إني وهن العظم مني(مبنية لجملة) نادى ربه(. وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله) فهب لي من لدنك وليا(. وإنما كان ذلك تمهيدا لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطر إذا دعاه. فليس سؤاله الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر.

ووصف من ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالا ومثالا. فكان وهن العظم وعموم الشيب حالا مقتضيا للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة. فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره وهو الميراث بعد الموت. والخبران من قوله)وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا(مستعملان مجازا في لازم الإخبار. وهو الاسترحام لحاله. لأن المخبر بفتح الباء عالم بما تضمنه الخبران.

والوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه لأن العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلعه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه.

والتعريف في)العظم(تعريف الجنس دال على عموم العظام منه. وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم اسود. تشبيها مركبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه. وهو أبدع أنواع المركب. فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل)اشتعل(.

وأسند الاشتعال إلى الرأس. وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب.لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالبا. فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن.

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي، لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب. فلما جيء باسم الشيب تميزا لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز

وغرابته، وخصوصية التفضيل بعد الاحتمال. مع إفادة تنكير)شيبا(من التعظيم فحصل إيجاز بديع. وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس.

ولما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبني المعاني والبيان كان لها اعظم وقع عند أهل البلاغة نبه عليه صاحب الكشاف ووضحه صاحب المفتاح فانظرهما.

وقد اقتبس معناها أبو بكر بن دريد في قوله:

صفحة : 2586

واشتعل المبيض فـي مـسـودة مثل

اشتعال النار في جزل الغضا ولكنه خليق بأن يكون مضرب قولهم في المثل: ماء ولا كصدي.

والشيب: بياض الشعر. ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالبا، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيض الشعر من مرض.

وجملة)ولم أكن بدعائك رب شقيا(معترضة بين الجمل التمهيدية. والباء في قوله)بدعائك(للمصاحبة.

والشقي: الذي أصابته الشقوة، وهي ضد السعادة، أي هي الحرمان من المأمول وضلال السعي. وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدها وهو السعادة على طريق الكناية إذ لا واسطة بينهما عرفا.

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجري المثل في حصول السعادة من شيء. ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصة إبراهيم)عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا(أي عسى أن أكون سعيدا، أي مستجاب الدعوة. وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه في شأن الذين يذكون الله ومن جالسهم هم الجلساء لا يشقي بهم جليسهم أي يسعد معهم. وقال بعض الشعراء، لم نعرف اسمه وهو إسلامي:

جليس قعقاع بن شـور ولا يشقى

بقعقاع جليس أي يسعد به جليسه.

والمعنى: لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود منك، أي أنه قد عهد من الله الاستجابة كلما دعاه.

وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له بل طريق الحث على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة.

روي أن محتاجا سأل حاتما الطائي أو معن بن زائدة قائلا: أنا الذي أحسنت إلي يوم كذا فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا .
وجملة)وإني خفت الموالي من ورائي(عطف على جملة)واشتعل الرأس شيبا(، أي قاربت الوفاة وخفت الموالي من بعدي.
وما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبي صالح عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا أنه قال: يرحم الله زكريا ما كان عليه من وراثة ماله فلعله خشي سوء معرفتهم بما يخلفه من الآثار الدينية والعلمية. وتلك أعلاق يعز على المؤمن تلاشيها، ولذلك قال)يرثني ويرث من آل يعقوب(فإن نفوس الأنبياء لا تطمح إلا لمعالي الأمور ومصالح الدين وما سوى ذلك فهو تبع.
فقوله)يرثني(يعني به وراثة ماله. ويؤيده ما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يرحم الله زكريا ما كان عليه من وراثة ماله .
والظواهر تؤذ ن بأن الأنبياء كانوا يورثون، قال تعالى)وورث سليمان داود(. وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة فإنما يريد به رسول الله نفسه، كما حمله عليه عمر في حديثه مع العباس وعلي في صحيح البخاري إذ قال عمر: يريد رسول الله بذلك نفسه . فيكون ذلك من خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم فإن كان ذلك حكما سابقا كان مراد زكريا إرث آثار النبوة خاصة من الكتب المقدسة وتقاييده عليها.
والموالي: العصبة وأقرب القرابة، جمع مولي بمعنى الولي.
ومعنى)من ورائي(من بعدي، فإن الوراء يطلق ويراد به ما بعد الشيء. كما قال النابغة:
وليس وراء اله للمرء مطلب أي بعد الله. فمعنى)من ورائي(من بعد حياتي.
و)من ورائي(في موضع الصفة ل)الموالي(أو الحال.
وامرأة زكريا اسمها أليصابات من نسل هارون أخي موسى فهي من سبط لاوي.
والعاقر: الأنثى التي لا تلد، فهو وصف خاص بالمرأة.
ولذلك جرد من علامة التأنيث إذ لا لبس. ومصدره: العقر بفتح العين وضمها مع سكون القاف. وأتى بفعل)كان(للدلالة على أن العقر متمكن منها وثابت لها فلذلك حرم من الولد منها.
ومعنى)من لدنك(أنه من عند الله عندية خاصة، لأن المتكلم يعلم أن كل شيء من عند الله بتقديره وخلقه الأسباب ومسبباتها تبعا لخلقها، فلما قال من عندك دل على أنه سأل وليا غير جار أمره

على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة، فتكون هبته كرامة له.
ويتعلق)لي(و)من لدنك(بفعل)هب(. وإنما قدم)لي(على)من لدنك(لأنه الأهم من غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام.
و)يرثني(قرأه الجمهور بالرفع على الصفة ل)وليا(.

صفحة : 2587

وقرأه أبو عمرو، والكسائي بالجزم على أنه جواب الدعاء في قوله)هب لي(لإرادة التسبب لأن أصل الأجوبة الثمانية أنها على تقدير فاء السبب.
و)آل يعقوب(يجوز أن يراد بهم خاصة بني إسرائيل كما يقتضيه لفظ)آل(المشعر بالفضيلة والشرف، فيكون يعقوب هو إسرائيل، كأنه قال: ويرث من آل إسرائيل، أي حملة الشريعة وأحبار اليهودية كقوله تعالى)فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة(. وإنما يذكر آل الرجل في مثل هذا السياق إذا كانوا على سنته، ومن هذا القبيل قوله تعالى)إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه(، وقوله)ذرية من حمانا مع نوح(. مع أن الناس كلهم ذرية من حملوا معه.
ويجوز أن يراد يعقوب آخر غير إسرائيل. وهو يعقوب بن ماثان، قاله: معقل والكلبي. وهو عم مريم أخو عمران أبيها.
وقيل: هو أخو زكريا، أي ليس له أولاد فيكون ابن زكريا وارثا ليعقوب لأنه ابن أخيه، فيعقوب على هذه هو من جملة الموالي الذين خافهم زكريا من ورائه.
)يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا[7] قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا[8](مقول قول محذوف دل عليه السياق عقب الدعاء إيجازا، أي قلنا يا زكريا الخ...
والتبشير: الوعد بالعطاء. وفي الحديث: أنه قال للأنصار فأبشروا وأملوا وفي حديث وفد بني تميم: اقبلوا البشرى، فقالوا بشرتنا فأعطيتنا .
ومعنى أسمه يحيى سمية يحيى، فالكلام خبر مستعمل في الأمر.
والسمي فسروه بالموافق في الاسم، أي لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم من قبل وجوده. فعليه يكون هذا الإخبار سرا من الله أودعه زكريا فلا يظن أنه قد يسمي أحد ابنه يحيي فيما بين

هذه البشارة وبين ازداد الولد. وهذه منة من الله وإكرام لزكريا إذا جعل اسم ابنه مبتكرا. وللأسماء المبتكرة مزية قوة تعريف المسمى لقلة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيرا مدة وجوده. وله مزية اقتداء الناس به من بعد حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة.

وعندي: أن السمي هنا هو الموافق في الاسم الوصفي بإطلاق الاسم على الوصف فإن الاسم أصله في الاشتقاق)وسم(، والسمة: أصلها وسم'،كما في قوله تعالى)ليسمون الملائكة تسمية الأنثى(، أي يصفونهم أنهم إناث، ومنه قوله الآتي)هل تعلم له سميا(أي لا مثيل لله تعالى في أسمائه. وهذا أظهر في الثناء على يحيى والامتنان على أبيه. والمعنى: أنه لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى فإنه أعطى النبوءة وهو صبي، قال تعالى)وآتيناه الحكم صبيا(. وجعل حصورا ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام، ولئلا تكون له مشقة في الجمع بين حقوق العبادة وحقوق الزوجة، وولد لأبيه بعد الشيخوخة ولأمه بعد العقر. وبعث مبشرا برسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن هو رسولا، وجعل اسمه العلم مبتكرا غير سابق من قلبه. وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنه أفضل الأنبياء لأن الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلت، ولذلك قيل المزية لا تقتضي الأفضلية وهي كلمة صدق.

وجملة)قال رب(جواب للبشارة.

و)أني(استفهام مستعمل في التعجب. والتعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدا ثم يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولدا من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر، وتقدم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران.

وجملة)وكانت امرأتي عاقرا(حال من ياء التكلم وكرر ذلك مع قوله في دعائه)وكانت امرأتي عاقرا(. وهو يقتضي أن زكريا كان يظن أن عدم الولادة بسبب عقر امرأته، وكان الناس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عنة ولا خصاء ولا اعتراض، لأنهم يحسبون الإنعاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العقر. وهذا خطأ فإن عدم الولادة يكون إما لعلة بالمرأة في رحمها أو لعلة في ماء الرجل يكون غير صالح لنماء البويضات التي تبرزها رحم المرأة.

و)من(في قوله)من الكبر عتيا(للابتداء، وهو مجاز في معنى التعليل.

والكبر: كثرة سني العمر. لأنه يقارنه ظهور قلة النشاط واختلال نظام الجسم.
و)عتي(مفعول)بلغت(.
والبلوغ: مجاز في حلول الإنسان. وجعل نفسه هنا بالغا الكبر وفي آية آل عمران قال)وقد بلغني الكبر(لأن البلوغ لما كان مجازا في حصول الوصف صح أن يسند إلى الوصف وإلى الموصوف.
والعتي بضم العين في قراءة الجمهور: مصدر عتا العود إذا يبس، وهو بوزن فعول أصله عتوو، والقياس فيه أن تصحح الواو لأنها إثر ضمة ولكنهم لما استقلوا توالي ضمتين بعدهما وأوان وهما بمنزلة ضمتين تخلصوا من ذلك الثقل بإبدال ضمة العين كسرة ثم قلبوا الواو الأولى ياء لوقوعها ساكنة إثر كسرة فلما قلبت ياء اجتمعت تلك الياء مع الواو التي هي لام. وكأنهم ما كسروا التاء في عتي بمعنى اليبس إلا لدفع الالتباس بينه وبين العتو الذي هو الطغيان فلا موجب لطلب تخفيف أحدهما دون الآخر.
شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة السكنية، وإثبات وصف العتي لها استعارة تخييلية.
)قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا[9](فصلت جملة)قال كذلك(لأنها جرت على طريقة المحاورة وهي جواب عن تعجبه. والمقصود منه إبطال التعجب الذي في قوله)وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا(. فضمير)قال(عائد إلى الرب من قوله)قال رب أنى يكون لي غلام(.
والإشارة في قوله)كذلك(إلى قول زكريا)وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا(. والجار والمجرور مفعول لفعل)قال ربك(، أي كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدر ربك، ففعل) قال ربك(مراد به القول التكويني، أي التقديري، أي تعلق الإرادة والقدرة. والمقصود من تقديره التمهيد لإبطال التعجب الدال عليه قوله)علي هين(، فجملة)هو علي هين(استئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله)كذلك(لأن تقرير منشأ التعجب يثير ترقب السامع أن يعرف ما يبطل ذلك التعجب المقرر، وذلك كونه هينا في جانب قدرة الله تعالى العظيمة.
ويجوز أن يكون المشار إليه بقول)كذلك(هو القول المأخوذ من) قال ربك(، أي أن قول ربك)هو علي هين(بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ما علمت، فيكون جاريا على طريقة التشبيه كقوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(، وقد تقدم في سورة

البقرة. وعلى هذا الاحتمال فجملة)هو علي هين(تعليل لإبطال التعجب إبطالا مستفادا من قوله)كذلك قال ربك(، ويكون الانتقال من الغيبة في قوله)قال ربك(إلى التكلم في قوله)هو علي هين(التفاتا. ومقتضى الظاهر: هو عليه هين.

والهين بتشديد الياء: السهل حصوله.

وجملة)وقد خلفتك من قبل(على الاحتمالين هي في موضع الحال من ضمير الغيبة الذي في قوله)هو علي هين(، أي إيجاد الغلام لك هين علي في حال كوني قد خلقتك من قبل هذا الغلام ولم تكن موجودا، أي في حال كونه مماثلا لخلقي إياك، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم.

ومعنى)ولم تك شيئا(: لم تكن موجودا.

وقرأ الجمهور)وقد خلقتك(بتاء المتكلم.

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف)وقد خلقناك(بنون العظمة.

)قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا[10](أراد نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام، لأن البشارة لم تعين زمنا، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكريا أن يعلم وقت الموعود به. وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به، ولذلك حذف متعلق)آية(. وإضافة)آيتك(على معنى اللام، أي آية لك، أي جعلنا علامة لك.

ومعنى)أن لا تكلم الناس(أن لا تقدر على الكلام، لأن ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعالى. وليس المراد نهيه عن كلام الناس، إذ لا مناسبة في ذلك للكون آية، وقد قدمنا تحقيق ذلك في سورة آل عمران.

وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أن المراد هنا ليال بأيامها وأن المراد في آل عمران أيام بلياليها.

وأكد ذلك هنا بوصفها ب)سويا(أي ثلاث ليال كاملة، أي بأيامها.

صفحة : 2589

وسوي: فعيل بمعنى مفعول، يستوي الوصف به الواحد والواحدة والمتعدد منهما.

وفسر أيضا)سويا(بأنه حال من ضمير المخاطب، أي حال كونك سويا، أي بدون عاهة الخرس والبكم. ولكنها آية لك اقتضتها الحكمة، التي بيناها في سورة آل عمران. وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد

تأكيد الطمأنينة، ولألا فإن تأجيله بثلاث ليال كاف في الاطمئنان على انتفاء العاهة.
)فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا[11](الظاهر أن المعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته،فكان في محرابه في صلاة خاصة ودعاء خفي، ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم لهم.
وضمن)خرج(معنى)طلع(فعدي ب)على(كقوله تعالى)فخرج على قومه في زينته(.
والمحراب: بيت أو محتجر يخصص للعبادة الخاصة. قال الحريري: فمحرابي أحرى بي.
والوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.
و)أن(تفسيرية. وجملة)سبحوا بكرة وعشيا(تفسير ل)أوحى(، لأن) أوحى(فيه معنى القول دون حروفه.
وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكريا لما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة. كما سيأتي في قوله تعالى)فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا(. فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح، أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم ابنا يرث علمه. ولعلهم كانوا علموا ترقبه استجابة دعوته، أو أنه أمرهم بذلك أمرا مبهما يفسره عندما تزول حبسة لسانه.
)يا يحيى خذ الكتب بقوة وآتيناه الحكم صبيا[12] وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا[13] وبرا بولديه ولم يكن جبارا عصيا[14](مقول قول محذوف، بقرينة أن هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنه صادر من قائل، ولا يناسب إلا أن يكون قولا من الله تعالى، وهو انتقال من البشارة به إلى نبوءته. والأظهر أن هذا من إخبار القرآن للأمة لا من حكاية ما قيل لزكريا. فهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى.
وطوي ما بين ذلك لعدم تعلق الغرض به. والسياق يدل عليه.
والتقدير: قلنا يا يحيى خذ الكتاب.
والكتاب: التوراة لا محالة، إذ لم يكن ليحيى كتاب منزل عليه.
والأخذ: مستعار للتفهم والتدبر، كما يقال: أخذت العلم عن فلان، لأن المعتنى بالشيء يشبه الآخذ.
والقوة: المراد بها قوة معنوية، وهي العزيمة والثبات.
والباء للملابسة، أي أخذا ملابسا للثبات على الكتاب. أي على العمل به وحمل الأمة على اتباعه، فقد أخذ الوهن يتطرق إلى الأمة اليهودية في العمل بدينها.

و)آتيناه(عطف على جملة القول المحذوفة، أي قلنا: يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم.
والحكم: اسم للحكمة. وقد تقدم معناها في قوله تعالى)ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا(في سورة البقرة. والمراد بها النبوءة، كما تقدم في قوله تعالى)ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما(في سورة يوسف، فيكون هذا خصوصية ليحيى أن أوتي النبوءة في حال صباه. وقيل: الحكم هو الحكمة والفهم.
و)صبيا(حال من الضمير المنصوب في)آتيناه(. وهذا يقتضي أن الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم الاستقامة وإصابة الرأي في صباه. ويبعد أن يكون يحيى أعطي النبوة وهو صبي، لأن النبوة رتبة عظيمة فإنما تعطى عند بلوغ الأشد.
واتفق العلماء على أن يحيى أعطي النبوءة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير. ولعل الله لما أراد أن يكون شهيدا في مقتبل عمرة باكرة بالنبوة.
والحنان: الشفقة. ومن صفات الله تعالى الحنان. ومن كلام العرب: حنانيك، أي حنانا منك بعد حنان. وجعل حنان يحيى من لدن الله إشارة إلى أنه متجاوز المعتاد بين الناس.
والزكاة: زكاة النفس ونقاؤها من الخبائث، كما في قوله تعالى) فقل هل لك إلى أن تزكى(، أو أريد بها البركة.
وتقي: فعيل بمعنى مفعل، من اتقى إذا اتصف بالتقوى، وهي تجنب ما يخالف الدين. وجيء في وصفه بالتقوى بفعل)كان تقيا(للدلالة على تمكنه من الوصف.

صفحة : 2590

وكذلك عطف بروره بوالديه على كونه تقيا للدلالة على تمكنه من هذا الوصف.
والبرور: الإكرام والسعي في الطاعة. والبر بفتح الباء وصف على وزن المصدر، فالوصف به مبالغة. وأما البر بكسر الباء فهو اسم مصدر لعدم جريه على القياس.
والجبار: المستخف بحقوق الناس، كأنه مشتق من الجبر، وهو القسر والغصب، لأنه يغصب حقوق الناس.
والعصي: فعيل من أمثلة المبالغة، أي شديد العصيان. والمبالغة منصرفة إلى النفي لا إلى المنفي، أي لم يكن عاصيا بالمرة.

)وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[15](الأظهر أنه عطف على وآتيناه الحكم صبيا مخاطبا به المسلمون ليعلموا كرامة يحيى عند الله.

والسلام: اسم الكلام الذي يفاتح به الزائر والراحل فيه ثناء أو دعاء. وسمي ذلك سلاما لأنه يشتمل على الدعاء بالسلامة ولأنه يؤذن بأن الذي أقدم هو عليه مسالم له لا يخشى منه بأسا. فالمراد هنا سلام من الله عليه، وهو ثناء الله عليه، كقوله)سلام قولا من رب رحيم(. فإذا عرف السلام باللام فالمراد به مثل المراد بالمنكر أو مراد به العهد، أي سلام إليه، كما سيأتي في السلام على عيسى. فالمعنى: أن إكرام الله متمكن من أحواله الثلاثة المذكورة.

وهذه الأحوال الثلاثة المذكورة هنا أحوال ابتداء أطوار: طور الورود على الدنيا. وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة. وهذا كناية على أنه بمحل العناية الإلهية في هذه الأحوال.

والمراد باليوم مطلق الزمان الواقع فيه تلك الأحوال.

وجيء بالفعل المضارع في)ويوم يموت(لاستحضار الحالة التي مات فيها. ولم تذكر قصة قتله في القرآن إلا إجمالا.

)واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا[16] فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا[17] قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا[18] قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا[19] قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا[20] قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا[21](جملة)واذكر في الكتاب مريم(عطف على جملة)ذكر رحمة ربك(عطف القصة على القصة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية، على أن ذلك الاتحاد ليس بملتزم. على أنك علمت أن الأحسن أن يكون قوله)ذكر رحمة ربك عبده زكريا(مصدرا وقع بدلا من فعله.

والمراد بالذكر: التلاوة، أي اتل خبر مريم الذي نقصه عليك.

وفي افتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرفها ويتدبرها.

والكتاب: القرآن، لأن هذه القصة من جملة القرآن. وقد اختصت هذه السورة بزيادة كلمة)في الكتاب(بعد كلمة)واذكر(. وفائدة ذلك التنبيه إلى أن ذكر من أمر بذكرهم كائن بآيات القرآن وليس مجرد ذكر فضله في كلام آخر من قول النبي صلى الله عليه وسلم كقوله لو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي .

ولم يأت مثل هذه الجملة في سورة أخرى لأنه قد حصل علم المراد في هذه السورة فعلم أنه المراد في بقية الآيات التي جاء فيها لفظ)اذكر(. ولعل سورة مريم هي أول سورة أتى فيها لفظ)

واذكر(في قصص الأنبياء فإنها السورة الرابعة والأربعون في عدد نزول السور.
و)إذ(ظرف متعلق ب)اذكر(باعتبار تضمنه معنى القصة والخبر، وليس متعلقا به في ظاهر معناه لعدم صحة المعنى.
ويجوز أن يكون)إذ(مجرد اسم زمان غير ظرف ويجعل بدلا من مريم، أي اذكر زمن انتباذها مكانا شرقيا. وقد تقدم مثله في قوله)ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه(.
والانتباذ: الانفراد والاعتزال، لأن النبذ: الإبعاد والطرح، فالانتباذ في الأصل افتعال مطاوع نبذه، تم أطلق على الفعل الحاصل بدون سبق فاعل له.
وانتصب)مكانا(على أنه مفعول)انتبذت(لتضمنه معنى حلت . ويجوز نصبه على الظرفية لما فيه من الإبهام. والمعنى: ابتعدت عن أهلها في مكان شرقي.

صفحة : 2591

ونكر المكان إبهاما له لعدم تعلق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصة. وأما التصدي لوصفه بأنه شرقي فللتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشمس. كما قال ابن عباس: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى)مكانا شرقيا(أي أن ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى. فذكر كون المكان شرقيا نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل.
واتخاذ الحجاب: جعل شيء يحجب عن الناس. قيل: إنها احتجبت لتغتسل وقيل لتمتشط.
والروح: الملك، لأن تعليق الإرسال به وإضافته إلى ضمير الجلالة دلا على أنه من الملائكة وقد تمثل لها بشرا.
والتمثل: تكلف المماثلة، أي أن ذلك الشكل ليس شكل الملك بالأصالة.
و)بشرا(حال من ضمير)تمثل(، وهو حال على معنى التشبيه البليغ.
والبشر: الإنسان. قال تعالى)إني خالق بشرا من طين(أي خالق آدم عليه السلام.
والسوي: المستوى، أي التام الخلق. وإنما تمثل لها كذلك للتناسب بين كمال الحقيقة وكمال الصورة، وللإشارة إلى كمال عصمتها إذ

قالت)إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا(، إذ لم يكن في صورته ما يكره لأمثالها، لأنها حسبت أنه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها، فبادرته بالتعوذ منه قبل أن يكلمها مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة.
وجملة)إني أعوذ بالرحمن منك(خبرية، ولذلك أكدت بحرف التأكيد. والمعنى: أنها أخبرته بأنها جعلت الله معاذا لها منه، أي جعلت جانب الله ملجأ لها مما هم به. وهذه موعظة له.
وذكرها صفة)الرحمان(دون غيرها من صفات الله لأنها أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته داعرا عليها.
وقولها)إن كنت تقيا(تذكير له بالموعظة بأن عليه أن يتقي ربه.
ومجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتهييج خشيته. وكذلك اجتلاب فعل الكون الدال على كون التقوى مستقرة فيه. وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحث على العمل بتقواه.
والقصر في قوله)إنما أنا رسول ربك(قصر إضافي، أي لست بشرا، ردا على قولها)إن كنت تقيا(المقتضى اعتقادها أنه بشر.
وقرأ الجمهور)لأهب(بهمزة المتكلم بعد لام العلة. ومعنى إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنه سبب هذه الهبة. وقرأه أبو عمرو، وورش عن نافع)ليهب(بياء الغائب، أي ليهب ربك لك، مع أنها مكتوبة في المصحف بألف. وعندي أن قراءة هؤلاء بالياء بعد اللام إنما هي نطق الهمزة المخففة بعد كسر اللام بصورة نطق الياء.
ومحاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عما جاء لأجله، لأنها علمت أنه مرسل من الله فأرادت مراجعة ربها في أمر لم تطقه،كما راجعه إبراهيم عليه السلام في قوم لوط. وكما راجعه محمد صلى الله عليه وسلم في فرض خمسين صلاة. ومعنى المحاورة أن ذلك يجر لها ضرا عظيما إذ هي مخطوبة لرجل ولم يبن بها فكيف يتلقى الناس منها الإتيان بولد من غير أب معروف.
وقولها)ولم أك بغيا(تبرئة لنفسها من البغاء بما يقتضيه فعل الكون من تمكن الوصف الذي هو خبر الكون، والمقصود منه تأكيد النفي. فمفاد قولها)ولم أك بغيا(غير مفاد قولها)ولم يمسسني بشر(، وهو مما زادت به هذه القصة على ما في قصتها في سورة آل عمران، لأن قصتها في سورة آل عمران نزلت بعد هذه فصح الاجتزاء في القصة بقولها)ولم يمسسني بشر(.
وقولها)ولم يمسسني بشر(أي لم يبن بي زوج، لأنها كانت مخطوبة ومراكنة ليوسف النجار ولكنه لم يبن بها فإذا حملت بولد اتهمها خطيبها وأهلها بالزنى.
وأما قولها)ولم أك بغيا(فهو نفي لأن تكون بغيا من قبل تلك الساعة، فلا ترضى بأن ترمى بالبغاء بعد ذلك. فالكلام كناية عن

التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب. والمعنى: ما كنت بغيا فيما مضى أفأعد بغيا فيما يستقبل.
وللمفسرين في هذا المقام حيرة ذكرها الفخر والطيبي، وفيما ذكرنا مخرج من مأزقها. وليس كلام مريم مسوقا مساق الاستبعاد مثل قول زكريا)أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا(لاختلاف الحالين لأن حال زكريا حال راغب في حصول الولد، وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله.

صفحة : 2592

والبغي: اسم للمرأة الزانية، ولذلك لم تتصل به هاء التأنيث، ووزنه فعيل أو فعول بمعنى فاعل فيكون أصله بغوي. لأنه من البغي فلما اجتمع الواو والياء وسكن السابق منهما قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأصلية وعوض عن ضمة الغين كسرة لمناسبة الياء فصار بغي.
وجواب الملك معناه: أن الأمر كما قلت، نظير قوله في قصة زكريا)كذلك قال ربك هو علي هين(، وهو عدول عن إبطال مرادها من المراجعة لا بيان هون هذا الخلق في جانب القدرة على طريقة الأسلوب الحكيم.
وفي قوله)هو علي هين(توجيه بأن ما اشتكته من توقع ضد قولها وطعنهم في عرضها ليس بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدى الناس لرسالة عيسى عليه السلام بأن الله تعالى لا يصرفه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضر في ذلك لبعض عبيده، لأن مراعاة المصالح العامة تقدم على مراعاة المصالح الخاصة.
فضمير)هو علي هين(عائد إلى ما تضمنه حوارها من لحاق الضر بها كما فسرنا به قولها)ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا(. فبين جواب الملك إياها وبين جواب الله زكريا اختلاف في المعنى.
والكلام في الموضوعين على لسان الملك من عند الله، ولكنه أسند في قصة زكريا إلى الله لأن كلام الملك كان تبليغ وحي عن الله جوابا من الله عن مناجاة زكرياء، وأسند في هذه القصة إلى الملك لأنه جواب عن خطابها إياه.
وقوله)ولنجعله(عطف على)فأرسلنا إليها روحنا(باعتبار ما في ذلك من قول الروح لها)لأهب لك غلاما زكيا(، أي لأن هبة الغلام الزكي كرامة من الله لها، وجعله آية للناس ورحمة كرامة للغلام، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلم.

وجملة)وكان أمرا مقضيا(يجوز أن تكون في قول الملك، ويجوز أن تكون مستأنفه. وضمير)كان(عائد إلى الوهب المأخوذ من قوله)لأهب لك غلاما(.

وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأن التخليق قد حصل في رحمها.

)فحملته فانتبذت به مكانا قصيا[22] فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا[23](الفاء للتفريع والتعقيب، أي فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة.

والحمل: العلوق، يقال: حملت المرأة ولدا، وهو الأصل، قال تعالى) حملته أمه كرها(. ويقال: حملت به. وكأن الباء لتأكيد اللصوق، مثلها في)وامسحوا برؤوسكم(. قال أبو كبير الهذلي: حملت به في ليلة قرءودة كرها وعقد نطاقها لم يحلل والانتباذ تقدم قريبا، وكذلك انتصاب)مكانا(تقدم.

و)قصيا(بعيدا، أي بعيدا عن مكان أهلها. قيل: خرجت إلى البلاد المصرية فارة من قومها أن يعزروها وأعانها خطيبها يوسف النجار وأنها ولدت عيسى عليه السلام في الأرض المصرية. ولا يصح.

وفي إنجيل لوقا: أنها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهودية حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار إذ كان مطلوبا للحضور بقرية أهله لأن ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلاد، وهو ظاهر قوله تعالى)فأتت به قومها تحمله(.

والفاء في قوله)فأجاءها المخاض(للتعقيب العرفي، أي جاءها المخاض بعد تمام مدة الحمل، قيل بعد ثمانية أشهر من حملها.

و)أجاءها(معناه ألجأها، وأصله جاء، عدي بالهمزة فقيل: أجاءه، أي جعله جائيا. ثم أطلق مجازا على إلجاء شيء شيئا إلى شيء، كأنه يجئ به إلى ذلك الشيء، ويضطره إلى المجيء إليه. قال الفراء: أصله من جئت وقد جعلته العرب إلجاء. وفي المثل شر ما يجيئك إلى مخة عرقوب وقال زهير:

وجار سار معتمدا إلينـا أجاءته

المخافة والرجاء والمخاض بفتح الميم: طلق الحامل، وهو تحرك الجنين للخروج.

والجذع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة: العود الأصلي للنخلة الذي يتفرع منه الجريد. وهو ما بين العروق والأغصان، أي إلى أصل نخلة استندت إليه.

وجملة)قالت(استئناف بياني، لأن السامع يتشوف إلى معرفة حالها عند إبان وضع حملها بعد ما كان أمرها مستترا غير مكشوف بين الناس وقد آن أن ينكشف، فيجاب السامع بأنها تمنت الموت قبل ذلك؛ فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها.

وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى. فلذلك كانت في مقام الصديقية.

صفحة : 2593

والمشار إليه في قولها)قبل هذا(هو الحمل. أرادت أن لا يتطرق عرضا بطعن ولا تجر على أهلها معرة. ولم تتمن أن تكون ماتت بعد بدو الحمل لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن في عرضها بعد موتها ولا المعرة على أهلها إذ يشاهد أهلها بطنها بحملها وهي ميتة فتطرقها القالة.
وقرأ الجمهور)مت(بكسر الميم للوجه الذي تقدم في قوله تعالى)ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم(في سورة آل عمران. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر بضم الميم على الأصل. وهما لغتان في فعل)مات(إذا اتصل به ضمير رفع متصل.
والنسي بكسر النون وسكون السين في قراءة الجمهور: الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى. ووزن فعل يأتي بمعنى اسم المفعول بقيد تهيئته لتعلق الفعل به دون تعلق حصل. وذلك مثل الذبح في قوله تعالى)وفديناه بذبح عظيم(، أي كبش عظيم معد لأن يذبح، فلا يقال للكبش ذبح إلا إذا أعد للذبح، ولا يقال للمذبوح ذبح بل ذبيح. والعرب تسمي الأشياء التي يغلب إهمالها أنساء، ويقولون عند الارتحال: أنظروا أنساءكم، أي الأشياء التي شأنكم أن تنسوها.
ووصف النسي بمنسي مبالغة في نسيان ذكرها، أي ليتني كنت شيئا غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحل به، فهي تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك.
وقرأه حمزة، وحفص، وخلف)نسيا(بفتح النون، وهو لغة في النسي، كالوتر والوتر، والجسر والجسر.
)فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا[24](ضمير الرفع المستتر في)ناداها(عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في)فحملته(، أي ناداها المولود.
قرأ نافع، وحمزة والكسائي، وحفص، وأبو جعفر، وخلف، وروح عن يعقوب)من تحتها(بكسر ميم)من(على أنها حرف ابتداء متعلق ب)ناداها(وبجر)تحتها(.
وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب)من(بفتح الميم على أنها اسم موصول، وفتح) تحتها(على أنه ظرف جعل صلة. والمعني بالموصول هو الغلام الذي تحتها. وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمه عليهما السلام.

وقيد)من تحتها(لتحقيق ذلك، ولإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسلية والبشارة وتصويرا لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمه.
و)أن(من قوله)ألا تحزني(تفسيرية لفعل)ناداها(.
وجملة)قد جعل ربك تحتك سريا(خبر مراد به التعليل لجملة)ألا تحزني(، أي أن حالتك حالة جديرة بالمسرة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهية.
السري: الجدول من الماء كالساقية، كثير الماء الجاري.
وهبها الله طعاما طيبا وشرابا طيبا كرامة لها يشهدها كل من يراها، وكان معها خطيبها يوسف النجار، ومن عسى أن يشهدها فيكون شاهدا بعصمتها وبراءتها مما يظن بها. فأما الماء فلأنه لم يكن الشأن أن تأوي إلى مجرى ماء لتضع عنده. وأما الرطب فقيل كان الوقت شتاء ولم يكن إبان رطب وكان جذع النخلة جذع نخلة ميتة فسقوط الرطب منها خارق للعادة. وإنما أعطيت رطبا دون التمر لأن الرطب أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة وأما التمر فغذاء.
)وهزي إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطبا جنيا[25] فكلي واشربي وقري عينا(فائدة قوله)وهزي إليك بجذع النخلة(أن يكون إثمار الجذع اليابس رطبا ببركة تحريكها إياه، وتلك كرامة أخرى لها. ولتشاهد بعينها كيف يثمر الجذع اليابس رطبا. وفي ذلك كرامة لها بقوة يقينها بمرتبتها.
والباء في)بجذع النخلة(لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله مثل) وامسحوا برؤوسكم(وقوله)ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة(.
وضمن)هزي(معنى قربي أو أدني، فعدي ب)إلى(، أي حركي جذع النخلة وقريبه يدن إليك ويلن بعد اليبس ويسقط عليك رطبا:
والمعنى: أدني إلى نفسك جذع النخلة. فكان فاعل الفعل ومتعلقة متحدا، وكلاهما ضمير معاد واحد. ولا ضير في ذلك لصحة المعنى وورود أمثاله في الاستعمال نحو)واضمم إليك جناحك(. فالضام والمضموم إليه واحد. وإنما منع النحاة أن يكون الفاعل والمفعول ضميري معاد واحد إلا في أفعال القلوب، وفي فعلي: عدم وفقد، لعدم سماع ذلك، لا لفساد المعنى، فلا يقاس على ذلك منع غيره.

صفحة : 2594

والرطب: تمر لم يتم جفافه.

والجني: فعيل بمعنى مفعول، أي مجتنى، وهو كناية عن حدثان سقوطه، أي عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل لأن الرطب متى كان أقرب عهدا بنخلته كان أطيب طعما.

و)تساقط(قرأه الجمهور بفتح التاء وتشديد السين أصله تتساقط بتاءين أدغمت التاء الثانية في السين ليتأتى التخفيف بالإدغام.

وقرأه حمزة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين للتخفيف.

و)رطبا(على هاته القراءات تمييز لنسبة التساقط إلى النخلة.

وقرأه حفص بضم التاء وكسر السين على أنه مضارع ساقطت النخلة تمرها، مبالغة في أسقطت، و)رطبا(مفعول به.

وقرأه يعقوب بياء تحتية مفتوحة وفتح القاف وتشديد السين فيكون الضمير المستتر عائدا إلى)جذع النخلة(.

وجملة)فكلي(وما بعدها فذلكة للجمل التي قبلها من قوله)قد جعل ربك تحتك سريا(أي فأنت في بحبوحة عيش.

وقرة العين: كناية عن السرور بطريق المضادة، لقولهم: سخنت عينه إذا كثر بكاؤه. فالكناية بضد ذلك عن السرور كناية بأربع مراتب. وتقدم في قوله تعالى)وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك(. وقرة العين تشمل هناء العيش وتشمل الأنس بالطفل المولود. وفي كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه.

وفتح القاف في)وقري عينا(لأنه مضارع قررت عينه من باب رضي، أدغم فنقلت حركة عين الكلمة إلى فائها في المضارع لأن الفاء ساكنة.

)فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا[26](هذا من بقية ما زادها به عيسى، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل، تلقينا من الله لمريم وإرشادا لقطع المراجعة مع من يريد مجادلتها. فعلمها أن تنذر صوما يقارنه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة.

وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في بعض الشرائع السالفة، وقد اقتبسه العرب في الجاهلية كما دل عليه حديث المرأة من أحمس التي حجت مصمتة. ونسخ في شريعة الإسلام بالنسبة، ففي موطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلس ويصوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صيامه وكان هذا الرجل يدعى أبا إسرائيل.

وروى عن أبي بكر الصديق)رض(أنه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم. فقال لها: إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمي . وفي

الحديث أن امرأة من أحمس حجت مصمتة ، أي لا تتكلم.
فالصمت كان عبادة في شرع من قبلنا وليس هو بشرع لنا لأنه نسخة الإسلام بقول النبي صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم ، وعمل أصحابه.
وقد دلت الآثار الواردة في هذه على أشياء: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوجب الوفاء بالنذر في مثل هذا، فدل على أنه غير قربة.
الثاني: أنه لم يأمر فيه بكفارة شأن النذر الذي يتعذر الوفاء به أو الذي لم يسم له عمل معين كقوله: علي نذر، وفي الموطأ عقب ذكر الحديث المذكور قال مالك: ولم يأمره بكفارة ولو كانت فيه كفارة لأمره بها فدل ذلك على أنه عمل لا اعتداد به بوجه.
الثالث: أنه أومأ إلى علة عدم انعقاد النذر به بقوله:)إن الله عذب تعذيب هذا نفسه لغني(.
فعلمنا من ذلك أن معنى العبادة أن تكون قولا أو فعلا يشتمل على معنى يكسب النفس تزكية ويبلغ بها إلى غاية محمودة مثل الصوم والحج، فيحتمل ما فيها من المشقة لأجل الغاية السامية، وليست العبادة بانتقام من الله لعبده ولا تعذيب له كما كان أهل الضلال يتقربون بتعذيب نفوسهم، وكما شرع في بعض الأديان التعذيب القليل لخضد جلافتهم.
وفي هذا المعنى قوله تعالى)فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم(، لأنهم كانوا يحسبون أن القربة إلى الله في الهدايا أن يريقوا دماءها ويتركوا لحومها ملقاة للعوافي.

صفحة : 2595

وفي البخاري: عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شيخا يهادى بين ابنيه فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي. قال: إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني. وأمره أن يركب فلم ير له في المشي في الطواف قربة.
وفيه عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك، فقطعه النبي بيده ثم قال: قده بيده .
وفي مسند أحمد عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاصي: أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك رجلين وهما مقتربان. فقال: ما

بالهما؟ قالا: إنا نذرنا لنقترنن حتى نأتي الكعبة. فقال: أطلقا أنفسكما ليس هذا نذرا إنما النذر ما يبتغى به وجه الله. وقال: إسناده حسن.
الرابع: أن الراوي لبعض هذه الآثار رواها بلفظ: نهى رسول الله عن ذلك. ولذلك قال مالك في الموطأ عقب حديث الرجل الذي نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ولا يجلس: قال مالك: قد أمره رسول الله أن يتم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية .
ووجه كونه معصية أنه جراءة على الله بأن يعبده بما لم يشرع له ولو لم سكن فيه حرج على النفس كنذر صمت ساعة، وأنه تعذيب للنفس التي كرمها الله تعالى من التعذيب بوجوه التعذيب إلا لعمل اعتبره الإسلام مصلحة للمرء في خاصته أو للأمة أو لدرء مفسدة مثل القصاص والجلد. ولذلك قال:)ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما(.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أن دماءكم وأموالكم وأنفسكم وأبشاركم عليكم حرام لأن شريعة الإسلام لا تناط شرائعها إلا بجل المصالح ودرء المفاسد.
والمأخوذ من قول مالك في هذا أنه معصية كما قاله في الموطأ. ولذلك قال الشيخ أبو محمد في الرسالة: ومن نذر معصية من قتل نفس أو شرب خمر أو نحوه أو ما ليس بطاعة ولا معصية فلا شيء عليه. وليستغفر الله . فقوله وليستغفر الله بناء على أنه أتى بنذره مخالفا لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عنه.
ولو فعل أحد صمتا بدون نذر ولا قصد عبادة لم يكن حراما إلا إذا بلغ إلى حد المشقة المضنية.
وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحما على الميت أن يقفوا صامتين هنيهة.
ومعنى)فقولي إني نذرت للرحمن صوما(: فانذري صوما وإن لقيت من البشر أحدا فقولي: إني نذرت صوما فحذفت جملة للقرينة. وقد جعل القول المتضمن إخبار بالنذر عبارة عن إيقاع النذر وعن الإخبار به كناية عن إيقاع النذر لتلازمهما لأن الأصل في الخبر الصدق والمطابقة للواقع مثل قوله تعالى)قولوا آمنا بالله(. وليس المراد أنها تقول ذلك ولا تفعله لأن الله تعالى لا يأذن في الكذب إلا في حال الضرورة مع عدم تأتي الصدق معها، ولذلك جاء في الحديث إن في المعاريض مندوحة عن الكذب .
وأطلق القول على ما يدل على ما في النفس، وهو الإيماء إلى أنها نذرت صوما مجازا بقرينة قوله)فلن أكلم اليوم إنسيا(. فالمراد أن تؤدي ذلك بإشارة إلى أنها نذرت صوما بأن تشير إشارة تدل على الانقطاع عن الأكل، وإشارة تدل على أنها لا تتكلم لأجل ذلك، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطا بترك الكلام كما قيل

فالإشارة الواحدة كافية. وإن كلام الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنها نذرت الأمرين، وقد علمت مريم أن الطفل الذي كلمها هو الذي يتولى الجواب عنها حين تسأل بقرينة قوله تعالى)فأشارت إليه(.

والنون في قوله)ترين(نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة.

والإنسي: الإنسان، والياء فيه للنسب إلى الإنس، وهو اسم جمع إنسان، فياء النسب لإفادة فرد من الجنس مثل: ياء حرسي لواحد من الحرس. وهذا نكره في سياق النفي يفيد المموم، أي لن أكلم أحدا.

وعدل عن)أحد(إلى)إنسيا(للرعي على فاصلة الياء، وليس ذلك احترازا عن تكليمها الملائكة إذ لا يخطر ذلك بالبال عند المخاطبين بمن هيئت لهم هذه المقالة فالحمل عليه سماجة.

صفحة : 2596

)فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا[27] يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا[28](دلت الفاء على أن مريم جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلمها ابنها. وفي إنجيل لوقا: أنها بقيت في بيت لحم إلى انتهاء واحد وأربعين يوما، وهي أيام التطهير من دم النفاس، فعلى هذا يكون التعقيب المستفاد من الفاء تعقيبا عرفيا مثل: تزوج فولد له.

و)قومها(: أهل محلتها.

وجملة)تحمله(حال من تاء)أتت(. وهذا الحال للدلالة على أنها أتت معلنة به غير ساترة لأنها قد علمت أن الله سيبرئها مما يتهم به مثل من جاء في حالتها.

وجملة)قالوا يا مريم(مستأنفة استئنافا بيانيا. وقال قومها هذه المقالة توبيخا لها.

وفري: فعيل من فرى من ذوات الياء. ولهذا اللفظ عدة إطلاقات، وأظهر محامله هنا أنه الشنيع في السوء، قاله مجاهد والسدي، وهو جاء من مادة افترى إذا كذب لأن المرأة تنسب ولدها الذي حملت به من زنى إلى زوجها كذبا. ومنه قوله تعالى)ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن(.

ومن أهل اللغة من قال: إن الفري والفرية مشتقان من الإفراء بالهمز. وهو قطع الجلد لإفساده أو لتحريقه، تفرقة بين أفرى وفرى، وأن فرى المجرد للاصلاح.

والأخت: مؤنث الأخ، اسم يضاف إلى اسم آخر، فيطلق حقيقة على ابنة أبوي ما أضيفت إلى اسمه أو ابنة أحد أبويه. ويطلق على من تكون من أبناء صاحب الاسم الذي تضاف إليه إذا كان اسم قبيلة كقولهم: يا أخا العرب. كما في حديث ضيف أبي بكر الصديق قوله لزوجه يا أخت بني فراس ما هذا . فإذا لم يذكر لفظ بني مضافا إلى اسم جد القبيلة كان مقدرا. قال سهل بن مالك الفزاري:

يا أخت خير البدو والحضارة كيف

ترين في فتى فزارة يريد يا أخت أفضل قبائل العرب من بدوها وحضرها.

فقوله تعالى)يا أخت هارون(يحتمل أن يكون على حقيقته. فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك، وهذا أظهر الوجهين. ففي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون)يا أخت هارون(وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلما قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له. فقال: ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم اه. ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهم أن ليس في القوم من اسمه هارون إلا هارون الرسول أخا موسى.

ويحتمل أن معنى)أخت هارون(أنها إحدى النساء من ذرية هارون أخي موسى، كقول أبي بكر: يا أخت بني فراس. وقد كانت مريم من ذرية هارون أخي موسى من سبط لاوي. ففي إنجيل لوقا كان كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات، واليصابات زوجة زكريا نسيبة مريم، أي ابنة عمها. وما وقع للمفسرين في نسب مريم أنها من نسل سليمان بن داود خطأ.

ولعل قومها تكلموا باللفظين فحكاه القرآن بما يصلح لهما على وجه الإيجاز. وليس في هذا الاحتمال ما ينافي حديث المغيرة بن شعبة.

والسوء بفتح السين وسكون الواو: مصدر ساءه، إذا أضر به وأفسد بعض حاله، فإضافة اسم إليه تفيد أنه من شؤونه وأفعاله وأنه هو مصدر له. فمعنى)امرأ سوء(رجل عمل مفسد.

ومعنى البغي تقدم قريبا. وعنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها، أي أتت بسوء ليس من شأن أبيها وبغاء

ليس من شأن أمها، وخالفت سيرة أبويها فكانت امرأة سوء وكانت بغيا؛ وما كان أبوها امرأ سوء ولا كانت أمها بغيا فكانت مبتكرة الفواحش في أهلها. وهم أرادوا ذمها فأتوا بكلام صريحه ثناء على أبويها مقتض أن شأنها أن تكون مثل أبويها.

)فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا[29](أي أشارت إليه إشارة دلت على أنها تحيلهم عليه ليسألوه عن قصته، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إياها وقد فهموا ذلك من إشارتها.

صفحة : 2597

ولما كانت إشارتها بمنزلة مراجعة كلام حكي حوارهم الواقع عقب الإشارة بجملة القول مفصولة غير معطوفة.

والاستفهام: إنكار؛ أنكروا أن يكلموا من ليس من شأنه أن يتكلم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته، أي كيف نترقب منه الجواب، أو كيف نلقي عليه السؤال، لأن الحالتين تقتضيان التكلم.

وزيادة فعل الكون في)من كان في المهد(للدلالة على تمكن المظروفية في المهد من هذا الذي أحيلوا علة مكالمته، وذلك مبالغة منهم في الإنكار، وتعجب من استخفافها بهم. ففعل) كان(زائد للتوكيد، ولذلك جاء بصيغة المضي لأن)كان(الزائدة تكون بصيغة الماضي غالبا.

وقوله)في المهد(خبر)من(الموصولة.

و)صبيا(حال من اسم الموصول.

والمهد: فراش الصبي وما يمهد لوضعه.

)قال إني عبد الله آتاني الكتب وجعلني نبيا[30] وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصني بالصلوة والزكوة ما دمت حيا[31] وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا[32] والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا[33](كلام عيسى هذا مما أهملته أناجيل النصارى لأنهم طووا خبر وصولها إلى أهلها عد وضعها، وهو طي يتعجب منه. ويدل على أنها كتبت في أحوال غير مضبوطة، فأطلع الله تعالى عليه نبيه صلى الله عليه وسلم.

والابتداء بوصف العبودية لله ألقاه الله على لسان عيسى لأن الله علم بأن قوما سيقولون: إنه ابن الله.

والتعبير عن إيتاء الكتاب بفعل المضي مراد به أن الله قدر إيتاءه إياه، أي قدر أن يؤتيني الكتاب.

والكتاب: الشريعة التي من شأنها أن تكتب لئلا يقع فيها تغيير. فإطلاق الكتاب على شريعة عيسى كإطلاق الكتاب على القرآن. والمراد بالكتاب الإنجيل وهو ما كتب من الوحي الذي خاط الله به عيسى. ويجوز أن يراد الكتاب التوراة فيكون الإيتاء إيتاء علم ما في التوراة كقوله تعالى)يا يحيى خذ الكتاب بقوة(. فيكون قوله) وجعلني نبيا(ارتقاء في المراتب التي أتاه الله إياها .

والقول في التعبير عنه بالماضي كالقول في قوله و)آتاني الكتاب(.

والمبارك: الذي تقارن البركة أحواله في أعماله ومحاورته ونحو ذلك، لأن المبارك اسم مفعول من باركه، إذا جعله ذا بركة. أو من بارك فيه، إذا جعل البركة معه.

والبركة: الخير واليمن.

ذلك أن الله أرسله برحمة لنبي إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير. ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة. ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشارين فصاروا دعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة.

وبهذا يظهر أن كونه مباركا أعم من كونه نبيا عموما وجهيا، فلم يكن في قوله)وجعلني نبيا(غنية عن قوله)وجعلني مباركا(.

والتعميم الذي في قوله)أينما كنت(تعميم للأمكنة، أي لا تقتصر بركته على كونه في الهيكل بالمقدس أو في مجمع أهل بلده، بل هو حيثما حل تحل معه البركة.

والوصاية: الأمر المؤكد بعمل مستقبل، أي قدر وصيتي بالصلاة والزكاة، أي أن يأمرني بهما أمرا مؤكدا مستمرا، فاستعمال صيغة المضي في)أوصاني(مثل استعمالها في قوله)آتاني الكتاب(.

والزكاة: الصدقة. والمراد: أن يصلي ويزكي. وهذا أمر خاص به كما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، وقرينة الخصوص قوله) ما دمت حيا(لدلالته على استغراق مدة حياته بإيقاع الصلاة والصدقة، أي أن يصلي ويتصدق في أوقات التمكن من ذلك، أي غير أوقات الدعوة أو الضرورات.

فالاستغراق المستفاد من قوله)ما دمت حيا(استغراق عرفي مراد به الكثرة؛ وليس المراد الصلاة والصدقة المفروضتين على أمته، لأن سياق الكلام في أوصاف تميز بها عيسى عليه السلام ولأنه لم يأت بشرع صلاة زائدة على ما شرع في التوراة.

والبر بفتح الباء: اسم بمعنى البار. وتقدم آنفا. وقد خصه الله تعالى بذلك بين قومه، لأن بر الوالدين كان ضعيفا في بني إسرائيل يومئذ، وبخاصة الوالدة لأنها تستضف، لأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البر بها.

والجبار: المتكبر الغليظ على الناس في معاملتهم. وقد تقدم في سورة هود قوله)واتبعوا أمر كل جبار عنيد(.

والشقي: الخاسر والذي تكون أحواله كدرة له ومؤلمة، وهو ضد السعيد. وتقدم عند قوله تعالى)فمنهم شقي وسعيد(في آخر سورة هود.

ووصف الجبار بالشقي باعتبار مآله في الآخرة وربما في الدنيا.

وقوله)والسلام علي يوم ولدت(إلى آخره تنويه بكرامته عند الله، أجراه على لسانه ليعلموا أنه بمحل العناية من ربه، والقول فيه تقدم في آية ذكر يحيى.

وجيء ب)السلام(هنا معرفا باللام على الجنس مبالغة في تعلق السلام به حتى كان جنس السلام بأجمعه عليه. وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه)وسلام عليه يوم ولد(، وذلك هو الفرق بين المعرف بلام الجنس وبين النكرة.

ويجوز جعل اللام للعهد، أي سلام إليه، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته. ومن هذا القبيل السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما(، وما أمرنا به في التشهد في الصلاة من قول المتشهد)السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته(.

ومؤذن أيضا بتمهيد التعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة، فقالوا: ولد من زنى، وقالوا: مات مصلوبا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة، لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة.

)ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون[34] ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون[35](اعتراض بين الجمل المقولة في قوله)قال إني عبد الله(مع قوله)وأن الله ربي وربكم(، أي ذلك المذكور هو عيسى ابن مريم لا كما تزعم النصارى واليهود.

والإشارة لتمييز المذكور أكمل تمييز تعريضا بالرد على اليهود والنصارى جميعا، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفعه النصارى

إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ مبطل، أي ذلك هو عيسى بالحق، وأما من تصفونه فليس هو عيسى لأن استحضار الشخص بصفات غير صفاته تبديل لشخصيته، فلما وصفوه بغير ما هو صفته جعلوا بمنزلة من لا يعرفون فاجتلب اسم الإشارة ليتميز الموصوف أكمل تمييز عند الذين يريدون أن يعرفوه حق معرفته. والمقصود بالتمييز تمييز صفاته الحقيقية عن الصفات الباطلة التي ألصقوها به لا تمييز ذاته عن الذوات إذ ليست ذاته بحاضرة وقت نزول الآية، أي تلك حقيقة عيسى عليه السلام وصفته.

و)قول الحق(قرأه الجمهور بالرفع. وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بالنصب ؛ فأما الرفع فهو خبر ثان عن اسم الإشارة أو وصف لعيسى أو بدل منه، وأما النصب فهو حال من اسم الإشارة أو من عيسى.

ومعنى)قول الحق(أن تلك الصفات التي سمعتم هي قول الحق، أي مقول هو الحق وما خالفها باطل، أو أن عيسى عليه السلام هو قول الحق، أي مقول الحق، أي المكون من قول)كن(، فيكون مصدرا بمعنى اسم المفعول كالخلق في قوله تعالى)هذا خلق الله(.

وجوز أبو علي الفارسي أن يكون نصب)قول الحق(بتقدير: أحق قول الحق، أي هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله منصوب بفعل محذوف وجوبا، تقديره: أحق قول الحق. ويجوز أن يكون)قول الحق(مصدرا نائبا عن فعله، أي أقول قول الحق. وعلى هذين الوجهين يكون اعتراضا. ويجوز أن يكون)قول(مصدرا بمعنى الفاعل صفة ل)عيسى(أو حالا منه، أي قائل الحق إذ قال)إني عبد الله آتاني الكتاب(إلى قوله)أبعث حيا(.

و)الذي فيه يمترون(صفة ثانية أو حال ثانية أو خبر ثان عن) عيسى بن مريم(على ما يناسب الوجوه المتقدمة.

والامتراء: الشك، أي الذي فيه يشكون، أي يعتقدون اعتقادا مبناه الشك والخطأ، فإن عاد الموصول إلى القول فالامتراء فيه هو الامتراء في صدقة، وإن عاد إلى عيسى فالامتراء فيه هو الامتراء في صفاته بين رافع وخافض.

صفحة : 2599

وجملة)ما كان لله أن يتخذ من ولد(تقرير لمعنى العبودية، أو تفصيل لمضمون جملة)الذي فيه يمترون(فتكون بمنزلة بدل البعض أو الاشتمال منها، اكتفاء بإبطال قول النصارى بأن عيسى ابن الله،

لأنه أهم بالإبطال، إذ هو تقرير لعبودتة عيسى وتنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك، ولأنه القول الناشئ عن الغلو في التقديس، فكان فيما ذكر من صفات المدح لعيسى ما قد يقوي شبهتهم فيه بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عدد لعيسى من صفات الخير.

وصيغة)ما كان الله أن يتخذ(تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه لأن لام الجحود تفيد مبالغة النفي، وأنه مما لا يلاقي وجود المنفي عنه، ولأن في قوله)أن يتخذ(إشارة إلى أنه لو كان له ولد لكان هو خلقه، واتخذه فلم يعد أن يكون من جملة مخلوقاته، فإثبات البنوة له خلف من القول.

وجملة)إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون(بيان لجملة)ما كان الله أن يتخذ من ولد(، لإبطال شبهة النصارى إذ جعلوا تكوين إنسان بأمر التكوين عن غير سبب معتاد دليلا على أن المكون ابن لله تعالى، فأشارت الآية إلى أن تكون أصول الموجودات أبناء لله وإن كان ما يقتضيه لا يخرج عن الخضوع إلى أمر التكوين.

)وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[36](يجوز أن يكون هذا بقية لكلام جرى على لسان عيسى تأييدا لبراءة أمه وما بينهما اعتراض كما تقدم آنفا.

والمعنى: تعميم ربوبية الله تعالى لكل الخلق.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب همزة)وأن(مفتوحة فخرجة الزمخشري: أنه على تقدير لام التعليل، فإن كان من كلام عيسى فهو تعليل لقوله)فاعبدوه(على أنه مقدم من تأخير للاهتمام بالعلة لكونها مقرر للمعلول ومثبتة له على أسلوب قوله تعالى)وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا(ويكون قوله)فاعبدوه(متفرعا على قوله)إني عبد الله(بعد أن أردف ما تعلقه من أحوال نفسه.

ولما اشتمل مدخول لام التعليل على اسم الجلالة أضمر له فيما عد. وتقدير النظم هكذا. فاعدوا الله لأنه ربي وربكم.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله)بالصلاة والزكاة(. أي وأوصاني بأن الله ربي وربكم، فيكون بحذف حرف الجر وهو مطرد مع)أن(.

ويجوز أن يكون معطوفا على)الحق(من قوله)قول الحق(على وجه جعل)قول(بمعنى قائل، أي قائل الحق وقائل إن الله ربي وربكم، فإن همزة)أن(يجوز فتحها وكسرها بع ماد' القول.

وإن كان مما خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله كان بتقدير قول محذوف، أو عطفا على)مريم(من قوله تعالى)واذكر في الكتاب مريم(أي اذكر يا محمد أن الله ربي فكذلك، ويكون

تفريع)فاعبدوه(على قوله)ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه(إلى آخره.
وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وروح عن يعقوب بكسر همزة)أن(. ووجهها ظاهر على كلا الاحتمالين.
وجملة)هذا صراط مستقيم(تذييل وفذلكة لما سبقه على اختلاف الوجوه. والإشارة إلى مضمون ما تقدم على اختلاف الوجوه.
والمراد بالصراط المستقيم اعتقاد الحق، شبه بالصراط المستقيم على التشبيه البليغ، شبه الاعتقاد الحق في كونه موصولا إلى الهدى بالصراط المستقيم في إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال، وعلم أن غير هذا كبنيات الطريق من سلكها ألقت به المخاوف والمتآلف كقوله)وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله(.
)فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم [37](الفاء لتفريغ الإخبار بحصول الاختلاف على الإخبار بأن هذا صراط مستقيم، أي حاد عن الصراط المستقيم الأحزاب فاختلفوا بينهم في الطرائق التي سلوكها، أي هذا صراط مستقيم لا يختلف سالكوه اختلافا أصليا، فسلك الأحزاب طرقا أخرى هي حائدة عن الصراط المستقيم فلم يتفقوا على شيء.
وقوله)من بينهم(متعلق ب)فاختلف(. و)من(حرف توكيد، أي اختلفوا بينهم.

صفحة : 2600

والمراد بالأحزاب أحزاب النصارى، لأن الاختلاف مؤذن بأنهم كانوا متفقين ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين. وقد كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين ثم حدث الاختلاف في تلاميذهم. وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى) فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة(في سورة النساء أن الاختلاف انحل إلى ثلاثة مذاهب: الملكانية وتسمى الجاثليقية ، واليعقوبية، والنسطورية. وانشعبت من هذه الفرق عدة فرق ذكرها الشهرستاني، ومنها الأليانة، والبليارسية، والمقدانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، والبولية، إلى فرق أخرى. منها فرقة كانت في العرب تسمى الركوسية ورد ذكرها في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم: إنك ركوسي . قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئه. وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية البروتستان أتباع لوثير . وأشهر الفرق اليوم هي الملكانية كاثوليك ،

واليعقوبية أرثودوكس ، والاعتراضية البروتستان . ولما كان اختلافهم قد انحصر في مرجع واحد يرجع إلى إلهية عيسى اغترارا وسوء فهم في معنى لفظ ابن الذي ورد صفة للمسيح في الأناجيل مع أنه قد وصف بذلك فيها أيضا أصحابه. وقد جاء في التوراة أيضا أنتم أبناء الله . وفي إنجيل متى الحواري وإنجيل يوحنا الحواري كلمات صريحة في أن المسيح ابن إنسان وأن الله إلهه وربه، فقد انحصرت مذاهبهم في الكفر بالله فلذلك ذيل بقوله)فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم(، فشمل قوله)الذين كفروا(هؤلاء المخبر عنهم من النصارى وشمل المشركين غيرهم.

والمشهد صالح لمعان، وهو أن يكون مشتقا من المشاهدة أو من الشهود، ثم إما أن يكون مصدرا ميميا في المعنيين أو اسم مكان لهما أو اسم زمان لهما، أي يوم فيه ذلك وغيره.

والويل حاصل لهم في الاحتمالات كلها وقد دخلوا في عموم الذين كفروا بالله، أي نفوا وحدانيته، فدخلوا في زمرة المشركين لا محالة، ولكنهم أهل كتاب دون المشركين.

)أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلل مبين[38]( )أسمع بهم وأبصر(صيغتا تعجب، وهو تعجب على لسان الرسول والمؤمنين، أو هو مستعمل في التعجيب، والمعنيان متقاربان، وهو مستعمل كناية أيضا عن تهديدهم؛ فتعين أن التعجيب من بلوغ حالهم في السوء مبلغا يتعجب من طاقتهم على مشاهدة مناظره وسماع مكارهه. والمعنى؛ ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، أي ما أقدرهم على السمع والبصر بما يكرهونه. وقريب هو من معنى قوله تعالى)فما أصبرهم على النار(.

وجوز أن يكون)أسمع بهم وأبصر(غير مستعمل في التعجب بل صادف أن جاء على صورة فعل التعجب، وإنما هو على أصل وضعه أمر للمخاطب غير المعين بأن يسمع ويبصر بسببهم، ومعمول السمع والبصر محذوف لقصد التعميم ليشمل كل ما يصح أن يسمع وأن يبصر. وهذا كناية عن التهديد.

وضمير الغائبين عائد إلى الذين كفروا، أي أعجب بحالهم يومئذ من نصارى وعبدة الأصنام.

والاستدراك الذي أفاده قوله)لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين(راجع إلى ما يفيده التقييد بالظرف في قوله)يوم يأتوننا(من ترقب سوء حالهم يوم القيامة الذي يقتضي الظن بأنهم الآن في سعة من الحال.

فأفيد أنهم متلبسون بالضلال المبين وهو من سوء الحال لهم لما يتبعه من اضطراب الرأي والتباس الحال على صاحبه. وتلك نكتة التقييد بالظرف في قوله)اليوم في ضلال مبين(.

والتعبير عنهم ب)الظالمون(إظهار في مقام الإضمار. ونكتته التخلص إلى خصوص المشركين لأن اصطلاح القرآن إطلاق الظالمين على عبدة الأصنام وإطلاق الظلم على عبادة الأصنام، قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(.

)وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون[39](عقب تحذيرهم من عذاب الآخرة والنداء على سوء ضلالهم في الدنيا بالأمر بإنذارهم استقصاء في الإعذار لهم.

والضمير عائد إلى الظالمين، وهم المشركون من أهل مكة وغيرهم من عبدة الأصنام لقوله)وهم لا يؤمنون(وقوله)وإلينا يرجعون(.

وانتصب)يوم الحسرة(على أنه مفعول خلف عن المفعول الثاني ل)أنذرهم(لأنه بمعنى أنذرهم عذاب يوم الحسرة.

صفحة : 2601

والحسرة: الندامة الشديدة الداعية إلى التلهف. والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب، أضيف اليوم إلى الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسر المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة، فكان ذلك اليوم كأنه مما اختصت به الحسرة، فهو يوم حسرة بالنسبة إليهم وإن كان يوم فرح بالنسبة إلى الصالحين.

واللام في)الحسرة(على هذا الوجه لام العهد الذهني، ويجوز أن يكون اللام عوضا عن المضاف إليه، أي يوم حسرة الظالمين.

ومعنى)قضي الأمر(تمم أم الله بزجهم في العذاب فلا معقب له.

ويجوز أن يكون المراد ب)الأمر(أمر الله بمجيء يوم القيامة، أي إذا حشروا. و)إذا(اسم زمان، بدل من)يوم الحسرة(.

وجملة)وهم في غفلة(حال من) الأمر(وهي حالسببية، إذ التقدير:إذ قضي أمرهم.

والغفلة: الذهول عن شيء شأنه أن يعلم.

ومعنى جملة الحال على الاحتمال الأول في معنى الأمر الكناية عن سرعة صدور الأمر بتعذيبهم، أي قضي أمرهم على حين أنهم في غفلة، أي بهت. وعلى الاحتمال الثاني تحذير من حلول يوم القيامة بهم قبل أن يؤمنوا كقوله)لا تأتيكم إلا بغتة(، وهذا أليق بقوله)وهم لا يؤمنون(.

ومعنى)وهم لا يؤمنون(استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة. فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدل عليه المضارع من استمرار الفعل وقتا فوقتا استحضارا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكنه.

)إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون[40](تذييل لختم القصة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها. والكلام موجه إلى المشركين لإبلاغه إليهم.

وضمير)يرجعون(عائد إلى)من عليها(وإلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في)وأنذرهم(.

وحقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مجاز في تمحض التصرف في الشيء دون مشارك، فإن الأرض كانت في تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كل بما يناسبه. فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها، وهو تصرف كان في ظاهر الأمر مشتركا بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجل معلوم، فصار الجميع في محض تصرف الله، ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء.

وتأكيد جملة)إنا نحن نرث الأرض(بحرف التوكيد لدفع الشك لأن المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى.

وأما ضمير الفصل في قوله)نحن نرث الأرض(فهو لمجرد التأكيد ولا يفيد تخصيصا، إذ لا يفيد رد اعتقاد مخالف لذلك.

وظهر لي: أن مجيء ضمير الفصل لمجرد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله)إنني أنا الله(في سورة طه. وقوله)وهم بالآخرة هم كافرون(في سورة يوسف.

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنهم لا مفر لهم من الكون في قبضة الرب الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأن آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم إذ ما هي إلا مما يرثه الله.

وبذلك كان موقع جملة)وإلينا يرجعون(بينا، فالتقديم مفيد القصر، أي لا يرجعون إلى غيرنا. ومحمل هذا التقديم بالنسبة إلى المسلمين الاهتمام ومحمله بالنسبة إلى المشركين القصر كما تقدم في قوله)إنا نحن نرث الأرض(.

)واذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا[41] إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا[42](قد تقدم أن من أهم ما استملت عليه هذه السورة التنويه بالأنبياء والرسل السالفين. وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وأول من أعلن التوحيد إعلانا باقيا، لبنائه له هيكل التوحيد وهو الكعبة، كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة. وذكر عقب قصة عيسى لمناسبة وقوع الرد على المشركين في آخر القصة ابتداء من قوله تعالى) فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم(إلى قوله)إنا نحن نرث

الأرض ومن عليها(. ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنيفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة.
وفي ذلك تسلية للنبىء صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم.

صفحة : 2602

وقد جرى سرد خبر إبراهيم عليه السلام على أسلوب سرد قصة مريم عليه السلام لما في كل من الأهمية كما تقدم.
وتقدم تفسير)واذكر في الكتاب(في أول قصة مريم.
و)الصديق(بتشديد الدال صيغة مبالغة في الاتصاف، مثل الملك الضليل لقب امرئ القيس، وقولهم: رجل مسيك، أي شحيح، ومنه طعام حريف، ويقال: دليل خريت، إذ كان ذا حذق بالطرق الخفية في المفاوز، مشتقا من الخرت وهو ثقب الشيء كأنه يثقب المسدودات ببصره. وتقدم في قوله تعالى)يوسف أيها الصديق(. وصف إبراهيم بالصديق لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذرا للمكلف مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها، كما في قول تأبط شرا.

إني لمهد من ثنائي فقاصد به

لابن عم الصدق شمس بن مالك وتأكيد هذا الخبر بحرف التوكيد وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في الثناء عليه.
وجملة)إنه كان صديقا نبيا(واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة، وهذه الجملة معترضة بين المبدل منه والبدل فإن)إذا(اسم زمان وقع بدلا من إبراهيم، أي اذكر ذلك خصوصا من أحوال إبراهيم فإنه أهم ما يذكر فيه لأنه مظهر صديقيته إذ خاطب أباه بذلك الإنكار.
والنبي: فعيل بمعنى مفعول، من أنبأه بالخبر. والمراد هنا أنه منبأ من جانب الله تعالى بالوحي. والأكثر أن يكون النبي مرسلا للتبليغ، وهو معنى شرعي، فالنبي فيه حقيقة عرفية. وتقدم في سورة البقرة عند قوله)إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا(، فدل ذلك على أن قوله لأبيه)يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر(إنما كان عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام.

وقرأ الجمهور)نبيا(بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة. وقرأه نافع وحده)نبيا(بهمزة آخره. وبذلك تصير الفاصلة القرآنية على حرف الألف، ومثل تلك الفاصلة كثير في فواصل القرآن.

وقوله)إذ قال لأبيه(الخ... بدل اشتمال من إبراهيم. و)إذ(اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن)إذ(ظرف متصرف على التحقيق. والمعنى: اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه فإن ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يذكر.

وأبو إبراهيم هو)آزار(تقدم ذكره في سورة الأنعام.

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.

قال الجد الوزير رحمة الله فيما أملاه علي ذات ليلة من عام 1318ه فقال: علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة إيماء إلى أنه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته فيصوره الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطىء، منبها على خطئه عندما بتأمل في عمله، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطل رأيه وسفاهة حلمه، فإنه لو عبد حيا مميزا لكانت له شبهة ما. وابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحس إذ قال له)لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر(فذلك حجة محسوسة، ثم أتبعها بقوله)ولا يغني عنك شيئا(، ثم انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله)يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا(، فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أن ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان، ثم ألقي إليه حجة لائقة بالمتصلبين في الضلال بقوله)يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا(، أي أن الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإن أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها. وهذا كما في الشعر المنسوب إلى علي)رض(:

زعم المنجم والطبيب كلاهمـا لا تحشر الأجسام قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

قال: وفي النداء بقوله) يا أبت(أربع مرات تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب. ونظر ذلك بتكرير لقمان قوله)يا بني(ثلاث مرات، قال: بخلاف قول نوح لابنه)يا بني اركب معنا(مرة واحدة دون تكرير لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز. انتهى كلامه بما يقارب لفظه.

وأقول: الوجه ما بني عليه من أن الاستفهام مستعمل في حقيقته، كما أشار إليه صاحب الكشاف، ومكنى به عن نفي العلة المسؤول عنها بقوله)لم تعبد(، فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام.

و)أبت(: أصله أبي، حذفوا ياء المتكلم وعوضوا عنها تاء تعويضا على غير قياس، وهو خاص بلفظ الأب والأم في النداء خاصة، ولعله صيغة باقية من العربية القديمة. ورأى سيبويه أن التاء تصبر في الوقف هاء، وخالفه الفراء فقال: ببقائها في الوقف. والتاء مكسورة في الغالب لأنها عوض عن الياء والياء بنت الكسرة ولما كسروها فتحوا الياء وبذلك قرأ الجمهور. وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر)يا أبت(بفتح التاء دون ألف بعدها، بناء على أنهم يقولون)يا أبتا(بألف بعد التاء لأن ياء المتكلم إذا نودي يجوز فتحها وإشباع فتحتها فقرأه على اعتبار حذف الألف تخفيفا وبقاء الفتحة.

)يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا[43](إعادة ندائه بوصف الأبوة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأول. قال في الكشاف: ثم ئني بدعوته إلى الحق مترفقا به متطلقا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ليست معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي، فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه اه. ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه. وأراد إبراهيم علم الوحي والنبوءة.

وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصون مظان المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاء ما يضر، قال تعالى)فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون(.

وفي قوله)أهدك صراطا سويا(استعارة مكنية، شبه إبراهيم بهادي الطريق البصير بالثنايا، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه، وهو أيضا استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق البصير بالثناية، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه، وهو أيضا استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المبلغ إلى المقصود.

و)يا أبت(تقدم الكلام على نظيره قريبا.
)يا ?أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا[44]
(إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثاني. والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام، عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحا عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون(،ففي الكلام إيجاز لأن معناه:لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالا معلوما.
وهذا كقوله تعالى)وإن يدعون إلا شيطانا مريدا(. وتقدم في سورة النساء. وفي هذا تبغيض لعبادة الأصنام، لأن في قرارة نفوس الناس بغض الشيطان والحذر من كيده.

صفحة : 2604

وجملة)إن الشيطان كان للرحمن عصيا(تعليل للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنه شديد العصيان للرب الواسع الرحمة. وذكر وصف)عصيا(الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل)كان(للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه، فلا جرم أنه لا يأمر إلا بما ينافي الرحمة، أي بما يفضي إلى النقمة، ولذلك اختير وصف الرحمان من بين صفات الله تعالى تنبيها على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع.
وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار، إذ لم يقل: إنه كان للرحمن عصيا، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان، لأن في ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها. وتقدم الكلام على)يا أبت(قريبا.
)يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا [45](لا جرم أنه لما قرر أن عبادته الأصنام اتباع لأمر الشيطان عصي الرحمان انتقل إلى توقع حرمانه من رحمة الله بأن يحل به عذاب من الله، فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء

الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم، ولكنهم يندمجون فيهم عن ضلال بمال حالهم.
وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحل به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة، عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته من شأنه سعة الرحمة.
والولي: الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحد وأمرهما جميع، فكني بالولاية عن المقارنة في المصير.
والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يثبت أمرا فيما هو من تصرف الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان.
ومعنى)فتكون للشيطان وليا(فتكون في اتباع الشيطان في العذاب.
وتقدم الكلام على)يا أبت(قريبا.
)قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا[46](فصلت جملة)قال(لوقوعها في المحاورة كما تقدم في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.
والاستفهام للإنكار إنكارا لتجافي إبراهيم عن عبادة أصنامهم.
وإضافة الآلهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية وانتساب إلى المضاف لقصد تشريف المضاف إليه.
وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعنجهية بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والرقة، فدل ذلك على أنه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلب في الكفر.
وجملة)أراغب أنت(جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سد مسد الخبر على اصطلاح النحاة طردا لقواعد التركيب اللفظي، ولكنهم لما اعتبروا الاسم الواقع ثانيا بعد الوصف فاعلا سادا مسد الخبر فقد أثبتوا لذلك الاسم حكم المسند إليه وصار للوصف المبتدإ حكم المسند. فمن اجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم في نظر البلغاء هو مقتضى كون المقام يتطلب جملة اسمية للدلالة على ثبات المسند إليه، ويتطلب الاهتمام بالوصف دون الاسم لغرض يوجب الاهتمام به، فيلتجئ البليغ إلى الإتيان بالوصف أول والإتيان بالاسم ثانيا.
ولما بلغ الوصف له عمل فعله تعين على النحاة اعتبار الوصف مبتدأ لأن للمبتدأ عراقة في الأسماء، واعتباره مع ذلك متطلبا فاعلا، وجعلوا فاعله سادا مسد الخبر، فصار للتركيب شبهان. والتحقيق أنه في قوة خبر مقدم ومبتدأ مؤخر. ولهذا نظر الزمخشري في

الكشاف إلى هذا المقصد فقال قدم الخبر على المبتدأ في قوله) أراغب أنت عن آلهتي(لأنه كان أهم عنده وهو به أعني اه. ولله دره، وإن ضاع بين أكثر الناظرين دره. فدل النظم في هذه الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع عجب.
والنداء في قوله)يا إبراهيم(تكملة لجملة الإنكار والتعجب، لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله ، كأنه عن إدراك فعله، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله)يا إبراهيم(.

صفحة : 2605

وجملة)لئن لم تنته لأرجمنك(مستأنفة.
واللام موطئة للقسم تأكيدا لكونه راجمة إن لم ينته عن كفره بآلهتهم.
والرجم: الرمي بالحجارة، وهو كناية مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي. وإسناد أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة، إما لأنه كان من عادتهم أن الوالد يتحكم في عقوبة ابنه، وإما لأنه كان حاكما في قومه. ويحتمل المجاز العقلي إذ لعله كان كبيرا في دينهم فيرجم قومه إبراهيم استناد لحكمه بمروقة عن دينهم.
وجملة)واهجرني مليا(عطف على جملة)لئن لم تنته لأرجمنك(، وذلك أنه هدده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته.
والهجر: قطع المكالمة وقطع المعاشرة، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد واخلع إشعارا بتحقيره.
و)مليا(: طويلا، وهو فعيل، ولا يعرف له فعل مجرد ولا مصدر. فملي مشتق من مصدر ممات، وهو فعيل بمعنى فاعل لأنه يقال: أملي له، إذا أطال له المدة، فيأتون بهمزة التعدية، ف)مليا(صفة لمصر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أي هجرا مليا، ومن الملاوة من الدهر للمدة المديدة من الزمان، وهذه المادة تدل على كثرة الشيء.
ويجوز أن ينتصب على الصفة لظروف محذوف، أي زمانا طويلا، وبناء على أن الملأ مقصورة غالب في الزمان فذكره يغني عن ذكر موصوفه كقوله تعالى)وحملناه على ذات ألواح(، أي سفينة ذات ألواح.

)قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا[47] و أعتزلكم وما تدعون من دون الله و أدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا[48](سلام عليك سلام توديع ومشاركة. وبادره به قبل الكلام الذي أعقبه به إشارة إلى أنه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته.

ومن حلم إبراهيم أن كانت مشاركته أباه مثوبة بالإحسان في معاملته في آخر لحظة.

والسلام: السلامة: و)على(للاستعلاء المجازي وهو التمكن. وهذه كلمة تحية وإكرام، وتقدمت آنفا عند قوله تعالى)وسلام عليه يوم ولد(.

وأظهر حرصه على هداه فقال)سأستغفر لك ربي(أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إذا لم يكن إبراهيم تلقى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك.

وهذا ظاهر ما في قوله تعالى)وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه(. واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى) واغفر لأبي إنه كان من الضالين(.

وجملة)استغفر لك ربي(مستأنفة، وعلامة الاستقبال والفعل المضارع مؤذنان بأنه يكرر الاستغفار في المستقبل.

وجملة)إنه كان بي حنيفا(تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك.

والحفي: الشديد البر والإلطاف. وتقدم في سورة الأعراف عند قوله تعالى)يسألونك كأنك حفي عنها(.

وجملة)وأعتزلكم(عطف على جملة)سأستغفر لك ربي(، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن، لأن المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى، وهو المحكي بقوله تعالى)وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين(، وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى.

رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن، لأن بقية القوم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعا، ولذلك قال له)واعتزلكم(.

وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى إبراهيم وقومه تنزيلا لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء، أو كان هذا المقال جرى بحضر جماعة منهم.

وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله)وما تدعون من دون الله(للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله إياهم وأصنامهم:بأن

تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها، فلذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم.
والدعاء: العبادة، لأنها تستلزم دعاء المعبود.

صفحة : 2606

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعوا الله احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بين لهم أته بعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدونه.
وعبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك.
وجملة)عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا(في موضع الحال من ضمير)وادعوا(، أي راجا أن لا أكون بدعاء ربي شقيا. وتقدم معناه عند قوله تعالى)ولم أكن بدعائك رب شقيا(في هذه السورة. وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريض بأنهم أشقياء بدعاء آلهتهم.
)فلما اعتزلهم وما يعبدن من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا[49] و وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا[50](طوي ذكر اعتزاله إياهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازا في الكلام للعلم بأن مثله لا يعزم أمرا إلا نفذ عزمه، والاكتفاء بذكر ما ترتب عليه من جعل عزمه حدثا واقعا قد حصل جزاءه عليه من ربه، فلأنه لما اعتزل أباه وقومه واستوحش بذلك الفراق وهبه لله ذرية يأنس لهم إذ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيين. وحسبك بهذا مكرمة له عند ربه.
وليس مجازاة الله إبراهيم مقصورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار، فإنه قد وهبه إسماعيل أيضا، وظهرت موهبته إياه قبل ظهور موهبة إسحق، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومه.
وإنما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها أيضا إرضاء لربها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب، ولأن هذه الموهبة لما كانت كفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم

ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيدا عن إبراهيم في مكة ليكون جار بيت الله. وإنه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

وقد خص إسماعيل بالذكر استقلالا عقب ذلك، ومثله قوله تعالى) واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب(ثم قال)واذكر إسماعيل(في سورة ص، وقد قال في آية الصافات)وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم(إلى أن قال)وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين(فذكر هنالك إسماعيل عقب قوله)إني ذاهب إلى ربي سيهدين(إذ هو المراد بالغلام الحليم.

والمراد بالهبة هنا: تقدير ما في الأزل عند الله لأن ازدياد إسحاق ويعقوب كان بعد خروج إبراهيم بمدة بعد أن سكن أرض كنعان وبعد أن اجتاز بمصر ورجع منها. وكذلك ازدياد إسماعيل كان بعد خروجه بمدة وبعد أن اجتاز بمصر كما وردفي الحديث وفي التوراة، أو أريد حكاية هبة إسحاق ويعقوب فيما مضى بالنسبة إلى زمن نزول القران تنبيها بأن ذلك جزاؤه على إخلاصه.

والنكتة في ذكر يعقوب أن إبراهيم رآه حفيدا وسر به، فقد ولد يعقوب قبل موت إبراهيم بخمس عشر سنة، وأن من يعقوب نشأت أمة عظيمة.

وحرف)لما(حرف وجود لوجود، أي يقتضي وجود جوابه لأجل وجود شرطها، وفد تكون بينهما فترة فتدل على مجرد الجزائية، أي التعليل دون توقيت، وذلك كما هنا.

وضمير)لهم(عائد إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام و)من(في قوله)ومن ذريتهما محسن(إما حرف تبعيض صفة لمحذوف دل عليه)وهبنا(، أي موهوبا من رحمتنا.

وإما اسم بمعنى بعض بتأويل، كما تقدم عند قوله تعالى)ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر(في سورة البقرة. وإن كان النحاة لم يثبتوا لكلمة)من(استعمالها اسما كما أثبتوا ذلك لكلمات الكاف و عن و على لكن بعض موارد الاستعمال تقتضيه، كما قاله التفتزاني في حاشية الكشاف، وأقره عبد الحكيم. وعلى هذا تكون)من(في موضع نصب على المفعول به لفعل)وهبنا(، أي وهبنا لهم بعض رحمتنا، وهي النبوءة لأنها رحمة لهم ولمن أرسلوا إليهم.

واللسان: مجاز في الذكر والثناء.
ووصف)لسان(ب)صدق(وصفا بالمصدر.
الصدق: بلوغ كمال نوعه، كما تقدم آنفا، فلسان الصدق ثناء الخير والتبجيل. ووصف بالعلو مجازا لشرف ذلك الثناء.
وقد رتب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبا بديعا إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق، إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين.
وتقدم اختلاف القراء في نبيا عند ذكر إبراهيم عليه السلام.
)واذكر قي الكتب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا[51] وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا[52] ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا[53](أفضت مناسبة ذكر إبراهيم ويعقوب إلى أن يذكر موسى في هذا الموضع لأنه أشرف نبي من ذرية إسحاق ويعقوب.
والقول في جملة)واذكر(وجملة)إنه كان(كالقول في نظيريهما في ذكر إبراهيم عدا أن الجملة هنا غير معترضة بل مجرد استئناف.
وقرأ الجمهور)مخلصا(بكسر اللام من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته. والإخلاص في أمر ما: الإتيان به غير مشوب بتقصير ولا تفريط ولا هوادة، مشتق من الخلوص، وهو التمحض وعدم الخلط. والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام.
وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف بفتح اللام من أخلصه، إذا اصطفاه.
وخص موسى بعنوان)المخلص(على الوجهين لأن ذلك مزيته، فإنه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخف بأعظم جبار وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكفاء، كما حكى الله عنه في قوله تعالى في سورة الشعراء)قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين(إلى قوله)قال أو لو جئتك بشيء مبين(. وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله)قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين(، فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته.
ولأن الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلصا بذلك، أي مصطفى، لأن ذلك مزيته قال تعالى)واصطنعتك لنفسي(.
والجمع بين وصف موسى لأنه رسول ونبي. وعطف)نبيا(على)رسولا(مع أن الرسول بالمعنى الشرعي أخص من النبي، فلأن

الرسول هو المرسل بوحي من الله ليبلغ إلى الناس فلا يكون الرسول إلا نبيئا، وأما النبي فهو المنبأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسولا، فالجمع بينهما هنا لتأكيد الوصف، إشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغا قويا، فقوله) نبيا(تأكيد لوصف)رسولا(.

وتقدم اختلاف القراء في لفظ)نبيا(عند ذكر إبراهيم.

وجملة)وناديناه(عطف على جملة)إنه كان مخلصا(فهي مثلها مستأنفة.

والنداء: الكلام الدال على طلب الإقبال، وأصله: جهر الصوت لإسماع البعيد، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازا مرسلا، ومنه)إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة(، وهو مشتق من الندى بفتح النون وبالقصر وهو بعد الصوت. ولم يسمع فعله إلا بصيغة المفاعلة، وليست بحصول فعل من جانبين بل المفاعلة للمبالغة، وتقدم عند قوله تعالى)كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء(في سورة البقرة، وعند قوله)ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان(في آل عمران.

وهذا النداء هو الكلام الموجه إليه من جانب الله تعالى، قال تعالى)إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي(في سورة الأعراف. وتقدم تحقيق صفته هناك وعند قوله تعالى)حتى يسمع كلام الله في سورة براءة.

والطور: الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر، ويقال: له طور سيناء.

وجانبه: ناحيته السفلى، ووصفه ب)الأيمن(لأنه الذي على يمين مستقبل مشرق الشمس، لأن جهة الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي.

والتقريب: أصله الجعل بمكان القرب، وهو الدنو وهو ضد البعد. وأريد هنا القرب المجازي وهو الوحي. فقوله)نجيا(حال من ضمير) موسى(، وهي حال مؤكدة لمعنى التقريب.

صفحة : 2608

ونجي: فعيل بمعنى مفعول من المناجاة. وهي المحادثة السرية؛ شبه الكلام الذي لم يكلم بمثله أحدا ولا أطلع عليه أحدا، بالمناجاة. وفعيل بمعنى مفعول، يجيء من الفعل المزيد المجرد بحذف حرف الزيادة، مثل جليس ونديم ورضيع.

ومعنى هبة أخيه له: أن الله عززه به وأعانه به، إذ جعله نبيا وأمره أن يرافقه في الدعوة، لأن في لسان موسى حبسة، وكان

هارون فصيح اللسان. فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه في مهمات الأمة. وإنما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأن الله رحم موسى إذ يسر له أخا فصيح اللسان، وأكلمه بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله تعالى. ولم يوصف هارون بأنه رسول إذ لم يرسله الله تعالى وإنما جعله مبلغا عن موسى. وأما قوله تعالى)فقولا إنا رسولا ربك(فهو من التغليب.

)واذكر قي الكتب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا[54] وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة وكان عند ربه مرضيا[55]

(خص إسماعيل بالذكر هنا تنبيها على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه اسحاق، لأن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة. وتقدم ذكر إسماعيل عند قوله تعالى)وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل(في سورة البقرة.

وخصه بوصف صدق الوعد لأنه اشتهر به وتركه خلقا في ذريته.

وأعظم وعد صدقه وعده إياه إبراهيم بأن يجده صابرا على الذبح فقال)ستجدني إن شاء الله من الصابرين(.

وجعله الله نبيا ورسولا إلى قومه. وهم يومئذ لا يعدون أهله أمة وبنيه وأصهاره من جرهم. فلذلك قال الله تعالى)وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة(ثم إن أمه العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضا، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون ملة أبيه إبراهيم.

ورضي الله عنه:إنعامه عليه نعما كثيرة، إذ باركه وأنمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذريته، وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذريته.

وتقدم اختلاف القراء في قراءة)نبيا(بالهمز أو بالياء المشددة.

وتقدم توجيه الجمع بين وصف رسول ونبي عند ذكر موسى عليه السلام آنفا.

إدريس: اسم جعل علما على جد أبي نوح، وهو المسمى في التوراة أخنوخ . فنوح هو ابن لامك بن متوشالح بن أخنوخ، فلعل اسمه عند نسابي العرب إدريس، أو أن القران سماه بذلك اسما مشتقا من الدرس لما سيأتي قريبا. واسمه هرمس عند اليونان, ويزعم أنه كذلك يسمى عند المصرين القدماء، والصحيح أن اسمه عند المصريين توت أو تحوتي أو تهوتي لهجات في النطق باسمه.

وذكر ابن العبري في تاريخه أن إدريس كان يلقب عند قدماء اليونان طريسمجيسطيس . ومعناه بلسانهم ثلاثي التعليم، لأنه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية وهي الوجود والحكمة والحياة اه.

ولا يخفى قرب الحروف الأولى في هذا الاسم من حروف إدريس, لعل العرب اختصروا الاسم لطوله فاقتصروا على أوله مع تغيير.
وكان إدريس نبيا، ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين وسار أخنوخ مع الله . قيل: هو أول من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأول من وضع الخط؛ وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأول من علم الناس الخياطة. فكان هو مبدأ من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية.
فوجه تسميته في القرآن بإدريس أنه اشتق له اسم من الفرس على وزن مناسب للأعلام العجمية، فلذلك منع من الصرف مع كون حروفه من مادة عربية، كما منع إبليس من الصرف، وكما منع طالوت من الصرف.
وتقدم اختلاف القراء في لفظ)نبيا(عند ذكر إبراهيم.

صفحة : 2609

وقوله)ورفعناه مكانا عليا(قال جماعة من المفسرين هو رفع مجازي. والمراد: رفع المنزلة، لما أوتيه من العلم الذي فاق به على من سلفه. ونقل هذا عن الحسن، وقال به أبو مسلم الأصفهاني.
وقال جماعة: هو رفع حقيقي إلى السماء. وفي الإصحاح الخامس من سفر التكوين وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه .
وعلى هذا فرفعه مثل رفع عيسى عليه السلام. والأظهر أن ذلك بع نزوع روحه وروحنة جثته.ومما يذكر عنه أنه بقي ثلاث عشرة سنة لا ينام ولا يأكل حتى تروحن، فرفع، وأما حديث الإسراء فلا حجة فيه لهذا القول لأنه ذكر فيه عدة أنبياء غيره وجدوا في السماوات.
ووقع في حديث مالك بن صعصعة عن الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماوات أنه وجد إدريس عليه السلام في السماء وأنه لما سلم عليه قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح. فأخذ منه أن إدريس عليه السلام لم تكن له ولادة على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم يقل له والابن الصالح، ولا دليل في ذلك لأنه قد يكون قال ذلك اعتبارا بأخوة التوحيد فرجحها على صلة النسب فكان ذلك من حكمته.
على أنه يجوز أن يكون ذلك سهوا من الراوي فإن تلك الكلمة لم تثبت في حديث جابر بن عبد الله في صحيح البخاري. وقد جزم البخاري في أحاديث الأنبياء بأن إدريس جد نوح أوجد أبيه. وذلك

يدل على أنه لم ير في قوله مرحبا بالأخ الصالح ما ينافي أن يكون أبا للنبي صلى الله عليه وسلم.
)أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا[58](الجملة استئناف ابتدائي، واسم الإشارة عائد إلى المذكورين من قوله)ذكر رحمة ربك عبده زكريا(إلى هنا. والإتيان به دون الضمير للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر مع المشار إليهم من الأوصاف، أي كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبين وخليقين بمحبتهم لله تعالى وتعظيمهم إياه.
والمذكور بعد اسم الإشارة هو مضمون قوله)أنعم الله عليهم(وقوله)وممن هدينا واجتبينا(، فإن ذلك أحسن جزاء على ما قدموه من الإعمال، ومن أعطوه من مزايا النبوءة والصديقية ونحوهما. وتلك وإن كانت نعما وهداية واجتباء فقد زادت هذه الآية بإسناد تلك العطايا إلى الله تعالى تشريفا لها، فكان ذلك التشريف هو الجزاء عليها إذ لا أزيد من المجازي عليه إلا تشريفه.
وقرأ الجمهور)من النبيين(بياءين بعد الموحدة. وقرأه نافع وحده بهمزة بعد الموحدة.
وجملة)إذا تتلى عليهم آيات الرحمان(مستأنفة دالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إياهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته وبالبكاء.
والمراد به البكاء الناشئ عن انفعال النفس انفعالا مختلطا من التعظيم والخوف.
و)سجدا(جمع ساجد،)وبكيا(جمع باك. والأول بوزن فعل مثل عذل، والثاني وزنه فعول جمع فاعل مثل قوم قعود، وهو يأتي لأن فعله بكى يبكي، فأصله: بكوي، فلما اجتمع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وحركت عين الكلمة بحركة مناسبة للياء. وهذا الوزن سماعي في جمع فاعل ومثله.
وهذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن، فهم سجدوا كثيرا عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا. وأثنت على سجودهم قصدا للتشبه بهم بقدر الطاقة حين نحن متلبسون بذكر صنيعهم.
وقد سجد النبي صلى الله عليه وسلم عند هذه الآية وسن ذلك لأمته.

)فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا[59] إلا من تاب وآمن وعمل صلحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا[60] جنت عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا[61] لا يسمعون فيها لغوا إلا سلما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا[62] تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا[63](فرع على الثناء عليهم اعتبار وتنديد بطائفة من ذرياتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بالخلف.

والخلف بسكون اللام عقب السوء، وبفتح اللام عقب الخير. وتقدم عند قوله تعالى)فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب(في سورة الأعراف.

وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلت لأنها راجعة في النسب إلى إدريس جد نوح إذ هم من ذرية نوح ومن يرجع أيضا إلى إبراهيم؛ فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب. ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل.

ولفظ)من بعدهم(يشمل طبقات وقرونا كثيرة، ليس قيدا لأن الخلف لا يكون إلا من بعد أصله وإنما ذكر لاستحضار ذهاب الصالحين.

والإضاعة: مجاز في التفريط بتشبيهه بإهمال العرض النفيس، فرطوا في عبادة الله واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم مما هو فساد. وتقدم قوله تعالى)إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(في الكهف.

والصلاة: عبادة الله وحده.

وهذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق، فالشرك إضاعة للصلاة لأنه انصراف عن الخضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماما، قال تعالى)قالوا لم نك من المصلين(، والشرك: اتباع للشهوات، لأن المشركين اتبعوا عبادة الأصنام لمجرد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا، وغير المشركين كاليهود والنصارى فرطوا في صلوات واتبعوا شهوات ابتدعوها، ويشمل ذلك كله اسم الغي.

والغي: الضلال، ويطلق على الشر، كما أطلق ضده وهو الرشد على الخير في قوله تعالى)أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا(وقوله)قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا(. فيجوز أن يكون المعنى فسوف يلقون جزاء غيهم، كقوله تعالى)ومن يفعل ذلك يلق أثاما(أي جزاء الآثام. وتقدم الغي في قوله تعالى)

وإخوانهم يمدونهم في الغي(، وقوله)وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا(كلاهما في سورة الأعراف. وقرينة ذلك مقابلته في ضدهم بقوله)فأولئك يدخلون الجنة(.

وحرف)سوف(دال على أن لقاءهم الغي متكرر في أزمنة المستقبل مبالغة في وعيدهم وتحذيرا لهم من الإصرار على ذلك.

وقوله)فأولئك ويدخلون الجنة(جيء في جانبهم باسم الإشارة إشادة بهم وتنبيها لهم للترغيب في توبتهم من الكفر. وجيء بالمضارع الدال على الحال للإشارة إلى أنهم لا يمطلون في الجزاء.

والجنة: علم لدار الثواب والنعيم. وفيها جنات كثيرة كما ورد في الحديث: أو جنة واحدة هي أنها لجنان كثيرة .

والظلم: هنا بمعنى النقص والإجحاف والمطل، كقوله)كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا(في سورة الكهف.

وشيء : اسم بمعنى ذات أو موجود وليس المراد مصدر الظلم.

وذكر)شيئا(في سياق النفي يفيد نفي كل فرد من أفراد النقص والإجحاف والإبطاء، فيعلم انتفاء النقص القوي بالفحوى دفعا لما عسى أن يخالج نفوسهم من الانكسار بعد الإيمان بظن أن سبق الكفر يحط من حسن مصيرهم.

و)جنات(بدل من)الجنة(. جيء بصيغة جمع جنات مع أن المبدل منه مفرد لأنه يشتمل على جنات كثيرة كما علمت، وهو بدل مطابق وليس بدل اشتمال.

و)عدن(: الخلد والإقامة، أي جنات خلد ووصفها ب)التي وعد الرحمان عباده(لزيادة تشريفها وتحسينها، وفي ذلك إدماج لتبشير المؤمنين السابقين في أثناء وعد المدعوين إلى الإيمان.

والغيب: مصدر غاب، فكل ما غاب عن المشاهدة فهو غيب.

وتقدم في قوله تعالى)الذين يؤمنون بالغيب(في أول البقرة.

والباء في)بالغيب(للظرفية، أي وعدها إياهم في الأزمنة الغائبة عنهم، أي في الأزل إذ خلقها لهم، قال تعالى)أعدت للمتقين(. وفيه تنبيه على أنها وإن كانت محجوبة عنهم في الدنيا فإنها مهيئة لهم.

صفحة : 2611

وجملة)إنه كان وعده مأتيا(تعليل لجملة)التي وعد الرحمان عباده بالغيب(أي يدخلون الجنة وعدا من الله واقعا. وهذا تحقيق للبشارة.

والوعد: هنا مصدر مستعمل في معنى المفعول. وهو من باب كسا، فالله وعد المؤمنين الصالحين جنات عدن، فالجنات لهم موعودة من ربهم.
والمأتي: الذي يأتيه غيره، وقد استعير الإتيان لحصول المطلوب المترقب، تشبيها لمن يحصل الشيء بعد أن سعى لتحصيله بمن مشى إلى مكان حتى أتاه، وتشبيها للشيء المحصل بالمكان المقصود. ففي قوله)مأتيا(تمثيلية اقتصر من أجزائها على إحدى الهيئتين، وهي تستلزم الهيئة الأخرى لأن المأتي لا بد له من آت.
وجملة)لا يسمعون فيها لغوا(حال من)عباده(.
واللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته. وإنفاؤه كناية عن انتفاء أقل المكدرات في الجنة، كما قال تعالى)لا تسمع فيها لاغية(، وكناية عن جعل مجازاة المؤمنين في الجنة بضد ما كانوا يلاقونه في الدنيا من أذى المشركين ولغوهم.
وقوله)إلا سلاما(استثناء منقطع وهو مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضده كقول النابغة:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن
فلول من قراع الكتائب أي لكن تسمعون سلاما، قال تعالى) وتحيتهم فيها سلام(وقال)لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما(.
والرزق: الطعام.
وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات ذلك ودوامه، فيفيد التكرر المستمر وهو أخص من التكرر المفاد بالفعل المضارع وأكثر. وتقديم الظرف للاهتمام بأنهم، وإضافة رزق إلى ضميرهم لزيادة الاختصاص.
والبكرة: النصف الأول من النار، والعشي: النصف الأخير، والجمع بينهما كناية عن استغراق الزمن، أي لهم رزقهم غير محصور ولا مقدر بل كلما شاءوا فلذلك لم يذكر الليل.
وجملة)تلك الجنة(مستأنفة ابتدائية، واسم الإشارة لزيادة التمييز تنويها بشأنها وأجريت عليها الصفة بالموصول وصلته تنويها بالمتقين وأنهم أهل الجنة كما قال تعالى)أعدت للمتقين(.
و)نورث(نجعل وارثا، أي نعطي الإرث. وحقيقة الإرث: انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنه أولى الناس بماله فهو انتقال مقيد بحالة. واستعير هنا للعطية المدخرة لمعطاها، تشبيها بمال لموروث الذي يصير إلى وارثه آخر الأمر.
وقرأ الجمهور)نورث(بسكون الواو بعد الضمة وتخفيف الراء. وقرأه رويس عن يعقوب: نورث بفتح الواو وتشديد الراء من ورثه المضاعف.

)وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا[64](موقع هذه الآية هنا غريب. فقال جمهور المفسرين: إن سبب نزولها أن جبريل عليه السلام أبطأ أياما عن النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن النبي ود أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت)وما نتنزل إلا بأمر ربك(إلى آخر الآية، أي إلى قوله)نسيا(، رواه البخاري والترمذي عن ابن عباس. وظاهره أنه رواية وهو أصح ما روي في سبب نزولها وأليقه بموقعها هنا. ولا يلتفت إلى غيره من الأقوال في سبب نزولها.

والمعنى: أن الله أمر جبريل عليه السلام أن يقول هذا الكلام جوابا عنه، فالنظم نظم القرآن بتقدير: وقل ما نتنزل إلا بأمر ربك، أي قل يا جبريل، فكان هذا خطابا لجبريل ليبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا. فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصة على قصة مع اختلاف المخاطب، وأمر الله رسوله أن يقرأها هنا، ولأنها نزلت لتكون من القرآن.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن.

والضمير لجبريل والملائكة، أعلم الله نبيه على لسان جبريل أن نزول الملائكة لا يقع إلا عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرسل، قال تعالى)لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون(.

و)نتنزل(مرادف ننزل، وأصل التنزل: تكلف النزول. فأطلق ذلك على نزول الملائكة من السماء إلى الأرض لأنه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنه متكلف، قال تعالى)تنزل الملائكة والروح فيها(.

واللام في)له(للملك، وهو ملك التصرف.

والمراد ب)ما بين أيدينا(: ما هو أمامنا، و ب)ما خلفنا(: ما هو وراءنا، و ب)ما بين ذلك(: ما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم، لأن ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف. والمقصود استيعاب الجهات.

ولما كان ذلك مخبرا عنه بأنه ملك لله تعين أن يراد به الكائنات التي في تلك الجهات، فالكلام مجاز مرسل بعلاقة الحلول، مثل) واسأل القرية(، فيعم جميع الكائنات، ويستتبع عموم أحوالها

وتصرفاتها مثل التنزل بالوحي. ويستتبع عموم الأزمان المستقبل والماضي والحال، وقد فسر بها قوله)ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك(.

وجملة)وما كان ربك نسيا(على هذا الوجه من الكلام الملقن به جبريل جوابا للنبي صلى الله عليه وسلم.

و)نسيا(صيغة مبالغة من نسي، أي كثير النسيان أو شديدة.

والنسيان: الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها. وقد فسروا هنا بتارك، أي ما كان ربك تاركك. وعليه فالمبالغة منصرفة إلى طول مدة النسيان. وفسر بمعنى شديد النسيان، فيتعين صرف المبالغة إلى جانب نسبة نفي النسيان عند الله، أي تحقيق نفي النسيان مثل المبالغة في قوله)وما ربك بظلام للعبيد(فهو هنا كناية عن إحاطة علم الله، أي أن تنزلنا بأمر الله لما هو على وفق علمه وحكمته في ذلك، فنحن لا نتنزل إلا بأمره، وهو لا يأمرنا بالتنزل إلا عند اقتضاء علمه وحكمته أن يأمرنا به.

وجوز أبو مسلم وصاحب الكشاف: أن هذه الآية من تمام حكاية كلام أهل الجنة بتقدير فعل)يقولون(حالا من قوله)من كان تقيا(، أي وما نتنزل في هذه الجنة إلا بأمر ربك الخ. وهو تأويل حسن. وعليه فكاف الخطاب في قوله)بأمر ربك(خطاب كل قائل لمخاطبة. وهذا التجويز بناء على أن ما روى عن ابن عباس رأى له في تفسير الآية لا تتعين متابعته.

وعليه فجملة)وما كان ربك نسيا(من قول الله تعالى لرسوله تذييلا لما قبله، أو هي من كلام أهل الجنة، أي وما كان ربنا غافلا عن إعطاء ما وعدنا به.

)رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبدته هل تعلم له سميا[65](جملة مستأنفة من كلام الله تعالى كما يقتضيه قوله)فاعبده(إلى آخره ذيل به الكلام الذي لقنه جبريل المتضمن: أن الملائكة لا يتصرفون إلا عن إذن ربهم وأن أحوالهم كلها في قبضته بما يفيد عموم تصرفه تعالى في سائر الكائنات، ثم فرع عليه أمر الرسول عليه السلام بعبادته، فقد انتقل الخطاب إليه.

وارتفع)رب السماوات(على الخبرية لمبتدأ محذوف ملتزم الحذف في المقام الذي يذكر فيه أحد بأخبار وأوصاف ثم يراد تخصيصه بخبر آخر. وهذا الحذف سماه السكاكي بالحذف الذي اتبع فيه الاستعمال كقول الصولي أو ابن الزبير بفتح الزاي وكسر الموحدة:

سأشكر عمرا إن تراخت منـيتـي
أيادي لم تمنن وإن هـي جـلـت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت والسماوات: العوالم العلوية.

والأرض: العالم السفلي، وما بينهما: الأجواء والآفاق. وتلك الثلاثة تعم سائر الكائنات.
والخطاب في)فاعبده واصطبر(و)هل تعلم(للنبي صلى الله عليه وسلم.
وتفريع الأمر بعبادته على ذلك ظاهر المناسبة ويحصل منه التخلص إلى التنويه بالتوحيد وتفظيع الإشراك.
والاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل. وكان الشأن أن يعدى الاصطبار بحرف على كما قال تعالى)وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها(ولكنه عدي هنا باللام لتضمينه معنى الثبات، أي اثبت للعبادة، لأن العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس. وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض منا قال النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء:)هي أثقل صلاة على المنافقين(. فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعداتك.
وجملة)هل تعلم له سميا(واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها.

صفحة : 2613

والسمي هنا الأحسن أن يكون بمعنى المسامي، أي المماثل في شؤونه كلها. فعن ابن عباس أنه فسره بالنظير، مأخوذا من المساماة فهو فعيل بمعنى فاعل، لكنه أخذ من المزيد كقول عمرو بن معد يكرب:
أمن ريحانة الداعي السمي أي المسمع. وكما سمي تعالى) الحكيم(، أي المحكم للأمور، فالسمي هنا بمعنى المماثل في الصفات بحيث تكون المماثلة في الصفات كالمساماة.
والاستفهام إنكاري، أي لا مسامي لله تعالى، أي ليس من يساميه، أي يضاهيه، موجودا.
وقيل السمي: المماثل في الاسم، كقوله في ذكر يحيى)لم نجعل له من قبل سميا(. والمعنى: لا تعلم له مماثلا في اسمه)الله(فإن المشركين لم يسموا شيئا من أصنامهم)الله(باللام وإنما يقولون للواحد منها إله، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن إتراف الناس بأن لا مماثل له في صفة الخالقية، لأن المشركين لم يجترئوا على أن يدعوا لآلهتهم الخالقية قال تعالى

)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله(. وبذلك يتم كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة على هذا الوجه أيضا.
وكني بانتفاء العلم بسميه عن انتفاء وجود سمي له، لأن العلم يستلزم وجود المعلوم، وإذا انتفى مماثلة انتفى من يستحق العبادة غيره.
)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا[66] أو لا يذكر الإنسان أنا خلقنه من قبل ولم يك شيئا[67](لما تضمن قوله) فاعبده واصطبر لعبادته(إبطال عقيدة الإشراك به ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت حتى يتم انتقاص أصلي الكفر.
فالواو عاطفة قصة على قصة، والإتيان بفعل)يقول(مضارعا لاستحضار حالة هذا القول للتعجيب من قائله تعجيب إنكار.
والمراد بالإنسان جمع من الناس، بقرينة قوله بعده)فوربك لنحشرنهم(، فيراد من كانت هاته مقالته وهم معظم المخاطبين بالقرآن في أول نزوله. ويجوز أن يكون وصف حذف، أي الإنسان الكافر، كما حذف الوصف في قوله تعالى)يأخذ كل سفينة غصبا(، أي كل سفينة صالحة، فتكون كقوله تعالى)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه(. وكذلك إطلاق الناس على خصوص المشركين منهم في آيات كثيرة كقوله تعالى)يا أيا الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم(إلى قوله)فأتوا بسورة من مثله(فإن ذلك خطاب للمشركين. وقيل تعريف)الإنسان(للعهد لإنسان معين. فقيل، قائل هذا أبي بن خلف، وقيل: الوليد بن المغيرة.
والاستفهام في)أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(إنكار لتحقيق وقوع البعث، فلذلك أتى بالجملة المسلط عليها الإنكار مقترنة بلام الابتداء الدالة على توكيد الجملة الواقعة هي فيها، أي يقول لا يكون ما حققتموه من إحيائي في المستقبل.
ومتعلق)أخرج(محذوف، أي أخرج من القبر.
وقد دخلت لام الابتداء في قوله)لسوف أخرج حيا(على المضارع المستقبل بصريح وجود حرف الاستقبال، وذلك حجة لقول ابن مالك بأن لام الابتداء تدخل على المضارع المراد به الاستقبال ولا تخلصه للحال. ويظهر أنه مع القرينة الصريحة لا ينبغي الاختلاف في عدم تخليصها المضارع للحال، وإن صمم الزمخشري على منعه، وتأول ما هنا بأن اللام مزيدة للتوكيد وليست لام الابتداء، وتأوله في قوله تعالى)ولسوف يعطيك ربك فترضى(بتقدير مبتدأ محذوف، أي ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى، فلا تكون اللام داخلة على المضارع، وكل ذلك تكلف لا ملجئ إليه.

وجملة)أو لا يذكر الإنسان(معطوفة على جملة)يقول الإنسان(، أي يقول ذلك ومن النكير عليه أنه لا يتذكر أنا خلقناه من قبل وجوده.
والاستفهام إنكار وتعجيب من ذهول الإنسان المنكر البعث عن خلقه الأول.
وقرأ الجمهور)أو لا يذكر(بسكون الذال وضم الكاف من الذكر بضم الذال. وقرأه أبو جعفر بفتح الذال وتشديد الكاف على أن أصله يتذكر فقلبت التاء الثانية ذالا لقرب مخرجيهما.
والشيء: هو الموجود، أي أنا خلقناه ولم يك موجودا.
و)قبل(من الأسماء الملازمة للإضافي. ولما حذف المضاف إليه واعتبر مضافا إليه مجملا ولم يراع له لفظ مخصوص تقدم ذكره بنيت)قبل(على الضم، كقوله تعالى)لله الأمر من قبل ومن بعد(.

صفحة : 2614

والتقدير: أنا خلقناه من قبل كل حالة هو عليها. والتقدير في آية سورة الروم: لله الأمر من قبل كل حدث ومن بعده.
والمعنى: الإنكار على الكافرين أن يقولوا ذلك ولا يتذكروا حال النشأة الأولى فإنها أعجب عند الذين يجرون في مداركهم على أحكام العادة، فإن الإيجاد عن عدم من غير سبق مثال أعجب وأدعى إلى الاستبعاد من إعادة موجودات كانت لها أمثلة. ولكنها فسدت هياكلها وتغيرت تراكيبها. وهذا قياس على الشاهد وإن كان القادر سواء عليه الأمران.
)فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا[68] ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا[69] ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا[70](الفاء تفريع على جملة)أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل(، باعتبار ما تضمنته من التهديد.
وواو القسم لتحقيق الوعيد. والقسم بالرب مضافا إلى ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم إدماج لتشريف قدره.
وضمير)لنحشرهم(عائد إلى الإنسان المراد به الجنس المفيد للاستغراق العرفي كما تقدم، أي انحشرن المشركين.
وعطف الشياطين على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى الشياطين هم سبب ظلالهم الموجب لهم هذه الحالة، فحشرهم مع الشياطين إنذارا لهم بأن مصيرهم هو مصير الشياطين وهو محقق عند الناس كلهم.
فلذلك عطف عليه جملة)ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا(، والضمير

للجميع. وهذا إعداد آخر للتقرب من العذاب فهو إنذار على إنذار وتدرج في إلقاء الرعب في قلوبهم. فحرف)ثم(للترتيب الرتبي لا للمهلة إذ ليست المهلة مقصودة وإنما المقصود أنهم ينقلون من حالة عذاب إلى أشد.

و)جثيا(حال من ضمير)لنحضرنهم(، والجثي: جمع جاث. ووزنه فعول مثل: قاعد وقعود وجالس وجلوس، وهو وزن سماعي في جمع فاعل. وتقدم نظيره)خروا سجدا وبكيا(، فأصل جثي جثو وبواو ينلأن فعله واوي، يقال: جثا يجثو إذا برك على ركبته وهي هيئة الخاضع الذليل، فلما اجتمع في جثوو واوان استثقلا بعد ضمه الثاء فصير إلى تخفيفه بإزالة سبب الثقل السابق وهو الضمة فعوضت بكسر الثاء، فلما كسرت الثاء تعين قلب الواو الموالية لها ياء للمناسبة فاجتمع الواو والياء وسبق أحدهما بالسكون فقلب الواو الأخرى ياء وأدغمتا فصار جثي.

وهذا الجثو هو غير جثو الناس في الحشر المحكي بقوله تعالى) وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها(فإن ذلك جثو خضوع لله، وهذا الجثو حول جهنم جثو مذلة.

والقول في عطف جملة)ثم لننزعن من كل شيعة(كالقول في جملة)ثم لنحضرنهم(وهذه حالة أخرى من الرعب أشد من اللتين قبلها وهي حالة تميزهم للإلقاء في دركات الجحيم على حسب مراتب غلوهم في الكفر.

والنزع: إخراج شيء من غيره، ومنه نزع الماء من البئر.

والشيعة: الطائفة التي شاعت أحدا، أي اتبعته، فهي على رأي واحد. وتقدم في قوله تعالى)ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين(في سورة الحجر. والمراد هنا شيع أهل الكفر، أي من كل شيعة منهم، أي ممن أحضرناهم حول جهنم.

والعتي: العصيان والتجبر، فهو مصدر بوزن فعول مثل: خروج وجلوس، فقلبت الواو ياء. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بكسر العين إتباعا لحركة التاء كما تقدم في)جييا.

والمعنى: لنميزن من كل فرقة تجمعها محلة خاصة من دين الضلال من هو تلك الشيعة أشد عصيانا لله وتجبرا عليه، وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأمية بن خلف ونظرائهم.

و)أي(اسم موصول بمعنى ما و من . والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضم. وأصل التركيب: أيهم هو أشد عتيا على الرحمان. وذكر صفة الرحمان هنا لتفظيع عتوهم، لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان.

ولما كان هذا النزع والتمييز مجملا، فقد يزعم كل فريق أن غيره أشد عصيانا، أعلم الله تعالى أنه يعلم من هو أولى منهم بمقدار قلي النار فإنها دركات متفاوتة.

صفحة : 2615

والصلي: مصدر صلي النار كرضي، وهو مصدر سماعي بوزن فعول. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف يكسر الصاد إتباعا لحركة اللام، كما تقدم في)جثيا(.
وحرفا الجر يتعلقات بأفعلي التفضيل.
)وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا[71] ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظلمين فيها جثيا[72](لما ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنار من بقية طوائف الكفر عطف عليه أن جميع طوائف الشرك يدخلون النار، دفعا لتوهم أن انتزاع من هو أشد على الرحمان عتيا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب، بأن يحسبوا أن كبراءهم يكونون فداء لهم من النار أو نحو ذلك، أي وذلك الانتزاع لا يصرف بقية الشيع عن النار فإن الله أوجب على جميعهم النار.
وهذه الجملة معترضة بين جملة)فوربك لنحشرنهم(الخ... وجملة) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا(الخ...
فالخطاب في)وإن منكم(التفات عن الغيبة في قوله) لنحشرنهم(و)لنحضرنهم(؛ عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة فإن ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة. ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن منهم إلا واردها. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ)وإن منهم(. وكذلك قرأ عكرمة وجماعة.
فالمعنى: وما منكم أحد ممن نزع من كل شيعة وغيره إلا وارد جهنم حتما قضاه الله فلا مبدل لكلماته، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم شفاعتهم أو تمنعكم عزة شيعكم، أو تلقون التبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالكم، أو يكونون فداء عنكم من النار.
وهذا نظير قوله تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين(، أي الغاوين وغيرهم.
وحرف)إن(للنفي.

والورود: حقيقته الوصول إلى الماء للاستقاء. ويطلق على الوصول مطلقا مجازا شائعا، وأما إطلاق الورود على الدخول فلا يعرف إلا أن يكون مجازا غير مشهور فلا بد له من قرينة.

وجملة)ثم ننجي الذين اتقوا(زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النار بموقت بأجل.

و)ثم(للترتيب الرتبي، تنويها بإنجاء الذين اتقوا، وتشويها بحال الذين يبقون في جهنم جثيا. فالمعنى: وعلاوة على ذلك ننجي الذين اتقوا من ورود جهنم. وليس المعنى: ثم ينجي المتقين من بينهم بل المعنى أنهم نجوا من الورود إلى النار. وذكر إنجاء المتقين، أي المؤمنين، إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين.

وجملة)ونذر الظالمين فيها جثيا(عطف على جملة)وإن منكم إلا واردها(. والظالمون: المشركون.

والتعبير بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار. والأصل: ونذركم أيها الظالمون.

ونذر: نترك، وهو مضارع ليس له ماض من لفظه، أمات العرب ماضي)نذر(استغناء عنه بماضي)ترك(، كما تقدم عند قوله تعالى)ثم ذرهم في خوضهم يلعبون(في سورة الأنعام.

فليس الخطاب في قوله)وإن منكم إلا واردها(لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام؛ بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النار مع الكافرين ثم ينجون من عذابها، لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة. ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا، كيف وقد صدر الكلام بقوله)فوربك لنحشرنهم والشياطين(وقال تعالى)يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا(، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى)وإن جهنم لموعدهم أجمعين(عقب قوله)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(. فلا يتوهم أن جهنم موعد عباد الله المخلصين مع تقدم ذكره لأنه ينبو عنه مقام الثناء.

صفحة : 2616

وهذه الآية مثار إشكال ومحط قيل وقال، واتفق جميع المفسرين على أن المتقين لا تنالهم نار جهنم. واختلفوا في محل الآية فمنهم من جعل ضمير)منكم(لجميع المخاطبين بالقرآن، ورووه عن بعض

السلف فصدمهم فساد المعنى ومنافاة حكمة الله والأدلة الدالة على سلامة المؤمنين يومئذ من لقاء أدنى عذاب، فسلكوا مسالك من التأويل، فمنهم من تأول الورود بالمرور المجرد دون أن يمس المؤمنين أذى، وهذا بعد عن الاستعمال، فإن الورود إنما يراد به حصول ما هو مودع في المورد لأن أصله من ورود الحوض. وفي آي القرآن ما جاء إلا لمعنى المصير إلى النار كقوله تعالى)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها(وقوله)يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود(وقوله)ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا(. على أن إيراد المؤمنين إلى النار لا جدوى له فيكون عبثا، ولا اعتداد بما ذكره له الفخر مما سماه فوائد.

ومنهم من تأول ورود جهنم بمرور الصراط، وهو جسر على جهنم، فساقوا الأخبار المروية في مرور الناس على الصراط متفاوتين في سرعة الاجتياز. وهذا أقل بعدا من الذي قبله.

وروى الطبري وابن كثير في هذين المحملين أحاديث لا تخرج عن مرتبة الضعف مما رواه أحمد في مسنده والحكيم الترمذي في نوادر الأصول. وأصح ما في الباب ما رواه أبو عيسى الترمذي قال يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم الحديث في مرور الصراط.

ومن الناس من لفق تعضيدا لذلك بالحديث الصحيح: أنه لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم فتأول تحلة القسم بأنها ما في هذه الآية من قوله تعالى)وإن منكم إلا واردها(وهذا محمل باطل، إذ ليس في هذه الآية قسم يتحلل، وإنما معنى الحديث: أن من استحق عذابا من المؤمنين لأجل معاص فإذا كان قد مات له ثلاثة من الولد كانوا كفارة له فلا يلج النار إلا ولوجا قليلا يشبه ما يفعل لأجل تحله القسم، أي التحلل منه. وذلك أن المقسم على شيء إذا صعب عليه بر قسمه اخذ بأقل ما يتحقق فيه ما حلف عليه، فقوله تحله القسم تمثيل.

ويروي عن بعض السلف روايات انهم تخوفوا من ظاهر هذه الآية. من ذلك ما نقل عن عبد الله بن رواحة، وعن الحسن البصري، وهو من الوقوف في موقف الخوف من شيء محتمل.

وذكر فعل)نذر(هنا دون غيره للإشعار بالتحقير، أي نتركهم في النار لا نعبأ بهم، لأن في فعل الترك معنى الإهمال.

والحتم: اصله مصدر حتمه إذ جعله لازما، وهو هنا بمعنى المفعول، أي محتوما على الكافرين، والمقتضي: المحكوم به. و)جثي(تقدم.

وقرأ الجمهور ثم)ننجي(بفتح النون الثانية وتشديد الجيم وقرأه الكسائي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم.

)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينت قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا[73] وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثثا وريا[74](عطف على قوله)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(. وهذا صنف آخر من غرور المشركين بالدنيا وإناطتهم دلالة على السعادة بأحوال طيب العيش في الدنيا فكان المشركون يتشففون على المؤمنين ويرون أنفسهم أسعد منهم.

صفحة : 2617

والتلاوة: القراءة. وقد تقدمت عند قوله تعالى)واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان(في البقرة، وقوله)وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا(في أول الأنفال. كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المشركين القرآن فيسمعون آيات النعي عليهم وإنذارهم بسوء المصير، وآيات البشارة للمؤمنين بحسن العاقبة، فكان المشركون يكذبون بذلك ويقولون: لو كان للمؤمنين خير لعجل لهم، فنحن في نعمة وأهل سيادة، وأتباع محمد من عامة الناس، وكيف يفوقوننا بل كيف يستوون معنا، ولو كنا عند الله كما يقول محمد لمن على المؤمنين برفاهية العيش فإنهم في حالة ضنك ولا يساوونا فلو أقصاهم محمد عن مجلسه لاتبعاه، قال تعالى)ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين(، وقال تعالى)وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه(. فلأجل كون المشركين كانوا يقيسون هذا القياس الفاسد ويغالطون به جعل قولهم به معلقا بزمان تلاوة آيات القرآن عليهم. فالمراد بالآيات البينات: آيات القرآن، ومعنى كونها بينات: أنها واضحات الحجة عليهم ومفعمة بالأدلة المقنعة.

واللام في قوله)للذين آمنوا(يجوز كونها للتعليل، أي قالوا لأجل الذين آمنوا، أي من أجل شأنهم، فيكون هذا القول المشركين فيما بينهم. ويجوز كونها متعلقة بفعل)قال(لتعديته إلى متعلقة، فيكون قولهم خطابا منهم للمؤمنين.

والاستفهام في قولهم)أي الفريقين(تقريري.

وقرأ من عدا ابن كثير)مقاما(بفتح الميم على أنه اسم مكان من قام، أطلق مجازا على الحظ والرفعة، كما في قوله تعالى)ولمن

خاف مقام ربه جنتان(، فهو مأخوذ من القيام المستعمل مجازا في الظهور والمقدرة.
وقرأه ابن كثير بضم الميم من أقام بالمكان، وهو مستعمل في الكون في الدنيا. والمعنى: خير حياة.
وجملة)وكم أهلكنا قبلهم من قرن(خطاب من الله لرسوله. وقد أهلك الله أهل قرون كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعا وأجمل منهم منظرا. فهذه الجملة معترضة بين حكاية قولهم وبين تلقين النبي صلى الله عليه وسلم ما يجيبهم به عن قولهم. وموقعها التهديد وما بعدها هو الجواب.
والأثاث: متاع البيوت الذي يتزين به، و)رئيا(قرأه الجمهور بهمزة بعد الراء وبعد الهمزة ياء على وزن فعل بمعنى مفعول كذبح من الرؤية، أي أحسن مرئيا، أي منظرا وهيئة.
وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر)ريا(بتشديد الياء بلا همز إما على أنه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى، وإما على أنه من الري الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريان من النعيم، وأصله من الري ضد العطش، لأن الري يستعار للتنعم كما يستعار التلهف للتألم.
)قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا[75] ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا[76](هذا جواب قولهم)أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا(. لقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم كشف مغالطتهم أو شبهتهم؛ فأعلمهم بأن ما هم فيه من نهمة الدنيا إنما هو إمهال من الله إياهم، لأن ملاذ الكافر استدراج.
فمعيار التفرقة بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده وبين النعمة التي هي استدراج لمن كفر به هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال، قال تعالى في شأن الأولين)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(. وقال في شأن الآخرين)أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون(.
والمعنى: أن من كان منغمسا في الضلالة اغتر بإمهال الله له فركبه الغرور كما ركبهم إذ قالوا)أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا(.

واللام في قوله)فليمدد له الرحمان مدا(لام الأمر أو الدعاء، استعملت مجازا في لازم معنى الأمر، أي التحقيق، أي فسيمد له الرحمان مدا، أي أن ذلك واقع لا محالة على سنة الله في إمهال الضلال، إعذارا لهم، كما قال تعالى)أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر(وتنبيها للمسلمين أن لا يغيروا بإنعام الله على الضلال حتى أن المؤمنين يدعون الله به لعدم اكتراثهم بطول مدة نعيم الكفار.

فإن كان المقصود من)قل(أن يقول النبي ذلك للكفار فلام الأمر مجرد مجاز في التحقيق، وإن كان المقصود أن يبلغ النبي ذلك عن الله أنه قال ذلك فلام الأمر مجاز أيضا وتجريد بحيث إن الله تعالى يأمر نفسه بأن يمد لهم.

والمد: حقيقته إرخاء الحبل وإطالته، ويستعمل مجازا في الإمهال كما هنا، وفي الإطالة كما في قولهم: مد الله في عمرك.

و)مدا(مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي فليمدد له المد الشديد، فسينتهي ذلك.

و)حتى(لغاية المد، وهي ابتدائية، أي يمد له الرحمان إنى أن يروا ما يوعدون، أي لا محيص لهم عن رؤية ما أوعدوا من العذاب ولا يدفعه عنه طول مدتهم في النعمة.

فتكون الغاية مضمون الجملة التي بعدها)حتى(لا لفظا مفردا. والتقدير: يمد لهم الرحمان حتى يروا العذاب فيعلموا من هو أسعد ومن هو أشقى.

وحرف الاستقبال لتوكيد حصول العلم لهم حينئذ وليس للدلالة على الاستقبال لأن الاستقبال استفيد من الغاية.

و)إما(حرف تفصيل ل)ما يوعدون(، أي ما أوعدوا من العذاب إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة، فإن كل واحد منهم لا يعدو أن يرى أحد العذابين أو كليهما.

وانتصب لفظ)العذاب(على المفعولية ل)يروا(. وحرف)إما(غير عاطف، وهو معترض بين العامل ومعموله، كما في قول تأبط شرا:

هما خطتا إما إسـار ومـنة وإما دم

والموت بالحر أجدر بحر إسار، ومنة، ودم .

وقوله)شر مكانا وأضعف جندا(مقابل قولهم)خير مقاما وأحسن نديا(فالمكان يرادف المقام، والجند الأعوان، لأن الندي أريد به أهله كما تقدم، فقوبل)خير نديا(ب)أضعف جندا(.

وجملة)ويزيد الله الذين اهتدوا هدى(معطوفة على جملة)من كان في الضلالة فليمدد له الرحمان مدا(لما تضمنه ذلك من الإمهال المفضي إلى الاستمرار في الضلال، والاستمرار: الزيادة.

فالمعنى على الاحتباك، أي فليمدد له الرحمان مدا فيزدد ضلالا، ويمد للذين اهتدوا فيزدادوا هدى.

وجملة)والباقيات الصالحات خير(عطف على جملة)ويزيد الله الذين اهتدوا هدى(. وهو ارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب التي اقتضاها قوله تعالى)فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا(، أي فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزة هو أقل مما كان عليه المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين. إذ كان مآل الكفرة العذاب ومآل المؤمنين السلامة من العذاب وبعد فللمؤمنين الثواب.

والباقيات الصالحات: صفتان لمحذوف معلوم من المقام. أي الأعمال الباقي نعيمها وخيرها، والصالحات لأصحابها هي خير عند الله من نعمة النجاة من العذاب. وقد تقدم وجه تقديم الباقيات على الصالحات عند الكلام على نظيره في أثناء سورة الكهف.

والمرد: المرجع. والمراد به عاقبة الأمر.

)أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا[77] أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا[78] ملا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا[79] ونرثه ما يقول ويأتينا فردا[80](تفريع على قوله) ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات. والمناسبة: أن قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه. وهو غرور إحالة البعث.

صفحة : 2619

والآية تشير إلى قصة خباب بن الأرت مع العاصي بن وائل السهمي. ففي الصحيح: أن خبابا كان يصنع السيوف في مكة. فعمل للعاصي ابن وائل سيفا وكان ثمنه دينا على العاصي، وكان خباب قد أسلم، فجاء خباب يتقاضى دينه من العاصي فقال له العاصي بن وائل: لا أقضيكه حتى تكفر بمحمد، فقال خباب وقد غضب : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله تم يبعثك. قال العاصي: أو مبعوث أنا بعد الموت؟ قال: نعم. قال العاصي متهكما : إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك فنزلت هذه الآية في ذلك. فالعاصي بن وائل هو المراد بالذي كفر بآياتنا.

والاستفهام في)أفرأيت(مستعمل في التعجيب من كفر هذا الكافر.

والرؤية مستعارة للعلم بقصته العجيبة. نزلت القصة منزلة الشيء المشاهد بالبصر لأنه من أقوى طوق العلم. وعبر عنه بالموصول لما في الصلة من منشأ العجب ولا سيما قوله)لأوتين مالا وولدا(.
والمقصود من الاستفهام لفت الذهن إلى معرفة هذه القصة أو إلى تذكرها إن كان عالما بها.
والخطاب لكل من يصلح للخطاب فلم يرد به معين. ويجوز أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم.
والآيات: القرآن، أي كفر بما أنزل إليه من الآيات وكذب بها. ومن جملتها آيات البعث.
والولد: اسم جمع لولد المفرد، وكذلك قرأه الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي في هذه السورة في الألفاظ الأربعة)وولد(بضم الواو وسكون اللام فهو جمع ولد، كأسد وأسد.
وجملة)أطلع الغيب(جواب لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدين من المال الذي سيجده حين يبعث، فالاستفهام في قوله)أطلع الغيب(إنكاري وتعجيبي.
و)اطلع(افتعل من طلع للمبالغة في حصول فعل الطلوع وهو الارتقاء، ولذلك يقال لمكان الطلوع مطلع بالتخفيف ومطلع بالتشديد.
ومن أجل هذا أطلق الاطلاع على الإشراف على الشيء، لأن الذي يروم الإشراف على مكان محجوب عنه يرتقي إليه من علو، فالأصل أن فعل)اطلع(قاصر غير محتاج إلى التعدية، قال تعالى)قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم(، فإذا ضمن) اطلع(معنى)أشرف(عدي بحرف الاستعلاء كقولة تعالى)لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا(. وتقدم إجمالا في سورة الكهف.
فانتصب)الغيب(في هذه الآية على المفعولية لا على نزع الخافض كما توهمه بعض المفسرين. قال في الكشاف: ولاختيار هذه الكلمة شأن، يقول: أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب اه.فالغيب: هو ما غاب عن الأبصار.
والمعنى: أأشرف على عالم الغيب فرأى مالا وولدا معدين له حين يأتي يوم القيامة أو فرأى ماله وولده صائرين معه في الآخرة لأنه لما قال)فسيكون لي مال وولدا(عنى أن ماله وولده راجعان إليه يومئذ أم عهد الله إليه بأنه معطيه ذلك فأيقن بحصوله، لأنه لا سبيل إلى معرفة ما أعد له يوم القيامة إلا أحد هذين إما مكاشفة ذلك ومشاهدته. وإما إخبار الله بأنه يعطيه إياه.
ومتعلق العهد محذوف يدل عليه السياق. تقديره :بأن يعطيه مالا وولدا.

و عند ظرف مكان، وهو استعارة بالكناية بتشبيه الوعد بصحيفة مكتوب بها تعاهد وتعاقد بينه وبين الله موضوعة عند الله، لأن الناس كانوا إذا أرادوا توثيق ما يتعاهدون عليه كتبوه في صحيفة ووضعوها في مكان حصين مشهور كما كتب المشركون صحيفة القطيعة بينهم وبين بني هاشم ووضعوها في الكعبة. وقال الحارث ابن حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل ينتقض ما في المهارق الأهواء ولعل في تعقيبه بقوله)سنكتب ما يقول(إشارة إلى هذا المعنى بطريق مراعاة النظير.

وأختير هنا من أسمائه)الرحمان(. لأن استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر، ولأن في ذكر هذا الاسم توركا على المشركين الذين قالوا)وما الرحمن(.

و)كلا(حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق من متكلم واحد، أو من كلام يحكي عن متكلم آخر أو مسموع منه كقوله تعالى) قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي(.

صفحة : 2620

والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطل بها، وقد تقدم على الكلام المبطل للاهتمام بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها كما في قوله تعالى)كلا والقمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر(على أحد تأويلين. وأما فيها من معنى الإبطال كانت في معنى النفي، فهي نقيض إي و أجل ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق.

والمعنى :لا يقع ما حكى عنه من زعمه ولا من غروره. والغالب أن تكون متبعة بكلام بعدها، فلا يعهد في كلام العرب أن يقول قائل في رد كلام: كلا، ويسكت.

ولكونها حرف ردع أفادت معنى تاما يحسن السكوت عليه. فلذلك جاز الوقت عليها عند الجمهور. ومنع المبرد الوقف عليها بناء على أنها لابد أن تتبع بكلام، وقال الفراء : مواقعها أربعة.

موقع يحسن الوقف عليها والابتداء بها كما في هذه الآية.

موقع يحسن الوقف عليها ولا يحسن الابتداء بها كقوله)فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا(.

وموقع يحسن فيه الابتداء بها ولا يحسن الوقف عليها كقوله تعالى)كلا إنها تذكرة(.

موقع لا يحسن فيه شيء من الأمرين كقوله تعالى)ثم كلا سوف تعلمون(.
وكلام الفراء يبين أن الخلاف بين الجمهور وبين المبرد لفضي لأن الوقف أعم من السكوت التام.
وحرف النفيس في قوله)سنكتب(لتحقيق أن ذلك واقع لا محالة كقوله تعالى)قال سوف استغفر لكم ربي(.
والمد في العذاب: الزيادة منه، كقوله)فليمدد له الرحمن مدا(.
و)ما يقول(في الموضعين إيجاز، لأنه لو حكي كلامه لطال. وهذا كقوله تعالى)قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم(.
أي وبقربان تأكله النار. أي ما قاله من الإلحاد والتهكم بالإسلام. وما قاله من المال والولد، أي سنكتب جزاءه ونهلكه فنرثه ما سماه من المال والولد، أي نرث أعيان ما ذكر أسماءه، إذ لا يعقل أن يورث عنه قوله وكلامه. ف)ما يقول(بدل اشتمال من ضمير النصب في)نرثه(، إذ التقدير: ونرث ولده وماله.
والإرث: مستعمل مجازا في السلب والأخذ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك. والمقصود: تذكيره بالموت، أو تهديده بقرب هلاكه.
ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإن العاصي ولد عمرا الصحابي الجليل وهشاما الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فهنا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل.
والفرد: الذي ليس معه ما يصير به عددا، إشارة إلى أنه يحشر كافرا وحده دون ولده، ولا مال له. و)فردا(حال.
)واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا[81] كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا[82](عطف على جملة)ويقول الإنسان أإذا ما مت(فضمير)اتخذوا(عائد إلى الذين أشركوا لأن الكلام جرى على بعض منهم.
والاتخاذ: جعل الشخص الشيء لنفسه، فجعل الاتخاذ هنا الاعتقاد والعبادة. وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به كما قال تعالى عن إبراهيم)قال أتعبدون ما تنحتون(.
وفي قوله)من دون الله(إيماء إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا الله إلها، إذ بذلك تقرر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة، وعليه دلت العقول الراجحة.
ومعنى)ليكونوا لهم عزا(ليكونوا معزين لهم، أي ناصرين، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم نفس العز، أي أن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزا.

وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأن المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء مدبرين.
والضميران في قوله)سيكفرون ويكونون(يجوز أن يكونا عائدين إلى آلهة، أي سينكر الآلهة عبادة المشركين إياهم، فعبر عن الجحود والإنكار بالكفر، وستكون الآلهة ذلا ضد العز.
والأظهر أن ضمير)سيكفرون(عائد إلى المشركين، أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله)واتخذوا من دون الله آلهة(. وفيه تمام المقابلة، أي بعد أن تكلفوا جعلهم آلهة لهم سيكفرون بعبادتهم، فالتعبير بفعل)سيكفرون(يرجح هذا الحمل لأن الكفر شائع في الإنكار الاعتقادي لا في مطلق الجحود، وأن ضمير)يكونون(للآلهة وفيه تشتيت الضمائر. ولا ضير في ذلك إذ كان السياق يرجع كلا إلى ما يناسبه، كقول عباس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم
بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا أي وأحرز جمع المشركين ما جمعه المسلمون من الغنائم.
ويجوز أن يكون ضميرا)سيكفرون ويكونون(راجعين إلى المشركين، وأن حرف الاستقبال للحصول قريبا؛ أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام ويدخلون في الإسلام ويكونون ضدا على الأصنام يهدمون هياكلها ويلعنونها، فهو بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن دينه سيظهر على دين الكفر. وفي هذه المقابلة طباق مرتين.
والضد: اسم مصدر، وهو خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة. ومن الثاني تسمية العدو ضدا. ولكونه في معنى المصدر لزم في حال الوصف به حالة واحدة بحيث لا يطابق موصوفه.
)ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكفرين تؤزهم أزا[83] فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا[84](استئناف بياني لجواب سؤال يجيش في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من إيغال الكافرين في الضلال جماعتهم. وآحادهم، وما جره إليهم من سوء المصير ابتداء من قوله تعالى)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(، وما تخلل ذلك من ذكر إمهال الله إياهم في الدنيا، وما أعد لهم من العذاب في الآخرة. وهي معترضة بين جملة)واتخذوا من دون الله آلهة(وجملة)يوم نحشر المتقين(. وأيضا هي كالتذليل لتلك الآيات

والتقرير لمضمونها لأنها تستخلص أحوالهم، وتتضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم.
والاستفهام في)ألم تر(تعجيبي. ومثله شائع في كلام العرب يجعلون الاستفهام على نفي فعل. والمراد حصول ضده بحث المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي كيف لم تر ذلك. ونزل إرسال الشياطين على الكافرين لاتضاح آثاره منزلة الشيء المرئي المشاهد، فوقع التعجيب من مرآه بقوله: ألم تر ذلك.
والأز: الهز والاستفزاز الباطني، مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانها. شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح.
وإرسال الشياطين عليهم تسخيرهم لها وعدم انتفاعهم بالإرشاد النبوي المنقذ من حبائلها، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن استماع مواعظ الوحي. وللإشارة إلى هذا المعنى عدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله)على الكافرين(. وجعل)تؤزهم(حالا مقيدا للإرسال لأن الشياطين مرسلة على جميع الناس ولكن الله يحفظ المؤمنين من كيد الشياطين على حسب قوة الإيمان وصلاح العمل، قال تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(.
وفرع على هذا الاستئناف وهذه التسلية قوله)فلا تعجل عليهم(، أي فلا تستعجل العذاب لهم إنما نعد لهم عدا. وعبر ب)تعجل عليهم(معدى بحرف الاستعلاء إكراما للنبي صلى الله عليه وسلم بأن نزل منزلة الذي هلاكهم بيده. فنهى عن تعجيله بهلاكهم. وذلك إشارة إلى قبول دعائه عند ربه، فلو دعا عليهم بالهلاك لأهلكهم الله كيلا يرد دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأنه يقال: عجل على فلان بكذا، أي أسرع بتسليطه عليه، كما يقال: عجل إليه إذا أسرع بالذهاب إليه كقوله)وعجلت إليك رب لترضى(، فاختلاف حروف تعدية فعل)عجل(ينبئ عن اختلاف المعنى المقصود بالتعجيل.
ولعل سبب الاختلاف بين هذه الآية وبين قوله تعالى)فلا تستعجل لهم(في سورة الأحقاف أن المراد هنا استعجال الاستئصال والإهلاك وهو مقدر كونه على يد النبي صلى الله عليه وسلم، فلذلك قيل هنا)فلا تعجل عليهم(، أي انتظر يومهم الموعود، وهو يوم بدر، ولذلك عقب بقوله)إنما نعد لهم عدا(، أي ننظرهم ونؤجلهم، وأن العذاب المقصود في سورة الأحقاف هو عذاب الآخرة لوقوعه في خلال الوعيد لهم بعذاب النار لقوله هنالك)ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما

كنتم تكفرون فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار(.
والعد : الحساب.
و)إنما(للقصر، أي ما نحن إلا نعد لهم، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي نعد لهم ولسنا بناسين لهم كما يظنون، أو لسنا بتاركينهم من العذاب بل نؤخرهم إلى يوم موعود.

صفحة : 2622

وأفادت جملة)إنما نعد لهم عدا(تعليل النهي عن التعجيل عليهم لأن)إنما(مركبة من)إن(و)ما(وإن تفيد التعليل كما تقدم غير مرة.
وقد استعمل العد مجازا في قصر المدة لأن الشيء القليل يعد ويحسب. وفي هذا إنذار باقتراب استئصالهم.
)يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا[85] ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا[86] لا يملكون الشفعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا[87](إتمام لإثبات قلة غناء آلهتهم عنهم تبعا لقوله)ويكونون عليهم ضدا(.
فجملة)لا يملكون الشفاعة(هو مبدأ الكلام، وهو بيان لجملة) ويكونون عليهم ضدا(.
والظرف وما أضيف الظرف إليه إدماج بينت به كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين. وفي ضمنه زيادة بيان الجملة)ويكونون عليهم ضدا(بأنهم كانوا سبب سوقهم إلى جهنم وردا ومخلفتهم لحال المؤمنين في ذلك المشهد العظيم. فالظرف متعلق ب)يملكون(.
وضمير)لا يملكون(عائد للآلهة. والمعنى: لا يقدرون على أن ينفعوا من اتخذوهم آلهة ليكونوا لهم عزا.
والحشر: الجمع مطلقا، يكون في الخير كما هنا. وفي الشر كقوله)احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم(، ولذلك أتبع فعل)نحشر(بقيد)وفدا(، أي حشر الوفود إلى الملوك، فإن الوفود يكونون مكرمين، وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفود في أوقات، ولأعيان العرب وفادات سنويه على ملوكهم وسادتهم. ولكل قبيلة وفادة، وفي المثل إن الشقي وافد البراجم .
وقد اتبع العرب هذه السنة فوفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أشرف السادة. وسنة الوفود عي سنة تسع من الهجرة تلت فتح مكة بعموم الإسلام بلاد العرب.
وذكر صفة)الرحمان(هنا واضحة المناسبة للوفد.

والسوق: تسيير الأنعام قدام رعاتها، يجعلونها أمامهم لترهب زجرهم وسياطهم فلا تتفلت عليهم، فالسوق: سير خوف وحذر.
وقوله)وردا(حال قصد منها التشبيه، فلذلك جاءت جامدة لأن معنى التشبيه يجعلها كالمشتق.
والورد بكسر الواو: أصله السير إلى الماء، وتسمى الأنعام الواردة وردا تسمية على حذف المضاف، أي ذات ورد، كما يسمى الماء الذي يرده القوم وردا. قال تعالى)وبئس الورد المورود(. والاستثناء في)إلا من اتخذ عند الرحمان عهدا(استثناء منقطع، أي لكن يملك الشفاعة يومئذ من اتخذ عند الرحمان عهدا، أي من وعده الله بأن يشفع وهم الأنبياء والملائكة.
ومعنى)لا يملكون(لا يستطيعون، فإن الملك يطلق على المقدرة والاستطاعة. وقد تقدم عند قوله تعالى)قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا(في سورة العقود.
)وقالوا اتخذ الرحمن ولدا[88] لقد جئتم شيئا إدا[89] يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا[90] أن دعوا للرحمن ولدا[91] وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا[92] إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا[93] لقد أحصيهم وعدهم عدا[94] وكلهم آتيه يوم القيمة فردا[95](عطف على جملة)ويقول الإنسان أإذا ما مت(أو على جملة)واتخذوا من دون الله آلهة(إتماما لحكاية أقوالهم، وهو القول بأن لله ولدا، وهو قول المشركين: الملائكة بنات الله. وقد تقدم في سورة النحل وغيرها؛ فصريح الكلام رد على المشركين، وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله، فهو تكملة للإبطال الذي في قوله تعالى آنفا)ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه(الخ.
والضمير عائد إلى المشركين، فيفهم منه أن المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم، أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه، وإنما قالوا ذلك تأييدا لعبادتهم الملائكة والجن واعتقادهم شفعاء لهم.

وذكر)الرحمان(هنا حكاية لقولهم بالمعنى، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان(. فهم إنما يقولون)اتخذ الله ولدا(كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف.

فذكر)الرحمن(هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه. فذكر اسم) الرحمان(لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.
وفيه أيضا إيماء إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله)وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا(.
والخطاب في)لقد جئتم(للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد. كما تقدم في قوله آنفا)وإن منكم إلا واردها(فلا يحسن تقدير: قل لقد جئتم.
وجملة)لقد جئتم شيئا إدا(مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة)وقالوا اتخذ الرحمان ولدا(من التشنيع والتفظيع.
وقرأ نافع، والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث. وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية)تكاد(بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.
والتفطر: الانشقاق، والجمع بينه وبين)وتنشق الأرض(تفنن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ. والخرور: السقوط.
و)من(في قوله)منه(للتعليل، والضمير المجرور ب)من(عائد إلى) شيئا إدا(، أو إلى القول المستفاد من)قالوا أتخذ الرحمن ولدا(.
والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيغير كيانها.
وقرأ نافع، وأبن كثير، وحفص عن عاصم، والكسائي) يتفطرن(بمثناة تحتية بعدها تاء فوقية. وقرأ أبو عمر، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، وأبو بكر عن عاصم بتحتية بعدها نون من الانفطار. والوجهان مطاوع فطر المضاعف أو فطر المجرد، ولا يكاد ينضبط الفرق بين البنيتين في الاستعمال. ولعل محاولة التفرقة بينهما كما في الكشاف والشافية لا يطرد. قال تعالى)ويوم تشقق السماء بالغمام(، وقال)إذا السماء انشقت(. وقرئ في هذه الآية)يتفطرون(و)ينفطرون(. والأصل توافق القراءتين في البلاغة.
والهد: هدم البناء. وانتصب)هدا(على المفعولية المطلقة لبيان نوع الخرور. أي سقوط الهدم، وهو أن يتساقط شظايا وقطعا.
و)أن دعوا للرحمن ولدا(متعلق بكل من)يتفطرن، وتنشق، وتخر(، وهو على حذف لام الجر قبل)أن(المصدرية وهو حذف مطرد.
والمقصود منه تأكيد ما أفيد من قوله)منه(. وزيادة بيان لمعاد الضمير المجرور في قوله)منه(اعتناء ببيانه.
ومعنى)دعوا(: نسبوا، كقوله تعالى)أدعوهم لآبائهم(، ومنه يقال: ادعى إلى بني فلان، أي انتسب. قال بشامة بن حزن النهشلي:

إنا بني نهشل لا ندعي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا وجملة)وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا(عطف على جملة)قالوا أتخذ الرحمان ولدا(.

ومعنى)ما ينبغي(ما يتأتى، أو ما يجوز. وأصل الانبغاء: أنه مطاوع فعل بغى الذي بمعنى طلب. ومعنى مطاوعته: التأثر بما طلب منه، أي استجابة الطلب، نقل الطيبي عن الزمخشري أنه قال في كتاب سيبويه: كل فعل فيه علاج يأتي مطاوعه على الانفعال كصرف وطلب وعلم، وما ليس فيه علاج كعدم وفقد لا يتأتى في مطاوعه الانفعال البتة اه. فبان أن أصل معنى)ينبغي(يستجيب الطلب. ولما كان الطلب مختلف المعاني باختلاف المطلوب لزم أن يكون معنى)ينبغي(مختلفا بحسب المقام فيستعمل بمعنى: يتأتى، ويمكن، ويستقيم، ويليق. وأكثر تلك الإطلاقات أصله من قبيل الكناية واشتهرت فقامت مقام التصريح.

صفحة : 2624

والمعنى في هذه الآية: وما يجوز أن يتخذ الرحمان ولدا. بناء على أن المستحيل لو طلب حصوله لما تأتى لأنه مستحيل لا تتعلق به القدرة، لا لأن الله عاجز عنه. ونحو قوله)قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء(يفيد معنى: لا يستقيم لنا، أو لا يخول لنا أن نتخذ أولياء غيرك، ونحو قوله)لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر(يفيد معنى لا تستطيع. ونحو)وما علمناه الشعر وما ينبغي له(يفيد معنى: أنه لا يليق به. ونحو)وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي(يفيد معنى: لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه، وفرق بين قولك: ينبغي لك أن لا تفعل هذا، وبين لا ينبغي لك أن تفعل كذا، أي ما يجوز لجلال الله أن يتخذ ولدا لأن جميع الموجودات غير ذاته تعالى يجب أن تكون مستوية في المخلوقية له والعبودية له. وذلك ينافي البنوة لآن بنوة الإله جزء من الإلهية، وهو أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(، أي لو كان له ولد لعبدته قبلكم.

ومعنى)آتي الرحمان عبدا(: الإتيان المجازي، وهو الإقرار والاعتراف، مثل: باء بكذا، أصله رجع، واستعمل بمعنى اعترف.

و)عبدا(حال، أي معترف لله بالإلهية غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا.

ويجوز جعل)آتي الرحمان(بمعنى صائر إليه بعد الموت، ويكون المعنى أنه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة البنوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وتكرير اسم)الرحمان(في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمان الثابت لله. والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا لفظه. ينافي ادعاء الولد له لأن الرحمان وصف يدل على عموم الرحمة وتكثرها. ومعنى ذلك شاملة لكل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى. ولا يتقوم ذلك إلا بتحقيق العبودية فيه. لأنه لو كان بعض الموجودات ابنا لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالنبوة مساويا له في الإلهية المقتضية الغني المطلق، ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمنه له، وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة.

فذكر هذا الوصف عند قوله)وقالوا اتخذ الرحمان ولدا(وقوله)أن دعوا للرحمن ولدا(تسجيل لغباوتهم.

وذكره عند قوله)وما ينبغي للرحمن أن يتخد ولدا(إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله.

وذكره عند قوله)إلا آتى الرحمان عبدا(استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها.

وجملة)لقد أحصاهم(عطف على جملة)لقد جئتم شيئا إدا(، مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة. فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير)وقالوا اتخذ الرحمان ولدا(وما بعده. وليس عائدا على)من في السماوات والأرض(، أي لقد علم الله كل من قال ذلك وعدهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه.

ومعنى)وكلهم آتيه يوم القيامة فردا(إبطال ما لأجله قالوا اتخذ الله ولدا، لنهم زعموا ذلك موجب عبادتهم الملائكة والجن ليكونوا شفعاءهم عند الله، فأيأسهم الله من ذلك بأن كل واحد يأتي يوم القيامة مفردا لا نصير له كما في قوله في الآية السالفة)ويأتينا فردا(. في ذلك تعويض بأنهم آتون لما يكرهون من العذاب والإهانة إتيان الأعزل إلى من يتمكن من الانتقام.

)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا[96]

(يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أن هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضد حال المشركين، فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنس بعضهم ببعض.

ولما ختمت الآية قبلها بأن المشركين آتون يوم القيامة مفردين. وكان ذلك مشعرا بأنهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنى المورط فيه من يدفع عنه وينصره، وإشعار ذلك بأنهم مغضوب عليهم، أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين، وأنهم على العكس من

حال المشركين، وأنهم يكونون يومئذ بمقام المودة والتبجيل.
فالمعنى: سيجعل لهم الرحمان أوداء من الملائكة كما قال تعالى) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة(، ويجعل بين أنفسهم مودة كما قال تعالى)ونزعنا ما في صدورهم من غل(.

صفحة : 2625

وإيثار المصدر ليفي بعدة متعلقات بالود. وفسر أيضا جعل الود بأن الله يجعل لهم محبة في قلوب أهل الخير. رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد عن الدراوردي. وليست هذه الزيادة عن أحد ممن روى الحديث عن غير قتيبة بن سعيد ولا عن قتيبة بن سعيد في غير رواية الترمذي، فهذه الزيادة إدراج من قتيبة عند الترمذي خاصة.
وفسر أيضا بأن الله سيجعل لهم محبة منه تعالى. فالجعل هنا كالإلقاء في قوله تعالى)وألقيت عليك محبة مني(. هذا أظهر الوجوه في تفسير الود. وقد ذهب فيه جماعات المفسرين إلى أقوال شتى متفاوتة في القبول.
)فإنما يسرنه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا[97] (إيذان بانتهاء السورة، فإن شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأن المتكلم سيطوي بساطة. وذلك شأن التذييلات والخواتم وهي ما يؤذن بانتهاء الكلام. فلما احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر جاء هنا في التنويه بالقرآن وبيان بعض ما في تنزيله من الحكم.
فيجوز جعل الفاء فصيحة مؤذنة بكلام مقدر يدل عليه المذكور، كأنه قيل: بلغ ما أنزلنا إليك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة فما أنزلناه إليك إلا للبشارة والنذارة ولا تعبأ بما حصل مع ذلك من الغيظ أو الحقد. وذلك أن المشركين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: لو كففت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أرائنا لاتبعناك .
ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين بقوله)لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا(. ووعد المؤمنين بقوله)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا(. والمفرع هو مضمون)لتبشر به(الخ)وتنذر به(الخ، أي ذلك أثر الإعراض عما جئت به من النذارة، وأثر الإقبال على ما جئت به من البشارة مما يسرناه بلسانك فإنا ما أنزلناه عليك إلا لذلك.

وضمير الغائب عائد إلى القرآن بدلالة السياق مثل)حتى توارت بالحجاب(. وبذلك علم أن التيسير تسهيل قراءة القرآن. وهذا إدماج للثناء على القرآن بأنه ميسر للقراءة، كقوله تعالى)ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر(.

واللسان: اللغة، أي بلغتك، وهي العربية، كقوله)وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين(؛ فإن نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب وتسهيل حفظه ما لم يسهل مثله لغيره من الكتب.

والباء للسببية أو المصاحبة.

وعبر عن الكفار بقوم لد ذما لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة، أي أهل تصميم على باطلهم، فاللد: جمع ألد، وهو الأقوى في اللدد، وهو الإباية من الاعتراف بالحق. وفي الحديث الصحيح:) أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم(. ومما جره الإشراك إلى العرب من مذام الأخلاق التي خلطوا بها محاسن أخلاقهم أنهم ربما تمدحوا باللدد، قال بعضهم في رثاء البعض:

إن تحت الأحجار حزما وعزما

وخصيما ألد ذا مغلاق وقد حسن مقابلة المتقين بقوم لد. لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولدد.

وفيه تعريض بأن كفرهم عن نعاد وهم يعلمون أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق، كما قال تعالى)فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(.

وإيقاع لفظ القوم عليهم للإشارة إلى أن اللدد شأنهم، وهو الصفة التي تقومت منها قوميتهم، كما تقدم في قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة، وقوله تعالى)وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(في سورة يونس.

)وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا[98](لما ذكروا بالعناد والمكابرة أتبع بالتعريض بتهديدهم على ذلك بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله لجبروتها وتعنتها لتكون لهم قياسا ومثلا. فالجملة معطوفة على جملة)فإنما يسرناه بلسانك(باعتبار ما تضمنته من بشارة المؤمنين ونذارة المعاندين، لأن في التعريض بالوعيد لهم نذارة لهم وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرهم.

و)كم(خبرية عن كثرة العدد.

والقرن: الأمة والجيل. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمة. وشاع تقديريه بمائة سنة. و من بيانية، وما بعدها تمييز كم .
والاستفهام في)هل تحس منهم من أحد(إنكاري. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تبعا لقوله)فإنما يسرناه بلسانك(أي ما تحس، أي ما تشعر بأحد منهم. والإحساس: الإدراك بالحس، أي لا ترى منهم أحدا.
والركز: الصوت الخفي، ويقال: الرز، وقد روى بهما قول لبيد:
وتوجست ركز الأنيس فراعها عن
ظهر غيب والأنيس سقامها وهو كناية عن اضمحلالهم؛ كني باضمحلال لوازم الوجود عن اضمحلال وجودهم.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة طه
سميت سورة)طاها(باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها.
ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما تبعا لرسم المصحف كما تقدم في سورة الأعراف. وكذلك وردت تسميتها في كتب السنة في حديث إسلام عمر بن الخطاب كما سيأتي قريبا.
وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي عن هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله تبارك وتعالى قرأ)طاها( )باسمين(قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليها الحديث. قال ابن فورك: معناه أن الله أظهر كلامه وأسمعه من أراد أن يسمعه من الملائكة، فتكون هذه التسمية مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم.
وذكر في الإتقان عن السخاوي أنها تسمى أيضا)سورة الكليم(، وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى)سورة موسى(.
وهي مكية كلها على قول الجمهور. واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين. وفي الإتقان أنه استثني منها آية)فاصبر على ما يقولون وسبح ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها(الآية. واستظهر في الإتقان أن يستثنى منها قوله تعالى)ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا(الآية. لما أخرج أبو يعلى والزار عن أبي رافع قال: أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي فأخبرته فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض. فلم أخرج من عنده حتى نزلت)ولا

تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا(الآية اه.
وعندي أنه إن صح حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول. فالعل النبي صلى الله عليه وسلم قرأها متذكرا فظنها أبو رافع نازلة ساعتئذ ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النزول على التلاوة. ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة.
وهذه السورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة. ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب لما روى الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته عنه قال: خرج عمر متقلدا بسيف. فقيل له: إن ختنك وأختك قد صبوا، فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة) طاها(، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه؟ فقالت له أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ. فقام عمر وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ طه. فلما قرأ صدرا منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه إلى آخر القصة. وذكر الفخر عن بعض المفسرين أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة.
وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة.
وعدت آيها في عدد أهل المدينة ومكة مائة وأربعا وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين، وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين. وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمسا وثلاثين.

أغراضها
احتوت من الأغراض على : التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية؛ فأكثرها في هذا الشأن.
والتنويه بعظمة الله تعالى. وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس. فضرب المثل لنزول القران على محمد صلى الله عليه وسلم بكلام الله موسى عليه السلام

صفحة : 2627

وبسط نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه.

وإنجاء الله موسى وقومه، وغرق فرعون، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط.
وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام وكل ذلك تعويض بأن مآل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.
ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا.
وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يقولونه وتثبيته على الدين.
وتخلل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال.
)طه[1](هذان الحرفان من حروف فواتح بعض السور مثل الم ، ويس. ورسما في خط المصحف بصورة حروف التهجي التي هي مسمى)طا(و)ها(كما رسم جميع الفواتح التي بالحروف المقطعة. وقرئا لجميع القراء كما قرأت بقية فواتح السور. فالقول فيهما كالقول المختار في فواتح تلك السور، وقد تقدم في أول سورة البقرة وسورة الأعراف.
وقيل هما حرفان مقتضبان من كلمتي)طاهر( )وهاد(وأنهما على معنى النداء بحذف حرف النداء.
وتقدم وجه المد في)طا( )ها(في أول سورة يونس. وقيل مقتضبان من فعل)طأ(أمرا من الوطء. ومن)ها(ضمير المؤنثة الغائبة عائد إلى رجل واحدة فأمره الله بهذه الآية أن يطأ الأرض برجله الأخرى. ولم يصح.
وقيل)طاها(كلمة واحدة وأن أصلها من الحبشية. ومعناها إنسان، وتكلمت بها قبيلة عك أو عكل وأنشدوا ليزيد بن مهلهل:
إن السفاهة طاها من شمائلكـم لا
بارك الله في القوم الملاعين وذهب بعض المفسرين إلى اعتبارهما كلمة لغة عك أو عكل أو كلمة من الحبشية أو النبطية وأن معناها في لغة: عك يا إنسان، أو يا رجل. وفي ما عداها: يا حبيبي. وقيل: هي اسم سمى الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه على معنى النداء. أو هو قسم به. وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم؟ ورويت في ذلك آثار وأخبار ذكر بعضها عياض في الشفاء. ويجري فيها قول من جعل جميع هذه الحروف متحدة في المقصود منها. كقول من قال: هي أسماء للسور الواقعة فيها. ونحو ذلك مما تقدم في سورة البقرة. وإنما غرهم بذلك تشابه

في النطق فلا نطيل بردها. وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم.
)ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى[2] إلا تذكرة لمن يخشى[3] تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى[4] الرحمن على العرش استوى[5] له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى[6](افتتحت السورة بملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك. أي تصيبه المشقة ويشده التعب، ولكن أراد أن يذكر بالقرآن من يخاف وعيده. وفي هذا تنويه أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادكروا بالقرآن.
وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاضطلاع بأمر التبليغ. وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام وأن لا يكون مفرطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض. وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن لأن في ضمن ذلك تنويها بمن أنزل عليه وجاء به.
والشقاء: فرط التعب بعمل أو غم في النفس، قال النابغة:
إلا مقالة أقوم شقـيت بـهـم كانت
مقالتهم قرعا على كبدي وهمزة الشقاء منقلبة عن الواو. يقال: شقاء وشقاوة بفتح الشين وشقوة بكسرها.

صفحة : 2628

ووقوع فعل)أنزلنا(في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله. لأن الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه. وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور، فيعم نفي جميع كل إنزال للقرآن فيه شقاء له، ونفي كل شقاء يتعلق بذلك الإنزال، أي جميع أنواع الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سببا في شيء من الشقاء للرسول صلى الله عليه وسلم.
وأول ما يراد منه هنا أسف النبي صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن الإيمان بالقرآن. قال تعالى)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا(.
ويجوز أن يكون المراد: ما أرسلناك لتخيب بل لنؤيدك وتكون لك العاقبة.
وقوله)إلا تذكرة(استثناء مفرغ من أحوال للقرآن محذوفة، أي ما أنزلناه عليك القرآن في حال من أحوال إلا حال تذكرة فصار المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وما أنزلناه في حال من

الأحوال إلا تذكرة. ويدل لذلك تعقيبه بقوله)تنزيلا ممن خلق الأرض(الذي هو حال من القرآن لا محالة، ففعل)أنزلنا(عامل في) لتشقى(بواسطة حرف الجر، وعامل في)تذكرة(بواسطة صاحب الحال، وبهذا تعلم أن ليس الاستثناء من العلة المنفية بقوله) لتشقى(حتى تتحير في تقويم معنى الاستثناء فتفزع إلى جعله منقطعا وتقع في كلف لتصحيح النظم.

وقال الواحدي في أسباب النزول: قال مقاتل: قال أبو جهل والنضر بن الحارث وزاد غير الواحدي: الوليد بن المغيرة، والمطعم ابن عدي للنبي صلى الله عليه وسلم إنك لشقي بترك ديننا، لما رأوا من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله تعالى)طه ما أنزلنا عليك القران لتشقى(الآية، وليس فيه سند.

والتذكرة: خطور المنسي بالذهن، فإن التوحيد مستقر في الفطرة والإشراك مناف لها، فالدعوة إلى الإسلام تذكير لما في الفطرة أو تذكير لملة إبراهيم عليه السلام . و)يخشى(هو المستعد للتأمل والنظر في صحة الدين، وهو كل من يفكر للنجاة في العاقبة، فالخشية هنا مستعملة في المعنى العربي الأصلي. ويجوز أن يراد بها المعنى الإسلامي، وهو خوف الله، فيكون المراد من الفعل المآل، أي من يؤول أمره إلى الخشية بتيسير الله تعالى له التقوى، كقوله تعالى)هدى للمتقين(أي الصائرين إلى التقوى.

و)تنزيلا(حال من)القرآن(ثانية.

والمقصود منها التنويه بالقرآن والعناية به لينتقل من ذلك إلى الكناية بأن الذي أنزله عليك بهذه المثابة لا يترك نصرك وتأييدك.

والعدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من تحتم إفراده بالعبادة، لأنه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقا. ولذلك وصف) السماوات(ب)العلى(صفة كاشفة زيادة في تقرير معنى عظمة خالقها. وأيضا لما كان ذلك شأن منزل القرآن لا جرم كان القرآن شيئا عظيما، كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا

دعائمه أعـز وأطـول و)الرحمان(يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف لازم الحذف تبعا للاستعمال المسند إليه كما سماه السكاكي ويجوز أن يكون مبتدأ. واختر وصف)الرحمان(لتعليم الناس به لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمان)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان(. وفي كره هنا وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة شكر على إحسانه بالرحمة البالغة.

وجملة)على العرش استوى(حال من)الرحمان(. أو خبر ثان عن المبتدأ المحذوف.

والاستواء: الاستقرار. قال تعالى)فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك(الآية. وقال)واستوت على الجودي(.
والعرش: عالم عظيم من العوالم العليا، فقيل هو أعلى سماء من السماوات وأعظمها. وقيل غير ذلك. ويسمى: الكرسي أيضا على الصحيح. وقيل: الكرسي غير العرش.
وأياما كان فذكر الاستواء عليه زيادة في تصوير عظمة الله تعالى وسعة سلطانه بعد قوله)ممن خلق الأرض والسماوات العلى(.
وأما ذكر الاستواء فتأويله أنه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش وقد عرف العرب من أولئك ملوك الفرس وملوك الروم وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة.

صفحة : 2629

وحسن التعبير بالاستواء مقارنته بالعرش الذي هو مما يستوي عليه في المتعارف. فكان ذكر الاستواء كالترشيح لإطلاق العرش على السماء العظمى، فالآية من المتشابه البين تأويله باستعمال العرب وبما تقرر في العقيدة: أن ليس كمثله شيء.
وقيل: الاستواء يستعمل بمعنى الاستيلاء. وأنشدوا قول الأخطل:
قد استوى بشر على العراق بغير
سيف ودم مـهـراق وهو مولد. ويحتمل أنه تمثيل كالآية. ولعله انتزعه من هذه الآية.
وتقدم القول في هذا عند قوله تعالى)ثم استوى على العرش(في سورة الأعراف. وإنما أعدنا بعضه هنا لأن هذه الآية هي المشتهرة بين أصحابنا الأشعرية.
وفي تقييد الأبي على تفسير ابن عرفة: واختار عز الدين بن عبد السلام عدم تكفير من يقول بالجهة. قيل لابن عرفة: عادتك تقول في الألفاظ الموهمة الواردة في الحديث كما في حديث السوداء وغيرها، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم دليل على عدم تكفير من يقول بالتجسيم، فقال: هذا صعب ولكن تجاسرت على قوله اقتداء بالشيخ عز الدين لأنه سبقني لذلك.
وأتبع ما دل على عظمة سلطانه تعالى بما يزيده تقريرا وهو جملة)له ما في السماوات(الخ. فهي بيان لجملة)الرحمان على العرش استوى(. والجملتان تدلان على عظيم قدرته لآن ذلك هو المقصود من سعة السلطان.

وتقديم المجرور في قوله)له ما في السماوات(للقصر، ردا على زعم المشركين أن لآلهتهم تصرفات في الأرض، وأن للجن اطلاعا على الغيب، ولتقرير الرد ذكرت أنحاء الكائنات، وهي السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

والثرى: التراب. وما تحته: هو باطن الأرض كله.

وجملة)له ما في السماوات(عطف على جملة)على العرش استوى(.

)وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى[7](عطف على جملة) له ما في السماوات وما في الأرض(لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. وأصل النظم: ويعلم السر وأخفى إن تجهر بالقول؛ فموقع قوله)وإن تهجر بالقول(موقع الاعتراض بين جملة)يعلم السر وأخفى(وجملة)الله لا إله إلا هو(. فصيغ النظم في قالب الشرط والجزاء زيادة في تحقيق حصوله على طريقة ما يسمى بالمذهب الكلامي، وهو سوق الخبر في صيغة الدليل على وقوعه تحقيقا له.

والمعنى: أنه يعلم السر وأخفى من السر في الأحوال التي يجهر فيها القائل بالقول لإسماع مخاطبه، أي فهو لا يحتاج إلى الجهر لأنه يعلم السر وأخفى. وهذا أسلوب متبع عند البلغاء شائع في كلامهم بأساليب كثيرة. وذلك في كل شرط لا يقصد به التعليق بل يقصد التحقيق كقول أبي كبير الهذيلي:

فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا

إذا ما نام ليل الهوجل أي سهدا في كل وقت حين ينام غيره ممن هو هوجل. وقول بشامة بن حزن النهشلي:

إذا الكماة تنحو أن يصيبهم حد

الظبات وصلناها بأيدينا وقول إبراهيم بن كنيف النبهاني:

فإن تكن الأيام جالت صروفها

ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قـنـاة صـلـيبة وما

ذللتنا للتي ليس تجـمـل وقول القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال

بادية تـرانـا فالخطاب في قوله)وإن تجهر(يجوز أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يعم غيره. ويجوز أن يكون لغير معين ليعم كل مخاطب.

واختير في إثبات سعة علم الله تعالى خصوص علمه بالمسموعات لأن السر أخفى الأنبياء عن علم الناس في العادة. ولما جاء القرآن مذكرا بعلم الله تعالى توجهت أنظار المشركين إلى معرفة مدى علم الله تعالى وتجادلوا في ذلك في مجامعهم. وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا?، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا)أي وهو بعيد عنا(فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا قلوبكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون(. وقد كثر في القرآن أن الله يعلم ما يسر الناس وما يعلنون ولا أحسب هذه الآية إلا ناظرة إلى مثل ما نظرت الآية الآنفة الذكر، وقال تعالى) ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور(.

يبقى النظر في توجيه الإتيان بهذا الشرط بطريقة الاعتراض، وتوجيه اختيار فرض الشرط بحالة الجهر دون حالة السر مع أن الذي يتراءى للناظر أن حالة السر أجدر بالذكر في مقام الإعلام بإحاطة علم الله تعالى بما لا يحيط به علم الناس، كما ذكر في الخبر المروي عن ابن مسعود في الآية الآنفة الذكر.

وأحسب لفرض الشرط بحالة الجهر بالقول خصوصية بهذا السياق اقتضاها اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بالقرآن في الصلاة أو غيرها، فيكون مورد هذه الآية كمورد قوله تعالى)واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول(فيكون هذا مما نسخة قوله تعالى)فاصدع بما تؤمر(، وتعليم للمسلمين باستواء الجهر والسر في الدعاء، وإبطال لتوهم المشركين أن الجهر أقرب إلى علم الله من السر، كما دل عليه الخبر المروي عن أبي مسعود المذكور آنفا.

والقول: مصدر، وهو تلفظ الإنسان بالكلام، فيشمل القراءة والدعاء والمحاورة، والمقصود هنا ما له مزيد مناسبة بقوله تعالى)ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(الآيات.

وجواب شرط)وإن تجهر بالقول(محذوف يدل عليه قوله)فإنه يعلم السر وأخفى(. والتقدير: فلا تشق على نفسك فإن الله يعلم السر وأخفى. أي فلا مزية للجهر به.

وبهذا تعلم أن ليس مساق الآية لتعليم الناس كيفية الدعاء، فقد ثبت في السنة الجهر بالدعاء والذكر، فليس من الصواب فرض تلك المسألة هنا إلا على معنى الإشارة.

وأخفى: اسم تفضيل، وحذف المفضل عليه لدلالة المقام عليه، أي وأخفى من السر. والمراد بأخفى منه: ما يتكلم اللسان من حديث النفس ونحوه من الأصوات التي هي أخفى من كلام السر.

)الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى[8](تذييل لما قبله لأن ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته.

واسم الجلالة خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: هو الله، جريا على ما تقدم عند قوله تعالى)الرحمان على العرش استوى(.

وجملة)لا إله إلا هو(حال من اسم الجلالة. وكذلك جملة)له الأسماء الحسنى(.

والأسماء: الكلمات الدالة على الاتصاف بحقائق. وهي بالنسبة إلى الله: إما علم وهو اسم الجلالة خاصة. وإما وصف مثل الرحمان والجبار وبقية الأسماء الحسنى.

وتقديم المجرور في قوله)له الأسماء الحسنى(للاختصاص. أي لا لغيره لأن غيره إما أن يكون اسمه مجردا من المعاني المدلولة للأسماء مثل الأصنام، وإما أن تكون حقائقها فيه غير بالغة منتهى كمال حقيقتها كاتصاف البشر بالرحمة والملك، وإما أن يكون الاتصاف بها كذبا لا حقيقة، كاتصاف البشر بالكبر، إذ ليس أهلا للكبر والجبروت والعزة.

ووصف)الأسماء(ب)الحسنى(لأنها دالة على حقائق كاملة بالنسبة إلى المسمى بها تعالى وتقدس. وذلك ظاهر في غير اسم الجلالة، وأما في اسم الجلالة الذي هو الاسم العلم فلأنه مخالف للأعلام من حيث إنه في الأصل وصف دال على الانفراد بالإلهية لأنه دال على الإله، وعرف باللام الدالة على انحصار الحقيقة عنده. فكان جامعا لمعنى وجوب الوجود، واستحق العبادة لوجود أسباب استحقاقها عنده.

صفحة : 2631

وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى)ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها(في سورة الأعراف.

)وهل أتيك حديث موسى[9] إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى[10] (أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أنزل عليه يذكر قصة موسى عليه السلام ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب.

وتسلية له بأن الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم من المكذبين، ولذلك جاء في عقب قصة موسى قوله تعالى)وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه(. وجاء بعد ذكر قصة آدم وأنه لم يكن له عزم)فاصبر على ما يقولون(الآيات.

فجملة)وهل أتاك حديث موسى(عطف على جملة)ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(. الغرض هو مناسبة العطف كما تقدم قريبا وهذه القصة تقدم بعضها في سورة الأعراف وسورة يونس.

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا وليس مستعملا في حقيقته سواء كانت هذه القصة قد قصت على النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أم كان هذا أول قصصها عليه. وفي قوله)إذ رأى نارا(زيادة في التشويق كما يأتي قريبا.

وأوثر حرف)هل(في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق لأن) هل(في الاستفهام مقل)قد(في الإخبار.

والحديث: الخبر. وهو اسم للكلام الذي يحكى به أمر حدث في الخارج، ويجمع على أحاديث على غير قياس. قال الفراء: واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعا للحديث اه. يعني استغنوا به عن صيغة فعلاء.

و)إذ(ظرف الحديث. وقد تقدم نظائره. وخص هذا الظرف بالذكر لأنه يزيد تشويقا إلى استعلام كنه الخبر، لأن رؤية النار تحتمل أحوالا كثيرة.

ورؤية النار تدل على أن ذلك كان بليل، وأنه كان بحاجة إلى النار، ولذلك فرع عليه:)فقال لأهله امكثوا...(الخ.

والأهل: الزوج والأولاد. وكانوا معه بقرينة الجمع في قوله)امكثوا(. وفي سفر الخروج من التوراة فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر .

وقرأ الجمهور بكسر هاء ضمير)أهله(على الأصل. وقرأه حمزة، وخلف بضم الهاء تبعا لضمة همزة الوصل في)امكثوا(.

والإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه.

وتأكيد الخبر ب)إن(لقصد الاهتمام به بشارة لأهله إذ كانوا في الظلمة.

والقبس: ما يؤخذ اشتعاله من اشتعال شيء ويقبس، كالجمرة من مجموع الجمر والفتيلة ونحو ذلك، وهذا يقتضي أنه كان في ظلمة ولم يجد ما يقتدح به. وقيل: اقتدح زنده فصلد، أي لم يقدح.

ومعنى)أو أجد على النار هدى(: أو ألقى عارفا بالطريق قاصدا السير فيما أسير فيه فيهديني إلى السبيل. قيل: كان موسى قد خفي عليه الطريق من شدة الظلمة وكان يحب أن يسير ليلا.

و)أو(هنا للتخيير، لأن إتيانه بقبس أمر محقق، فهو إما أن يأخذ القبس لا غير. وإما أن يزيد فيجد صاحب النار قاصدا الطريق مثله فيصحبه.

وحرف)على(في قوله) أو أجد على النار هدى(مستعمل في الاستعلاء المجازي، أي شدة القرب من النار قربا أشبه الاستعلاء، وذلك أن مشعل النار يستدني منها للاستنارة بضوئها أو للاصطلاء بها. قال الأعشى:

وبات على النار الندى والمحلق وأراد بالهدى صاحب الهدى.

وقد أجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة إلهاما إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيما، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم.

وإظهار النار لموسى رمز رباني لطيف؛ إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي باستدعاء بنور في ظلمة رمزا على أنه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد.

)فلما أتيها نودي يا موسى[11] إني أنا ربك فخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى[12] وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى[13](

بني فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة، فإبهام المنادي يشوق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه)إني أنا ربك(علم أن المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن. ولأنه أدخل في تصوير تلك الحالة بأن موسى ناداه مناد غير معلوم له، فحكي نداؤه بالفعل المبني للمجهول.

وجملة)إني أنا ربك(بيان لجملة)نودي(. وبهذا النداء علم موسى أن الكلام موجه إليه من قبل الله تعالى لأنه كلام غير معتاد والله تعالى لا يغير العوائد التي قررها في الأكوان إلا لإرادة الإعلام بأن له عناية خاصة بالمغير، فالله تعالى خلق أصواتا خلقا غير معتاد غير صادرة عن شخص مشاهد، ولا موجهة له بواسطة ملك يتولى هو تبليغ الكلام لأن قوله)إني أنا ربك(ظاهر في أنه لم يبلغ إليه ذلك بواسطة الملائكة، فلذلك قال الله تعالى)وكلم الله موسى تكليما(، إذ علم موسى أن تلك الأصوات دالة على مراد الله تعالى. والمراد التي تدل عليه تلك الأصوات الخارقة للعادة هو ما نسميه بالكلام النفسي. وليس الكلام النفسي هو الذي سمعه موسى لأن الكلام النفسي صفة قائمة بذات الله تعالى منزه عن الحروف والأصوات والتعلق بالأسماع.

والإخبار عن ضمير المتكلم بأنه رب المخاطب لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبة فإن شأن الرب الرفق بالمربوب.
وتأكيد الخبر بحرف)إن(لتحقيقه لأجل غرابته دفعا لتطرق الشك عن موسى في مصدر هذا الكلام.
وقرأ أبو عمرو وابن كثير)أني(بفتح الهمزة على حذف باء الجر. والتقدير: نودي بأني أنا ربك. والتأكيد حاصل على كلتا القراءتين.
وتفريع الأمر بخلع النعلين على الإعلام بأنه ربه إشارة إلى أن ذلك المكان قد حله التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه.
والخلع: فصل شيء عن شيء كان متصلا به.
والنعلان: جلدان غلظان يجعلان تحت الرجل ويشدان برباط من جلد لوقاية الرجل ألم المشي على التراب والحصى، وكانت النعل تجعل على مثال الرجل.
وإنما أمره الله بخلع نعليه تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي. وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كانت نعلاه من جلد حمار ميت . أقول: وفيه أيضا زيادة خشوع. وقد اقتضى كلا المعنيين قوله تعالى)إنك بالواد المقدس(. فحرف التوكيد مفيد هنا التعليل كما هو شأنه في كل مقام لا يقتضي التأكيد. وهذه خصوصية من جهات فلا يؤخذ منها حكم يقتضي نزع النعل عند الصلاة.
والواد: المفرج بين الجبال والتلال. وأصله بياء في آخره. وكثر تخفيفه بحذف الياء كما في هذه الآية فإذا ثني لزمته الياء يقال: واديان ولا يقال وادان، وكذلك إذا أضيف يقال: بواديك ولا يقال بوادك.
والمقدس: المطهر المنزه. وتقدم في قوله تعالى)ونقدس لك(في أول البقرة. وتقديس الأمكنة يكون بما يحل فيها من الأمور المعظمة وهو هنا حلول الكلام الموجه من قبل الله تعالى.
واختلف المفسرون في معنى)طوى(وهو بضم الطاء وبكسرها ، ولم يقرأ في المشهور إلا بضم الطاء ، فقيل: اسم لذلك المكان، وقيل: هو اسم مصدر مثل هدى، وصف بالمصدر بمعنى اسم المفعول، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة، كأنه قيل له: إنك بالواد المقدس الذي طويته سيرا، فيكون المعنى تعيين أنه هو ذلك الواد. وأحسن منه على هذا الوجه أن يقال هو أمر لموسى بأن يطوي الوادي ويصعد إلى أعلاه لتلقي الوحي. وقد قيل: إن موسى صعد أعلى الوادي. وقيل: هو بمعنى المقدس تقديسين، لأن الطي هو جعل الثوب على شقين. ويجيء على هذا الوجه أن تجعل التثنية كناية عن التكرير والتضعيف مثل)ثم ارجع البصر كرتين(.

فالمعنى: المقدس تقديسا شديدا. فاسم المصدر مفعول مطلق مبين للعدد، أي المقدس تقديسا مضاعفا.
والظاهر عندي: أن)طوى(اسم لصنف من الأدوية يكون ضيقا بمنزلة الثوب المطوي أو غائرا كالبئر المطوية، والبئر تسمى طويا. وسمي واد بظاهر مكة ذا طوى بتثليث الطاء، وهو مكان يسن للحاج أو المعتمر القادم إلى مكة أن يغتسل عنده.
وقد اختلف في)طوى(هل ينصرف أو يمنع من الصرف بناء على أنه اسم أعجمي أو لأنه معدول عن طاو، مثل عمر عن عامر.
وقرأ الجمهور طوى بلا تنوين على منعه من الصرف.

وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف منونا، لأنه اسم واد مذكر.
وقوله)وأنا اخترتك(أخبر عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم، لأن المقام ليس مقام إفادة التخصيص، أي الحصر نحو: أنا سعيت في حاجتك، وهو يعطي الجزيل. وموجب التقوي وغرابة الخبر ومفاجأته به دفعا لتطرق الشك في نفسه.
والاختيار: تكلف طلب ما هو خير. واستعملت صيغة التكلف في معنى إجادة طلب الخير.
وفرع على الإخبار باختياره أن أمر بالاستماع للوحي لأنه أثر الاختيار إذ لا معنى للاختيار إلا اختياره لتلقي ما سيوحي الله.
والمراد: ما يوحي إليه حينئذ من الكلام، وأما ما يوحي إليه في مستقبل الأيام فكونه مأمورا باستماعه معلوم بالأحرى.
وقرأ حمزة وحده)وأنا اخترناك(بضميري التعظيم.
واللام في)لما يوحى(للتقوية في تعدية فعل)استمع(إلى مفعوله، فيجوز أن تتعلق ب)اخترتك(، أي اخترتك للوحي فاستمع، معترضا بين الفعل والمتعلق به. ويجوز أن يضمن استمع معنى أصغ.
)إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري[14] إن الساعة آتية أكاد أخفها لتجزى كل نفس بما تسعى[15] فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هويه فتردى[16](هذا ما يوحى المأمور باستماعه. فالجملة بدل من)ما يوحى(بدلا مطابقا.
ووقع الأخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد. وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علما عليه

لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم.
وفي هذا إشارة إلى أن أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمه وعلم كليمه اسمه، وهو الله.
وهذا الاسم هو علم الرب في اللغة العربية. واسمه تعالى في اللغة العبرانيه يهوه أو أهيه المذكور في الإصحاح الثالث من سفر الخروج في التوراة، وفي الإصحاح السادس. وقد ذكر اسم) الله(في مواضع من التوراة مثل الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج في الفقرة السادسة عشرة. ولعله من تعبير المترجمين وأكثر تعبير التوراة إنما هو الرب أو الإله.
ولفظ أهية أو يهوه قريب الحروف من كلمة إله في العربية.
ويقال: إن اسم الجلالة في العبرانية لاهم . ولعل الميم في آخره هي أصل التنوين في إله.
وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لدفع الشك عن موسى، نزل منزلة الشاك لأن غرابة الخبر تعرض السامع للشك فيه.
وتوسيط ضمير الفصل بقوله)إنني أنا الله(لزيادة تقوية الخبر،وليس بمفيد للقصر، إذ لا مقتضى له هنا لأن المقصود الإخبار بأن المتكلم هو المسمى الله، فالحمل حمل مواطاة لا حمل اشتقاق. وهو كقوله تعالى)لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم.
وجملة)لا أله إلا أنا(خبر ثان عن اسم)إن(. والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.
ثم فرع على ذلك الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب. ووجه التفريع أن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يعبد.
وخص من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأن الصلاة تجمع أحوال العبادة. وإقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها.
والذكر يجوز أن يكون التذكير بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان.
واللام في)لذكري(للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأن الصلاة تذكر العبد بخالقه. إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته. ففي هذا الكلام إيماء إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى)إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر(يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة لأن المكلف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه والله

عرف موسى حكمة الصلاة مجملة وعرفها محمدا صلى الله عليه وسلم مفصلة.

صفحة : 2634

ويجوز أن يكون اللام أيضا للتوقيت، أي أقسم الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري. ويجوز أن يكون الذكر الذكر اللساني لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق، أي الذي عينته لك. ففي الكلام إيماء إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة. وفي الكلام حذف يعلم من السياق.
وجملة)إن الساعة آتية(مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.
والساعة: علم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب.
وجملة)أكاد أخفيها(في موضع الحال من)الساعة(، أو معترضة بين جملة وعلتها.
والإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.
والمشهور في الاستعمال أن)كاد(تدل على مقاربة وقوع الفعل المخبر به عنها، فالفعل بعدها في حيز الانتفاء، فقوله تعالى)كادوا يكونون عليه لبدا(يدل على أن كونهم لبدا غير واقع ولكنه اقترب من الوقوع.
ولما كانت الساعة مخفية الوقوع، أي مخفية الوقت، كان قوله) أكاد أخفيها(غير واضح المقصود، فاختلفوا في تفسيره على وجوه كثيرة أمثلها ثلاثة.
فقيل: المراد إخفاء الحديث عنها، أي من شدة إرادة إخفاء وقتها، أي يراد ترك ذكرها ولعل توجيه ذلك أن المكذبين بالساعة لم يزدهم تكرر ذكرها في القرآن إلا عنادا على إنكارها.
وقيل: وقعت)أكاد(زائدة هنا بمنزلة زيادة)كان(في بعض المواضع تأكيدا للإخفاء. والمقصود: أنا أخفيها فلا تأتي إلا بغتة.
وتأول أبو علي الفارسي معنى)أخفيها(بمعنى)أظهرها(.
وقال: همزة أخفيها للإزالة مثل همزة أعجم الكتاب، وأشكى زيدا، أي أزيل خفاءها. والخفاء: ثوب تلف فيه القربة مستعار للستر.
فالمعنى: أكاد أظهرها، أي أظهر وقوعها، أي وقوعها قريب. وهذه الآية من غرائب استعمال كاد فيضم إلى استعمال نفيها في قوله)وما كادوا يفعلون(في سورة البقرة.

وقوله)لتجزي(يتعلق ب)آتية(وما بينهما اعتراض. وهذا تعليم بحكمة جعل يوم للجزاء.
واللام في)لتجزى كل نفس(متعلق ب)آتية(.
ومعنى)بما تسعى(بما تعمل، فإطلاق السعي على العمل مجاز مرسل، كما تقدم في قوله)ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها(في سورة الإسراء.
وفرع على كونها آتية وأنها مخفاة التحذير من أن يصده عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغترارا بتأخر ظهورها، فالتفريع على قوله)أكاد أخفيها(أوقع لأن ذلك الإخفاء هو الذي يشبه به الذين أنكروا البعث على الناس، قال تعالى)فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا(وقال)وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين(.
وصيغ نهي موسى عن الصد عنها في صيغة نهي من لا يؤمن بالساعة عن أن يصد موسى عن الإيمان بها، مبالغة في نهي موسى عن أدنى شيء يحول بينه وبين الإيمان بالساعة، لأنه لما وجه الكلام إليه وكان النهي نهي غير المؤمن عن أن يصد موسى، علم أن المراد نهي موسى عن ملابسة صد الكافر عن الإيمان بالساعة، إي لا تكن لين الشكيمة لمن يصدك ولا تصغ إليه فيكون لينك له مجرئا إياه على أن يصدك، فوقع النهي عن المسبب. والمراد النهي عن السبب، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا ولا أرينك هاهنا.
وزيادة)واتبع هواه(للإيماء بالصلة إلى تعليل الصد، أي لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة كما أشار إليه قوله)لتجزى كل نفس بما تسعى(.
وفرع على النهي أنه إن صد عن الإيمان بالساعة ردي، أي هلك. والهلاك مستعارا لأسوأ الحال كما في قوله تعالى)يهلكون أنفسهم(في سورة براءة.
والتفريع ناشئ على ارتكاب المنهي لا على النهي. ولذلك جيء بالتفريع بالفاء ولم يقع بالجزاء المجزوم، فلم يقل: ترد، لعدم صحة حلول)إن(مع)لا(عوضا عن الجزاء. وذلك ضابط صحة جزم الجزاء بعد النهي.

وقد جاء خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام بطريقة الاستدلال على كل حكم، وأمر أو نهي، فابتدئ بالإعلام بأن الذي يكلمه هو الله، وأنه لا إله إلا هو، ثم فرع عليه الأمر في قوله) فاعبدني وأقم الصلاة لذكري(، ثم عقب بإثبات الساعة، وعلل بأنها لتجزي كل نفس بما تسعى، ثم فرع عليه النهي عن أن يصده عنها من لا يؤمن بها، ثم فرع على النهي أنه إن ارتكب ما نهي عنه هلك وخسر.

)وما تلك بيمينك يا موسى[17] قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى[18] قال ألقها يا موسى[19] فألقيها فإذا هي حية تسعى[20] قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى[21](بقية ما نودي به موسى. والجملة معطوفة على الجمل قبلها انتقالا إلى محاورة أراد الله منها أن يري موسى كيفية الاستدلال على المرسل إليهم بالمعجزة العظيمة، هي انقلاب العصا حية تأكل الحيات التي يظهرونها.

وإبراز انقلاب العصا حية في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشك عن أن يتطرقه لو أمره بذلك دون تجربة لأن مشاهد الخوارق تسارع بالنفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها وتدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دل عليه قوله بعد ذلك)لنريك من آياتنا الكبرى(.

فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه، وبينت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله)بيمينك(، ووقع الظرف حالا من اسم الإشارة، أي ما تلك حال كونها بيمينك؟.

ففي هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسؤول عنه جريا على الظاهر، وببيان بعض منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: أي يوم هذا؟ سكت الناس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. وفي رواية أنهم قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: أليس يوم الجمعة؟.. إلى آخره.

فابتدأ موسى ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه، وتوقع أن السؤال عنه توسل لتطلب بيان وراءه، فقال:)هي عصاي(، بذكر المسند إليه، مع أن غالب الاستعمال حذفه في مقام السؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول: عصاي. فلما قال)هي عصاي(كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الإخبار، كما يقول سائل لما رأى رجلا يعرفه وآخر لا يعرفه: من هذا معك؟ فيقول. فلان، فإذا لقيهما مرة أخرى وسأله: من هذا معك؟ أجابه: هو فلان، ولذلك عقب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل فقال:)أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى(. ففصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده.

والباء في قوله)بيمينك(للظرفية أو الملابسة.

والتوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.

والهش: الخبط ، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وأصله متعد إلى الشجرة فلذلك ضمت عينه في المضارع، ثم كثر حذف مفعوله وعدي إلى ما لأجله يوقع الهش ب)على(لتضمين) أهش(معنى أسقط. على غنمي الورق فتأكله، أو استعملت على بمعنى الاستعلاء المجازي كقولهم: هو وكيل على فلان.

صفحة : 2636

ومآرب: جمع مأربة، مثلث الراء: الحاجة، أي أمور احتاج إليها. وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس. وقد أفرد الجاحظ من كتاب البيان والتبيين بابا لمنافع العصا. ومن أمثال العرب: هو خير من تفارق العصا . ومن لطائف معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث.

والظاهر أن قوله)مآرب أخرى(حكاية لقول موسى بمماثله، فيكون إيجازا بعد الإطناب، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد العصا. ويجوز أن يكون حكاية لقول موسى بحاصل معناه، أي عد منافع أخرى، فالإيجاز من نظم القرآن لا من كلام موسى عليه السلام .

والضمير المشترك في)قال ألقها(عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات من التكلم الذي في قوله)إنني أنا الله(؛ دعا إلى الالتفات وقوع هذا الكلام حوارا مع قول موسى)هي عصاي..(إلخ.
وقوله)ألقها(يتضح به أن السؤال كان ذريعة إلى غرض سيأتي، وهو القرينة على أن الاستفهام في قوله)وما تلك بيمينك(مستعمل في التنبيه إلى أهمية المسؤول عنه كالذي يجيء في قوله)وما أعجلك عن قومك يا موسى(.
والحية: اسم لصنف من الحنش مسموم إذا عض بنابيه قتل المعضوض، ويطلق على الذكر.
ووصف الحية ب)تسعى(لإظهار أن الحياة فيها كانت كاملة بالمشي الشديد. والسعي: المشي الذي فيه شدة، ولذلك خص غالبا بمشي الرجل دون المرأة.
وأعيد فعل)قال خذها(بدون عطف لوقوعه في سياق المحاورة.
والسيرة في الأصل: هيئة السير، وأطلقت على العادة والطبيعة، وانتصب)سيرتها(بنزع الخافض، أي سنعيدها إلى سيرتها الأولى التي كانت قبل أن تنقلب حية، أي سنعيدها عصا كما كانت أول مرة.
والغرض من إظهار ذلك لموسى أن يعرف أن العصا تطبعت بالانقلاب حية، فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لئلا يحتاج حينئذ إلى وحي.
)واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى[22] لنريك من آيتنا الكبرى[23](هذه معجزة أخرى علمه الله إياها حتى إذا تحدى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة. فهذا تمرين على معجزة ثانية متحد الغرض مع إلقاء العصا.
والجناح: العضد وما تحته إلى الإبط ، أطلق عليه ذلك تشبيها بجناح الطائر.
والضم: الإلصاق، أي ألصق يدك اليمنى التي كنت ممسكا بها العصا. وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه بأن يدخلها في جيب قميصه حتى تماس بشرة جنبه، كما في آية سورة سليمان) وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء(. جعل الله تغير لون جلد يده عند مماستها جناحه تشريفا لأكثر ما يناسب من أجزاء حسمه بالفعل والانفعال.
و)بيضاء(حال من ضمير)تخرج(، و)من غير سوء(حال من ضمير) بيضاء(.
ومعنى)من غير سوء(من غير مرض مثل البرص والبهق بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها المماثل لون بقية بشرته. وانتصب) آية(على الحال من ضمير)تخرج(.

والتعليل في قوله)لنريك من آياتنا الكبرى(راجع إلى قوله)تخرج بيضاء(، فاللام متعلقة ب)تخرج(لأنه في معنى نجعلها بيضاء فتخرج بيضاء أو نخرجها لك بيضاء. وهذا التعليل راجع إلى تكرير الآية، أي كررنا الآيات لنريك بعض آياتنا فتعلم قدرتنا على غيرها، ويجوز أن يتعلق)لنريك(بمحذوف دل عليه قوله)ألقها(وما تفرع عليه. وقوله)واضمم يدك إلى جناحك(وما بعده، وتقدير المحذوف: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا.

و)من آياتنا(في موضع المفعول الثاني ل)نريك(، فتكون)من(فيها سما بمعنى بعض على رأي التفتزاني. وتقدم عند قوله تعالى)من الناس من يقول آمنا بالله(في سورة البقرة، ويسير إليه كلام الكشاف هنا.

و)الكبرى(صفة ل)آياتنا(. والكبر: مستعار لقوة الماهية. أي آياتنا القوية الدلالة على قدرتنا أو على أنا أرسلناك.

صفحة : 2637

)اذهب إلى فرعون إنه طغى[24] قال رب اشرح لي صدري[25] ويسر لي أمري[26] واحلل عقدة من لساني[27] يفقهوا قولي[28] واجعل لي وزيرا من أهلي[29] هارون أخي[30] اشدد به أزري[31] وأشركه في أمري[32] كي نسبحك كثيرا[33] ونذكرك كثيرا[34] إنك كنت بنا بصيرا[35] قال قد أوتيت سؤلك يا موسى[36](لما أظهر الله له الآيتين فعلم بذلك أنه مؤيد من الله تعالى، أمره الله بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يدخل الروع في نفس المأمور به وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله، وقد جاء في الآيات الآتية)قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى(.

والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرح له به وطوى ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أن التعليل الواقع بعد ينبئ به.

فجملة)إنه طغى(تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغيره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطاءه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة.

وحكي جواب موسى عن كلام الرب بفعل القول غير معطوف جريا على طريقة المحاورات.
ورتب موسى الأشياء المسؤولة في كلامه على حسب ترتيبها في الواقع على الأصل في ترتيب الكلام ما لم يكن مقتض للعدل عنه.
فالشرح، حقيقته: تقطيع ظاهر شيء لين. واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره أو توجب تردده في الإقدام على عمل ما تشبيها بتشريح اللحم بجامع التوسعة.
والقلب: يراد به في كلامهم والعقل فالمعنى: أزل عن فكري الخوف ونحوه، مما يعترض الإنسان من عقبات تحول بينه وبين الانتفاع بإقدامه وعزامته، وذلك من العسر، فسأل تيسير أمره، أي إزالة الموانع الحافة بما كلف به.
والأمر هنا: الشأن، وإضافة)أمر(إلى ضمير المتكلم لإفادة مزيد اختصاصه به وهو أمر الرسالة كما في قوله الآتي)وأشركه في أمري(.
والتيسير: جعل الشيء يسيرا، أي ذا يسر. وقد تقدم عند قوله تعالى)يريد الله بكم اليسر(في البقرة.
ثم سأل سلامة آلة التبليغ وهو اللسان بأن يرزقه فصاحة التعبير والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبه حبسه السان بالعقدة في الحبل أو الخيط ونحوهما لأنها تمنع سرعة استعماله.
والعقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه، وهي بزنة فعلة بمعنى مفعول كقصة وغرفة، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة وهي استعارة مصرحة، ويقال لها حبسة. يقال: عقد اللسان كفرح، فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام. واستعار لإزالتها فعل الحل المناسب العقدة على طريقة الاستعارة المكنية.
وزيادة)لي(بعد)اشرح(وبعد)يسر(إطناب كما أشار إليه صاحب المفتاح لأن الكلام مفيد بدونه. ولكن سلك الإطناب لما تفيده اللام من معنى العلة، أي اشرح صدري لأجلي ويسر أمري لأجلي، وهي اللام الملقبة لام التبيين التي تفيد تقوية البيان، فإن قوله)صدري و أمري(واضح أن الشرح والتيسير متعلقان به فكان قوله)لي(فيها زيادة بيان كقوله)ألم نشرح لك صدرك(وهو هنا ضرب من الإلحاح في الدعاء لنفسه.
وأما تقديم هذا المجرور على متعلقه فليحصل الإجمال ثم التفصيل فيفيد مفاد التأكيد من أجل تكرر الإسناد.
ولم يأت بذلك مع قوله)واحلل عقدة من لساني(لأن ذلك سؤال يرجع إلى رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين.

وتنكير)عقدة(للتعظيم، أي عقدة شديدة.
و)من لساني(صفة ل)عقدة(. وعدل عن أن يقول: عقدة لساني، بالإضافة ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة.

صفحة : 2638

وفعل)يفقهوا(مجزوم في جواب الأمر على الطريقة المتبعة في القرآن من جعل الشيء المطلوب بمنزلة الحاصل عقب الشرط كقوله تعالى)قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم(أي إن نقل لهم غضوا يغضوا، أي شأنهم الامتثال. والفقه: الفهم.
والوزير: فعيل بمعنى فاعل، من وازر على غير قياس، مثل حكيم من أحكم، وهو مشتق من الأزر، وهو المعونة، والمؤازرة كذلك، والكل مشتق من الأزر، أي الظهر، كما سيأتي قريبا، فحقه أن يكون أزيرا بالهمزة إلا أنهم قلبوا همزته واو حملا على موازر الذي هو بمعناه الذي قلبت همزته واو الانضمام ما قبلها.فلما كثر في الكلام قولهم: موازر ويوازر بالواو نطقوا بنظيره في المعنى بالواو بدون موجب للقلب إلا الحمل على النظير في النطق، أي اعتياد النطق بهمزته واوا، أي جعل معينا من أهلي.
وخص هارون لفرط ثقته به ولأنه كان فصيح اللسان مقوالا، فكونه من أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاص لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي.
وجملة)اشدد به أزري(على قراءة الجمهور بصيغة الأمر في فعلي)اشدد، وأشرك(بيان لجملة)اجعل لي وزيرا(.سأل الله أن يجعله معينا له في أعماله، وسأله أن يأذن له بأن يكون شريكا لموسى في أمره، أي أمر رسالته.
وقرأ ابن عامر بصيغة المتكلم بفتح الهمزة المقطوعة في)أشدد(وبضم همزة)أشركه(. فالفعلان إذن مجزومان في جواب الدعاء كما جزم)يفقهوا قولي(.
و)هارون(مفعول أول لفعل)اجعل(، قدم عليه المفعول الثاني للاهتمام.
والشد: الإمساك بقوة.
والأزر: أصله الظهر. ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوة إطلاقا شائعا يساوي الحقيقة فقيل الأزر للقوة.

وقيل: آزره إذا أعانه وقواه. وسمي الإزار إزارا لأنه يشد به الظهر، وهو في الآية مراد به الظهر ليناسب الشد، فيكون الكلام تمثيلا لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه وشاده.

وعلل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبحا الله كثيرا ويذكر الله كثيرا. ووجه ذلك أن فيما سأله لنفسه تسهيلا لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها،وذلك مظنة تكثيرها.

وأيضا فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضا على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح، وفي العودة حث على العمل بوصايا الله تعالى عباده، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتقوى. وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترى إلى قوله تعالى بعد هذه الآيات)اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري(، أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة، فلا جرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيهما وذكرهما الله.

وأيضا في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العمل الضروري لحياتهما فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ.

والذي ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمه بشدة فرعون وطغيانه ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم، فعلم أن في دعوته فتنه للداعي فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة ليتوفر للتسبيح والذكر كثيرا.

وجملة)إنك كنت بنا بصيرا(تعليل لسؤاله شرح صدره وما بعده، أي لأنك تعلم حالي وحال أخي، وأني ما دعوتك بما دعوت إلا لأننا محتاجان لذلك ، وفيه تفويض إلى الله تعالى بأنه أعلم بما فيه صلاحهم، وأنه ما سأل سؤاله إلا بحسب ما بلغ إليه علمه.

وقوله)قال قد أويت سؤالك يا موسى(وعد له بالإجابة،وتصديق له فيما توسمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه.

والسؤال بمعنى المسؤول. وهو وزن فعل بمعنى مفعول كالخبر بمعنى المخبوز، والأكل بمعنى المأكول. وهذا يدل على أن العقدة زالت عن لسانه، ولذلك لم يحك فيما بعد أنه أقام هارون بمجادلة فرعون. ووقع في التوراة في الإصحاح السابع من سفر الخروج:) فقال الرب لموسى أنت تتكلم بكل ما أمرك به وهارون أخوك يكلم فرعون.

)ولقد مننا عليك مرة أخرى[37] إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى[38] أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له(جملة)ولقد مننا عليك(معطوفة على جملة)قد أويت سؤلك(لأن جملة)قد أوتيت سؤلك(تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه. فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيدا في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم)ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى(.

وتأكيد الخبر بلام القسم و)قد(لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى)قد أوتيت سؤلك(.

والمرة: فعلة من المرور، غلبت على معنى الفعلة الواحدة من عمل معين يعرف بإضافة أو بدلالة المقام. وقد تقدمت عند قوله تعالى)وهم بدأوكم أول مرة(في سورة براءة. وانتصاب)مرة(هنا على المفعولية المطلقة لفعل)مننا(، أي مرة من المن. ووصفها ب)أخرى(هنا باعتبار أنها غير هذه المنة.

و)إذا(ظرف للمنة.

والوحي، هنا: وحي الإلهام الصادق. وهو إيقاع معنى في النفس ينثلج له نفس الملقى إليه بحيث يجرم بنجاحه فيه وذلك من توفيق الله تعالى. وقد يكون بطريق الرؤيا الصالحة التي يقذف في نفس الرائي أنها صدق.

و)ما يوحى(موصول مفيد أهمية ما أوحي إليها. ومفيد تأكيد كونه إلهاما من قبل الحق.

و)أن(تفسير لفعل)أوحينا(لأنه معنى القول دون حروفه أو تفسير ل)يوحى(.

والقذف: أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المخفي عمله. فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه.

والتابوت: الصندوق. وتقدم عند قوله تعالى)إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت(في سورة البقرة.
واليم: البحر، والمراد به نهر النيل.

والساحل: الشاطئ، ولام الأمر في قوله)فليلقه(دالة على أمر التكوين، أي سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل، ولا يبتعد به إلى مكان بعيد، والمراد ساحل معهود، وهو الذي بقصده آل فرعون للسباحة.
والضمائر الثلاثة المنصوبة يجوز أن تكون عائدة إلى موسى لأنه المقصود وهو حاضر في ذهن أمه الموحى إليها، وقذفه في التابوت وفي اليم وإلقاؤه في الساحل كلها أفعال متعلقة بضميره، إذ لا فرق في فعل الإلقاء بين كونه مباشرا أو في ضمن غيره، لأنه هو المقصود بالأفعال الثلاثة. ويجوز جعل الضميرين الأخيرين عائدين إلى التابوت ولا لبس في ذلك.

وجزم)يأخذه(في جواب الأمر على طريقة جزم قوله)يفقهوا قولي(المتقدم آنفا.
والعدو: فرعون، فهو عدو الله لأنه انتحل لنفسه الإلهية، وعدو موسى تقديرا في المستقبل، وهو عدوه لو علم أنه من غلمان إسرائيل لأنه اعتزم على قتل أبنائهم.
)وألقيت عليك محبة مني(عطف على جملة)أوحينا(أي حين أوحينا أي حين أو حينا إلى أمك ما كان به سلامتك من الموت، وحين ألقيت عليك محبة لتحصل السرقة لواجدة في اليم، فيحرص على حياته ونمائه ويتخذه ولدا كما جاء في الآية الأخرى)وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه(؛ لأن فرعون قد غلب على ظنه أنه من غلمان إسرائيل وليس من أبناء القبط، أو لأنه يخطر بباله الأخذ بالاحتياط.
وإلقاء المحبة مجاز في تعلق المحبة به، أي خلق المحبة في قلب المحب بدون سبب عادي حتى كأنه وضع باليد لا مقتضى له في العادة.
ووصف المحبة بأنها من الله للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع، ألا ترى قول امرأة فرعون)عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا(مع قولها)قرة عين لي ولك(. فكان قرة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولدا.

)ولتصنع على عيني[39] إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن(جملة)ولتصنع على عيني(عطف على جملة)إذ أوحينا إلى أمك(الخ. جعل الأمران إتماما لمنة واحدة لأن إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلا إذا أنجاه من الموت بالذبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولي تربيته من لا يشفق عليه الشفقة الجبلية.
والتقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله لأجل أن تصنع على عيني.
والصنع: مستعار للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان.
وأخت موسى: مريم ابنة عمران. وفي التوراة: أنها كانت نبية كما في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج. وتوفيت مريم سنة ثلاث من خروج بني إسرائيل من مصر في برية صين كما في الإصحاح التاسع عشر من سفر العدد. وذلك سنة 1417 قبل المسيح.
وقرأه الجمهور بكسر اللام على أنها لام كي وبنصب فعل)تصنع(, وقرأه أبو جعفر بسكون اللام على أنها لام الأمر ويجزم الفعل على أنه أمر تكويني، أي وقلنا: لتصنع.
وقوله)على عيني( )على(منه للاستيلاء المجازي، أي المصاحبة المتمكنة، ف)على(هنا بمعنى باء المصاحبة قال تعالى)فإنك بأعيننا(.
والعين: مجاز في المراعاة والمراقبة كقوله تعالى)واصنع الفلك بأعيننا(، وقول النابغة:

عهدتك ترعاني بعين بصيرة وتبعث

حراسا علي وناظرا ووقع اختصار في حكاية قصة مشي أخته، وفصلت في سورة القصص.
والاستفهام في)هل أدلكم(للعرض. وأرادت ب)من يكلفه(أمه. فلذلك قال)فرجعناك إلى أمك(.
وهذه منة عليه لإكمال نمائه، وعلى أمه بنجاته فلم تفارق ابنها إلا ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها.
وعطف نفي الحزن على قرة العين لتوزيع المنة، لأن قرة عينها برجوعه إليها، وانتفاء حزنها بتحقيق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى. وتقديم قرة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن؛ روعي فيه مناسبة تعقيب)فرجعناك إلى أمك(بما فيه من الحكمة، ثم أكمل بذكر الحكمة في مشي أخته فتقول)هل أدلكم على من يكلفه(في بيتها، وكذلك كان شأن المراضع ذوات الأزواج كما جاء في حديث حليمة، وكذلك ثبت في التوراة في سفر الخروج.

)وقتلت نفسا فنجينك من الغم وفتنك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى[40] واصطنعتك لنفسي[41] (فجملة)وقتلت(عطف على جملة)ولقد مننا عليك مرة أخرى(لأن المذكور في جملة)وقتلت نفسا(منة أخرى ثالثة.

وقدم ذكر قتله النفس على ذكر الإنجاء من الغم لتعظيم المنة، حيث افتتحت القصة بذكر جناية عظيمة التبعة، وهي قتل النفس ليكون لقوله)فنجيناك(موقع عظيم من المنة، إذ أنجاه من عقوبة لا ينجو من مثلها مثله.

وهذه النفس هي نفس القبطي من قوم فرعون الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل في المدينة فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره فوكز موسى القبطي فقضى عليه كما قص ذلك في سورة القصص.

والغم: الحزن. والمعني به ما خامر موسى من خوف الاقتصاص منه، لأن فرعون لما بلغه الخبر أضمر الاقتصاص من موسى للقبطي إذ كان القبط سادة الإسرائيليين، فليس اعتداء إسرائيلي على قبطي بهين بينهم. ويظهر أن فرعون الذي تبنى موسى كان قد هلك قبل ذلك.

والفتون: مصدر فتن، كالخروج، والثبور، والشكور، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو)فتناك(، وتنكيره للتعظيم، أي فتونا قويا عظيما.

والفتون كالفتنة: هو اضطراب حال المرء في مدة من حياته. وتقدم عند قوله تعالى)والفتنة أشد من القتل(في سورة البقرة. ويظهر أن الفتون أصل مصدر فتن بمعنى اختبر، فيكون في الشر وفي الخير. وأما الفتنة فلعلها خاصة باختبار المضر. ويظهر أن التنوين في)فتونا(للتقليل، وتكون جملة)وفتناك فتونا(كالاستدراك على قوله) فنجيناك من الغم(، أي نجيناك وحصل لك خوف، كقوله)فأصبح في المدينة خائفا يترقب(فذلك الفتون.

والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله تعالى)فأصبح في المدينة خائفا يترقب(إلى قوله)وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين(.

وذكر الفتون بين تعداد المنن إدماج للإعلام بأن الله لم يمهل دم القبطي الذي قتله موسى، فإنه نفس معصومة الدم إذ لم يحصل ما يوجب قتله لأنهم لم ترد إليهم دعوة إلهية حينئذ، فحين أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون ابتلى موسى بالخوف والغربة عتابا له على إقدامه على قتل النفس، كما قال في الآية الأخرى)قال هذا عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له(. وعباد الله الذين أراد بهم خيرا ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كل حالة كمالا يكسبونه، ويسمى مثل ذلك بالابتلاء، فكان من فتون موسى بقضية القبطي أن قدر له الخروج إلى أرض مدين ليكتسب رياضة نفس وتهيئة ضمير لتحمل المصاعب، ويتلقى التهذيب من صهره الرسول شعيب عليه السلام . ولهذا المعنى عقب ذكر الفتون بالتفريع في قوله) فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى(، فبين له كيف كانت عاقبة الفتون.

أو يكون الفتون مشتركا بين محمود العاقبة وضده مثل الابتلاء في قوله)وبلوناهم بالحسنات والسيئات(، أي واختبرناك اختبارا. والاختبار: تمثيل لحال تكليفه بأمر التبليغ بحال من يختبر، ولهذا اختير هنا دون الفتنة.

وأهل مدين: قوم شعيب، ومدين: اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام سكنت ذريته في موطن تسمى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر جنوب عقبة أيلة، وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علما للمكان فمن ثم أضيف إليه)أهل(. وقد تقدم في سورة الأعراف.

ومعنى)جئت(حضرت لدينا. وهو حضوره بالواد المقدس لتلقي الوحي.

و)على(للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن؛ جعل مجيئه في الوقت الصالح للخير بمنزلة المستعلي على ذلك الوقت المتمكن منه.

والقدر: تقدير الشيء على مقدار مناسب لما يريد المقدر بحيث لم يكن على سبيل المصادفة، فيكون غير ملائم أو في ملاءمته خلل، قال النابغة:

فريع قلبي وكانت نظرة عرضت يوما
وتوفـيق أقـدار لأقـدار أي موافقة ما كنت أرغبه.

فقوله)ثم جئت على قدر(يفيد أن ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدرا من الله تقديرا مناسبا متدرجا، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدرها الله وحددها تحيدا منظما لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير.

فهذا تقدير خاص، وهو العناية بتدرج أحواله إلى أن بلغ الموضع الذي كلمه الله منه.
وليس المراد القدر العام الذي قدره الله لتكوين جميع الكائنات، فإن ذلك لا يشعر بمزية لموسى عليه السلام . وقد انتبه إلى هذا المعنى جرير بذوقه السليم فقال في مدح عمر بن عبد العزيز:
أتى الخلافة إذ كانت له قـدرا كما
أتى ربه موسى على قدر ومن هنا ختم الامتنان بما هو الفذلكة، وذلك جملة)واصطنعتك لنفسي(الذي هو بمنزلة رد العجز على الصدر على قوله)ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك(الآية، وهو تخلص بديع إلى الغرض المقصود وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله)وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى(ومن قوله)اذهب إلى فرعون إنه طغى(.
والاصطناع: صنع الشيء باعتناء: واللام للأجل، أي لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه.
)اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري[42](

صفحة : 2642

رجوع إلى المقصد بعد المحاورة، فالجملة بيان لجملة)اذهب إلى فرعون إنه طغى(، أو هي استئناف بياني لأن قوله)واصطنعتك لنفسي(يؤذن بأنه اختاره وأعده لأمر عظيم، لأن الحكيم لا يتخذ شيئا لنفسه إلا مريدا جعله مظهرا لحكمته، فيترقب لمخاطب تعيينها، وقد أمره هنا بالذهاب إلى فرعون وأن يذهب أخوه معه. ومعنى ذلك أنه يبلغ أخاه أن الله أمره بمرافقته، لأن هارون لم يكن حاضرا حين كلم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة. ولأنه لم يكن الوقت وقت الشروع في الذهاب إلى فرعون، فتعين أن الأمر لطلب حصول الذهاب المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون وعند لقائه أخاه هارون وإبلاغه أمر الله إياه، فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة.
والباء للمصاحبة لقصد تطين موسى بأنه سيكون مصاحبا لآيات الله، أي الدلائل التي تدل على صدقة لدى فرعون.

ومعنى)لا تنيا(لا تضعفا. يقال: ونى يني ونى، أي ضعف في العمل أي لا تن أنت وأبلغ هارون أن لا يني، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها.

)اذهبا إلى فرعون إنه طغى[43] فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى[44](يجوز أن يكون انتقال إلى خطاب موسى وهارون. فيقتضي أن هارون كان حاضرا لهذا الخطاب. وهو ظاهر قوله بعده)قالا ربنا إننا نخاف(. وكان حضور هارون عند موسى بوحي من الله أوحاه إلى هارون في أرض جاسان حيث منازل بني إسرائيل من أرض قرب طيبة . قال في التوراة وفي الإصحاح الرابع من سفر الخروج وقال أي الله هاهو هارون خارجا لاستقبالك فتكلمه أيضا . وفيه أيضا وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى فذهب والتقيا في جبل الله أي جبل حوريب، فيكون قد طوي ما حدث بين تكليم الله تعالى موسى في الوادي عند النار وما بين وصول موسى مع أهله إلى جبل حوريب في طريقه إلى أرض مصر، ويكون قوله)قالا ربنا إننا نخاف(الخ، جوابا عن قول الله تعالى لهما)اذهبا إلى فرعون(الخ. ويكون فصل جملة)قلا ربنا إننا نخاف(الخ.. لوقوعها في أسلوب المحاورة.

ويجوز أن تكون جمل')اذهبا إلى فرعون(بدلا من جملة)اذهب أنت وأخوك(، فيكون قوله)اذهبا(أمرا لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه وهارون غائب. وهذا أنسب لسياق الجمل. وتكون جملة)قالا ربنا إننا نخاف(مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وقد طوى ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية)قالا ربنا إننا نخاف(الخ. والتقدير: فذهب موسى ولقي أخاه هارون، وأبلغه أمر الله له بما أمره، فقالا ربنا إننا نخاف الخ..

وجملة)إنه طغى(تعليل للأمر بأن يذهبان إليه. فعلم أنه لقصد كفه عن طغيانه.

وفعل)طغى(رسم في المصحف آخره ألفا ممالة، أي بصورة الياء للإشارة إلى أنه من طغي مثل رضي. ويجوز فيه الواو فيقال: يطغوا مثل يدعوا.

والقول اللين: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله.

فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين.

واللين، حقيقة من صفات الأجسام، وهو: رطوبة ملمس الجسم وسهولة ليه، وضد اللين الخشونة. ويستعار اللين لسهولة المعاملة والصفح. وقال عمرو بن كلثوم:

فإن قناتنا يا عمرو أعـيت على

الأعداء قبلك أن تلينا واللين من شعار الدعوة إلى الحق، قال تعالى)وجادلهم بالتي هي أحسن(وقال)فبما رحمة من الله لنت

لهم(. ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى)فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى(وقوله)والسلام على من اتبع الهدى(، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى. فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى)ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم(، وقال تعالى عن موسى)إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى(.

صفحة : 2643

والترجي المستفاد من)لعل(؛ إما تمثيل لشأن الله في دعوة فرعون بشأن الراجي، وإما أن يكون إعلاما لموسى وفرعون بأن يرجوا ذلك، فكان النطق بحرف الترجي على لسانهما، كما تقول للشخص إذا أشرت عليه بشيء: فلعله يصادفك تيسير، وأنت لا تريد أنك ترجو ذلك ولكن بطلب رجاء من المخاطب. وقد تقدمت نظائره في القرآن غير مرة.

والتذكر: من الذكر بضم الذال أي النظر، أي لعله ينظر نظر المتبصر فيعرف الحق أو يخشى حلول العقاب به فيطيع عن خشية. لا عن تبصر. وكان فرعون من أهل الطغيان واعتقاد أنه على الحق. فالتذكير: أن يعرف أنه على الباطل، والخشية: أن يتردد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى.

وهنا انتهى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام .

)قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى[45] قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى[46] فأتيه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئنك بآية من ربك والسلم على من اتبع الهدى[47] إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى[48](فصلت الجملتان لوقوعهما موقع المحاورة بين موسى مع أخيه وبين الله تعالى على كلا الوجهين اللذين ذكرناهما آنفا، أي جمعا أمرهما وعزم موسى وهارون على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربهما)قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى(، لأن غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والآخذ في التهيؤ له، ولذلك أعيد أمرهما بقوله تعالى)فأتياه(.

و)يفرط(معناه يعجل ويسبق، ويقال: فرط يفرط من باب نصر. والفارط: الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب. والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلغه ونحجه.
والطغيان: التظاهر بالتكبر. وتقدم آنفا عند قوله)اذهب إلى فرعون إنه طغى(، أي نخاف أن يخامره كبره فيعد ذكرنا إلها دونه تنقيصا له وطعنا في دعواه الإلهية فيطغى، أي يصدر منه ما هو أثر الكبر من التحقير والإهانة. فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنهما لا يطيقان ذلك، فهو انتقال من الأشد إلى الأضعف لأن)نخاف(يؤول إلى معنى النفي. وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك.
وحذف متعلق)يطغي(فيحتمل أن حذفه لدلالة نظيره عليه، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل. والتقدير: أو أن يطغي علينا. ويحتمل أن متعلقه ليس نظير المذكور قبله بل هو متعلق آخر لكون التقسيم التقديري دليلا عليه، لأنها لما ذكر متعلق)يفرط علينا(وكان الفرط شاملا لأنواع العقوبات حتى الإهانة بالشتم لزم أن يكون التقسيم ب)أو(منظورا فيه إلى حالة أخرى وهي طغيانه على من لا يناله عقابه، أي أن يطغي على الله بالتنقيص كقوله،)ما علمت لكم من إله غيري(وقوله)لعلي أطلع إلى إله موسى(، فحذف متعلق) يطغي(حينئذ لتنزيهه على التصريح به في هذا المقام، والتقدير: أو أن يطغي عليك فيتصلب في كفره ويعسر صرفه عنه. وفي التحرز من ذلك غيرة على جانب الله تعالى، وفيه أيضا تحرز من رسوخ عقيدة الكفر في نفس الطاغي فيصير الرجاء في إيمانه بعد ذلك أضعف منه فيما قبل، وتلك مفسدة في نظر الدين. وحصلت مع ذلك رعاية الفاصلة.
قال الله)لا تخافا(، أي لا تخافا حصول شيء من الأمرين. وهو نهى مكنى به عن نفسي وقوع المنهي عنه.
وجملة)إنني معكما(تعليل للنهي عن الخوف الذي هو في معنى النفي، والمعية معية حفظ.
و)أسمع وأرى(حالان من ضمير المتكلم، أي أنا حافظكما من كل ما تخافانه، وأنا أعلم الأقوال والأعمال فلا داع عملا أو قولا تخافانه.
ونزل فعلا)أسمع وأرى(منزلة اللازمين إذ لا غرض لبيان مفعولهما بل المقصود: أني لا يخفي علي شيء. وفرغ عليه إعادة الأمر بالذهاب إلى فرعون.

والإتيان: الوصول والحلول، أي فحلا عنده، لأن الإتيان اثر الذهاب المأمور به الخطاب السابق، وكانا قد اقتربا من مكان فرعون لأنهما في مدينته، فلذا أمرا بإتيانه ودعوته. وجاءت تثنية رسول على الأصل في مطابقة الوصف الذي يجرى عليه في الإفراد وغيره.

وفعول الذي بمعنى مفعول تجوز فيه المطابقة، كقولهم ناقة طروقة الفحل، وعدم المطابقة كقولهم: وحشية خلوج، أي اختلج ولدها. وجاء الوجهان في نحو)رسول(وهما وجهان مستويان. ومن مجيئه غير مطابق قوله تعالى في سورة الشعراء)فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين(وسيجيء تحقيق ذلك هنالك إن شاء الله.

وأدخل فاء التفريع على طلب إطلاق بني إسرائيل لأنه جعل طلب إطلاقهم كالمستقر المعلوم عند فرعون، إما لأنه سبقت إشاعة عزمها على الحضور عند فرعون لذلك المطلب، وإما لأنه جعله لأهميته كالمقرر. وتفريع ذلك على كونهما مرسلين من الله ظاهر، لأن المرسل من الله تجب طاعته.

وخصا الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون قصدا لأقصى الدعوة،لأن كون الله ربهما معلوم من قولهما)إنا رسولا ربك(وكونه رب الناس معلوم بالأحرى لأن فرعون علمهم أنه هو الرب.

والتعذيب الذي سألاه الكف عنه هو ما كان فرعون يسخر له بني إسرائيل من الأعمال الشاقة في الخدمة، لأنه كان يعد بني إسرائيل كالعبيد والخول جزاء إحلالهم بأرضه.

وجملة)قد جئناك بآية من ربك(فيها بيان لجملة)إنا رسولا ربك(فكانت الأولى إجمالا والثانية بيانا. وفيها معنى التعليل لتحقيق كونهما مرسلين من الله بما يظهره الله على يد أحدهما من دلائل الصدق. وكلا الغرضين يوجب فصل الجملة عن التي قبلها.

واقتصر على أنهما مصاحبان لآية إظهارا لكونهما مستعدين لإظهار الآية إذا أراد فرعون ذلك، فأما إن آمن بدون احتياج إلى إظهار الآية يكن إيمانه أكمل، ولذلك حكي في سورة الأعراف قول فرعون)قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين(وهذه الآية هي انقلاب العصا حية، وقد تبعها آيات أخرى. والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة، بأن يبث فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير النكر الذي هو بين ظهرانيه.

وأيضا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل. وهذا يؤخذ مما في هذه الآية وما في آية سورة الإسراء وما في آية سورة النازعات والآيات الأخرى.

والسلام: السلامة والإكرام. وليس المراد به هنا التحية، إذ ليس شم معين يقصد التحية. ولا يراد تحية فرعون لأنهما إنما تكون في ابتداء المواجهة لا في أثناء الكلام، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى هرقل وغيره: أسلم تسلم .

و)على(للتمكن، أي سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب. وهذا احتراس ومقدمة للإنذار الذي في قوله)إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى(، فقوله)والسلام على من اتبع الهدى(تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذي جاء به موسى)عليه السلام(.

وقوله)إنا قد أوحي إلينا(تعريض لإنذاره على التكذيب فقبل حصوله منه لتبليغ الرسالة على أتم وجه قبل ظهور لرأي فرعون في ذلك حتى لا يجابهه بعد ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه.وهذا أسلوب القول اللين الذي أمرهما الله به. وتعريف)العذاب(تعريف الجنس، فالمعرف بمنزلة النكرة، كأنه قيل: إن عذابا على من كذب.

وإطلاق السلام والعذاب دون تقيد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشرة والنذارة، قال تعالى في سورة النازعات)فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى(.

وهذا كله كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون، كما يدل لذلك تعقيبه بقوله تعالى)قال فمن ربكما يا موسى(على أسلوب حكاية المحاورات. وما ذكر من أول القصة إلى هنا لم يتقدم في السور الماضية.

)قال فمن ربكما يا موسى[49] قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[50](

صفحة : 2645

هذا حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون، ففي الآية حذف جمل دل عليها السياق قصدا للإيجاز. والتقدير: فأتياه فقالا له ما أمرا به، فقال:فمن ربكما؟ ولذلك جاءت حكاية قول فرعون بجملة مفصول على طريقة حكاية المحاورات التي استقريناها من أسلوب القرآن وبيناها في سورة البقر' وغيرها.

ووجه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك، ثم خص موسى بالإقبال عليه بالنداء، لعلمه بأن موسى هو الأصل بالرسالة وأن هارون تابع له، وهذا وإن لم يحتو عليه كلامهما فقد تعين أن يكون فرعون علمه من كيفية دخولهما عليه ومخاطبته، ولأن موسى كان معروفا في بلاط فرعون لأنه ربيه أو ربي أبيه فله سابقة اتصال بدار فرعون، كما دل عليه قوله له المحكي في آية سورة الشعراء)قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين(الآية. ولعل موسى هو الذي تولى الكلام وهارون بصدقه بالقول أو بالإشارة.وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنهما قالا له)إنا رسولا ربك(.

وأعرض عن أن يقول: فمن ربي؟ إلى قوله)فمن ربكما(إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا. وتولى موسى الجواب لأنه خص بالسؤال بسبب النداء له دون غيره.

وأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء ، فهو داخل في عموم)كل شيء(.

و)كل شيء(مفعول أول ل)أعطى(. و)خلقه(مفعوله الثاني.

والخلق: مصدر بمعنى الإيجاد وجيء بفعل الإعطاء للتنبيه على أن الخلق والتكوين نعمة، فهو استدلال على الربوبية وتذكير بالنعمة معا.

ويجوز أن يكون الخلق بالمعنى الأخص، وهو الخلق على شكل مخصوص، فهو بمعنى الجعل، أي الذي أعطى كل شيء من الموجودات شكله المختص به، فكونت بذلك الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخلق.

ويجوز أن يكون)كل شيء(مفعولا ثانيا ل)أعطى(ومفعوله الأول) خلقه(، أي أعطى خلقه ما يحتاجونه، كقوله)فأخرجنا به نبات كل شيء(. فتركيب الجملة صالح للمعنيين.

والاستغراق المستفاد من)كل(عرفي، أي كل شي من شأنه أن يعطاه أصناف الخلق ويناسب المعطي، أو هو استغراق على قصد التوزيع بمقابلة الأشياء بالخلق، مثل: ركب القوم دوابهم.

والمعنى: تأمل وانظر هل أنت أعطيت الخلق أو لا، فلا شك أنه يعلم أنه ما أعطى كل شيء خلقه، فإذا تأمل علم أن الرب هو الذي أفاض الوجود والنعم على الموجودات كلها، فآمن به بعنوان هذه الصفة وتلك المعرفة الموصلة إلى الاعتقاد الحق.

و)ثم(للترتيب بمعنييه الزمني والرتبي، أي خلق الأشياء ثم هدى إلى ما خلقهم لأجله، وهداهم إلى الحق بعد أن خلقهم، وأفاض عليهم النعم، على حد قوله تعالى)ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين(أي طريقي الخير والشر، أي فرقنا بينهما بالدلائل الواضحة.

قال الزمخشري في الكشاف: ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقي الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق .

)قال فما بال القرون الأولى[51] قال علمها عند ربي في كتب لا يضل ربى ولا ينسى[52](والبال: كلمة دقيقة المعنى، تطلق على الحال المهم، ومصدره البالة بتخفيف اللام، قال تعالى)كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم(، أي حالهم. وفي الحديث)كل أمر ذي بان.. (الخ، وتطلق على الرأي يقال: خطر كذا ببالي. ويقولون: ما ألقى له بالا، وإيثار هذه الكلمة هنا من دقيق الخصائص البلاغية.

أراد فرعون أن يحاج موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على ملة فرعون، أي قرون أهل مصر، أي ما حالهم، أفتزعم أنهم اتفقوا على ضلالة. وهذه شنشنة من لا يجد حجة فيعمد إلى التشغيب بتخييل استبعاد كلام خصمه، وهو في معنى قول فرعون وملئه في الآية الأخرى)قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا(.

صفحة : 2646

ويجوز أن يكون المعنى أن فرعون أراد التشغيب على موسى حين نهضت حجته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب بمناسبة قول موسى)أن العذاب على من كذب وتولى(، فإذا قال: إنهم في عذاب، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداء لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضت حجة فرعون لأنه متابع لدينهم. ولأن موسى لما أعلمه بربه وكان ذلك مشعرا بالخلق الأول خطر ببال فرعون أن يسأله عن الاعتقاد في مصير الناس بعد الفناء، فسأل: ما بال القرون الأولى؟ وما شأنهم وما الخبر عنهم؟ وهو سؤال تعجيز وتشغيب.

وقول موسى في جوابه)علمها عند ربي في كتاب(صالح للاحتمالين، فعلى الاحتمال الأول يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك الذي هو المتمحض لدعوة الأحياء لا البحث عن الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء. وهذا نظير قول

النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذراري المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين .
وعلى الاحتمال الثاني يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولا عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله.
والحاصل أن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله لأنه لم يبعث بذلك. وفي هذا الإعراض فوائد كثيرة وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم.
وإضافة)علمها(من إضافة المصدر إلى مفعوله. وضمير) علمها(عائد إلى القرون الأولى لأن لفظ الجمع يجوز أن يؤنث ضميره.
وقوله)في كتاب(يحتمل أن يكون الكتاب مجازا في تفصيل العلم تشبيها له بالأمور المكتوبة، وأن يكون كناية عن تحقيق العلم لأن الأشياء المكتوبة تكون محققة كقول الحارث بن حلزة:
وهل ينقض ما في المهارق الأهواء ويؤكد هذا المعنى قوله)لا يضل ربي ولا ينسى(والضلال: الخطأ في العلم، شبه بخطأ الطريق. والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم.
)الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى[53] كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى[54](هذه جمل ثلاث معترضة في أثناء قصة موسى.
فالجملة الأولى منها مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنن لأغراض لتجديد نشاط الأذهان. ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله)فأخرجنا به أزواجا(. فقوله)الذي جعل لكم الأرض مهادا(خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي جعل لكم الأرض مهادا، والضمير عائد إلى الرب المفهوم من)ربي(، أي هو رب موسى.
وتعريف جزأي الجملة يفيد الحصر، أي الجاعل الأرض مهادا فكيف تعبدون غيره. وهذا قصر حقيقي غير مقصود به الرد على المشركين ولكنه تذكير بالنعمة وتعريض بأن غيره ليس حقيقا بالإلهية.
وقرأ الجمهور)مهادا(بكسر الميم وهو اسم بمعنى الممهود مثل الفراش واللباس. ويجوز أن يكون جمع مهد، وهو اسم لما يمهد للصبي، أي يوضع عليه ويحمل فيه، فيكون بوزن كعاب جمعا لكعب. ومعنى الجمع على اعتبار كثرة البقاع.
وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف)مهدا(بفتح الميم وسكون الهاء ، أي كالمهد الذي يمهد للصبي، وهو اسم بمصدر مهده، على

أن المصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، ثم شاع ذلك فصار اسما لما يمهد.
ومعنى القراءتين واحد، أي جعل الأرض ممهوه مسهلة للسير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نتوء فيها ألا نادرا يمكن تجنبه، كقوله)والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا(

صفحة : 2647

)وسلك(فعل مشتق من السلوك والسلك الذي هو الدخول مجتازا وقاطعا في السير في الطريق تشبيها للسائر بالشيء الداخل في شيء آخر. يقال: سلك طريقا. فحق هذا الفعل أن يتعدى إلى مفعول واحد وهو المدخول فيه، ويستعمل متعديا بمعنى أسلك. وحقه أن يكون تعديه بهمزة التعدية فيقال: أسلك المسمار في اللوح، أي جعله سالكا إياه، إلا أنه كثر في الكلام تجريده من الهمزة كقوله تعالى)نسلكه عذابا صعدا(. وكثر كون الاسم الذي كان مفعولا ثانيا بصير مجرورا ب)في(كقوله تعالى)ما سلككم في سقر(بمعنى أسلككم سقر. وقوله)كذلك سلكناه في قلوب المجرمين(في سورة الشعراء. وقوله)ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض(في سورة الزمر. وقال الأعشى:
كما سلك السكي في الباب فيتق أي أدخل المسمار في الباب نجار، فصار فعل سلك يستعمل قاصرا ومتعديا.
فأما قوله هنا)وسلك لكم فيها سبلا(فهو سلك المتعدي، أي أسلك فيها سبلا، أي جعل سبلا سالكة في الأرض، أي داخلة فيها، أي متخللة. وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض.
والمراد بالسبل: كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل الناس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقا يتابع الناس السير فيها.
ولما ذكر منة خلق الأرض شفعها بمنة إخراج النبات منها بما ينزل عليها من السماء من ماء. وتلك منة تنبئ عن خلق السماوات حيث أجرى ذكرها لقصد ذلك التذكير، ولذا لم يقل: وصببنا الماء على الأرض، كما في آية)إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا(. وهذا إدماج بليغ.
والعدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله) فأخرجنا(التفات. وحسنه هنا أنه بعد أن حج المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلم المطاع فإن الذي خلق الأرض وسخر السماء

حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء، فكان تسخير النبات أثرا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض.

ولملاحظة هذه النكتة تكرر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات كما في قوله تعالى)وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء(، وقوله)ألم نر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها(، وقوله)أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة(، ومنها قوله في سورة الزخرف)والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا(.

وقد نبه إلى ذلك في الكشاف ، ولله دره. ونظائره كثيرة في القرآن.

والأزواج: جمع زوج. وحقيقة الزوج أنه اسم لكل فرد من اثنين من صنف واحد. فكل أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر، لأنه يصير بسبق الفرد الأول إياه زوجا. ثم غلب على الذكر والأنثى المقترنين من نوع الإنسان أو من الحيوان، قال تعالى)فاسلك فيها من كل زوجين اثنين(، وقال)فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى(وقال)اسكن أنت وزوجك الجنة(. ولما شاعت فيه ملاحظة معنى اتحاد النوع تطرقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوج في معنى النوع بغير قيد كونه ثانيا لآخر، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، قال تعالى)سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون(، ومنه قوله)فأنبتنا فيها من كل زوج كريم(. وفي الحديث من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرته حجبة الجنة... الحديث، أي من أنفق نوعين مثل الطعام والكسوة، ومثل الخيل والرواحل. وهذا الإطلاق هو المراد هنا. أي فأنبتنا به أنواعا من نبات. وتقدم في سورة الرعد.

والنبات: مصدر سمي به النابت، فلكونه مصدرا في الأصل استوى فيه الواحد والجمع.

وشتى: جمع شتيت بوزن فعلى، مثل: مريض ومرضي.

والشتيت: المشتت، أي المبعد. وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللون والطعم، وبعضها صالح للإنسان وبعضها للحيوان.

والجملة الثانية)كلوا وارعوا أنعامكم(مقول قول محذوف هو حال من ضمير)فأخرجنا(. والتقدير: قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم. والأمر للإباحة مراد به المنة. والتقدير: كلوا منها وارعوا أنعامكم منها. وهذا من مقابلة الجمع بالجمع لقصد التوزيع.

وفعل)رعى(يستعمل قاصرا ومتعديا. يقال: رعت الدابة ورعاها صاحبها. وفرق بينهما في المصدر فمصدر القاصر: الرعي، ومصدر المتعدي: الرعاية. ومنه قول النابغة: رأيتك ترعاني بعين بصيرة والجملة الثالثة)إن في ذلك لآيات لأولي النهي(معترضة مؤكدة للاستدلال؛ فبعد أن أشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفا من الدلالة على وجود الصانع ووحدانيته، والمنة بها على الإنسان لمن تأمل، جمعت في هذه الجملة وصرح بما في جميعها من الآيات الكثيرة. وكل من الاعتراض والتوكيد مقتض لفصل الجملة.

وتأكيد الخبر بحرف)إن(لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، لأنهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانية الله، وهم يحسبون أنفسهم من أولي النهي، فما كان عدم اهتدائهم بتلك الآيات إلا لأنهم لم يعدوها آيات.

لا جرم أن ذلك المذكور مشتمل على آيات جمة يتفطن لها ذوو العقول بالتأمل والتفكر، وينتبهون لها بالتذكير.

والنهى: اسم جمع نهية بضم النون وسكون الهاء ، أي العقل، سمي نهية لأنه سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة والمهلكة، ولذلك أيضا سمي بالعقل وسمي بالحجر.

)منها خلقنكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[55](مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا إدماج للتذكير بالخلق الأول ليكون دليلا على إمكان الخلق الثاني بعد الموت. والمناسبة متمكنة؛ فإن ذكر خلق الأرض ومنافعها يستدعي إكمال ذكر المهم للناس من أحوالها، فكان خلق أصل الإنسان من الأرض شبيها بخروج النبات منها. وإخراج الناس إلى الحشر شبيه بإخراج النبات من الأرض. قال تعالى)والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا(.

وتقديم المجرورات الثلاثة على متعلقاتها؛ فأما المجرور الأول والمجرور الثالث فللاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأول والخلق الثاني. وأما تقديم)وفيها نعيدكم(فللمزاوجة مع نظيريه.

ودل قوله تعالى)وفيها نعيدكم(على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية لمواراة الموتى سواء كان شقا في الأرض أو لحدا، لأن كليهما إعادة في الأرض؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى في سورة العقود)فبعث الله غرابا يبحث في الأرض

ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي(فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض.
والتارة: المرة، وجمعها تارات. وأصل ألفها الواو. وقال ابن الأعرابي: أصل ألفها همزة فلما كثر استعمالهم لها تركوا الهمزة. وقال بعضهم: ظهر الهمز في جمعها على فعل فقالوا: تئر بالهمز. ويظهر أنها اسم جامد ليس له أصل مشتق منه.
والإخراج: هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام في داخل الأرض، كما هو ظاهر قوله)ومنها نخرجكم(، ولذلك جعل الإخراج تارة ثانية للخلق الأول من الأرض. وفيه إيماء إلى أن إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرة الأولى، قال تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(.
)ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى[56](رجوع إلى قصص موسى عليه السلام مع فرعون. وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون وقعت هذه كالمقدمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى وفرعون من المحاورة. فيجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة)قال فمن ربكما يا موسى(باعتبار ما يقدر قبل المعطوف عليها من كلام حذف اختصارا، تقديره: فأتياه فقالا ما أمرناهما أن يقولاه قال فمن ربكما الخ. المعنى: فأتياه وقالا ما أمرناهما وأريناه آياتنا كلها على يد موسى عليه السلام .
ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين ما قبلها، والواو اعتراضية.
وتأكيد الكلام بلام القسم و)قد(مستعمل في التعجيب من تصلب فرعون في عناده، وقصد منها بيان شدته في كفره وبيان أن لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تجد في إيمانه.

صفحة : 2649

وأجملت وعممت فلم تفصل، لأن المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره بخلاف آية سورة الأعراف التي قصد منها بيان تعاقب الآيات ونصرتها.
وإراءة الله إياه الآيات: إظهارها له بحيث شاهدها.
وإضافة)آيات(إلى ضمير الجلالة هنا يفيد تعريفا لآيات معهودة، فإن تعريف الجمع بالإضافة يأتي لما يأتي له التعريف باللام يمون للعهد ويكون للاستغراق، والمقصود هنا الأول، أي أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى، وهي المذكورة في قوله تعالى)في تسع آيات إلى فرعون وقومه(. وهي انقلاب العصا حية، وتبدل لون

اليد بيضاء، وسنو القحط، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاق البحر. وقد استمر تكذيبه بعد جميعها حتى لما رأى انفلاق البحر اقتحمه طمعا للظفر ببني إسرائيل.

وتأكيد الآيات بأداة التوكيد)كلها(لزيادة التعجيب من عناده ونظيره قوله تعالى)ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها(في سورة القمر.

وظاهر صنيع المفسرين أنهم جعلوا جملة)ولقد أريناه آياتنا(عطفا على جملة)قال فمن ربكما يا موسى(، وجملة)قال فمن ربكما(بيانا لجملة)فكذب وأبى(. فيستلزم ذلك أن يكون عزم فرعون على إحضار السحرة متأخرا عن إرادة الآيات كلها فوقعوا في إشكال صحة التعميم في قوله تعالى)آياتنا كلها(. وكيف يكون ذلك قبل اعتراف السحرة بأنهم غلبوا مع أن كثيرا من الآيات إنما ظهر بعد زمن طويل مثل: سني القحط، والدم، وانفلاق البحر. وهذا الحمل لا داعي إليه لأن العطف بالواو لا يقتضي ترتيبا.

)قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى[57] فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى[58] قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى[59]

(هذه الجملة متصلة بجملة)قال فما بال القرون الأولى(وجواب موسى عنها. وافتتاحها بفعل)قال(وعدم عطفه لا يترك شكا في أن هذا من تمام المحاورة.

وقوله)أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك(يقتضي أنه أراه آية انقلاب العصا حية، وانقلاب يده بيضاء. وذلك ما سماه فرعون سحرا. وقد صرح بهذا المقتضى في قوله تعالى حكاية عنهما)قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره...(الآية في سورة الشعراء. وقد استغنى عن ذكره هنا بما في جملة)ولقد أريناه آياتنا كلها(من العموم الشامل لآية انقلاب العصا حية.

وإضافته السحر إلى ضمير موسى قصد منها تحقير شأن هذا الذي سماه سحرا.

وأسند الإتيان بسحر مثله إلى ضمير نفسه تعظيما لشأنه. ومعنى إتيانه بالسحر: إحضار السحرة بين يديه، أي فلنأتينك بسحر ممن شأنهم أن يأتوا بالسحر، إذ السحر لا بد له من ساحر.

والمماثلة في قوله)مثله(مماثلة في جنس السحر لا في قوته.

وإنما جعل فرعون العلة في مجيء موسى إليه: أنها قصده أن يخرجهم من أرضهم قياسا منه على الذين يقومون بدعوة ضد

الملوك أنهم إنما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولهم محلهم، يعني أن موسى عرته نفسه فحسب أنه يستطيع اقتلاع فرعون من ملكه، أي حسبت أن إظهار الخوارق يطوع لك الأمة فيجعلونك ملكا عليهم وتخرجني من أرضي. فضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم لا في المشاركة، لأن موسى لم يصدر عنه ما يشم منه إخراجهم من أرضهم.

ويجوز أن يكون ضمير المتكلم المشارك مستعملا في الجماعة تغليبا، ونزل فرعون نفسه واحدا منها. وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى)فأرسل معنا بني إسرائيل(، أي جئت لتخرج بعض الأمة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمة بما تظهر لهم من سحرك.

والاستفهام في)أجئتنا(إنكاري، ولذلك فرع عليه القسم على أن يأتيه بسحر مثله. والقسم من أساليب إظهار الغضب.

صفحة : 2650

واللام لام القسم، والنون لتوكيده. وقصد فرعون من مقابلة عمل موسى بمثله أن يزيل ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى وكونه على الحق، لعل ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر.

وفرع على ذلك طلب تعيين موعد بينه وبين موسى ليحضر له فيه القائمين بسحر مثل سحره.

والموعد هنا يجوز أن يراد به المصدر الميمي، أي الوعد وأن يراد به مكان الوعد، وهذا إيجاز في الكلام.

وقوله)مكانا(بدل اشتمال من)موعدا(بأحد معنييه، لأن الفعل يقتضي مكانا وزمانا فأبدل منه مكانه.

وقوله)لا نخلفه(في قراءة الجمهور برفع الفعل صفة ل)موعدا(باعتبار معناه المصدري. وقرأه أبو جعفر بجزم الفاء من) نخلفه(على أن)لا(ناهية. والنهي تحذير من إخلافه.

و)سوى(قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بكسر السين . وقرأه عاصم، وحمزة، وابن عامر، ويعقوب، وخلف بضم السين وهما لغتان. فالكسر بوزن فعل، قال أبو علي: وزن فعل يقل في الصفات، نحو: قوم عدى. وقال أبو عبيده، وأبو حاتم، والنحاس: كسر السين هو اللغة العالية الفصيحة، وهو اسم وصف مشتق من الاستواء: فيجوز أن يكون الاستواء استواء التوسط بين جهتين. وأنشد أبو عبيده لموسى بن جابر الحنفي:

وإن أبانا كان حل ببلدة سوى

بين قيس قيس عيلان والفزر الفزر: لقب لسعد بن زيد مناة بن تميم هو بكسر الفاء .

والمعنى: قال مجاهد: إنه مكان نصف، وكأن المراد أنه نصف من المدينة لئلا يشق الحضور فيه على أهل أطراف المدينة. وعن ابن زيد: المعنى مكانا مستويا، أي ليس فيه مرتفعات تحجب العين، أراد مكانا منكشفا للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة.

ثم تعيين الموعد غير المخلف يقتضي زمانه لا محالة، إذ لا يتصور الإخلاف إلا إذا كان الوعد وقت معين ومكان معين، فمن ثم طابقه جواب موسى بقوله)موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى(.

فيقتضي أن محشر الناس في يوم الزينة كان مكانا معروفا. ولعله كان بساحة قصر فرعون، لأنهم يجتمعون بزينتهم ولهوهم بمرأى منه ومن أهله على عادة الملوك في المواسم.

فقوله)يوم الزينة(تعيين للوقت، وقوله)وأن يحشر الناس(تعيين للمكان، وقوله)ضحى(تقييد لمطلق الوقت.

والضحى: وقت ابتداء حرارة الشمس بعد طلوعها.

ويوم الزينة كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج أو الخلجان، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للشقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها.

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أول يوم من شهر)توت(القبطي. وهو)أيلول(بحسب التاريخ الاسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوما، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوما، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين)سبتمبر(. وأول أيام شهر)توت(هو يوم النيروز عند الفرس، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس.

واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنه يعلم أن سيكون الفلج له، فأحب أن يكون ذلك في وقت أكثر مشاهدا وأوضح رؤية.

)فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى[60] قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى[61]

(تفريع التولي وجمع الكيد على تعيين موسى للموعد إشارة إلى أن فرعون بادر بالاستعداد لهذا الموعد ولم يضع الوقت للتهيئة له.

والتولي: الانصراف، وهو هنا مستعمل في حقيقة، أي انصرف عن ذلك المجلس إلى حيث يرسل الرسل إلى المدائن لجمع من عرفوا بعلم السحر، وهذا كقوله تعالى في سورة النازعات)ثم أدبر يسعى فحشر فنادى(.

ومعنى جمع الكيد: تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء.
وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجة خصمه بكل وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومباداته بما يفت في عضده ويشوش رأيه حتى يذهب منه تدبيره.

صفحة : 2650

واللام لام القسم، والنون لتوكيده. وقصد فرعون من مقابلة عمل موسى بمثله أن يزيل ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى وكونه على الحق، لعل ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر.
وفرع على ذلك طلب تعيين موعد بينه وبين موسى ليحضر له فيه القائمين بسحر مثل سحره.
والموعد هنا يجوز أن يراد به المصدر الميمي، أي الوعد وأن يراد به مكان الوعد، وهذا إيجاز في الكلام.
وقوله)مكانا(بدل اشتمال من)موعدا(بأحد معنييه، لأن الفعل يقتضي مكانا وزمانا فأبدل منه مكانه.
وقوله)لا نخلفه(في قراءة الجمهور برفع الفعل صفة ل)موعدا(باعتبار معناه المصدري. وقرأه أبو جعفر بجزم الفاء من) نخلفه(على أن)لا(ناهية. والنهي تحذير من إخلافه.
و)سوى(قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بكسر السين . وقرأه عاصم، وحمزة، وابن عامر، ويعقوب، وخلف بضم السين وهما لغتان. فالكسر بوزن فعل، قال أبو علي: وزن فعل يقل في الصفات، نحو: قوم عدى. وقال أبو عبيده، وأبو حاتم، والنحاس: كسر السين هو اللغة العالية الفصيحة، وهو اسم وصف مشتق من الاستواء: فيجوز أن يكون الاستواء استواء التوسط بين جهتين. وأنشد أبو عبيده لموسى بن جابر الحنفي:
وإن أبانا كان حل ببلدة سوى
بين قيس قيس عيلان والفزر الفزر: لقب لسعد بن زيد مناة بن تميم هو بكسر الفاء .
والمعنى: قال مجاهد: إنه مكان نصف، وكأن المراد أنه نصف من المدينة لئلا يشق الحضور فيه على أهل أطراف المدينة. وعن ابن زيد: المعنى مكانا مستويا، أي ليس فيه مرتفعات تحجب العين، أراد مكانا منكشفا للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة.

ثم تعيين الموعد غير المخلف يقتضي زمانه لا محالة، إذ لا يتصور الإخلاف إلا إذا كان الوعد وقت معين ومكان معين، فمن ثم طابقه جواب موسى بقوله)موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى(.
فيقتضي أن محشر الناس في يوم الزينة كان مكانا معروفا. ولعله كان بساحة قصر فرعون، لأنهم يجتمعون بزينتهم ولهوهم بمرأى منه ومن أهله على عادة الملوك في المواسم.
فقوله)يوم الزينة(تعيين للوقت، وقوله)وأن يحشر الناس(تعيين للمكان، وقوله)ضحى(تقييد لمطلق الوقت.
والضحى: وقت ابتداء حرارة الشمس بعد طلوعها.
ويوم الزينة كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج أو الخلجان، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للشقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها.
وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أول يوم من شهر)توت(القبطي. وهو)أيلول(بحسب التاريخ الاسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوما، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوما، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين)سبتمبر(. وأول أيام شهر)توت(هو يوم النيروز عند الفرس، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس.
واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنه يعلم أن سيكون الفلج له، فأحب أن يكون ذلك في وقت أكثر مشاهدا وأوضح رؤية.
)فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى[60] قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى[61]
(تفريع التولي وجمع الكيد على تعيين موسى للموعد إشارة إلى أن فرعون بادر بالاستعداد لهذا الموعد ولم يضع الوقت للتهيئة له.
والتولي: الانصراف، وهو هنا مستعمل في حقيقة، أي انصرف عن ذلك المجلس إلى حيث يرسل الرسل إلى المدائن لجمع من عرفوا بعلم السحر، وهذا كقوله تعالى في سورة النازعات)ثم أدبر يسعى فحشر فنادى(.
ومعنى جمع الكيد: تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء.
وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجة خصمه بكل وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومباداته بما يفت في عضده ويشوش رأيه حتى يذهب منه تدبيره.

فالجمع هنا مستعمل في معنى إعداد الرأي، واستقصاء ترتيب الأمر، كقوله)فأجمعوا أمركم(، أي جمع رأيه وتدبيره الذي يكيد به موسى. ويجوز أن يكون المعنى فجمع أهل كيده، أي جمع السحرة، على حد قوله تعالى)فجمع السحرة لميقات يوم معلوم(.

والكيد: إخفاء ما به الضر إلى وقت فعله. وقد تقدم عند قوله تعالى)إن كيدي متين(في سورة الأعراف.

ومعنى)ثم أتى(ثم حضر الموعد، وثم للمهلة الحقيقية والرتبية معا، لأن حضوره للموعد كان بعد مضي مهلة الاستعداد، ولأن ذلك الحضور بعد جمع كيده أهم من جمع الكيد، لأن فيه ظهور أثر ما أعده.

وجملة)قال لهم موسى(مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن قوله)ثم أتى(يثير سؤالا في نفس السامع أن يقول: فماذا حصل حين أتى فرعون ميقات الموعد. وأراد موسى مفاتحة السحرة بالموعظة.

وضمير)لهم(عائد إلى معلوم من قوله)فلنأتينك بسحر مثله(أي بأهل سحر، أو يكون الخطاب للجميع، لأن ذلك المحضر كان بمرأى ومسمع من فرعون وحاشيته، فيكون معاد الضمير ما دل عليه قوله)فجمع كيده ثم أتى(، أي جمع رجال كيده.

والخطاب بقوله)ويلكم(يجوز أن يكون أراد به حقيقة الدعاء، فيكون غير جار على ما أمر به من إلانة القول لفرعون: إما لأن الخطاب بذلك لم يكن مواجها به فرعون بل واجه به السحرة خاصة الذين اقتضاهم قوله تعالى)فجمع كيده(، أي قال موسى لأهل كيد فرعون؛ وإما لأنه لما رأى أن إلانة القول له غير نافعة، إذ لم يزل على تصميمه على الكفر، أغلظ القول زجرا له بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييدا لمطلق الأمر بإلانة القول، كما أذن لمحمد صلى الله عليه وسلم بقوله)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا(الآيات في سورة الحج؛ وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين أن سحرهم معجزة لهم من آلهتهم ومن فرعون ربهم الأعلى وقالوا:)بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون(رأى واجبا عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع، لأن ذلك التغيير هو المناسب لمقام الرسالة.

ويجوز أن تكون كلمة)ويلكم(مستعملة في التعجب من حال غريبة، أي أعجب منكم وأحذركم، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بصير: ويل أمه مسعر حرب فحكي تعجب موسى باللفظ العربي الدال على العجب الشديد.

والويل: اسم للعذاب والشر، وليس له فعل.
وانتصب)ويلكم(إما على إضمار فعل على التحذير أو الإغراء، أي الزموا ويلكم، أو احذروا ويلكم؛ وإما على إضمار حرف النداء فإنهم يقولون: يا ويلنا، ويا ويلتنا، وتقدم عند قوله تعالى)فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم(في سورة البقرة.
والافتراء: اختلاق الكذب. والجمع بينه وبين)كذبا(للتأكيد، وقد تقدم عند قوله تعالى)ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب(في سورة العقود.
والافتراء الذي عناه موسى هو ما يخيلونه للناس من الشعوذة، ويقولون لهم: انظروا كيف تحرك الحبل فصار ثعبانا، ونحو ذلك من توجيه التخيلات بتمويه أنها حقائق، أو قولهم: ما نفعله تأييد من الله لنا، أو قولهم: إن موسى كاذب وساحر، أو قولهم: إن فرعون إلههم، أو آلهة فرعون آلهة. وقد كانت مقالات كفرهم أشتاتا.
قرأ الجمهور)فيسحتكم(بفتح الياء مضارع سحته: إذا استأصله، وهي لغة أهل الحجاز. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، ورويس عن يعقوب بضم الياء التحتية من أسحته، وهي لغة نجد وبني تميم، وكلتا اللغتين فصحى.
وجملة)وقد خاب من افترى(في موضع الحال من ضمير)لا تفتروا(وهي مسوقة مساق التعليل للنهي، أي اجتنبوا الكذب على الله فقد خاب من افترى عليه من قبل. بعد أن وعظهم فنهاهم عن الكذب على الله وأنذرهم عذابه ضرب لهم مثلا بالأمم البائدة الذين افتروا الكذب على الله فلم ينجحوا فيما افتروا لأجله.
و)من(الموصولة للعموم.
وموقع هذه الجملة بعد التي قبلها كموقع القضية الكبرى من القياس الاقتراني.
وفي كلام موسى إعلان بأنه لا يتقول على الله ما لم يأمره به لأنه يعلم أنه يستأصله بعذاب ويعلم خيبة من افترى على الله، ومن كان يعلم ذلك لا يقدم عليه.

)فتنزعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى[62] قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى[63] فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى[64](أي تفرع على موعظة موسى تنازعهم الأمر بينهم،

وهذا يؤذن بأن منهم من تركت فيه الموعظة بعض الأثر، ومنهم من خشي الانخذال، فلذلك دعا بعضهم بعضا للتشاور فيما ذا يصنعون.

والتنازع: تفاعل من النزع، وهو الجذب من البئر، وجذب الثوب من الجسد، وهو مستعمل تمثيلا في اختلاف الرأي ومحاولة كل صاحب رأي أن يقنع المخالف له بأن رأيه هو الصواب. فالتنازع: التخالف.

والنجوى: الحديث السري، أي اختلوا وتحادثوا سرا ليصدروا عن رأي لا يطلع عليه غيرهم، فجعل النجوى معمولا ل)أسروا(يفيد المبالغة في الكتمان، كأنه قيل: أسروا سرهم، كما يقال: شعر شاعر.

وزاده مبالغة قوله)بينهم(المقتضي أن النجوى بين طائفة خاصة لا يشترك معهم فيها غيرهم.

وجملة)قالوا إن هذان لساحران(بدل اشتمال من جملة)وأسروا النجوى(، لأن إسرار النجوى يشتمل على أقوال كثيرة ذكر منها هذا القول، لأنه القول الفصل بينهم والرأي الذي أرسوا عليه، فهو زبدة مخيض النجوى. وذلك شأن التشاور وتنازع الآراء أن يسفر عن رأي يصدر الجميع عنه.

وإسناد القول إلى ضمير جمعهم على معنى: قال بعضهم: هذان لساحران، فقال جميعهم: نعم هذان لساحران، فأسند هذا القول إلى جميعهم، أي مقالة تداولوا الخوض في شأنها فأرسوا عليها وقال بعضهم لبعض: نعم هو كذلك، ونطقوا بالكلام الذي استقر عليه رأيهم، وهو تحققهم أن موسى وأخاه ساحران.

واعلم أن جميع القراء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله)هاذان(ما عدا أبا عمرو من العشرة وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأن إثبات الألف في لفظ هذان أكثر تواترا بقطع النظر عن كيفية النطق بكلمة)إن(مشددة أو مخففة، وأن أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون)إن(ما عدا ابن كثير وحفصا عن عاصم فهما قرءا)إن(بسكون النون على أنها مخففة من الثقيلة.

وإن المصحف الإمام ما رسموه إلا اتباعا لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وقراء أصحابه، فإن حفظ القرآن في صدور القراء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كتب في أصول المصاحف إلا من حفظ الكاتبين، وما كتب المصحف الإمام إلا من مجموع محفوظ الحفاظ وما كتبه كتاب الوحي في مدة نزول الوحي.

فأما قراءة الجمهور)إن هذان لساحران(بتشديد نون)إن(وبالألف في)هذان(وكذلك في)لساحران(، فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستة. وأظهرها أن تكون)إن(حرف جواب مثل:

نعم وأجل، وهو استعمال من استعمالات)إن(، أي اتبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد النجوى كقول عبد الله بن قيس الرقيات:

ويقلن شيب قـد عـلا ك وقد كبرت

فقلت إنه أي أجل أو نعم، والهاء في البيت هاء السكت، وقول عبد الله بن الزبير لأعرابي استجداه فلم يعطه، فقال الأعرابي: لعن الله ناقة حملتني إليك. قال ابن الزبير: أن وراكبيها. وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في تفسيره. وقال: عرضته على عالمينا وشيخينا وأستاذينا محمد بن يزيد يعني المبرد ، وإسماعيل بن إسحاق بن حماد يعني القاضي الشهير فقبلاه وذكرا أنه أجود ما سمعاه في هذا.

وقلت: لقد صدقا وحققا. وما أورده ابن جني عليه من الرد فيه نظر.

وفي التفسير الوجيز للواحدي سأل إسماعيل القاضي)هو ابن إسحاق بن حماد(ابن كيسان عن هذه المسألة، فقال ابن كيسان: لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع)أي في قولهم هذا وهؤلاء إذ هما مبنيان(جرت التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغير. فقال له إسماعيل: ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به؟ فقال له ابن كيسان: فليقل به القاضي حتى يؤنس به، فتبسم.

صفحة : 2653

وعلى هذا التوجيه يكون قوله تعالى)إن هذان لساحران(حكاية لمقال فريق من المتنازعين، وهو الفريق الذي قبل هذا الرأي لأن حرف الجواب يقتضي كلاما سبقه.

ودخلت اللام على الخبر: إما على تقدير كون الخبر جملة حذف مبتدأها وهو مدخول اللام في التقدير، ووجود اللام ينبئ بأن الجملة التي وقعت خبرا عن اسم الإشارة جملة قسمية؛ وإما على رأي من يجيز دخول اللام على خبر المبتدأ في غير الضرورة.

ووجهت هذه القراءة أيضا بجعل)إن(حرف توكيد وإعراب اسمها المثنى جرى على لغة كنانة وبالحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألف في أحوال الإعراب كلها، وهي لغة مشهورة في الأدب العربي ولها شواهد كثيرة منها قول المتلمس:

فأطرق إطراق الشجاع ولو درى

مساغا لنأباه الشجاع لصمـمـا وقرأه حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون)إن(مسكنة على أنها مخففة)إن(المشددة. ووجه ذلك أن

يكون اسم)إن(المخففة ضمير شأن محذوفا على المشهور. وتكون اللام في)لساحران(اللام الفارقة بين)إن(المخففة وبين) إن(النافية.

وقرأ ابن كثير بسكون نون)إن(على أنها مخففة من الثقيلة وبإثبات الألف في)هذان(وبتشديد نون)هاذان(.

وأما قراءة أبي عمرو وحده)إن هذين(بتشديد نون)إن(وبإلياء بعد ذال)هذين(. فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف. وأقول: ذلك لا يطعن فيها لأنها رواية صحيحة ووافقت وجها مقبولا في العربية.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود. فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة)إن هاذان(خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، وليس في ذلك سند صحيح. حسبوا أن المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفل، فإن المصحف ما كتب إلا بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيفا وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كتبت المصاحف إلا من حفظ الحفاظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلا من أفواه حفاظه قبل أن تكتب المصاحف، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها خطأ في الخط لما تبعه القراء، ولكان بمنزلة ما ترك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والربا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلا بألفاتها.

وتأكيد السحرة كون موسى وهارون ساحرين بحرف)إن(لتحقيق ذلك عند من يخامره الشك في صحة دعوتهما.

وجعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحرا لأنهم يطلقون السحر عندهم على خوارق العادات، كما قالت المرأة التي شاهدت نبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم لقومها: جئتكم من عند أسحر الناس، وهو في كتاب المغازي من صحيح البخاري.

والقائلون: قد يكون بعضهم ممن شاهد ما أتى به موسى في مجلس فرعون، أو ممن بلغهم ذلك بالتسامع والاستفاضة.

والخطاب في قوله)أن يخرجاكم(لملئهم. ووجه اتهامهما بذلك هو ما تقدم عند قوله تعالى)قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى(. ونزيد هنا أن يكون هذا من النجوى بين السحرة، أي يريدان الاستئثار بصناعة السحر في أرضكم فتخرجوا من الأرض بإهمال الناس لكم وإقبالهم على سحر موسى وهارون.

والطريقة: السنة والعادة ؛ شبهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، لجامع الملازمة.
والمثلى: مؤنث الأمثل. وهو اسم تفصيل مشتق من المثالة، وهي حسن الحالة يقال: فلان أمثل قومه، أي أقربهم إلى الخير وأحسنهم حالا.
وأرادوا من هذا إثارة حمية بعضهم غيرة على عوائدهم، فإن لكل أمة غيرة على عوائدها وشرائعها وأخلاقها. ولذا فرعوا على ذلك أمرهم بأن يجمعوا حيلهم وكل ما في وسعهم أن يغلبوا به موسى.
والباء في)بطريقتكم(لتعدية فعل)يذهبا(. والمعنى: يذهبانها، وهو أبلغ في تعلق الفعل بالمفعول من نصب المفعول. وتقدم عند قوله تعالى)ذهب الله بنورهم(في أول سورة البقرة.
وقرأ الجمهور)فأجمعوا(بهمزة قطع وكسر الميم أمرا من: أجمع أمره، إذا جعله متفقا عليه لا يختلف فيه.

صفحة : 2654

وقرأ أبو عمرو)فاجمعوا(بهمزة وصل وبفتح الميم أمرا من جمع، كقوله فيما مضى)فجمع كيده(. أطلق الجمع على التعاضد والتعاون، تشبيها للشيء المختلف بالمتفرق، وهو مقابل قوله) فتنازعوا أمرهم(.
وسموا عملهم كيدا لأنهم تواطئوا على أن يظهروا للعامة أن ما جاء به موسى ليس بعجيب، فهم يأتون بمثله أو أشد منه ليصرفوا الناس عن سماع دعوته فيكيدوا له بإبطال خصيصية ما أتى به.
والظاهر أن عامة الناس تسامعوا بدعوة موسى، وما أظهره الله على يديه من المعجزة، وأصبحوا متحيرين في شأنه، فمن أجل ذلك اهتم السحرة بالكيد له، وهو ما حكاه قوله تعالى في آية سورة الشعراء)فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين(.
ودبروا لإرهاب الناس وإرهاب موسى وهارون بالاتفاق على أن يأتوا حين يتقدمون لإلقاء سحرهم مصطفين لأن ذلك أهيب لهم.
ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم يتخيرون لذلك بهاء الهيئة وحسن السمت وجلال المظهر. فكان من ذلك جلوس الملوك على جلود الأسود، وربما لبس الأبطال جلود النمور في الحرب. وقد فسر به فعل تنمروا في قول ابن معد يكرب:
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا وقيل: إن ذلك المراد من قولهم الجاري مجرى المثل لبس لي فلان جلد النمر . وثبت في

التاريخ المستند للآثار أن كهنة القبط في مصر كانوا يلبسون جلود النمور.
والصف: مصدر معنى الفاعل أو المفعول، أي صافين أو مصفوفين، إذا ترتبوا واحدا حذو الآخر بانتظام بحيث لا يكونون مختلطين، لأنهم إذا كانوا الواحد حذو الآخر وكان الصف منهم تلو الآخر كانوا أبهر منظرا، قال تعالى)إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا(. وكان جميع سحرة البلاد المصرية قد أحضروا بأمر فرعون فكانوا عددا كثيرا. فالصف هنا مراد به الجنس لا الوحدة، أي ثم ائتوا صفوفا، فهو كقوله تعالى)يوم يقوم الروح والملائكة صفا(وقال) والملك صفا صفا(.
وانتصب)صفا(على الحال من فاعل)ائتوا(. والمقصود الإتيان إلى موضع إلقاء سحرهم وشعوذتهم، لأن النتاجي والتآمر كان في ذلك اليوم بقرينة قولهم)وقد أفلح اليوم من استعلى(.
وجملة)وقد أفلح اليوم من استعلى(تذييل للكلام يجمع ما قصدوه من تآمرهم بأن الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع.
ف)استعلى(مبالغة في علا، أي علا صاحبه وقهره. فالسين والتاء للتأكيد مثل استأخر.
وأرادوا الفلاح في الدنيا لأنهم لم يكونوا يؤمنون بأن أمثال هذه المواقف مما يؤثر في حال الحياة الأبدية وإن كانوا يؤمنون بالحياة الثانية.
)قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى[65] قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى[66](تقدمت هذه القصة ومعانيها في سورة الأعراف سوى أن الأولية هنا مصرح بها في أحد الشقين. فكانت صريحة في أن التخيير يتسلط على الأولية في الإلقاء، وسوى أنه صرح هنا بأن السحر الذي ألقوه كان بتخييل أن حبالهم وعصيهم ثعابين تسعى لأنها لا يشبهها في شكلها من أنواع الحيوان سوى الحيات والثعابين.
والمفاجأة المستفادة من)إذا(دلت على أنهم أعدوها للإلقاء وكانوا يخشون أن يمر زمان تزول به خاصياتها فلذلك أسرعوا بإلقائها.
وقرأ الجمهور)يخيل(بتحتية في أول الفعل على أن فاعله المصدر من قوله)أنها تسعى(. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر، وروح عن يعقوب)تخيل(بفوقية في أوله على أن الفعل رافع لضمير)حبالهم وعصيهم(، أي هي تخيل إليه.
و)أنها تسعى(بدل من الضمير المستتر بذل اشتمال.

وهذا التخييل الذي وجده موسى من سحر السحرة هو أثر عقاقير يشربونها تلك الحبال والعصي، وتكون الحبال من صنف خاص، والعصي من أعواد خاصة فيها فاعلية لتلك العقاقير، فإذا لاقت شعاع الشمس اضطربت تلك العقاقير فتحركت الحبال والعصي. قيل: وضعوا فيها طلاء الزئبق. وليس التخييل لموسى من تأثير السحر في نفسه لأن نفس الرسول لا تتأثر بالأوهام، ويجوز أن تتأثر بالمؤثرات التي يتأثر منها الجسد كالمرض، ولذلك وجب تأويل ظاهر حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في سحر النبي صلى الله عليه وسلم وأخبار الآحاد لا تنقض القواطع. وليس هذا محل ذكره وقد حققته في كتابي المسمى النظر الفسيح على صحيح البخاري.

و)من(في قوله)من سحرهم(للسببية كما في قوله تعالى)مما خطيئاتهم أغرقوا(.

)فأوجس في نفسه خيفة موسى[67] قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى[68] وألق ما قي يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى[69](أوجس: أضمر واستشعر. وانتصاب) خيفة(على المفعولية، أي وجد في نفسه. وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى)نكرهم وأوجس منهم خيفة(في سورة هود.

و)خيفة(اسم هيئة من الخوف، أريد به مطلق المصدر. وأصله خوفة، فقلبت الواو ياء لوقوعها أثر كسرة.

وزيادة)في نفسه(هنا للإشارة إلى أنها خيفة تفكر لم يظهر أثرها على ملامحه. وإنما خاف موسى من أن يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعبانا، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة، أو خشي أن يكون الله أراد استدراج السحرة مدة فيملي لهم بظهور غلبهم عليه ومده لما تكون له العاقبة فخشي ذلك. وهذا مقام الخوف، وهو مقام جليل مثله مقام النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إذ قال: اللهم إني أسألك نصرك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض .

والدليل على هذا قوله تعالى)قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى(. فتأكيد الجملة بحرف التأكيد وتقوية تأكيدها بضمير الفصل وبالتعريف في) الأعلى(دليل على أن ما خامره من الخوف إنما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما. وهو وإن كان موقنا بأن الله ينجز له ما أرسله لأجله لكنه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدة قليلة لإظهار ثبات إيمان المؤمنين، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(.

وعبر عن العصا ب)ما(الموصولة تذكيرا له بيوم التكليم إذ قال له)وما تلك بيمينك يا موسى(ليحصل له الاطمئنان بأنها صائرة إلى الحالة التي صارت إليها يومئذ، ولذلك لم يقل له: وألق عصاك.
والتلقف: الابتلاع. وقرأه الجمهور بجزم)تلقف(في جواب قوله) وألق(. وقرأه ابن ذكوان برفع)تلقف(على الاستئناف.
وقرأ الجمهور)تلقف(بفتح اللام وتشديد القاف .
وقرأه حفص بسكون اللام وفتح القاف من لقف كفرح.
وجملة)إنما صنعوا كيد ساحر(مستأنفة ابتدائية، وهي مركبة من) إن(و)ما(الموصولة.)وكيد ساحر(خبر)إن(. والكلام إخبار بسيط لا قصر فيه. وكتب)إنما(في المصحف موصولة)إن(ب)ما(الموصولة كما توصل ب)ما(الكافة في نحو)إنما حرم عليكم الميتة(ولم يكن المتقدمون يتوخون الفروق في رسم الخط.
وقرأ الجمهور)كيد ساحر(بألف بعد السين. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف)كيد سحر(بكسر السين .
وجملة)ولا يفلح الساحر حيث أتى(من تمام الجملة التي قبلها، فهي معطوفة عليها وحال من ضمير)إنما صنعوا(، أي لا ينجح الساحر حيث كان، لأن صنعته تنكشف بالتأمل وثبات النفس في عدم التأثر بها. وتعريف)الساحر(تعريف الجنس لقصد الجنس المعروف، أي لا يفلح بها كل ساحر.
واختير فعل)أتى(دون نحو: حيث كان، أو حيث حل، لمراعاة كون معظم أولئك السحرة مجلوبون من جهات مصر، وللرعاية على فواصل الآيات الواقعة على حرف الألف المقصورة.
وتعميم)حيث أتى(لعموم الأمكنة التي يحضرها، أي بسحره.
وتعليق الحكم بوصف الساحر يقتضي أن نفي الفلاح عن الساحر في أمور السحر لا في تجارة أو غيرها. وهذا تأكيد للعموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي، لأن عموم الأشياء يستلزم عموم الأمكنة التي تقع فيها.

)فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى[70] قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف ولأصلبنكم قي جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى[71](الفاء عاطفة على محذوف يدل عليه قوله)وألق ما في يمينك(. والتقدير: فألقي فتلقفت ما صنعوا، كقوله تعالى)أن اضرب بعصاك البحر فانفلق(.

والإلقاء: الطرح على الأرض. وأسند الفعل إلى المجهول لأنهم لا ملقي لهم إلا أنفسهم، فكأنه قيل: فألقوا أنفسهم سجدا، فإن سجودهم كان إعلانا باعترافهم أن موسى مرسل من الله. ويجوز أن يكون سجودهم تعظيما لله تعالى.

ويجوز أن يكون دلالة على تغلب موسى عليهم فسجدوا تعظيما له.

ويجوز أن يريدوا به تعظيم فرعون، جعلوه مقدمة لقولهم)آمنا برب هارون وموسى(حذرا من بطشه.

وسجد: جمع ساجد.

وجملة)قالوا(يصح أن تكون في موضع الحال، أي ألقوا قائلين. ويصح أن تكون بدل اشتمال من جملة)فألقي السحرة سجدا(فإن سجودهم اشتمل على إيمانهم، وأن تكون مستأنفة ابتدائية لافتتاح المحاورة بينهم وبين فرعون.

وإنما آمنوا بالله حينئذ لأنهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنهم أئمة السحر فعلموا أنه آية من عند الله.

وتعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون.

وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى في سورة الأعراف)قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون(لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأن الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه، فهم عرفوا الله بأنه رب هذين الرجلين؛ فحكي كلامهم بما يدل على ذلك؛ إلا ترى أنه حكي في سورة الأعراف قول السحرة)قالوا آمنا برب العالمين(، ولم يحك ذلك هنا، لأن حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي وإنما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة.

ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المحكي، إذ وقع في الآية الأخرى)قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون(. ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتبارا بكبر سنه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارا بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين.

ويقال: آمن له، أي حصل عنده الإيمان لأجله. كمه يقال: آمن به، أي حصل الإيمان عنده بسببه، وأصل الفعل أن يتعدى بنفسه لأن

آمنه بمعنى صدقه. ولكنه كاد أن لا يستعمل في معنى التصديق ألا بأحد هذين الجرفين.
وقرأ قالون وورش من طريق الأزرق، وأبن عامر، وأبو عمرو، وأبوجعفر، وروح عن يعقوب)آمنتم(بهمزة واحدة بعدها مدة وهي المدة الناشئة عن تسهيل الهمز الأصلية في فعل آمن، على أن الكلام استفهام.
وقرأه ورش عن طريق الأصفهاني، وابن كثير، وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب بهمزة واحدة على أن الكلام خبر، فهو خبر مستعمل في التوبيخ. وقرأه حمزة، والكساءي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بهمزتين على الاستفهام أيضا.
ولما رأى فرعون إيمان السحرة تغيظ ورام عقابهم ولكنه علم أن العقاب على الأيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا علة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون، فعد ذلك جرأة عليه، وأوهم أنهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته. ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى لم يأت بما يعجز السحرة إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شنشنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر. ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة.

وضمير له عائد إلى موسى مثل ضمير)إنه لكبيركم(.ومعنى) قبل أن آذن لكم(قبل أن أسوغ لكم أن تؤمنوا به.يقال: أذن له، إذ أباح له شيئا.
والتقطيع: شدة القطع. ومرجع المبالغة إلى الكيفية، وهي ما وصفه بقوله)من خلاف(أي مختلفة، بأن لا تقطع على جانب واحد بل من جانبين مختلفين، أي تقطع اليد ثم الرجل من الجهة المخالفة لجهة اليد المقطوعة ثم اليد الأخرى ثم الرجل الأخرى. والظاهر: أن القطع على هذه الكيفية كان شعارا لقطع المجرمين، فيكون ذكر هذه الصفة حكاية للواقع لا للاحتراز عن قطع بشكل آخر، إذ لا أثر لهذه الصفة في تفظيع ولا في شدة إيلام إذا كان ذلك يقع متتابعا.
وأما ما جاء في الإسلام في عقوبة المحارب فإنما هو قطع عضو واحد عند كل حرابة فهو من الرحمة في العقوبة لئلا يتعطل انتفاع

المقطوع بباقي أعضائه من جراء قطع يد ثم رجل من جهة واحدة، أو قطع يد بعد يد وبقاء الرجلين.
و)من(في قوله)من خلاف(للابتداء، أي يبدأ القطع من مبدأ المخالفة بين المقطوع. والمجرور في موضع الحال، وقد تقدم نظيره في سورة الأعراف وفي سورة المائدة.
والتصليب: مبالغة في الصلب. والصلب: ربط الجسم على عود منتصب أو دقه عليه بمسامير، وتقدم عند قوله تعالى)وما قتلوه وما صلبوه(في سورة النساء. والمبالغة راجعة إلى الكيفية أيضا بشدة الدق على الأعواد.
ولذلك عدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية تشبيها لشدة تمكن المصلوب من الجذع بتمكن الشيء الواقع في وعائه.
والجذوع: جمع جذع بكسر الجيم وسكون الذال وهو عود النخلة. وقد تقدم عند قوله تعالى)وهزي إليك بجذع النخلة(. وتعدية فعل)لأصلبنكم(بحرف)في(مع أن الصلب يكون فوق الجذع لا داخله ليدل على أنه صلب متمكن يشبه حصول المظروف في الظرف، فحرف)في(استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلق معنى) في(لمتعلق معنى)على(.
وأينا: استفهام عن مشتركين في شدة التعذيب. وفعل) لتعلمن(معلق عن العمل الاستفهام في آخره. وأراد بالمشتركين نفسه ورب موسى سبحانه لأنه علم من قولهم)آمنا برب هارون وموسى(أن الذي حملهم على الإيمان به ما قدم لهم موسى من الموعظة حين قال لهم بمسمع من فرعون)ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب(، أي وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حذرتموه. وهذا من عروره. ويدل على أن ذلك مراد فرعون ما قابل به المؤمنون قوله)أينا أشد عذابا وأبقى(بقولهم)والله خير وأبقى(، أي خير منك وأبقى عملا من عملك، فثوابه خير من رضاك وعذابه أشد من عذابك.
)قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا[72] إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطينا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى[73](أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرفت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل صدق.
والإيثار: التفضيل. وتقدم في قوله تعالى)بقد آثرك الله علينا(في سورة يوسف. والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البينات مقتض

حذف مضاف يناسب المقابلة بالبينات، أي لن نؤثر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البينات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى، وبذلك يلتئم عطف)والذي فطرنا(، أي لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا.

وجيء بالموصول للإيماء إلى التعليل، لأن الفاطر هو المستحق بالإيثار.

وأخر)الذي فطرنا(عن)ما جاءنا من البينات(لأن البينات دليل على أن الذي خلقهم أراد منهم الإيمان بموسى ونبذ عبادة غير الله، ولأن فيه تعريضا بدعوة فرعون للإيمان بالله.

صفحة : 2658

وصيغة الأمر في قوله)فاقض ما أنت قاض(مستعملة في التسوية، لأن)ما أنت قاض(ما صدقه ما توعدهم له من تقطيع الأيدي والأرجل والصلب، أي سواء علينا ذلك بعضه أو كله أو عدم وقوعه، فلا نطلب منك خلاصا منه جزاء طاعتك فافعل ما أنت فاعل)والقضاء هنا التنفيذ والإنجاز(فإن عذابك لا يتجاوز هذه الحياة ونحن نرجو من ربنا الجزاء الخالد.

وانتصب)هذه الحياة(على النيابة عن المفعول فيه، لأن المراد بالحياة مدتها.

والقصر المستفاد من)إنما(قصر موصوف على صفة، أي أنك مقصور على القضاء في هذه الحياة الدنيا لا يتجاوزه إلى القضاء في الآخرة، فهو قصر حقيقي.

وجملة)إنا آمنا بربنا(في محل العلة لما تضمنه كلامهم.

ومعنى)وما أكرهتنا عليه من السحر(أنه اكرههم على تحديهم موسى بسحرهم فعلموا أن فعلهم باطل وخطيئة لأنه استعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة.

وجملة)والله خير وأبقى(في موضع الحال، أو معترضة في آخر الكلام للتذييل. والمعنى: أن الله خير لنا بأن نؤثره منك. والمراد: رضى الله، وهو أبقى منك، أي جزاؤه في الخير والشر أبقى من جزائك فلا يهولنا قولك)ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى(، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة.

)إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى[74] ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى[75] جنت عدن تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى[76](هذه الجمل معترضة بين حكاية قصة السحرة وبين ذكر

قصة خروج بني إسرائيل، ساقها الله موعظة وتأييدا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون. وقيل: هي من كلام أولئك المؤمنين. ويبعده أنه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصة.

والمجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية والفعل الخبيث. والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، كقوله تعالى)إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون(.

واللام في)له جهنم(لام الاستحقاق، أي هو صائر إليها لا محالة، ويكون عذابه متجددا فيها؛ فلا هو ميت لأنه يحس بالعذاب ولا هو حي لأنه في حالة الموت أهون منها، فالحياة المنفية حياة خاصة وهي الحياة الخالصة من العذاب والآلام. وبذلك لم يتناقض نفيها مع نفي الموت، وهو كقول عباس بن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تدرإ فلم

أعط شيئا ولم أمـنع وليس هذا من قبيل قوله)إنها بقرة ولا فارض ولا بكر(ولا قوله)زيتونة لا شرقية ولا غربية(.

وأما خلود غير الكافرين في النار من أهل الكبائر فإن قوله)لا يموت فيها ولا يحيى(جعلها غير مشمولة لهذه الآية. ولها أدلة أخرى اقتضت خلود الكافر وعدم خلود المؤمن العاصي. ونازعنا فيها المعتزلة والخوارج. وليس هذا موضع ذكرها وقد ذكرناها في مواضعها من هذا التفسير.

والإتيان باسم الإشارة في قوله)فأولئك لهم الدرجات(للتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق اسم الإشارة.

وتقدم معنى)عدن(وتفسير)تجري من تحتها الأنهار(في قوله تعالى)وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن(في سورة براءة.

والتزكي: التطهر من المعاصي.

)ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخف دركا ولا تخشى[77](افتتاح الجملة بحرف التحقيق للاهتمام بالقصة ليلقي السامعون إليها أذهانهم. وتغيير الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مؤذن بأن قصصا طويت بين ذكر القصتين، فلو اقتصر على حرف العطف لتوهم أن حكاية القصة الأولى لم تزل متصلة فتوهم أن الأمر بالخروج وقع مواليا لانتهاء محضر السحرة، مع أن بين ذلك قصصا كثيرة ذكرت في سورة الأعراف وغيرها، فإن الخروج وقع بعد ظهور آيات كثيرة لإرهاب فرعون كلما هم بإطلاق بني إسرائيل للخروج. ثم نكل إلى أن أذن لهم بآخرة فخرجوا ثم ندم على ذلك فأتبعهم.

فجملة)ولقد أوحينا إلى موسى(ابتدائية، والواو عاطفة قصة على قصة وليست عاطفة بعض أجزاء قصة على بعض آخر.

صفحة : 2659

و)اسر(أمر من السرى بضم السين وفتح الراء وتقدم في سورة الإسراء أنه يقال: سرى وأسرى. وإنما أمره الله بذلك تجنبا لنكول فرعون عليهم. والإضافة في قوله)بعبادي(لتشريفهم وتقريبهم والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون.
والضرب: هنا بمعنى الجعل كقولهم: ضرب الذهب دنانير. وفي الحديث: واضربوا إلي معكم بسهم ، وليس هو كقوله)أن اضرب بعصاك البحر(لأن الضرب هناك متعد إلى البحر وهنا نصب طريقا.
واليبس بفتح المثناة والموحدة . ويقال: بسكون الموحدة : وصف بمعنى اليابس. وأصله مصدر كالعدم والعدم، وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنث فقالوا: ناقة يبس إذا جف لبنها.
و)لا تخاف(مرفوع في قراءة الجمهور، وعد لموسى اقتصر على وعده دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى. والجملة في موضع الحال.
وقرأ حمزة وحده)لا تخف(على جواب الأمر الذي في قوله) فاضرب(، وكلمة)تخف(مكتوبة في المصاحف بدون ألف لتكون قراءتها بالوجهين لكثرة نظائر هذه الكلمة ذات الألف في وسطها في رسم المصحف ويسميه المؤدبون المحذوف .
وأما قوله)ولا تخشى(فالإجماع على قراءته بألف في آخره. فوجه قراءة حمزة فيها مع أنه قرأ بجزم المعطوف عليه أن تكون الألف للإطلاق لأجل الفواصل مثل ألف)فأضلونا السبيلا(وألف)وتظنون بالله الظنونا(، أو أن تكون الواو في قوله)ولا تخشى(للاستئناف لا للعطف.
و)الدرك(بفتحتين اسم مصدر الإدراك، أي لا تخاف أن يدركك فرعون.
والخشية: شدة الخوف. وحذف مفعوله لإفادة العموم، أي لا تخشى شيئا، وهو عام مراد به الخصوص، أي لا تخشى شيئا مما يخشى من العدو ولا من الغرق.
)فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم[78] وأضل فرعون قومه وما هدى[79](الفاء فصيحة عاطفة على مقدر يدل عليه الكلام السابق، أي فسرى بهم فأتبعهم فرعون، فإن فرعون بعد أن رأى آيات غضب الله عليه وعلى قومه وأيقن أن ذلك كله

تأييد لموسى أذن لموسى وهارون أن يخرجا بني إسرائيل، وكان إذن فرعون قد حصل ليلا لحدوث موتان عظيم في القبط في ليلة الشهر السابع من أشهر القبط وهو شهر برمهات وهو الذي اتخذه اليهود رأس سنتهم بإذن من الله وسموه تسري فخرجوا من مدينة رعمسيس قاصدين شاطئ البحر الأحمر. وندم فرعون على إطلاقهم فأراد أن يلحقهم ليرجعهم إلى مدينته، وخرج في مركبته ومعه ستمائة مركبة مختارة ومركبات أخرى تحمل جيشه.

وأتبع: مرادف تبع. والباء في بجنوده للمصاحبة.

واليم: البحر. وغشيانه إياهم: تغطيته جثثهم، أي فغرقوا.

وقوله)ما غشيهم(يفيد ما أفاده قوله)فغشيهم من اليم(إذ من المعلوم أنهم غشيهم غاش، فتعين أن المقصود منه التهويل، أي بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يستطاع وصفه. قال في الكشاف)هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قتلها بالمعاني الكثيرة(. وهذا الجزء من القصة تقدم في سورة يونس.

وجملة)وأضل فرعون قومه(في موضع الحال من الضمير في) غشيهم(. والإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل. ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضر وهو المراد هنا. والمعنى: أن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام .

وعطف)وما هدى(على)أضل(: إما من عطف الأعم على الأخص لأن عدم الهدى يصدق بترك الإرشاد من دون إضلال؛ وإما أن يكون تأكيدا لفظيا بالمرادف مؤكدا لنفي الهدى عن فرعون لقومه فيكون قوله)وما هدى(تأكيدا ل)أضل(بالمرادف كقوله تعالى)أموات غير أحياء(وقول الأعشى: حفاة لا نعال لنا من قوله:

إما ترينا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى وننتعل

صفحة : 2660

وفي الكشاف: إن نكتة ذكر)وما هدى(التهكم بفرعون في قوله)وما أهديكم إلا سبيل الرشاد(اه. يعني أن في قوله)وما هدى(تلميحا إلى قصة قوله المحكي في سورة غافر)قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد(وما في هذه من قوله)بطريقتكم المثلى(، أي هي هدي، فيكون من التلميح إلى لفظ وقع في قصة مفضيا إلى التلميح إلى القصة كما في قول مهلهل:

لو كشف المقابر عن كليب فخبر

بالذنـائب أي زير يشير إلى قول كليب له على وجه الملامة: أنت زير نساء.

)يا بني إسرائيل قد أنجينكم من عدوكم ووعدنكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى[80] كلوا من طيبات ما رزقنكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى[81] وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صلحا ثم اهتدى[82] (هذه الجمل معترضة في أثناء القصة مثل ما تقدم آنفا في قوله تعالى)إنه من يأت ربه مجرما(الآية. وهذا خطاب لليهود الذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم تذكيرا لهم بنعم أخرى.

وقدمت عليها النعمة العظيمة، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة.

وقرأ الجمهور)قد أنجيناكم( )وواعدناكم(بنون العظمة . وقرأهما حمزة، والكسائي، وخلف)قد أنجيتكم( )ووعدتكم(بتاء المتكلم.

وذكرهم بنعمة نزول الشريعة وهو ما أشار إليه قوله)وواعدناكم جانب الطور الأيمن(. والمواعدة: اتعاد من جانبين، أي أمرنا موسى بالحضور للمناجاة فذلك وعد من جانب الله بالمناجاة، وامتثال موسى لذلك وعد من جانبه، فتم معنى المواعدة، كما قال تعالى في سورة البقرة)وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة(.

ويظهر أن الآية تشير إلى ما جاء في الإصحاح 19 من سفر الخروج: في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر جاءوا إلى برية سيناء هنالك نزل إسرائيل مقابل الجبل. وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلا: هكذا نقول لبيت يعقوب أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور، إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة...:إلخ.

وذكر الطور تقدم في سورة البقرة.

وجانب الطور: سفحه. ووصفه بالأيمن باعتبار جهة الشخص المستقبل مشرق الشمس، وإلا فليس للجبل يمين وشمال معينان، وإنما تعرف بمعرفة أصل الجهات وهو مطلع الشمس، فهو الجانب القبلي باصطلاحنا. وجعل محل المواعدة الجانب القبلي وليس هو من الجانب الغربي الذي في سورة القصص)فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة(، وقال فيها) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر(فهو جانب غربي، أي من جهة مغرب الشمس من الجبل، وهو الذي آنس موسى منه نارا.

وانتصب جانب الطور على الظرفية المكانية لأنه لاتساعه بمنزلة المكان المبهم.

ومفعول المواعدة محذوف، تقديره: المناجاة.

وتعدية)وأعناكم(إلى ضمير جماعة بني إسرائيل وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه باعتبار أن المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا. للأمة فكانت المواعدة مع أولئك كالموعدة مع جميع الأمة.
وقرأ الجميع)ونزلنا عليكم(الخ؛ فباعتبار قراءة حمزة، والكسائي، وخلف)قد أنجيتكم وواعدتكم(بتاء المفرد تكون قراءة)ونزلنا(بنون العظمة قريبا من الالتفات وليس عينه، لأن نون العظمة تساوي تاء المتكلم.
والسلوى تقدم في سورة البقرة. وكان ذلك في نصف الشهر الثاني من خروجهم من مصر كما في الإصحاح 16 من سفر الخروج.
وجملة)كلوا(مقول محذوف. تقديره: وقلنا أو قائلين. وتقدم نظيره في سورة البقرة.
وقرأ الجمهور)ما رزقناكم(بنون العظمة. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف)ما رزقناكم(بتاء المفرد.
والطغيان: أشد الكبر. ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم.
وحرف)في(الظرفية استعارة تبعية؛ شبه ملابسة الطغيان للنعمة بحلول الطغيان فيها تشبيها للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعم عليه على طريقة المكنية، وحرف الظرفية قرينتها.

صفحة : 2661

والحلول: النزول والإقامة بالمكان؛ شبهت إصابة آثار الغضب إياهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم.
وقرأ الجمهور)فيحل عليكم(بكسر الحاء وقرأوا)ومن يحلل عليه غضبي(بكسر اللام الأولى على أنهما فعلا حل الدين يقال: حل الدين إذا آن أجل أدائه. وقرأه الكسائي بالضم في الفعلين على أنه من حل بالمكان يحل إذا نزل به. كذا في الكشاف ولم يتعقبوه.
وهذا مما أهمله ابن مالك في لامية الأفعال. ولم يستدركه شارحها بحرق اليمني في الشرح الكبير. ووقع في المصباح ما يخالفه ولا يعول عليه. وظاهر القاموس أن حل بمعنى نزل يستعمل قاصرا ومتعديا، ولم أقف لهم على شاهد في ذلك.
وهوى: سقط من علو، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده، كما قالوا: هوت أمه، دعاء عليه، وكما يقال: ويل أمه، ومنه:)فأمه

هاوية(، فأريد هوي مخصوص، وهو الهوي من جبل أو سطح بقرينة التهديد.
وجملة)وإني لغفار(إلى آخرها استطراد بعد التحذير من الطغيان في النعمة بالإرشاد إلى ما يتدارك به الطغيان إن وقع بالتوبة والعمل الصالح. ومعنى)تاب(: ندم على كفره وآمن وعمل صالحا.
وقوله)ثم اهتدى( )ثم(فيه للتراخي في الرتبة؛ استعيرت للدلالة على التباين بين الشيئين في المنزلة كما كانت للتباين بين الوقتين في الحدوث. ومعنى)اهتدى(: استمر على الهدى وثبت عليه، فهو كقوله تعالى)إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون(.
والآيات تشير إلى ما جاء في الإصحاح من سفر الخروج)الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان غافر الإثم والخطيئة ولكنه لن يبرئ إبراء(.
)وما أعجلك عن قومك يا موسى[83] قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى[84] قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري[85](عطف على جملة)اسر بعبادي(الواقعة تفسيرا لفعل)أوحينا إلى موسى(، فقوله)وما أعجلك عن قومك(هو مما أوحى الله به إلى موسى. والتقدير: وأن: ما أعجلك اله. وهو إشارة إلى ما وقع لهم أيام مناجاة موسى في الطور في الشهر الثالث لخروجهم من مصر. وهذا الجزء من القصة لم يذكر في سورة الأعراف.
والإعجال: جعل الشيء عاجلا.
والاستفهام مستعمل في اللوم. والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أن موسى تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبان الذي عينه الله له، اجتهادا منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيه مكرا، فكان في ذلك بمنزلة أبي بكر حين دخل المسجد فوجد النبي صلى الله عليه وسلم راكعا فركع ودب إلى الصف فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:)زادك الله حرصا ولا تعد(.
وقريب من تصرف موسى عليه السلام أخذ المجتهد بالدليل الذي له معارض دون علم بمعارضة، وكان ذلك سبب افتتان قومه بصنع صنم يعبدونه.
وليس في كتاب التوراة ما يشير إلى أكثر من صنع بني إسرائيل العجل من ذهب اتخذوه إلها في مدة مغيب موسى، وأن سبب ذلك

استبطاؤهم رجوع موسى)قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى(.
وقوله هنا)هم أولاء على أثري(يدل على أنهم كانوا سائرين خلفه وأنه سبقهم إلى المناجاة.
واعتذر عن تعجله بأنه عجل إلى استجابة أمر الله مبالغة في إرضائه، فقوله تعالى)فإنا قد فتنا قومك من بعدك(فيه ضرب من الملام على التعجل بأنه تسبب عليه حدوث فتنة في قومه ليعلمه أن لا يتجاوز ما وقت له ولو كان لرغبة في ازدياد من الخير.
والأثر بفتحتين : ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف. ويقال: إثر بكسر الهمزة وسكون الثاء وهما لغتان فصيحتان كما ذكر ثعلب. فمعنى قولهم: جاء على إثره، جاء مواليا له بقرب مجيئه، شبه الجائي الموالي بالذي يمشي على علامات أقدام من مشى قبل أن يتغير ذلك الأثر بأقدام أخرى، ووجه الشبه هو موالاته وأنه لم يسبقه غيره.

صفحة : 2662

والمعنى: هم أولاء سائرون على مواقع أقدامي، أي موالون لي في الوصول. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم:)وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي(، تقديره: يحشرون سائرين على آثار قدمي.
وقرأ الجمهور)على أثري(بفتحتين. وقرأه رويس عن يعقوب بكسر الهمزة وسكون الثاء .
واستعمل تركيب)هم أولاء(مجردا عن حرف التنبيه في أول اسم الإشارة خلافا لقوله في سورة النساء)ها أنتم هؤلاء جادلتم(.
وتجريد اسم الإشارة من هاء التنبيه استعمال جائز وأقل منه استعماله بحرف التنبيه مع الضمير دون اسم الإشارة، نحو قول عبد بني الحسحاس:
ها أنا دون الحبيب يا وجع وتقدم عند قوله تعالى)ها أنتم أولاء تحبونهم(في سورة آل عمران.
وإسناد الفتن إلى الله باعتبار أنه مقدره وخالق أسبابه البعيدة. وأما إسناده الحقيقي فهو الذي في قوله)وأضلهم السامري(لأنه السبب المباشر لضلالهم المسبب لفتنتهم.
و)السامري(يظهر أن ياءه ياء نسبة، وأن تعريفه باللام للعهد. فأما النسبة فأصلها في الكلام العربي أن تكون إلى القبائل والعشائر؛ فالسامري نسب إلى اسم أبي قبيلة من بني إسرائيل أو غيرهم

يقارب اسمه لفظ سامر، وقد كان من الأسماء القديمة)
شومر(و)شامر(وهما يقاربان اسم سامر لا سيما مع التعريب. وفي
أنوار التنزيل: السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها:
السامرة اه. أخذنا من كلام البيضاوي أن السامري منسوب إلى
قبيلة وأما قوله)من بني إسرائيل(فليس بصحيح. لأن السامرة أمة
من سكان فلسطين في جهة نابلس في عهد الدولة الرومية
البيزنطية(وكانوا في فلسطين قبل مصير فلسطين بيد بني إسرائيل
ثم امتزجوا بالإسرائيليين واتبعوا شريعة موسى عليه السلام مع
تخالف في طريقتهم عن طريقة اليهود. فليس هو منسوبا إلى مدينة
السامرة القريبة من نابلس لأن مدينة السامرة بناها الملك عمري
ملك مملكة إسرائيل سنة 925 قبل المسيح، وجعلها قصبة مملكته،
وسماها)شوميرون(لأنه بناها على جبل اشتراه من رجل اسمه
شامر بوزنتين من الفضة، فعربتفي العربية إلى سامرة، وكان الهود
يعدونها مدينة كفر وجور، لأن عمري بانيها وابنه آخاب قد
أفسدوا ديانة التوراة وعبدا الأصنام المنعانية. وأمر الله النبي إلياس
بتوبيخهما والتثوير عليهما، فلا جرم لم تكن موجودة زمن موسى ولا
كانت ناحيتها من أرض بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام .
ويحتمل أن يكون السامري نسبا إلى قرية اسمها السامرة من
قرى مصر، كما قال بعض أهل التفسير، فيكون فتى قبطيا اندس
في بني إسرائيل لتعلقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم. وعن
سعيد بن جبير: كان السامري من أهل كرمان ، وهذا يقرب أن
يكون السامري تعربب كرماني بتبديل بعض الحروف وذلك كثير في
التعريب.
ويجوز أن تكون الياء من السامري غير ياء نسب بل حرفا من
اسم مثل: ياء علي وكرسي، فيكون اسما أصليا أو منقولا في
العبرانية، وتكون اللام في أوله زائدة.
وذكر الزمخشري والقرطبي خليطا من القصة: أن السامري اسمه
موسى بن ظفر بفتح الظاء المعجمة وفتح الفاء وأنه ابن خالة
موسى عليه السلام أو ابن خاله، وأنه كفر بدين موسى بعد أن
كان مؤمنا به، وزاد بعضهم على بعض تفاصيل تشمئز النفس منها.
واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضا
السامرة، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في
أصول الدين، فهم لا يعظمون بيت المقدس وينكرون نبوءة أنبياء
بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه الشذوذات
فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة
السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخص
في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم، ودام ذلك الشذوذ

فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام . ففي إنجيل متى إصحاح 10 وفي إنجيل لوقا إصحاح 9 ما يقتضي أن بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح، وأنه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم.

صفحة : 2663

ووقعت في كتاب الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين زلة كبرى، إذ زعموا أن هارون صنع العجل لهم لما قالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنا لا نعلم ماذا أصاب موسى في الجبل فصنع لهم عجلا من ذهب . وأحسب أن هذا من آثار تلاشي التوراة الأصلية بعد الأسر البابلي، وأن الذي أعاد كتبها لم يحسن تحرير هذه القصة. ومما نقطع به أن هارون معصوم من ذلك لأنه رسول.
)فرجع موسى إلى قومه غضبن أسفا قال يقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي[86](الغضب: انفعال للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوءها ويسخطها دون خوف، والوصف منه غضبان.
والأسف: انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر. والوصف منه أسف. وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى لأنه يسوءه وقوع ذلك في أمته وهو لا يخافهم، فانفعاله المتعلق بحالهم غضب، وهو أيضا يحزنه وقوع ذلك وهو في مناجاة الله تعالى التي كان يأمل أن تكون سبب رضى الله عن قومه فإذا بهم أتوا بما لا يرضي الله فقد انكسر خاطره بين يدي ربه.
وهذا ابتداء وصف قيام موسى في جماعة قومه وفيهم هارون وفيهم السامري، وهو يقرع أسماعهم بزواجر وعظه، فابتدأ بخطاب قومه كلهم، وقد علم أن هارون لا يكون مشايعا لهم، فلذلك ابتدأ بخطاب قومه ثم وجه الخطاب إلى هارون بقوله، قال)يا هارون ما منعك(.
وجملة)قال يا قوم(مستأنفة بيانية.
وافتتاح الخطاب ب)يا قوم(تمهيد للوم لأن انجرار الأذى للرجل من قومه أحق في توجيه الملام عليهم، وذلك قوله)فأخلفتم موعدي(.
والاستفهام في)ألم يعدكم ربكم(إنكاري؛ نزلوا منزلة من زعم أن الله لم يعدهم وعدا حسنا لأنهم أجروا أعمالهم على حال من يزعم ذلك فأنكر عليهم زعمهم. ويجوز أن يكون تقريريا، وشأنه أن يكون على فرض النفي كما تقدم غير مرة.

والوعد الحسن هو: وعده موسى بإنزال التوراة، ومواعدته ثلاثين ليلة للمناجاة، وقد أعلمهم بذلك، فهو وعد لقومه لأن ذلك لصلاحهم، ولأن الله وعدهم بأن يكون ناصرا لهم على عدوهم وهاديا لهم في طريقهم، وهو المحكي في قوله)وواعدناكم جانب الطور الأيمن(.
والاستفهام في)أفطال عليكم العهد(مفرع على قوله)ألم يعدكم ربكم(، وهو استفهام إنكاري، أي ليس العهد بوعد الله إياكم بعيدا. والمراد بطول العهد طول المدة، أي بعدها، أي لم يبعد زمن وعد ربكم إياكم حتى يكون لكم يأس من الوفاء فتكفروا وتكذبوا من بلغكم الوعد وتعبدوا ربا غير الذي دعاكم إليه من بلغكم الوعد فتكون لكم شبهة عذر في الإعراض عن عبادة الله ونسيان عهده.
والعهد: معرفة الشيء وتذكره، وهو مصدر. يجوز أن يكون أطلق على المفعول كإطلاق الخلق على المخلوق، أي طال المعهود لكم وبعد زمنه حتى نسيتموه وعملتم بخلافه. ويجوز أن يبقى على أصل المصدر وهو عهدهم الله على الامتثال والعمل بالشريعة. وتقدم في قوله تعالى)الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه(وقوله)وأوفوا بعهدي(في سورة البقرة.
و)أم(إضراب إبطالي. والاستفهام المقدر بعد)أم(في قوله)أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم(إنكاري أيضا، إذ التقدير: بل أردتم أن يحل عليكم غضب، فلا يكون كفركم إذن إلا إلقاء بأنفسكم في غضب الله كحال من يحب أن يحل عليه غضب من الله.
ففي قوله)أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم(استعارة تمثيلية، إذ شبه حالهم في ارتكابهم أسباب حلول غضب الله عليهم بدون داع إلى ذلك بحال من يحب حلول غضب الله عليه؛ إذ الحب لا سبب له.
وقوله)فأخلفتم موعدي(تفريع على الاستفهام الإنكاري الثاني. ومعنى)موعدي(هو وعد الله على لسانه، فإضافته إلى ضميره لأنه الواسطة فيه.
)قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها(وقعت جملة)قالوا(غير معطوفة لأنها جرت في المحاورة جوابا عن كلام موسى عليه السلام . وضمير)قالوا(عائد إلى) القوم(وإنما القائل بعضهم، تصدوا مجيبين عن القوم كلهم وهم كبراء القوم وأهل الصلاح منهم.

وقوله)بملكنا(قرأه نافع، وعاصم، وأبو جعفر بفتح الميم . وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر الميم . وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بضم الميم . وهي وجوه ثلاثة في هذه الكلمة، ومعناها: بإرادتنا واختيارنا، أي لإخلاف موعدك، أي ما تجرأنا ولكن غرهم السامري وغلبهم دهماء القوم. وهذا إقرار من المجيبين بما فعله دهماؤهم.

والاستدراك راجع إلى ما أفاده نفي أن يكون إخلافهم العهد عن قصد للضلال. والجملة الواقعة بعده وقعت بإيجاز عن حصول المقصود من التنصل من تبعة نكث العهد.

ومحل الاستدراك هو قوله)فقالوا هذا إلهكم وإله موسى(وما قبله تمهيد له، فعطفت الجمل قبله بحرف الفاء واعتذروا بأنهم غلبوا على رأيهم بتضليل السامري. فأدمجت في هذا الاعتذار الإشارة إلى قضية صوغ العجل الذي عبدوه واغتروا بما موه لهم من أنه إلههم المنشود من كثرة ما سمعوا من رسولهم أن الله معهم أو أمامهم، ومما جاش في خواطرهم من الطمع في رؤيته تعالى.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب)حملنا(بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة . أي جملنا من حملنا، أو حملنا أنفسنا.

وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وروح عن يعقوب بفتح الحاء وفتح الميم مخففة .

والأوزار: الأثقال. والزينة: الحلي والمصوغ. وقد كان بنو إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط فاستعار كل واحد من جاره القبطي حليا فضة وذهبا وأثاثا، كما في الإصحاح 12 من سفر الخروج. والمعنى: أنهم خشوا تلاشي تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين ليتأتى لهم حفظها في موضع مأمون.

والقذف: الإلقاء. وأريد به هنا الإلقاء في نار السامري للصوغ، كما يومئ إليه الإصحاح 32 من سفر الخروج. فهذا حكاية جوابهم لموسى عليه السلام مجملا مختصرا شأن المعتذر واه أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام.

)فكذلك ألقى السامري[87] فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي[88](ظاهر حال الفاء التفريعية أن يكون ما بعدها صادرا من قائل الكلام المفرع عليه. والمعنى: فمثل قذفنا زينة القوم، أي في النار، ألقي السامري شيئا من زينة القوم فأخرج لهم عجلا. والمقصود من هذا التشبيه التخلص إلى قصة صوغ العجل الذي عبدوه.

وضميرا الغيبة في قوله)فأخرج لهم(وقوله)فقالوا(عائدان إلى غير المتكلمين. علق المتكلمون الإخراج والقول بالغائبين للدلالة على

أن المتكلمين مع موسى لم يكونوا ممن اعتقد إلهية العجل ولكنهم صانعوا دهماء القوم، فيكون هذا من حكاية قول القوم لموسى.
وعلى هذا درج جمهور المفسرين، فيكون من تمام المعذرة التي اعتذر بها المجيبون لموسى، ويكون ضمير)فأخرج لهم(التفاتا قصد القائلون به التبري من أن يكون إخراج العجل لأجلهم، أي أخرجه لمن رغبوا في ذلك.
وجعل بعض المفسرين هذا الكلام كله من جانب الله، وهو اختيار أبي مسلم، فيكون اعتراضا وإخبارا للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة. وموقع الفاء يناكد هذا لأن الفاء لا ترد للاستئناف على التحقيق، فتكون الفاء للتفريع تفريع أخبار على أخبار.
والمعنى: فمثل ذلك القذف الذي قذفنا ما بأيدينا من زينة القوم ألقى السامري ما بيده من النار ليذوب ويصوغها فأخرج لهم من ذلك عجلا جسدا. فإن فعل)ألقى(يحكي حالة مشبهة بحالة قذفهم مصوغ القبط. والقذف والإلقاء مترادفان، شبه أحدهما بالآخر.
والجسد: الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيا أم لا؛ لقوله تعالى) وألقينا على كرسيه جسدا(. قيل: هو شق طفل ولدته إحدى نسائه كما ورد في الحديث. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما هو الجثة، أي أخرج لهم صورة عجل مجسدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب. وفي سفر الخروج أنه كان من ذهب.
والإخراج: إظهار ما كان محجوبا. والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتى أتمه.
والخوار: صوت البقر. وكان الذي صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التي كانوا يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه.

صفحة : 2665

وصنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل ايبيس ، فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا، رسخ في أوهامهم الآفنة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم هذا إلهكم وإله موسى ، لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل إيبيس . وإذ قد كانوا يثبتون إلها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا

لموسى: أرنا الله جهرة، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة. وقصة اتخاذهم العجل في كتاب التوراة غير ملائمة للنظر السليم.

وتفريع)فنسي(يحتمل أن يكون تفريعا على)فقالوا هذا إلهكم(تفريع علة على معلول، فالضمير عائد إلى السامري، أي قال السامري ذلك لأنه نسي ما كان تلقاه من هدي؛ أو تفريع معلول على علة، أي قال ذلك، فكان قوله سببا في نسيانه ما كان عليه من هدي إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعد.

والنسيان: مستعمل في الإضاعة، كقوله تعالى)قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها(وقوله)الذين هم عن صلاتهم ساهون(.

وعلى هذا يكون قوله)فنسي(من الحكاية لا من المحكي، والضمير عائد إلى السامري فينبغي على هذا أن يتصل بقوله)أفلا يرون(ويكون اعتراضا. وجعله جمع من المفسرين عائدا إلى موسى، أي فنسي موسى إلهكم وإلهه، أي غفل عنه، وذهب إلى الطور يفتش عليه وهو بين أيديكم، وموقع فاء التفريع يبعد هذا التفسير.

والنسيان: يكون مستعملا مجازا في الغفلة.

)أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا[89] (يجوز أن يكون اعتراضا وليس من حكاية كلام القوم، فهو معترض بين جملة)فكذلك ألقى السامري(وجملة)قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني(الخ، فتكون الفاء لتفريع كلام متكلم على كلام غيره، أي لتفريع لإخبار لا لتفريع المخبر به، والمخبر متعدد، ويجوز أن يكون من حكاية كلام الذين تصدوا لخطاب موسى عليه السلام من بين قومه وهم كبراؤهم وصلحاؤهم ليعلم أنهم على بصيرة من التوحيد.

والاستفهام: إنكاري، نزلوا منزلة من لا يرى العجل لعدم جريهم على موجب البصر، فأنكر عليهم عدم رؤيتهم ذلك مع ظهوره، أي كيف يدعون الإلهية للعجل وهم يرون أنه لا يتكلم ولا يستطيع نفعا ولا ضرا.

والرؤية هنا بصرية مكنى بها أو مستعملة في مطلق الإدراك فآلت إلى معنى الاعتقاد والعلم، ولا سيما بالنسبة لجملة)ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا(فإن ذلك لا يرى بالبصر بخلاف)لا يرجع إليهم قولا(. ورؤية انتفاء الأمرين مراد بها رؤية أثر انتفائهما بدوام عدم التكلم وانتفاء عدم نفعهم وضرهم، لأن الإنكار مسلط على اعتقادهم أنه إلههم فيقتضي أن يملك لهم ضرا ونفعا.

ومعنى)يرجع(يرد، أي يجيب القول، لأن ذلك محل العبرة من فقدانه صفات العاقل لأنهم يدعونه ويثنون عليه ويمجدونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يعدهم باستجابة، وشأن الكامل إذا سمع ثناء أو تلقى طلبة أن يجيب. ولا شك أن في ذلك الجمع العظيم

من هو بحاجة إلى جلب نفع أو دفع ضر، وأنهم يسألونه ذلك فلم يجدوا ما فيه نفعهم أو دفع ضر عنهم مثل ضر عدو أو مرض. فهم قد شاهدوا عدم عنائه عنهم. ولأن شواهد حاله من عدم التحرك شاهدة بأنه عاجز عن أن ينفع أو يضر، فلذلك سلط الإنكار على عدم الرؤية لأن حاله مما يرى.

ولام)لهم(متعلق ب)يملك(الذي هو في معنى يستطيع كما تقدم في قوله تعالى)قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا(في سورة العقود.

وقدم الضر على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيته، لأن عذر الخائف من الضر أقوى من عذر الراغب في النفع.

و)أن(في قوله)ألا يرجع(مخففة من)أن(المفتوحة المشددة واسمها ضمير شأن محذوف، والجملة المذكورة بعدها هي الخبر، ف)يرجع(مرفوع باتفاق القراءات ما عدا قراءات شاذة. وليست)أن(مصدرية لأن)أن(المصدرية لا تقع بعد أفعال العلم ولا بعد أفعال الإدراك.

صفحة : 2666

)ولقد قال لهم هارون من قبل يقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري[90] قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى[91](الجملة في موضع الحال من ضمير) أفلا يرون(على كلا الاحتماليين، أي كيف لا يستدلون على عدم استحقاق العجل الإلهية، بأنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فيقلعون عن عبادة العجل، وتلك دلالة عقلية، في حال أن هارون قد وعظهم ونبههم إلى ذلك إذ ذكرهم بأنه فتنة فتنهم بها السامري، وأن ربهم هو الرحمان لا ما لا يملك لهم نفعا فضلا عن الرحمة، وأمرهم بأن يتبعوا أمره، وتلك دلالة سمعية.

وتأكيد الخبر بحرف التحقيق ولام القسم لتحقيق إبطال ما في كتاب اليهود من أن هارون هو الذي صنع لهم العجل، وأنه لم ينكر عليهم عبادته. وغاية الأمر أنه كان يستهزئ بهم في نفسه، وذلك إفك عظيم في كتابهم.

والمضاف إليه)قبل(محذوف دل عليه المقام، أي من قبل أن يرجع إليهم موسى وينكر عليهم.

وافتتاح خطابه ب)يا قوم(تمهيد لمقام النصيحة.

ومعنى)إنما فتنتم به(: ما هو إلا فتنة لكم، وليس ربا، وإن ربكم الرحمان الذي يرحمكم في سائر الأحوال، فأجابوه بأنهم لا يزالون

عاكفين على عبادته حتى يرجع موسى فيصرح لهم بأن ذلك العجل ليس هو ربهم.

ورتب هارون خطابه على حسب الترتيب الطبيعي لأنه ابتدأه بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ما ليس برب، ثم دعاهم إلى معرفة الرب الحق، ثم دعاهم إلى اتباع الرسول إذ كان رسولا بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع، فما كان منهم إلا التصميم على استمرار عبادتهم العجل فأجابوا هارون جوابا جازما.

و)عليه(متعلق ب)عاكفين(قدم على متعلقة لتقوية الحكم، أو أرادوا: لن نبرح نخصه بالعكوف لا نعكف على غيره.

والعكوف: الملازمة بقصد القربة والتعبد، وكان عبدة الأصنام يلزمونها ويطوفون بها.

)قال يهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا[92] ألا تتبعن أفعصيت أمري[93] قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي[94](انتقل موسى من محاورة قومه إلى محاورة أخيه، فجملة)قال يا هارون(تابعة لجملة)قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا(. ولجملة)قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا(وقد وجدت مناسبة لحكاية خطابه هارون بعد أن وقع الفصل بين أجزاء الحكاية بالجمل المعترضة التي منها جملة)ولقد قال لهم هارون من قبل(الخ...، فهو استطراد في خلال الحكاية للإشعار بعذر هارون كما تقدم. ويحتمل أن تكون عطفا على جملة)ولقد قال لهم هارون(الخ..، على احتمال كون تلك من حكاية كلام قوم موسى.

علم موسى أن هارون مخصوص من قومه بأنه لم يعبد العجل، إذ لا يجوز عليه ذلك لأن الرسالة تقتضي العصمة، فلذلك خصه بخطاب يناسب حاله بعد أن خاطب عموم الأمة بالخطاب الماضي. وهذا خطاب التوبيخ والتهديد على بقائه بين عبدة الصنم.

والاستفهام في قوله)ما منعك(إنكاري، أي لا مانع لك من اللحاق بي، لأنه أقامه خليفة عنه فيهم فلما لم يمتثلوا أمره كان عليه أن يرد الخلافة إلى من استخلفه.

و)إذ رأيتهم(متعلق ب)منعك(. و)أن(مصدرية، و)لا(حرف نفي، وهي مؤذنة بفعل محذوف يناسب معنى النفي. والمصدر الذي تقتضيه)أن(هو مفعول الفعل المحذوف. وأما مفعول)منعك(فمحذوف يدل عليه)منعك(ويدل عليه المذكور.

والتقدير: ما منعك أن تتبعني واضطرك إلى أن لا تتبعني، فيكون في الكلام شبه احتباك. والمقصود تأكيد وتشديد التوبيخ بإنكار أن يكون لهارون مانع حينئذ من اللحاق بموسى ومقتض لعدم اللحاق بموسى، كما يقال: وجد السبب وانتفى المانع.

ونظيره قوله تعالى)ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك(في سورة الأعراف فارجع إليه.
والاستفهام في قوله)أفعصيت أمري(مفرع على الإنكار. فهو إنكار ثان على مخالفة أمره، مشوب بتقرير للتهديد.

صفحة : 2667

وقوله في الجواب)يا ابن أم(نداء لقصد الترقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأن موسى حين وبخه أخذ بشعر لحية هارون. ويشعر بأنه يجذبه إليه ليلطمه، وقد صرح به في الأعراف بقوله تعالى) وأخذ برأس أخيه يجره إليه(.
وقرأ الجمهور)يا ابن أم(بفتح الميم . وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم وأصله: يا ابن أمي، فحذفت ياء المتكلم تخفيفا، وهو حذف مخصوص بالنداء.
والقراءتان وجهان في حذف ياء المتكلم المضاف إليها لفظ أم ولفظ)عم(في النداء.
وعطف الرأس على اللحية لأن أخذه من لحيته أشد ألما وأنكى في الإذلال.
وابن الأم: الأخ. وعدل عن)يا أخي(إلى)ابن أم(لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد.
واللحية بكسر اللام ويجوز ، فتح اللام في لغة الحجاز: اسم للشعر النابت بالوجه على موضع اللحيين والذقن، وقد أجمع القراء على كسر اللام من)لحيتي(.
واعتذر هارون عن بقائه بين القوم بقوله)إني خشيت أن تقول فرقت(، أي أن تظن ذلك بي فتقوله لوما وتحميلا لتبعة الفرقة التي ظن أنها واقعة لا محالة إذا أظهر هارون غضبه عليهم لأنه يستتبعه طائفة من الثابتين على الإيمان ويخالفهم الجمهور فيقع انشقاق بين القوم وربما اقتتلوا فرأى من المصلحة ، يظهر الرضى عن فعلهم ليهدأ الجمهور ويصبر المؤمنون اقتداء بهارون. ورأى في سلوك هذه السياسة تحقيقا لقول موسى له)وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين(في سورة الأعراف. وهو الذي أشار إليه هنا بقوله)ولم ترقب قولي(. فهو من جملة حكاية قول موسى الذي قدره هارون في ظنه.
وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج. وفي أثنائها

حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجح الثانية. وإنما رجحها لأنه رآها أدوم فإن مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل حيث غيوا عكوفهم على العجل برجوع موسى. بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها.

وتضمن هذا قوله)إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي(. وكان اجتهاده ذلك مرجوحا لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه. لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع. كما بيناه في كتاب أصول نظام الاجتماع الإسلامي. ولذلك لم يكن موسى خافيا عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها.

وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها كما بينته في كتاب مقاصد الشريعة.

وفي قوله تعالى)بين بني(جناس، وطرد وعكس.

وهذا بعض ما اعتذر به هارون، وحكي عنه في سورة الأعراف أنه اعتذر بقوله)إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني(.

)قال فما خطبك يا سامري[95] قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي[96] (التفت موسى بتوجيه الخطاب إلى السامري الذي كان سببا في إضلال القوم، فالجملة ناشئة عن قول القوم)فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا(الخ، فهي ابتداء خطاب. ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان فاندس في بني إسرائيل. ولما كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة.

ومعنى)ما خطبك(ما طلبك، أي ماذا تخطب، أي تطلب، فهو مصدر. قال ابن عطية: وهي كلمة أكثر ما تستعمل في المكاره، لأن الخطب هو الشأن المكروه. كقوله تعالى)فما خطبكم أيها المرسلون(، فالمعنى: ما هي مصيبتك التي أصبت بها القوم وما غرضك مما فعلت.

وقوله)بصرت بما لم يبصروا به(إلى قوله)فنبذتها(إن حملت كلمات بصرت بما لم يبصروا به. وقبضت قبضة، وأثر، ونبذتها على حقائق مدلولاتها كما ذهب إليه جمهور المفسرين كان المعنى أبصرت ما لم يبصروه، أي نظرت ما لم ينظروه، بناء على أن بصرت، وأبصرت كلاهما من أفعال النظر بالعين، إلا أن بصر بالشيء حقيقته صار بصيرا به أو بصيرا بسببه، أي شديد الإبصار، فهو أقوى من أبصرت، لأنه صيغ من فعل بضم العين الذي تشتق منه الصفات المشبهة الدالة على كون الوصف شجية، قال تعالى)فبصرت به عن جنب(في سورة القصص.

ولما كان المعنى هنا جليا عن أمر مرئي تعين حمل اللفظ على المجاز باستعارة بصر الدال على قوة الإبصار إلى معنى العلم القوي بعلاقة الإطلاق عن التقييد، كما في قوله تعالى)فبصرك اليوم حديد(، وكما سميت المعرفة الراسخة بصيرة في قوله)أدعو إلى الله على بصيرة(. وحكى في لسان العرب عن اللحياني: إنه لبصير بالأشياء، أي عالم بها، وبصرت بالشيء: علمته. وجعل منه قوله تعالى)بصرت بما لم يبصروا به(، وكذلك فسرها الأخفش في نقل لسان العرب وأثبته الزجاج. فالمعنى: علمت ما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له، كما جعله في الكشاف أول وجهين في معنى الآية. ولذلك طريقتان: إما جعل بصرت مجازا، وإما جعله حقيقة.

وقرأ الجمهور)يبصروا(بتحتية على أنه رافع لضمير الغائب. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بفوقية على أنه خطاب لموسى ومن معه.

والقبضة: بفتح القاف الواحدة: من القبض، وهو غلق الراحة على شيء، فالقبضة مصدر بمعنى المفعول. وضد القبض: البسط.

والنبذ: إلقاء ما في اليد.

والأثر، حقيقته: ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرمل او التراب. وتقدم آنفا عند قوله تعالى)قال هم أولاء على أثري(.

وعى حمل الكلمات على حقائقها يتعين صرف الرسول عن المعنى المشهور. فيتعين حمله على جبريل فإنه رسول من الله إلى الأنبياء. فقال جمهور المفسرين: المراد بالرسول جبريل. ورواه قصة قالوا: إن السامري فتنه الله. فأراه الله جبريل راكبا فرسا فوطئ حافر الفرس مكانا فإذا هو مخضر بالنبات، فعلم السامري أن أثر جبريل إذا القي في جماد صار حيا، فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلا وألقى بقبضة عليه فصار جسدا، أي حيا. له خوار كخوار

العجل. فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ. وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنة وإنما هي أقوال لبعض السلف ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين.

فإذا صرفت هذه الكلمات الست إلى معان مجازية كان بصرت بمعنى علمت واهتديت، أي اهتديت إلى علم ما لم يعلموه، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل، وعلم الحيل الذي أوجد به خوار العجل. وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى التعليم، أي الشريعة، وكان نبذت بمعنى أهملت ونقضت، أي كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها الكفر. ويذلك يصح أن يحمل لفظ الرسول على المعنى الشائع المتعارف وهو من أوحي إليه بشرع من الله وأمر بتبليغه.

وكان المعنى: إني بعملي العجل للعبادة نقضت اتباع شريعة موسى، والمعنى: أنه اعترف أمام موسى بصنعه العجل واعترف بأنه جهل فضل، واعتذر بأن ذلك سولته له نفسه.

وعلى هذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهاني ورجحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور واختاره الفخر.

والتسويل: تزين ما ليس بزين.

والتشبيه في قوله)وكذلك سولت لي نفسي(تشبيه الشيء بنفسه، كقوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(، أي كذلك التسويل سولت لي نفسي،أي تسويلا لا يقبل التعريف بأكثر من ذلك.

)قال فاذهب فإن لك في الحياوة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا[97](

صفحة : 2669

لم يزد موسى في عقاب السامري على أن خلعه من الأم'، إما لأنه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإما لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، مثل الذين قال الله تعالى فيهم)إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم(، ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحي أو إلهام، مثل الذي قاتل قتالا شديدا مع المسلمين، وقال النبي صلى الله عليه وسلم)أما إنه من أهل النار(، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمدا صلى الله عليه وسلم وكان النبي عليه الصلاة والسلام أعلم حذيفة بن اليمان ببعضهم. فقوله فاذهب الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة، ويجوز أن

يكون كلمة زجر، كقوله تعالى)قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم(، وكقول الشاعر مما أنشده سيبويه في كتابه ولم يعزه:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمـنـا فاذهب

فما وبك لأيام من عجب ويجوز أن يكون مرادا به عدم الاكتراث بحاله كقول النبهاني من شعراء الحماسة:

فإن كنت سيدنـا سـدتـنـا وإن كنت

للخال فاذهب فخل أما قوله فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظه في حياته أن يقول لا مساس، أي سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسا ووسواسا وتوحشا، فأصبح متباعدا عن مخالطة الناس، عائشا وحده لا يترك أحد يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك ، أو أراد لا اقتراب مني، فإن المس يطلق على الاقتراب كقوله)ولا تمسوها بسوء(، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة، أي مقاربة بيننا، فكان يقول ذلك، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية.

ومساس بكسر الميم في قراءة جميع القراء وهو مصدر ماسه بمعنى مسه، و)لا(نافية للجنس، و)مساس(اسمها مبني على الفتح.

وقوله)وإن لك موعدا(اللام في)لك(استعارة تهكمية، كقوله تعالى)وإن أسأتم فلها(أي فعليها. وتوعده بعذاب الآخرة فجعله موعدا له، أي موعد الحشر والعذاب، فالموعد مصدر، أي وعد لا يخلف)وعد الله لا يخلف الله وعده(. وهنا توعد بعذاب الآخرة.

وقرأ الجمهور)لن تخلفه(بفتح اللام مبنيا للمجهول للعلم بفاعله، وهو الله تعالى، أي لا يؤخره الله عنك، فاستعير الإخلاف للتأخير لمناسبة الموعد.

وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر اللام مضارع أخلف وهمزته للوجدان. يقال: أخلف الوعد إذا وجده مخلفا، وإما على جعل السامري الذي بيده إخلاف الوعد وأنه لا يخلفه. وذلك على طريق التهكم تبعا للتهكم الذي أفاده لام الملك.

وبعد أن أوعد موسى السامري بين له وللذين اتبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنه لا يستحق الإلهية لأنه للامتهان والعجز، فقال) وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا(. فجعل الاستدلال بالنظر إشارة إلى أنه دليل بين لا يحتاج المستدل به إلى أكثر من المشاهدة فإن دلالة المحسوسات أوضح من دلالة المعقولات.

وأضاف الإله إلى ضمير السامري تهكما بالسامري وتحقيرا له، ووصف ذلك الإله المزعوم بطريق الموصولية لما تدل عليه الصلة من التنبيه على الضلال والخطأ، أي الذي لا يستحق أن يعكف عليه.
وقوله)ظلت(بفتح الظاء في القراءات المشهورة، وأصله: ظللت، حذفت من اللام الأولى تخفيفا من توالي اللامين وهو حذف نادر عند سيبويه وعند غيره هو قياس.
وفعل)ظل(من أخوات)كان(. وأصله الدلالة على اتصاف اسمه بخبره في وقت النهار، وهو هنا مجاز في معنى دام بعلاقة الإطلاق بناء، على أن غالب الأعمال يكون في النهار.
والعكوف: ملازمة العبادة وتقدم آنفا. وتقديم المجرور في قوله) عليه عاكفا(للتخصيص، أي الذي اخترته للعبادة دون غيره، أي دون الله تعالى.
وقرأ الجمهور)لنحرقنه(بضم النون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشددة . والتحريق: الإحراق الشديد، أي لنحرقنه إحراقا لا يدع له شكلا. وأراد به أن يذيبه بالنار حتى يفسد شكله ويصير قطعا.

صفحة : 2670

وقرأ ابن جماز عن أبي جعفر)لنحرقنه(بضم النون الأولى وبإسكان الحاء وتخفيف الراء . وقرأه ابن وردان عن أبي جعفر بفتح النون الأولى وإسكان الحاء وضم الراء لأنه يقال: أحرقه وحرقه.
والنسف: تفريق وإذراء لأجزاء شيء صلب كالبناء والتراب. وأراد باليم البحر الأحمر المسمى بحر القلزم، والمسمى في التوراة: بحر سوف، وكانوا نازلين حينئذ على ساحله في سفح الطور.
وثم للتراخي الرتبي، لأن نسف العجل أشد في إعدامه من تحريقه وأذل له.
وأكد)ننسفنه(بالمفعول المطلق إشارة إلى أنه لا يتردد في ذلك ولا يخشى غضبه كما يزعمون أنه إله.
)إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما[98](هذه الجملة من حكاية كلام موسى عليه السلام فموقعها موقع التذييل لوعظه. وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمة إعراضا عن خطابه تحقيرا له، وقصدا لتبينهم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحق، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات، كما قرر في دلالة كلمة التوحيد عليها في كتب علم الكلام.

وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم.
واستعير فعل)وسع(لمعنى الإحاطة التامة، لأن الإناء الواسع يحيط بأكثر أشياء مما هو دونه.
وانتصب)علما(على أنه تمييز نسبة السعة إلى الله تعالى، فيؤول المعنى: وسع علمه كل شيء، أي لا يقتصر عن الاطلاع على أخفى الأشياء، كما أفاد لفظ)كل(المفيد للعموم. وتقدم قريب منه عند قوله)وسع كرسيه السماوات والأرض(في سورة البقرة.
)كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا[99] من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا[100] خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا[101](جملة مستأنفة تذييلية أفادت التنويه بقصة رسالة موسى وما عقبها من الأعمال التي مع بني إسرائيل ابتداء من قوله)وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا(، أي مثل القصص نقص عليك من أنباء القرون الماضية.
والإشارة راجعة إلى القصة المذكورة.
والمراد بقوله)نقص(قصصنا، وإنما صيغ المضارع لاستحضار الحالة الحسنة في ذلك القصص.
والتشبيه راجع إلى تشبيهها بنفسها كناية عن كونها إذا أريد تشبيهها وتقريبها بما هو أعرف منها في بابها لم يجد مريد ذلك طريقا لنفسه في التشبيه إلا أن يشبهها بنفسها، لأنها لا يفوقها غيرها في بابها حتى تقرب به، على نحو ما تقدم في قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة، ونظائره كثيرة في القرآن.
و)من(في قوله)من أنباء ما قد سبق(تبعيضية، وهي صفة لمحذوف تقديره: قصصا من أنباء ما قد سبق. ولك أن تجعل من اسما بمعنى بعض، فتكون مفعول)نقص(.
والأنباء: الأخبار. و)ما(الموصولة ما صدقها الأزمان، لأن الأخبار تضاف إلى أزمانها، كقولهم: أخبار أيام العرب، والقرون الوسطى.وهي كلها من حقها في الموصولية أن تعرف ب)ما(الغالبة في غير العاقل. ومعلوم أن المقصود ما فيها من أحوال الأمم، فلو عرفت ب)من(الغالبة في العقلاء لصح ذلك وكل ذلك واسع.
وقوله)وقد آتيناك من لدنا ذكرا(إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها. فللإيماء إلى هذا قال تعالى)وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه(.

وتنكير)ذكرا(للتعظيم، أي آتيناك كتابا عظيما. وقوله)من لدنا(توكيد لمعنى)آتيناك(وتنويه بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده. والوزر: الإثم. وجعل محمولا تمثيل لملاقاة المشقة من جراء الإثم، أي من العقاب عنه، فهنا مضاف مقدر وقرينته الحال في قوله)خالدين فيه(، وهو حال من اسم الموصول أو الضمير المنصوب بحرف التوكيد، وما صدقها، متحد وإنما اختلف بالإفراد والجمع رعيا للفظ)من(مرة ولمدلولها مرة،وهو الجمع المعرضون، فقال)من أعرض(ثم قال)خالدين(.

وجملة)وساء لهم يوم القيامة حملا(حال ثانية، أي ومسوءين به. و)ساء(هنا هو أحد أفعال الذم مثل)بئس(. وفاعل)ساء(ضمير مستتر مبهم يفسره التمييز الذي بعده وهو)حملا(. والحمل بكسر الحاء اسم بمعنى المحمول كالذبح بمعنى المذبوح. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة لفظ)وزرا(عليه. والتقدير: وساء لهم حملا وزرهم، وحذف المخصوص في أفعال المدح والذم شائع كقوله تعالى)ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب(أي سليمان هو الأواب.

واللام في قوله)وساء لهم(لام التبيين، وهي مبينة للمفعول في المعنى، لأن أصل الكلام: ساءهم الحمل، فجيء باللام لزيادة تبيين تعلق الذم بحمله. فاللام لبيان تعلق بهم سوء الحمل.

والحمل بكسر الحاء المحمول مثل الذبح.

)يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا[102] يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا[103] نحن أعلم بما يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما[104]( )يوم ينفخ في الصور(بدل من يوم القيامة في قوله)وساء لهم يوم القيامة حملا(، وهو اعتراض بين جملة) وقد آتيناك من لدنا ذكرا(وما تبعها وبين جملة)وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا(.تخص لذكر البعث والتذكير به والنذارة بما يحصل للمجرمين يومئذ.

والصور: قرن عظيم يجعل في داخله سداد لبعض فضائه فإذا نفخ فيه النافخ بقوة خرج منه صوت قوي، وقد اتخذ للإعلام بالاجتماع للحرب، وتقدم عند قوله تعالى)قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور(في سورة الأنعام.

وقرأ الجمهور)ينفخ(بياء الغيبة مبنيا للمجهول، أي بنفخ نافخ، وهو الملك الموكل بذلك. وقرأه أبو عمرو وحده)ننفخ(بنون العظمة

وضم الفاء . وإسناد النفخ إلى الله مجاز عقلي باعتبار أنه الآمر به، مثل: بنى الأمير القلعة.
والمجرمون: المشركون والكفرة.
والزرق: جمع أزرق، وهو الذي لونه الزرقة. والزرقة: لون كلون السماء إثر الغروب، وهو في جلد الإنسان قبيح المنظر لأنه يشبه لون ما أصابه حرق نار. وظاهر الكلام أن الزرقة لون أجسادهم فيكون بمنزلة قوله)يوم تبيض وجوه وتسود وجوه(، وقيل: المراد لون عيونهم، فقيل: لأن زرقة العين مكروهة عند العرب. والأظهر على هذا المعنى أن يراد شدة زرقة العين لأنه لون غير معتاد، فيكون كقول بشار:
وللبخيل على أمواله عـلـل زرق
العيون عليها أوجه سود وقيل: المراد بالزرق العمي، لأن العمى بلون العين بزرقة. وهو محتمل في بيت بشار أيضا.
والتخافت: الكلام الخفي من خوف ونحوه. وتخافتهم لأجل ما يملأ صدورهم من هول ذلك اليوم كقوله تعالى)وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا(.
وجملة)إن لبثتم إلا عشرا(مبينة لجملة)يتخافتون(، وهم قد علموا أنهم كانوا أمواتا ورفاتا فأحياهم الله فاستيقنوا ضلالهم إذ كانوا ينكرون الحشر.
ولعلهم أرادوا الاعتذار لخطئهم في إنكار الإحياء بعد انقراض أجزاء البدن مبالغة في المكابرة، فزعموا أنهم ما لبثوا في القبور إلا عشر ليال فلم يصيروا رفاتا، وذلك لما بقي في نفوسهم من استحالة الإحياء بعد تفرق الأوصال، فزعموا أن إحياءهم ما كان إلا برد الأرواح إلى الأجساد، فالمراد باللبث: المكث في القبور، كقوله تعالى)قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم(في سورة المؤمنين، وقوله)ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون(في سورة الروم.
و)إذا(ظرف، أي يتخافتون في وقت يقول فيه أمثلهم طريقة.
والأمثل: الأرجح الأفضل. والمثالة: الفضل، أي صاحب الطريقة المثلى لأن النسبة في الحقيقة للتمييز.

والطريقة: الحالة والسنة والرأي. والمراد هنا الرأي، وتقدم في قوله)ويذهبا بطريقتكم المثلى(في هذه السورة، ولم يأت

المفسرون في معنى وصف القائل)إن لبثتم إلا يوما(بأنه أمثل طريقة بوجه تطمئن له النفس.

والذي أراه: أنه يحتمل الحقيقة والمجاز؛ فإن سلكنا به مسلك الحمل على الحقيقة كان المعنى أنه أقربهم إلى اختلاق الاعتذار عن خطئهم في إنكارهم البعث بأنهم ظنوا البعث واقعا بعد طول المكث في الأرض طولا تتلاشى فيه أجزاء الأجسام، فلما وجدوا أجسادهم كاملة مثل ما كانوا في الدنيا قال بعضهم)إن لبثتم إلا عشرا(. فكان ذلك القول عذرا لأن عشر الليالي تتغير في مثلها الأجسام. فكان الذي قال)إن لبثتم إلا يوما(أقرب إلى رواج الاعتذار. فالمراد: أنه الأمثل من بينهم في المعاذير، وليس المراد أنه مصيب.

وإن سلكنا به مسلك المجاز فهو تهكم بالقائل في سوء تقديره من لبثهم في القبور، فلما كان كلا التقديرين متوغلا في الغلط مؤذنا بجهل القدرين واستفهام الأمر عليهم دالا على الجهل بعظيم قدرة الله تعالى الذي قضى الأزمان الطويلة والأمم العظيمة وأعادهم بعد القرون الغابرة. فكان الذي قدر زمن المكث في القبور بأقل قدر أو غل في الغلط فعبر عنه ب)أمثلهم طريقة(تهكما به وبهم معا إذ استوى الجميع في الخطأ.

وجملة)نحن أعلم بما يقولون(معترضة بين فعل) يتخافتون(وظرفية)إذ يقول أمثلهم(، أي أنهم يقولون ذلك سرا ونحن أعلم به وأننا نخبر عن قولهم يومئذ خبر العليم الصادق.

) ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا[105] فيذرها قاعا صفصفا[106] لا ترى فيها عوجا ولا أمتا[107](لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذر إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها ذكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي صلى الله عليه وسلم سؤال تعنت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها. وروي أن رجلا من ثقيف سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل كرى. وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشادا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلما للمؤمنين. قال القرطبي: جاء هنا أي قوله)فقل ينسفها(بفاء وكل سؤال في القرآن)قل(أي كل جواب في لفظ منه مادة سؤال بغير فاء إلا هذا، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال. وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال ه.

وأكد)ينسفها نسفا(لإثبات أنه حقيقة لا استعارة. فتقدير الكلام: ونحشر المجرمين يومئذ رزقا... إلى آخره، وننسف الجبال نسفا، فقل ذلك للذين يسألونك عن الجبال.
والنسف: تفريق وإذراء، وتقدم آنفا.
والقاع: الأرض السهلة.
والصفصف: الأرض المستوية التي لا نتوء فيها.
ومعنى)يذرها قاعا صفصفا(أنها تندك في مواضعها وتسوى مع الأرض حتى تصير في مستوى أرضها، وذلك يحصل بزلزال أو نحوه، قال تعالى)إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا(. وجملة)لا ترى فيها عوجا ولا أمتا(حال مؤكدة لمعنى)قاعا صفصفا(لزيادة تصوير حالة فيزيد تهويلها، والخطاب في) لا ترى فيها عوجا(لغير معين يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم سائليه.

صفحة : 2673

والعوج بكسر العين وفتح الواو : ضد الاستقامة، ويقال بفتح العين والواو ، كذلك فهما مترادفان على الصحيح من أقوال أئمة اللغة. وهو ما جزم به عمرو واختاره المرزوقي في شرح الفصيح. وقال جماعة: مكسور العين يجري على الأجسام غير المنتصبة كالأرض وعلى الأشياء المعنوية كالدين. و مفتوح العين يوسف به الأشياء المنتصبة كالحائط والعصا، وهو ظاهر ما في لسان العرب عن الأزهري، وقال فريق: مكسور العين توصف به المعاني، و مفتوح العين توصف به الأعيان. وهذا أضعف الأقوال، وهو منقول عن ابن دريد في الجمهرة وتبعه في الكشاف هنا، وكأنه مال إلى ما فيه من التفرقة في الاستعمال، وذلك من الدقائق التي يميل إليها المحققون. ولم يعرج عليه صاحب القاموس، وتعسف صاحب الكشاف تأويل الآية على اعتباره خلافا لظاهرها. وهو يقتضي عدم صحة إطلاقه في كل موضع. وتقدم هذا اللفظ في أول سورة الكهف فانظره.
والأمت: النتوء اليسير، أي لا ترى فيها وهدة ولا نتوءا ما.
والمعنى: لا ترى في مكان نسفها عوجا ولا أمتا.
)يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا[108] يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا[109] يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما[110] وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما[

111] ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما[112](جملة)يتبعون الداعي(في معنى المفرعة على جملة) ينسفها(. و)يومئذ(ظرف متعلق ب)يتبعون الداعي(. وقدم الظرف على عامله للاهتمام بذلك اليوم، وليكون تقديمه قائما مقام العطف في الوصل، أي يتبعون الداعي يوم ينسف ربك الجبال، أي إذا نسفت الجبال نودوا للحشر فحضروا يتبعون الداعي لذلك.

والداعي، قيل: هو الملك إسرافيل عليه السلام يدعو بنداء التسخير والتكوين، فتعود الأجساد والأرواح فيها وتهطع إلى المكان المدعو إليه. وقيل: الداعي الرسول، أي يتبع كل قوم رسولهم.

و)لا عوج له(حال من)الداعي(. واللام على كلا القولين في المراد من الداعي للأجل، أي لا عوج لأجل الداعي، أي لا يروغ المدعوون في سيرهم لأجل الداعي بل يقصدون متجهين إلى صوبه. ويجيء على قول من جعل المراد بالداعي بل يقصدون متجهين إلى صوبه.

ويجيء على قول من جعل المراد بالداعي الرسول أن يراد بالعوج الباطل تعريضا بالمشركين الذين نسبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم العوج كقولهم)إن تتبعون إلا رجلا مسحورا(، ونحو ذلك من أكاذيبهم، كما عرض بهم في قوله تعالى)الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا(.

فالمصدر المنفي أريد منه نفي جنس العوج في اتباع الداعي، بحيث لا يسلكون غير الطريق القويم، أو لا يسلك بهم غير الطريق القويم، أو بحيث يعلمون براءة رسولهم من العوج.

وبين قوله)لا ترى فيها عوجا(وقوله)لا عوج له(مراعاة النظير، فكما جعل الله الأرض يومئذ غير معوجة ولا ناتئة كما قال)فإذا هم بالساهرة(كذلك جعل سير الناس عليها لا عوج فيه ولا مراوغة.

والخشوع: الخضوع، وفي كل شيء من الإنسان مظهر من الخشوع؛ فمظهر الخشوع في الصوت: الإسرار به، فلذلك فرع عليه قوله)فلا تسمع إلا همسا(.

والهمس: الصوت الخفي.

والخطاب بقوله)لا ترى فيها عوجا(وقوله)فلا تسمع إلا همسا(خطاب لغير معين، أي لا يرى الرائي ولا يسمع السامع.

وجملة)وخشعت الأصوات(في موضع الحال من ضمير) يتبعون(وإسناد الخشوع إلى الأصوات مجاز عقلي، فإن الخشوع لأصحاب الأصوات؛ أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت وإسراره، وهذا الخشوع من هول المقام.

وجملة)يومئذ لا تنفع الشفاعة(كجملة)يومئذ يتبعون الداعي(في معنى التفريع على)وخشعت الأصوات للرحمن(. أي لا يتكلم الناس بينهم إلا همسا ولا يجرأون على الشفاعة لمن يهمهم نفعه.

والمقصود من هذا أن جلال الله والخشية منه يصدان عن التوسط عنده لنفع أحد إلا بإذنه. وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله.

صفحة : 2674

واستثناء)من أذن له الرحمان(من عموم الشفاعة باعتبار أن الشفاعة تقتضي شافعا، لأن المصدر فيه معنى الفعل فيقتضي فاعلا، أي إلا أن يشفع من أذن له الرحمان في أن يشفع، فهو استثناء تام وليس بمفرغ.
واللام في)أذن له(لام تعدية فعل)أذن(، مثل قوله)قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم(. وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم: فيقال لي: سل تعطه واشفع تشفع .
وقوله)ورضي له قولا(عائد إلى)من أذن له الرحمان(وهو الشافع. واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل، أي رضي الرحمان قول الشافع لأجل الشافع، أي إكراما له كقوله تعالى)ألم نشرح لك صدرك(. فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنوانا على كرامة الشافع عند الله تعالى.
والمجرور متعلق بفعل)رضي(. وانتصب)قولا(على المفعولية لفعل)رضي(لأن)رضي(هذا يتعدى إلى الشيء المرضي به بنفسه وبالباء.
وجملة)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم(مستأنفة بيانية لجواب سؤال من قد يسأل بيان ما يوجب رضى الله عن العبد الذي يأذن بالشفاعة فيه. فبين بيانا إجماليا بأن الإذن بذلك يجري على ما يقتضيه علم الله بسائر العبيد وبأعمالهم الظاهرة، فعبر عن الأعمال الظاهرة بما بين أيديهم لأن شأن ما بين الأيدي أن يكون واضحا، وعبر عن السرائر بما خلفهم لأن شأن ما يجعل خلف المرء أن يكون محجوبا. وقد تقدم ذلك في آية الكرسي، فهو كناية عن الظاهرات والخفيات، أي فيأذن لمن أراد تشريفه من عباده المقربين بأن يشفع في طوائف مثل ما ورد في الحديث)يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان(، أو بأن يشفع في حالة خاصة مثل ما ورد في حديث الشفاعة العظمى في الموقف لجميع الناس بتعجيل حسابهم.

وجملة)ولا يحيطون به علما(تذييل للتعليم بعظمة علم الله تعالى وضآلة علم البشر، نظير ما وقع في آية الكرسي.
وجملة)وعنت الوجوه للحي القيوم(معطوفة على جملة)وخشعت الأصوات للرحمن(، أي ظهر الخضوع في الأصوات والعناء في الوجوه.
والعناء: الذلة، وأصله الأسر، والعاني: الأسير. ولما كان الأسير ترهقه ذلة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي، والجملة كلها تمثيل لحال المجرمين الذين الكلام عليهم من قوله) ونحشر المجرمين يومئذ رزقا(، فاللام في)الوجوه(عوض عن المضاف إليه، أي وجوههم، كقوله تعالى)فأن الجحيم هي المأوى(أي لهم. وأما وجوه أهل الطاعات فهي وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة.
ويجوز أن يجعل التعريف في)الوجوه(على العموم. ويراد ب)عنت(خضعت، أي خضع جميع الناس إجلالا لله تعالى.
والحر: الذي ثبت له وصف الحياة، وهي كيفية حاصلة لأرقى الموجودات، وهي قوة للموجود بها بقاء ذاته وحصول إدراكه أبدا أو إلى أمد ما. والحياة الحقيقية هي حياة الله تعالى لأنها ذاتية غير مسبوقة بضدها ولا منتهية.
والقيوم: القائم بتدبير الناس، مبالغة في القيم. أي الذي لا يفوته تدبير شيء من الأمور. وتقدم)الحي القيوم(في سورة البقرة.
وجملة)وقد خاب من حمل ظلما(؛ أما معترضة في آخر الكلام تفيد التعليل أن جعل التعريف في)الوجوه(عوضا عن المضاف إليه، أي وجوه المجرمين. والمعنى: إذ قد خاب كل من حمل ظلما؛ وإما احتراس لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه، فمن حمل ظلما فقد خاب يومئذ واستمر عناؤه. ومن عمل صالحا عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح. والظلم: ظلم النفس.
وجملة)ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن(الخ: شرطية مفيدة قسيم مضمون جملة)وقد خاب من حمل ظلما(. وصيغ هذا القسيم في صيغة الشرط تحقيقا للوعد، و)فلا يخاف(جواب الشرط، واقترانه بالفاء علامة على أن الجملة غير صالحة لموالاة أداة الشرط، فتعين؛ إما أن تكون)لا(التي فيها ناهية، وإما أن يكون الكلام على نية الاستئناف. والتقدير: فهو لا يخاف.

وقرأ الجمهور)فلا يخاف(بصيغة المرفوع بإثبات ألف بعد الخاء، على أن الجملة استئناف غير مقصود بها الجزاء، كأن انتفاء خوفه أمر مقرر لأنه مؤمن ويعمل الصالحات. وقرأه ابن كثير بصيغة الجزم بحذف الألف بعد الخاء، على أن الكلام نهي مستعمل في الانتفاء. وكتبت في المصحف بدون ألف فاحتملت القراءتين. وأشار الطيبي إلى أن الجمهور توافق قوله تعالى)وقد خاب من حمل ظلما(في أن كلتا الجملتين خبرية. وقراة ابن كثير تفيد عدم التردد في حصول أمنه من الظلم والهضم، أي في قراءة الجمهور خصوصية لفظية وفي قراءة ابن كثير خصوصية معنوية.

ومعنى)لا يخاف ظلما(لا يخاف جزاء الظالمين لأنه آمن منه بإيمانه وعمله الصالحات.

والهضم: النقص، أي لا ينقصون من جزائهم الذي وعدوا به شيئا كقوله)وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص(.

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى النقص الشديد كما في قوله)ولم تظلم منه شيئا(، أي لا يخاف إحباط عمله، وعليه يكون الهضم بمعنى النقص الخفيف، وعطفه على الظلم على هذا التفسير احتراس.

)وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا[113] فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما[114](عطف على جملة)كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق(، والغرض واحد، وهو التنويه بالقرآن. فابتدئ بالتنويه به جزئيا بالتنويه بقصصه، ثم عطف عليه التنويه به كليا على طريقة تشبه التذييل لما في قوله)أنزلناه قرآنا عربيا(من معنى عموم ما فيه.

والإشارة ب)كذلك(نحو الإشارة في قوله)كذلك نقص عليك(، أي كما سمعته لا يبين بأوضح من ذلك.

و)قرآنا(حال من الضمير المنصوب في)أنزلناه(, وقرآن تسمية بالمصدر. والمراد المقروء، أي المتلو، وصار القرآن علما بالغلبة على الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة متعبدا بتلاوتها يعجز الإتيان بمثل سورة منها. وسمي قرآنا لأنه نظم على أسلوب تسهل تلاوته. ولوحظ هنا المعنى الاستقاقي قبل الغلبة وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته؛ وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه. والتنكير يفيد الكمال، أي أكمل ما يقرأ.

و)عربيا(صفة)قرآنا(. وهذا وصف يفيد المدح، لأن اللغة العربية أبلغ اللغات وأحسنها فصاحة وانسجاما. وفيه تعريض بالامتنان على العرب، وتحميق للمشركين منهم حيث أعرضوا عنه وكذبوا به، قال تعالى)لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون(.

والتصريف: التنويع والتفنين. وقد تقدم عند قوله تعالى)أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون(في سورة الأنعام، وقوله)ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا(في سورة الإسراء.
وذكر الوعيد هنا للتهديد، ولمناسبة قوله قبله)وقد خاب من حمل ظلما(.
والتقوى: الخوف. وهي تستعمل كناية عن الطاعة لله، أي فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا. والذكر هنا بمعنى التذكر، أي فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا. والذكر هنا بمعنى التذكر، أي يحدث لهم القرآن تذكرا ونظرا فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم.
وعبر ب)يحدث(إيماء إلى أن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكرا لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:
ولما جرت في الجزل جريا كأنه سنا
الفجر أحدثنا لخالقها شكرا و)لعل(للرجاء، أي أن حال القرآن أن يقرب الناس من التقوى والتذكر، بحيث يمثل شأن من أنوله وأمر بما فيه بحال من يرجو فيلفظ بالحرف الموضوع لإنشاء الرجاء.
فحرف)لعل(استعارة تبعية تنبئ عن تمثيلية مكنية. وقد مضى معنى)لعل(في القرآن عند قوله تعالى)يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون(في سورة البقرة.
وجملة)فتعالى الله الملك الحق(معترضة بين جملة)وكذلك أنزلناه(وبين جملة)ولا تعجل بالقرآن(. وهذا إنشاء ثناء على الله منزل القرآن وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بين لعباده من وسائل الإصلاح وحملهم عليه بالترغيب والترهيب وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب فهو مفرع على ما تقدم من قوله)وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا...(إلى آخرها.

صفحة : 2676

والتفريع مؤذن بأن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشئ عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة.
وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى)الملك يومئذ الحق للرحمن(. وفي الحديث: فيقول الله أنا الملك أين ملوك الأرض ، أي أحضروهم هل تجدون منهم من ينازع في ذلك، كقول الخليفة معاوية حين خطب في المدينة يا أهل المدينة أين علماؤكم .

والجمع بين اسم الجلالة واسمه)الملك(إشارة إلى أن إعظامه وإجلاله مستحقان لذاته بالاسم الجامع لصفات الكمال، وهو الدال على انحصار الإلهية وكمالها.
ثم أتبع ب)الحق(للإشارة إلى أن تصرفاته واضحة الدلالة على أن ملكه ملك حق لا تصرف فيه إلا بما هو مقتضي الحكمة.
والحق: الذي ليس في ملكه شائبة عجز ولا خضوع لغيره. وفيه تعريض بأن ملك غيره زائف.
وفي تفريع ذلك على إنزال القرآن إشارة أيضا إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة.
وجملة)ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه(ناشئة على ما تقدم من التنويه بالقرآن وما اشتمل عليه من تصاريف إصلاح الناس. فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طلبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم، فعلمه الله أن يكل الأمر إليه فإنه أعلم بحيث يناسب حال الأمة العام.
ومعنى)من قبل أن يقضى إليك وحيه(أي من قبل أن يتم وحي ما قضي وحيه إليك، أي ما نفذ إنزاله فإنه هو المناسب، فالمنهي عنه هو سؤال التعجيل أو الرغبة الشديدة في النفس التي تشبه الاستبطاء لا مطلق مودة الازدياد، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن قصة موسى مع الخضر عليه السلام)وددنا أن موسى صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما أو من خبرهما(.
ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته. فعن ابن عباس: كان النبي يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصا على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله)ولا تعجل بالقرآن(الآية. وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى)لا تحرك به لسانك لتعجل به(كما في صحيح البخاري. وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول.
وعن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمله عليهم حتى تتبين لك معانيه. وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه. وعلى كلا التفسيرين يجري اعتبار موقع قوله)وقل رب زدني علما(.
وقرأ الجمهور)يقضى(بتحتية في أوله مبنيا للنائب، ورفع) وحيه(على أنه نائب الفاعل, وقرأ يعقوب بنون العظمة وكسر الضاد وبفتحة على آخر)نقضي(وبنصب)وحيه(.

وعطف جملة)وقل رب زدني علما(يسير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأن الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تلطف مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعا وفهما، إيماء إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين دخل المسجد فوجد النبي راكعا فلم يلبث أن يصل إلى الصف بل ركع ودب إلى الصف راكعا فقال له: زادك الله حرصا ولا تعد .

)ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما[115](لما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وعاندوه، وذلك المقصود من قصصها كما أشرنا إليه آنفا عند قوله)كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا(.

صفحة : 2677

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم استحب الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم كما أشرنا إليه قريبا عند قوله)ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقصى إليك وحيه(؛ أعقبت تلك القصة بقصة آدم عليه السلام وما عرض له به الشيطان، تحقيقا لفائدة قوله)وقل رب زدني علما(. فالجملة عطف قصة على قصة والمناسبة ما سمعت.

والكلام معطوف على جملة)كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق(. وافتتاح الجملة بحرف التحقيق ولام القسم لمجرد الاهتمام بالقصة تنبيها على قصد التنظير بين القصتين في التفريط في العهد، لأن في القصة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها)ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد(، وفي قضى آدم تفريطا في العهد أيضا. وفي كون ذلك من عمل الشيطان كما قال في القصة الأولى)وكذلك سولت لي نفسي(وقال في هذه)فوسوس إليه الشيطان(. وفي أن في القصتين نسيانا لما يجب الحفاظ عليه وتذكره فقال في القصة الأولى)فنسي(وقال في هذه القصة)فنسي ولم نجد له عزما(.

وعليه فقوله)من قبل(حذف ما أضيف إليه)قبل(. وتقديره: من قبل إرسال موسى أو من قبل ما ذكر، فإن بناء)قبل(على الضم

علامة حذف المضاف إليه ونية معناه. والذي ذكر: إما عهد موسى الذي في قوله تعالى)وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى(وقوله)فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى(؛ وإما عهد الله لبني إسرائيل الذي ذكرهم به موسى عليه السلام لما رجع إليهم غضبان أسفا، وهو ما في قوله)أفطال عليكم العهد(الآية.

والمراد بالعهد إلى آدم: العهد إليه في الجنة التي أنسي فيها.

والنسيان: أطلق هنا على إهمال العمل بالعهد عمدا، كقوله في قصة السامري)فنسي(، فيكون عصيانا، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى)وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين(الآية، وقد مضت في سورة الأعراف. وهذا العهد هو المبين في الآية بقوله) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك(الآية.

والعزم: الجزم بالفعل وعدم التردد فيه، وهو مغالبة ما يدعو إليه الخاطر من الانكفاف عنه اعسر عمله أو إيثار ضده عليه. وتقدم قوله تعالى)وإن عزموا الطلاق(في سورة البقرة. والمراد هنا: العزم على امتثال الأمر وإلغاء ما يحسن إليه عدم الامتثال، قال تعالى) فإذا عزمت فتوكل على الله(، وقال)فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل(، وهم نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وموسى، وداوود، وعيسى عليهم السلام .

واستعمل نفي وجدان العزم عند آدم في معنى عدم وجود العزم من صفته فيما عهد إليه تمثيلا لحال طلب حصوله عنده بحال الباحث على عزمه فلم يجده عنده بعد البحث.

)وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى[116](هذا بيان لجملة)ولقد عهدنا إلى آدم من قبل(إلى آخرها، فكان مقتضى الظاهر أن لا يكون معطوفا بالواو بل أن يكون مفصولا، فوقوع هذه الجملة معطوفة اهتمام بها لتكون قصة مستقلة فتلفت إليها أذهان السامعين، فتكون الواو عاطفة قصة آدم على قصة موسى عطفا على قوله)وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا(، ويكون التقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وتكون جملة)ولقد عهدنا إلى آدم من قبل(تذييلا لقصة هارون مع السامري وقوله)من قبل(أي من قبل هارون. والمعنى: أن هارون لم يكن له عزم في الحفاظ على ما عهد إليه موسى، وانتهت القصة بذلك التذييل، ثم عطف على قصة موسى قصة آدم تبعا لقوله)كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق(.

)فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك(قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء الشيطان من السجود تقدمت في سورة البقرة

وسورة الأعراف، فلنقتصر على بيان ما اختصت به هاته السورة من الأفانين والتراكيب.
فقوله)إن هذا(إشارة إلى الشيطان إشارة مرادا منها التحقير، كما حكى الله في سورة الأنبياء من قول المشركين)أهذا الذي يذكر آلهتكم(، وفي سورة الأعراف)إن الشيطان لكما عدو(عبر عنه باسمه.

صفحة : 2678

وقوله)عدو لك ولزوجك(هو كقوله في الأعراف)وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين(، فذكرت عداوته لهما جملة هنالك وذكرت تفصيلا هنا، فابتدئ في ذكر متعلق عداوته بآدم لأن آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه لأن عداوته إياها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته متعلقة بكليهما لاتحاد علة العداوة، وهي حسده إياهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى وعنوان التعبير عن الضمير الموصل للإرشاد، وكل ذلك مما يبطل عمل الشيطان ويشق عليه في استهوائهما واستهواء ذريتهما، ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم فحنق لما أمر بالسجود لآدم.
)فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى[117] إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى[118] وإنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى[119](قوله)فلا يخرجنكما من الجنة(تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه: بأن نهيا نهي تحذير عن أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة، لأن العدو لا يروقه صلاح حال عدوه. ووقع النهي في صورة نهي عن عمل هو من أعمال الشيطان لا من أعمال آدم كناية عن نهي آدم عن التأثر بوسائل إخراجهما من الجنة، كما يقال: لا أعرفنك تفعل كذا، كناية عن: لا تفعل، أي لا تفعل كذا حتى أعرفه منك. وليس المراد النهي عن أن يبلغ إلى المتكلم خبر فعل المخاطب.
وأسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازا، لأن في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع الإيماء إلى أن شقاء الذكر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.
وجملة)إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى(تعليل للشقاء المترتب على الخروج من الجنة المنهي عنه، لأنه لما كان ممتعا في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جو مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضيا فقدان ذلك.

و)تضحى(مضارع ضحي: كرضي، إذا أصابه حر الشمس في وقت الضحى. ومصدره الضحو، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته. والمعنى: لا يصيبك ما ينافر مزاجك، فالاقتصار على انتفاء الضحو هنا امتفاء، أي ولا تصرد. وآدم لم يعرف الجوع والعرى والظمأ والضحو بالوجدان، وإنما عرفها بحقائقها ضمن تعليمه الأسماء كلها كما تقدم في سورة البقرة.

وجمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته إيماء إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلية، لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعارا بخصائص المكون في مقوماته، كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لاختيار اللبن على الخمر فقيل له : لو اخترت الخمر لغوت أمتك.

وقد قرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله)لا تظمأ فيها ولا تضحى(لمناسبة بين الجوع والعرى، في أن الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألمه وهو لفح الحر وقرص البر، ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أن الأول ألم حرارة الباطن والثاني ألم حرارة الظاهر، فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم الحر وإن كان مقتضى الظاهر جمع النظيرين في كليهما، إذ جمع النظائر من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر.

ومن هذا القبيل في تفريق النظائر قصة أدبية طريفة جرت بين سيف الدولة وبين أبي الطيب المتنبي ذكرها المعري في معجزة أحمد شرحه على ديوان أبي الطيب إجمالا، وبسطها الواحدي في شرحه على الديوان وهي: أن أبا الطيب لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي طالعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم قال في أثنائها يصف موقعة بين سيف لبدولة والروم في ثغر الحدث:

وقفت ما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هـزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسـم فاستعادها سيف الدولة منه بعد ذلك فلما أنشده هذين البيتين. قال له سيف الدولة: إن صدري البيتين لا يلائنان عجزيهما وكان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وثغرك بـاسـم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك
في جفن الردى وهو نائم وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:
كأني لم أركب جوادا لـلـذة ولم
أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كرة بعـد إجـفـال ووجه الكلام على ما قال العلماء بالشعر أن يكون عجز البيت الأول للثاني وعجز البيت الثاني للأول ليستقيم الكلام فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، ويكون سباء الخمر للذة مع تبطن الكاعب. فقال أبو الطيب: أدام الله عز الأمير، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امروء القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزاز لا يعرف إلا جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت أتبعته بذكر الردى لتجانسه ولما كان وجه المهزوم لا يخلو أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية قلت:
..... ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع
بين الأضداد في المعنى.
ومعنى هذا أن امرأ القيس خالف مقتضى الظاهر في جمع شيئين مشتهري المناسبة فجمع شيئين متناسبين مناسبة دقيقة، وأن أبا الطيب خالف مقتضى الظاهر من جمع النظيرين ففرقهما لسلوك طريقة أبدع، وهي طريقة الطباق بالتضاد وهو أعرق في صناعة البديع.
وجعلت المنة على آدم بهذه النعم مسوقة في سياق انتفاء أضدادها ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة تحذيرا منها لكي يتحامى من يسعى إلى إرزائه منها.
وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم)وإنك لا تظمأ(بكسر همزة) إن(عطفا للجملة على الجملة. وقرأ الباقون)وأنك(بفتح الهمزة عطفا على)ألا تجوع(عطف المفرد على المفرد، أي أن لك نفي الجوع والعري ونفي الظمأ والضحو.

وقد حصل تأكيد الجميع على القراءتين ب)إن(وبإختها، وبين الأسلوبين تفنن.
)فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى[120](قوله)فوسوس إليه الشيطان(تقدم مثله في الأعراف. والفاء لتعقيب مضمون جملتها على مضمون التي قبلها، وهو تعقيب نسبي بما يناسب مدة تقلب في خلالها بخيرات الجنة حتى حدسه الشيطان واشتد حسده.
وتعدية فعل)وسوس(هنا بحرف)إلى(وباللام في سورة الأعراف) فوسوس لهما الشيطان(باعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلم، فإنه فعل قاصر لا غنى له عن التعدية بالحرف، فتعديته بحرف)إلى(هنا باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغها إياه، وتعديته باللام في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما.
وجملة)قال يا آدم(بيان لجملة)فوسوس لهما الشيطان(. وهذه الآية مثال للجملة المبينة لغيرها في علم المعاني.
وهذا القول خاطر ألقاه الشيطان في نفس آدم بطريق الوسوسة وهي الكلام الخفي، إما بألفاظ نطق بها الشيطان سرا لآدم لئلا يطلع عليه الملائكة فيحذروا آدم من كيد الشيطان. فيكون إطلاق القول عليه حقيقة؛ وإما بمجرد توجه أراده الشيطان كما يوسوس للناس في الدنيا، فيكون إطلاق القول عليه مجازا باعتبار المشابهة.
و)هل أدلك(استفهام مستعمل في العرض، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته.
والافتتاح بالنداء ليتوجه إليه.
والشجرة هي التي نهاه الله عن الأكل منها دون جميع شجر الجنة، ولم يذكر النهي عنها هنا وذكر في قصة سورة البقرة. وهذا العرض متقدم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى في سورة الأعراف)قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين(، ولم يدله الشيطان على شجرة الخلد بل كذبه ودله على شجرة أخرى بآية أن آدم لم يخلد، فحصل لآدم توهم أنه إذا أكل من الشجرة التي دله عليها الشيطان أن يخلد في الحياة.
والدلالة: الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهر لطالبه، والدلالة على الشجرة لقصد الأكل من ثمرتها.

وسماها هنا)شجرة الخلد(بالإجمال للتشويق إلى تعيينها حتى يقبل عليها، ثم عينها له عقب ذلك بما أنبا به قوله تعالى)فأكلا منها(.

وقد أفصح هذا عن استقرار محبة الحياة في جبلة البشر.

والملك: التحرر من حكم الغير، وهو يوهم آدم أنه يصير هو المالك للجنة المتصرف فيها غير مأمور لآمر.

واستعمل البلى مجازا في الانتهاء، لأن الثوب إذا بلي فقد انتهى لبسه.

)فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفن عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى[121] ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى[122](تفريع على ما قبله وثم جملة محذوفة دل عليها العرض، أي فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت حواء معه.

واقتصار الشيطان على التسويل لآدم وهو يريد أن يأكل آدم وحواء، لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوز في الجبلة. وتقدم معنى)فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة(في سورة الأعراف.

وقوله)وعصى آدم ربه(عطف على)فأكلا منها(، أي أكلا معا، وتعمد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة، وإثبات العصيان لآدم دون زوجه يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه. وفي هذا المعنى قال الله تعالى)يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا(.

والغوايه: ضد الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل. وإثبات العصيان لآدم دليل على أنه لم يكن يومئذ نبيا. ولأنه كان في عالم غير عالم التكليف وكانت الغواية كذلك، فالعصيان والغواية يومئذ: الخروج عن الامتثال في التربية كعصيان بعض العائلة أمر كبيرها، وإنما كان شنيعا لأنه عصيان أمر الله.

وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف.

وجملة) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى(معترضة بين جملة) وعصى آدم(وجملة)قال اهبطا منها جميعا(، لأن الاجتباء والتوبة عليه كانا بعد أن عوقب آدم وزوجه بالخروج من الجنة كما في سورة البقرة، وهو المناسب لترتب الإخراج من الجنة على المعصية دون أن يترتب على التوبة.

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل ببيان مآل آدم إلى صلاح.

والاجتباء: الاصطفاء. وتقدم عند قوله تعالى)واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم(في الأنعام، وقوله)اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم(في النحل.

والهداية: الإرشاد إلى النفع. والمراد بها إذا ذكرت مع الاجتباء في القرآن النبوءة كما في هذه الآيات الثلاث.
)قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو(استئناف بياني، لأن الإخبار عن آدم بالعصيان والغواية يثير في نفس السامع سؤالا عن جزاء ذلك. وضمير)قال(عائد إلى)ربه(من قوله)وعصى آدم ربه(. والخطاب لآدم وإبليس.
والأمر في)اهبطا(أمر تكوين، لأنهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض بتكوين من الله إذ كان قرارهما في عالم الجنة بتكوينه تعالى.
و)جميعا(يظهر أنه اسم لمعنى كل أفراد ما يوصف)بجميع(، وكأنه اسم مفرد يدل على التعدد مثل: فريق، ولذلك يستوي فيه المذكر وغيره والواحد وغيره، قال تعالى)فكيدوني جميعا(. ونصبه على الحال. وهو هنا حال من ضمير)اهبطا(.
وجملة)بعضكم لبعض عدو(حال ثانية من ضمير)اهبطا(. فالمأمور بالهبوط من الجنة آدم وإبليس وأما حواء فتبع لزوجها.
والخطاب في قوله)بعضكم(خطاب لآدم وإبليس. وخوطبا بضمير الجمع لأنه أريد عداوة نسليهما، فإنهما أصلان لنوعين نوع الإنسان ونوع الشيطان.
)فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى[123] ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى[124] قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا[125] قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى[126] وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى[127](

تفريع جملة)فإما يأتينكم مني هدى(على الأمر بالهبوط من الجنة إلى الدنيا إنباء بأنهم يستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنة لأنهم أودعوا في عالم خليط خيره بشره، وحقائقه بأوهامه، بعد أن كانوا في عالم الحقائق المحضة والخير الخالص، وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلته كان معدا له من أصل تركيبه.
والخطاب في قوله)يأتينكم(لآدم باعتبار أنه أصل لنوع الإنسان إشعارا له بأنه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطاب إبليس لأنه مفطور على الشر والضلال إذ قد أنباه الله بذلك عند إبايته السجود لآدم، فلا يكلفه الله باتباع الهدى، لأن طلب الاهتداء ممن أعلمه الله بأنه لا يزال في ضلال يعد عبثا ينزه عنه فعل الحكيم

تعالى. وليس هذا مثل أمر أبي جهل وأضرابه بالإسلام إذ أمثال أبي جهل لا يوقن بأنهم لا يؤمنون، ولم يرد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الشيطان للإسلام ولا دعا الشياطين. وأما الحديث الذي رواه الدارقطني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي ولكن الله أعانني فأسلم . فلا يقتضي أنه دعاه للإسلام ولكن الله ألهم قرينه إلى أن يأمره بالخير، والمراد بالقرين: شيطان قرين، والمراد بالهدى: الإرشاد إلى الخير.

وفي هذه الآية وصاية الله آدم وذريته باتباع رسل الله والوحي الإلهي. وبذلك يعلم أن طلب الهدى مركوز في الجبلة البشرية حتى قال كثير من علماء الإسلام: إن معرفة الإله الواحد كائنة في العقول أو شائعة في الأجيال والعصور. وإنه لذلك لم يعذر أهل الشرك في مدد الفتر التي لم تجئ فيها رسل للأمم. وهذه مسألة عظيمة وقد استوعبها علماء الكلام، وحررناها في رسالة النسب النبوي.

وقد تقدم تفسير نظير الجملتين الأولين في سورة البقرة.

وأما قوله)فلا يضل(فمعناه: أنه إذا اتبع الهدى الوارد من الله على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال، وهذا مأخوذ من دلالة الفعل في حيز النفي على العموم كعموم النكرة في سياق النفي، أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله فإنه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى. وهذا حال متبعي الشرائع غير الإلهية وهي الشرائع الوضعية فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلب الحق لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات، أو تعارض أدلة، أو انفعال بعادات مستقرة، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أن من المصلحة طلب مرضاتهم. وهذا سقراط وهو سيد حكماء اليونان قد كان يتذرع لإلقاء الأمر بالمعروف في أثينا بأن يفرغه في قوالب حكايات على ألسنة الحيوان، ولم يسلم من الخنوع لمصانعة اللفيف فإنه مع كونه لا يرى تأليه آلهتهم لم يسلم من أن يأمر قبل موته بقربان ديك لعطارد رب الحكمة. وحالهم بخلاف حال الرسل الذين يتلقون الوحي من علام الغيوب الذي لا يضل ولا ينسى، وأيدهم الله. وعصمهم من مصانعة أهل الأهواء، وكونهم تكوينا خاصا مناسبا لما سبق في علمه من مراده منهم، وثبت قلوبهم على تحمل الأهواء، ولا يخافون في الله لومة لائم. وإن الذي ينظر في القوانين الوضعية نظرة حكيم يجدها مشتملة على مراعاة أوهام وعادات.

والشقاء المنفي في قوله)ولا يشقى(هو شقاء الآخرة لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة.
وبدل لهذا مقابلة ضده في قوله)ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى(، إذ رتب على الإعراض عن هدي الله اختلال حاله في الدنيا والآخرة، فالمعيشة مراد بها مدة المعيشة، أي مدة الحياة.
والضنك: مصدر ضنك، من باب كرم ضناكة وضنكا، ولكونه مصدرا لم يتغير لفظه باختلاف موصوفه، فوصف به هنا)معيشة(وهي مؤنث. والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك، أي ضيق. ويستعمل مجازا في عسر الأمور في الحياة، قال عنترة:
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد
وإن نزلوا بضنك أنزل

صفحة : 2682

أي بمنزل ضنك، أي فيه عسر على نازله. وهو هنا بمعنى عسر الحال من اضطراب البال وتبلبله. والمعنى: أن مجامع همه ومطامح نظره تكون إلى التحيل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد خائف على الانتقاص غير ملتفت إلى الكمالات ولا مأنوس بما يسعى إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسه غير مطمئنة.
وجعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى تمثيلا لحالته الحسية يومئذ بحالته المعنوية في الدنيا، وهي حالة عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة. وذلك المعنى عنوان على غضب الله عليه وإقصائه عن رحمته؛ ف)أعمى(الأول مجاز)وأعمى(الثاني حقيقة.
وجملة)قال رب لم حشرتني أعمى(مستأنفة استئنافا ابتدائيا.
وجملة)قال كذلك أتتك(الخ... واقعة في طريق المحاورة فلذلك فصلت ولم تعطف.
وفي هذه الآية دليل على أن الله أبلغ الإنسان من يوم نشأته التحذير من الضلال والشرك، فكان ذلك مستقرا في الفطرة حتى قال كثير من علماء الإسلام: بأن الإشراك بالله من الأمم التي يكون في الفتر بين الشرائع مستحق صاحبه العقاب، وقال جماعة من أهل السنة والمعتزلة قاطبة: أن معرفة الله واجبة بالفعل. ولا شك أن المقصود من ذكرها في القرآن تنبيه المخاطبين بالقرآن إلى الحذر من الإعراض عن ذكر الله، وإنذار لهم بعاقبة مثل حالهم.

والإشارة في)كذلك أتتك آياتنا(راجعة إلى العمى المضمن في قوله)لم حشرتني أعمى(، أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاء وفاقا.

وقد ظهر من نظم الآية أن فيها ثلاثة احتباكات، وأن تقدير الأول: ونحشره يوم القيامة أعمى وننساه، أي تقصيه من رحمتنا. وتقدير الثاني والثالث: قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وعميت عنها فكذلك اليوم تنسى وتحشر أعمى.

والنسيان في الموضعين مستعمل كناية أو استعارة في الحرمان من حظوظ الرحمة.

وجملة)وكذلك نجزي من أسرف(الخ... تذييل، يجوز أن تكون من حكاية ما يخاطب الله به من يحشر يوم القيامة أعمى قصد منها التوبيخ له والتنكيل، فالواو عاطفة الجملة على التي قبلها. ويجوز أن تكون تذييلا للقصة وليست من الخطاب المخاطب به من يحشر يوم القيامة أعمى قصد منها موعظة السامعين ليحذوا من أن يصيروا إلى مثل ذلك المصير، فالواو اعتراضية لأن التذييل اعتراض في آخر الكلام، والواو الاعتراضية راجعة إلى الواو العاطفة إلا أنها عاطفة مجموع كلام على مجموع كلام آخر لا على بعض الكلام المعطوف عليه.

والمعنى: ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف، أي كفر ولم يؤمن بآيات ربه.

فالإسراف: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها وتكذيبها.

والمشار إليه بقوله)وكذلك(هو مضمون قوله)فإن له معيشة ضنكا(، أي وكذلك نجزي في الدنيا الذين أسرفوا ولم يؤمنوا بالآيات.

وأعقبه بقوله)ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(، وهذا يجوز أن يكون تذييلا للقصة وليس من حكاية خطاب الله للذي حشره يوم القيامة أعمى. فالمراد بعذاب الآخرة مقابل عذاب الدنيا المفاد من قوله) فإن له معيشة ضنكا(الآية، والواو اعتراضية. ويجوز أن تكون الجملة من حكاية خطاب الله للذي يحشره أعمى، فالمراد بعذاب الآخرة العذاب الذي وقع فيه المخاطب، أي أشد من عذاب الدنيا وأبقى منه لأنه أطول مدة.

)أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مسكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى[128](تفريع على الوعيد المتقدم في قوله تعالى)وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه(. جعل الاستفهام الإنكاري التعجيبي مفرعا على الإخبار بالجزاء بالمعيشة الضنك لمن أعرض عن توحيد الله لأنه سبب عليه لا

محالة، تعجيبا من حال غفلة المخاطبين المشركين عما حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل.
فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى معروف من مقام التعريض بالتحذير والإنذار بقرينة قوله)يمشون في مساكنهم(، فإنه لا يصلح إلا أن يكون حالا لقوم أحياء يومئذ.

صفحة : 2683

والهداية هنا مستعارة للإرشاد إلى الأمور العقلية بتنزيل العقلي منزلة الحسي، فيؤول معناها إلى معنى التبيين، ولذلك عدي فعلها باللام، كما في قوله تعالى)أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها(في سورة الأعراف.
وجملة)كم أهلكنا قبلهم من القرون(معلقة فعل)يهد(عن العمل في المفعول لوجود اسم الاستفهام بعدها، أي ألم يرشدهم إلى جواب)كم أهلكنا قبلهم(، أي كثرة إهلاكنا القرون. وفاعل)يهد(ضمير دل عليه السياق وهو ضمير الجلالة. والمعنى: أفلم يهد الله لهم جواب)كم أهلكنا(. ويجوز أن يكون الفاعل مضمون جملة)كم أهلكنا(. والمعنى: أفلم يبين لهم هذا السؤال، على أن مفعول)يهد(محذوف تنزيلا للفعل منزلة اللازم، أي يحصل لهم التبيين.
وجملة)يمشون في مساكنهم(حال من الضمير المجرور باللام، لأن عدم التبيين في تلك الحالة أشد غرابة وأحرى بالتعجيب.
والمراد بالقرون: عاد وثمود. فقد كان العرب يمرون بمساكن عاد في رحلاتهم إلى اليمن ونجران وما جاورها، وبمساكن ثمود في رحلاتهم إلى الشام. وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بديار ثمود في مسيرهم إلى تبوك.
وجملة)إن في ذلك لآيات لأولي النهى(في موضع التعليل للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل.
والنهي بضم النون والقصر جمع نهية بضم النون وسكون الهاء : اسم العقل. وقد يستعمل النهى مفردا بمعنى العقل. وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول، كقوله) إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا(.
)ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى[129] فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى[130](جملة) ولولا كلمة(عطف على جملة)أفلم يهد لهم(باعتبار ما فيها من

التحذير والتهديد والعبرة بالقرون الماضية، بأنهم جديرون بأن يحل بهم مثل ما حل بأولئك. فلما كانوا قد غرتهم أنفسهم بتكذيب الوعيد لما رأوا من تأخر نزول العذاب بهم فكانوا يقولون)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(عقب وعيدهم بالتنبيه على ما يزيل غرورهم إن سبب التأخير كلمة سبقت من الله بذلك لحكم يعلمها. وهذا في معنى قوله)يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون(.

والكلمة: مستعملة هنا فيما شأنه أن تدل عليه الكلمات اللفظية من المعاني، وهو المسمى عند الأشاعرة بالكلام النفسي الراجع إلى علم الله تعالى بما سيبرزه للناس من أمر التكوين أو أمر التشريع، أو الوعظ.وتقدم قوله تعالى)لولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم(في سورة هود.

فالكلمة هنا مراد بها: ما علمه الله من تأجيل حلول العذاب بهم،فالله تعالى بحكمته أنظر قريشا فلم يعجل لهم العذاب لأنه أراد أن ينشر الإسلام بمن يؤمن منهم وبذرياتهم. وفي ذلك كرامة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بتيسير أسباب بقاء شرعه وانتشاره لأنه الشريعة الخاتمة. وخص الله منهم بعذاب السيف والأسر من كانوا أشداء في التكذيب والإعراض حكمة منه تعالى، كما قال)وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام(.

واللزم بكسر اللام مصدر لازم، كالخصام، استعمل مصدرا لفعل لزم الثاني لقصد المبالغة في قوة المعنى كأنه حاصل من عدة ناس. ويجوز أن يكون وزن فعال بمعنى فاعل، مثل لزاز في قول لبي:

منا لزاز كريهة جذامها وسداد في قول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم

كريهة وسداد ثـغـر أي لكان الإهلاك الشديد لازما لهم.

فانتصب)لزاما(على أنه خبر)كان(، واسمها ضمير راجع إلى الإهلاك المستفاد من)كم أهلكنا(، أي لكان الإهلاك الذي أهلك مثله من قبلهم من القرون، وهو الاستئصال، لازما لهم.

صفحة : 2684

)وأجل مسمى(عطف على كلمة. والتقدير: لولا كلمة وأجل مسمى يقع عنده الهلاك لكان إهلاكهم لزاما. والمراد بالأجل:ما سيكشف لهم من حلول العذاب: إما في الدنيا بأن حل برجال منهم وهذا عذاب

البطشة الكبرى يوم بدر، وإما في الآخرة وهو ما سيحل بمن ماتوا كفار منهم. وفي معناه قوله تعالى)قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما(.

ويظهر أنه شاع في عصر الصحابة تأويل اسم اللزام أنه عذاب توعد الله به مشركي قريش. وقيل: هو عذاب يوم بدر. ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال خمس قد مضين : للدخان، والقمر، والروم، والبطشة، والزام)فسوف يكون لزاما(. يريد بذلك إبطال أن يكون اللزام مترقبا في آخر الدنيا. وليس في القرآن ما يحوج إلى تأويل اللزام بهذا كما علمت.

وفرع على ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولون من التكذيب وبالوعيد لتأخير نزوله بهم. والمعنى: فلا تستعجل لهم العذاب واصبر على تكذيبهم ونحوه الشامل له الموصول في قوله)ما يقولون(.

وأمره بأن يقبل على مزاولة تزكية نفسه وتزكية أهله بالصلاة، والإعراض عما منع الله الكفار برفاهية العيش، ووعده بأن العاقبة للمتقين.

فالتسبيح هنا مستعمل في الصلاة لاشتمالها على تسبيح الله وتنزيهه.

والباء في قوله)بحمد ربك(للملابسة، وهي ملابسة الفاعل لفعله، أي سبح حامدا ربك، فموقع المجرور موقع الحال.

والأوقات الذكورة هي أوقات الصلاة، وهي وقت الصبح قبل طلوع الشمس. ووقتان قبل غروبها وهما الظهر والعصر، وقيل المراد صلاة العصر. وأما الظهر فهي قوله)وأطراف النهار(كما سيأتي.

و)من(في قوله)من آناء الليل(ابتدائية متعلقة بفعل)فسبح(، وذلك وقتا المغرب والعشاء. وهذا كله من المجمل الذي بينته السنة المتواترة.

وأدخلت الفاء على)فسبح(لأنه لما قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام شابه تقديم أسماء الشرط المفيدة معنى الزمان. فعومل الفعل معاملة جواب الشرط كقوله صلى الله عليه وسلم: ففيهما فجاهد ، أي الأبوين، وقوله تعالى)ومن الليل فتهجد به نافلة لك(وقد تقدم في سورة الإسراء.

ووجه الاهتمام بآناء الليل أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة فيخشى أن تتساهل في أداء الصلاة فيه.

وآناء الليل: ساعاته، وهو جمع إني بكسر الهمزة وسكون النون وياء في آخره. ويقال: إنو بواو في آخره. ويقال: إنى بألف في آخره مقصورا . ويقال: أناء بفتح الهمزة في أوله وبمد في آخره . وجمع ذلك على آناء بوزن أفعال.

وقوله)وأطراف النهار(بالنصب عطف على قوله)قبل طلوع الشمس(، وطرف الشيء منتهاه. قيل: المراد أول النهار وآخره، وهما وقتا الصبح والمغرب، فيكون من عطف البعض على الكل للاهتمام بالبعض، كقوله)حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى(. وقيل: المراد طرف سير الشمس في قوس الأفق، وهو بلوغ سيرها وسط الأفق المعبر عنه بالزوال، وهما طرفان طرف النهاية وطرف الزوال، وهو انتهاء النصف الأول وابتداء النصف الثاني من القوس، كما قال تعالى)وأقم الصلاة طرفي النهار(. وعلى هذا التفسير يتجه أن يكون ذكر الطرفين معا لوقت صلاة واحدة أن وقتها ما بين الخروج من أحد الطرفين والدخول في الطرف الآخر وتلك حصة دقيقة.

وعلى التفسيرين فللنهار طرفان لا أطراف، كما قال تعالى)وأقم الصلاة طرفي النهار(. فالجمع في قوله) وأطراف النهار(من إطلاق اسم الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس، كقوله تعالى)فقد صغت قلوبكما(.

والذي حسنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله)ومن آناء الليل فسبح(.

وقرأ الجمهور)لعلك ترضى(بفتح التاء بصيغة البناء للفاعل، أي رجاء لك أن تنال من الثواب عند الله ما ترضى به نفسك.

ويجوز أن يكون المعنى: لعل في ذلك المقدار الواجب من الصلوات ما ترضى به نفسك دون زيادة في الواجب رفقا بك وبأمتك. ويبينه قوله صلى الله عليه وسلم: وجعلت قرة عيني في الصلاة .

وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم)ترضى(بضم التاء أي يرضيك ربك، وهو محتمل للمعنيين.

)ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزوجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى[131](

صفحة : 2685

أعقب أمره بالصبر على ما يقولونه بنهيه عن الإعجاب بما ينعم به من تنعم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم بالله بأن ذلك لحكم يعلمها الله تعالى، منها إقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى)أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون(.

وذكر الأزواج هنا لدلالته على العائلات والبيوت، أي إلى ما متعناهم وأزواجهم به من المتع؛ فكل زوج ممتع بمتعة في زوجه مما يحسن

في نظر كل من محاسن قرينه وما يقارن ذلك من محاسن مشتركة بين الزوجين كالبنين والرياش والمنازل والخدم.

ومد العينين: مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للإعجاب؛ شبه ذلك بمد اليد لتناول شيء مشتهى. وقد تقدم نظيره في آخر سورة الحجر.

والزهرة بفتح الزاي وسكون الهاء : واحدة الزهر، وهو نور الشجر والنبات. وتستعار للزينة المعجبة المبهتة، لأن منظر الزهرة يزين النبات ويعجب الناظر، فزهرة الحياة: زينة الحياة، أي زينة أمور الحياة من اللباس والأنعام والجنان والنساء والبنين، كقوله تعالى) فمتاع الحياة الدنيا وزينتها(.

وانتصب)زهرة الحياة الدنيا(على الحال من اسم الموصول في قوله)ما متعنا به أزواجا منهم(.

وقرأ الجمهور)زهرة(بسكون الهاء . وقرأه يعقوب بفتح الهاء وهي لغة.

)لنفتنهم(متعلق ب)متعنا(. و)في(للظرفية المجازية، أي ليحصل فتنتهم في خلاله، ففي كل صنف من ذلك المتاع فتنة مناسبة له. واللام للعلة المجازية التي هي عاقبة الشيء، مثل قوله تعالى) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(.

وإنما متعهم الله بزهرة الدنيا لأسباب كثيرة متسلسلة عن نظم الاجتماع فكانت لهم فتنة في دينهم، فجعل الحاصل بمنزلة الباعث.

والفتنة: اضطراب النفس وتبلبل البال من خوف أو توقع أو التواء الأمور، وكانوا لا يخلون من ذلك، فلشركهم يقذف الله في قلوبهم الغم والتوقع، وفتنتهم في الآخرة ظاهرة. فالظرفية هنا كالتي في قول سبرة ابن عمرو الفقعسي:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب

في أثمانها ونقامر وقوله تعالى)وارزقوهم فيها واكسوهم(في سورة النساء.

وجملة)ورزق ربك خير وأبقى(تذييل، لأن قوله)ولا تمدن عينيك(إلى آخره يفيد أن ما يبدو للناظر من حسن شارتهم مشوب ومبطن بفتنة في النفس وشقاء في العيش وعقاب عليه في الآخرة، فذيل بأن الرزق الميسر من الله للمؤمنين خير من ذلك وأبقى في الدنيا ومنفعته باقية في الآخرة لما يقارنه في الدنيا من الشكر.

فإضافة)رزق ربك(إضافة تشريف، وإلا فإن الرزق كله من الله، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحف به حال أصحابه من غضب الله عليهم، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة

لكفر انهم النعمة جعل كالمنكور انتسابه إلى الله، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك.
و)خير(تفضيل، والخيرية حقيقة اعتبارية تختلف باختلاف نواحيها. فمنها: خير لصاحبه في العاجل شر عليه في الآجل، ومنها خير مشوب بشرور وفتن، وخير صاف من ذلك، ومنها ملائم ملاءمة قوية، وخير ملائم ملاءمة ضعيفة، فالتفضيل باعتبار توفر السلامة من العواقب السيئة والفتن كالمقرون بالقناعة، فتفضيل الخيرية جاء مجملا يظهر بالتدبر.
)وأبقى(تفضيل على ما متع به الكافرون لأن في رزق الكافرين بقاء، وهو أيضا يظهر بقاؤه بالتدبر فيما يحف به وعواقبه.
) وأمر أهلك بالصلوة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى[132](ذكر الأهل هنا مقابل لذكر الأزواج في قوله) إلى ما متعنا به أزواجا منهم(فإن من أهل الرجل أزواجه، أي متعتك ومتعة أهلك الصلاة فلا تلفتوا إلى زخارف الدنيا. وأهل الرجل يكونون أمثل من ينتمون إليه.

صفحة : 2686

ومن آثار العمل بهذه الآية في السنة ما في صحيح البخاري: أن فاطمة رضي الله عنها بلغها أن سبيا جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتت تشتكي إليه ما تلقى من الرحى تسأله خادما من السبي فلم تجده. فأخبرت عائشة بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءها النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذت وعلي مضجعهما فجلس في جانب الفراش وقال لها ولعلي: ألا أخبركما بخير لكما مما سألتما تسبحان وتحمدان وتكبران دبر كل صلا ثلاثا وثلاثين فذلك خير لكما من خادم.
وأمر الله رسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله وهو أن يصطبر على الصلاة. والاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره، إذا حبسه، وهو مستعمل مجازا في إكثاره من الصلاة في النوافل. قال تعالى)يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(الآيات، وقال)ومن الليل فتهجد به نافلة لك(.
وجملة)لا نسألك رزقا(معترضة بين التي قبلها وبين جملة)نحن نرزقك(جعلت تمهيدا لهاته الأخيرة.
والسؤال: الطلب التكليفي، أي ما كلفناك إلا بالعبادة، لأن العبادة شكر الله على ما تفضل به على الخلق ولا يطلب الله منهم جزاء آخر. وهذا إبطال لما تعوده الناس من دفع الجبايات والخراج للملوك

وقادة القبائل والجيوش. وفي هذا المعنى قوله تعالى)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين(، فجملة)نحن نرزقك(مبينة لجملة)ورزق ربك خير وأبقى(. والمعنى: أن رزق ربك خير وهو مسوق إليك.

والمقصود من هذا الخطاب ابتداء هو النبي صلى الله عليه وسلم، ويشمل أهله والمؤمنين لأن المعلل به هذه الجملة مشترك في حكمة جميع المسلمين.

وجملة)والعاقبة للتقوى(عطف على جملة)لا نسألك رزقا(المعلل بها أمره بالاصطبار للصلاة، أي إنا سألناك التقوى والعاقبة.

وحقيقة العاقبة: أنها كل ما يعقب أمرا ويقع في آخره من خير وسر، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير. فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.

واللام للملك تحقيقا لإرادة الخير من العاقبة لأن شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة. وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضا للتقوى.

وهذه الجملة تذييل لما فيها من معنى العموم. أي لا تكون العاقبة إلا للتقوى. فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل.

) وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى[133](رجوع إلى التنويه بشأن القرآن، وبأنه أعظم المعجزات. وهو الغرض الذي انتقل منه إلى أغراض مناسبة من قوله)وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا(.

والمناسبة في الانتقال هو ما تضمنه قوله)فاصبر على ما يقولون(فجيء هنا بشنع من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله)فاصبر على ما يقولون(. فمن أقوالهم التي يقصدون منها التعنت والمكابرة أن قالوا: لولا يأتينا بآية من عند ربه فتؤمن برسالته، كما قال تعالى)فليأتنا بآية كما أريل الأولون(.

و)لولا(حرف تحضيض.

وجملة)أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى(في موضع الحال، والواو للحال، أي قالوا ذلك في حال أنهم أتتهم بينة ما في الصحف الأولى. فالاستفهام إنكاري؛ أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم على الإتيان بآية.

والبينة: الحجة.

والصحف الأولى: كتب الأنبياء السابقين. كقوله تعالى)إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(.

والصحف: جمع صحيفة. وهي قطعة من ورق أو كاغد أو خرقة يكتب فيها. ولما كان الكتاب مجموع صحف أطلق الصحف على الكتب.
ووجه اختيار الصحف هنا على الكتب أن في كل صحيفة من الكتب علما، وأن جميعه حواه القرآن، فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا.

صفحة : 2687

وهذه البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه القرآن، لأن الرسول موعود به في الكتب السالفة، ولأن في القرآن تصديقا لما في تلك الكتب من أخبار الأنبياء ومن المواعظ وأصول التشريع. وقد جاء به رسول أمي ليس من أهل الكتاب ولا نشأ في قوم أهل علم ومزاولة للتاريخ مع مجيئه بما هو أوضح من فلق الصبح من أخبارهم التي لم يستطع أهل الكتاب إنكارها، قال تعالى)الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون(، وكانوا لا يحققون كثيرا منها بما طرأ عليهم من التفرق وتلاشي أصول كتبهم وإعادة كتابة كثير منها بالمعنى على حسب تأويلات سقيمة.
وأما القرآن فما حواه من دلائل الصدق والرشاد، وما امتاز به عن سائر الكتب من البلاغة والفصاحة البالغتين حد الإعجاز، وهو ما قامت به الحجة على العرب مباشرة وعلى غيرهم استدلالا. وهذا مثل قوله تعالى)لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة(.
وقرأ نافع، وحفص، وابن جاز عن أبي جعفر)تأتهم(بتاء المضارع للمؤنث . وقرأه الباقون بتحتية المذكر لأن تأنيث)بينة(غير حقيقي، وأصل الإسناد التذكير لأن التذكير ليس علامة ولكنه الأصل في الكلام.
)ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آيتك من قبل أن نذل ونخزى[134](الذي يظهر أن جملة)ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله(معطوفة على جملة)أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى(، وأن المعنى على الارتقاء في الاستدلال عليهم بأنهم ضالون حين أخروا الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوه متوقفا على أن يأتيهم بآية من ربه، لأن ما هم متلبسون به من الإشراك بالله ضلال بين قد حجبت عن إدراك فساده العادات واشتغال البال بشؤون دين الشرك، فالإشراك

وحده كاف في استحقاقهم العذاب ولكن الله رحمهم فلم يؤاخذهم به إلا بعد أن أرسل إليهم رسولا يوقظ عقولهم. فمجيء الرسول بذلك كاف في استدلال العقول على فساد ما هم فيه، فكيف يسألون بعد ذلك إتيان الرسول لهم بآية على صدقه فيما دعاهم إليه من نبذ الشرك لو سلم لهم جدلا أن ما جاءهم من البينة ليس هو بآية، فقد بطل عذرهم من أصله، وهو قولهم)ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك(. وهذا كقوله تعالى)وهذا كتاب أنزلناه مبارك فأتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة(. فالضمير في قوله)من قبله(عائد إلى القرآن الذي الكلام عليه، أو على الرسول باعتبار وصفه بأنه بينة، أو على إتيان البينة المأخوذ من)أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى(.

وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان بوحدانية خالق الخلق يقتضيه العقل لولا حجب الضلالات والهوى، وأن مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر، وأن الله لا يؤاخذ أهل الفترة على الإشراك حتى يبعث إليهم رسولا، وأن قريشا كانوا أهل فترة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى)لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا(: أنهم يقولون ذلك يوم الحساب بعد أن أهلكهم الله الإهلاك المفروض، لأن الإهلاك بعذاب الدنيا يقتضي أنهم معذبون في الآخرة.

و)لولا(حرف تحضيض، مستعمل في اللوم أو الاحتجاج لأنه قد فات وقت الإرسال، فالتقدير: هلا كنت أرسلت إلينا رسولا.

وانتصب)فنتبع(على جواب التحضيض باعتبار تقدير حصوله فيما مضى.

والذل: الهوان. والخزي: الافتضاح، أي الذل بالعذاب.

والخزي في حشرهم مع الجناة كما قال إبراهيم عليه السلام ولا تخزني يوم يبعثون .

)قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى[135](

صفحة : 2688

جواب عن قولهم)لولا يأتينا بآية من ربه(وما بينهما اعتراض.

والمعنى: كل فريق متربص فأنتم تتربصون بالإيمان، أي تؤخرون الإيمان إلى أن تأتيكم آية من ربي، ونحن نتربص أن يأتيكم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، وتفرع عليه جملة)فتربصوا(. ومادة الفعل

المأمور به مستعملة في الدوام بالقرينة، نحو)يا أيها الذين آمنوا. آمنوا بالله ورسوله(، أي فدوموا على تربصكم.
وصيغة الأمر فيه مستعملة في الإنذار، ويسمى المتاركة، أي نترككم وتربصكم لأنا مؤمنون بسوء مصيركم. وفي معناه قوله تعالى)فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون(. وفي ما يقرب من هذا جاء قوله)قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون(.
وتنوين كل تنوين عوض عن المضاف إليه المفهوم من المقام، كقول الفضل بن عباس اللهبي:
كل له نية في بغض صاحبه بنعمة
الله نقليكم وتقلـونـا والتربص: الانتظار. تفعل من البص، وهو انتظار حصول حدث من خير أو شر، وقد تقدم في سورة براء.
وفرغ على المتاركة إعلامهم بأنهم يعلمون في المستقبل من من الفريقين أصحاب الصراط المستقيم ومن هم المهتدون. وهذا تعريض بأن المؤمنين هم أصحاب الصراط المستقيم المهتدون، لأن مثل هذا الكلام لا يقوله في مقام المحاجة والمتاركة إلا الموقن بأنه المحق.
وفعل)تعلمون(معلق عن العمل لوجود الاستفهام.
والصراط: الطريق. وهو مستعار هنا للدين والاعتقاد، كقوله)اهدنا الصراط المستقيم(.
والسوي: فعيل بمعنى مفعول، أي الصراط السوى، وهو مشتق من التسوية.
والمعنى: يحتمل أنهم يعلمون ذلك في الدنيا عند انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، فيكون الذين يعلمون ذلك من يبقى من الكفار المخاطبين حين نزول الآية سواء ممن لم يسلموا مثل أبي جهل، وصناديد المشركين اللذين شاهدوا نصر الدين يوم بدر، أو من أسلموا مثل أبي سفيان، وخالد بن الوليد، ومن شاهدوا عزة الإسلام. ويحتمل أنهم يعلمون ذلك في الآخرة علم اليقين.
وقد جاءت خاتمة هذه السورة كأبلغ خواتم الكلام لإيذانها بانتهاء المحاجة وانطواء بساط المقارعة.
ومن محاسنها: أن فيها شبيه رد العجز على الصدر لأنها تنظر إلى فاتحة السورة. وهي قوله)ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى(، لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق.
بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

سماها السلف)سورة الأنبياء(. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، طه، والأنبياء، هن من العتاق الأول وهن من تلادي . ولا يعرف لها اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبيا ومريم ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام. فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيا في قوله تعالى:)وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه(إلى قوله:)ويونس ولوطا(فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء، وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها.

وهي مكية بالاتفاق. وحكي ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في الإتقان استثناء قوله تعالى:)أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون(، ولم يعزه إلى قائل. ولعله أخذه من رواية عن مقاتل والكلبي عن ابن عباس أن المعنى ننقصها بفتح البلدان، أي بناء على أن المراد من الرؤية في الآية الرؤية البصرية، وأن المراد من الأرض أرض الحجاز، وأن المراد من النقص نقص سلطان الشرك منها. وكل ذلك ليس بالمتعين ولا بالراجح.وسيأتي بيانه في موضعه. وقد تقدم بيانه في نظيرها من سورة الرعد التي هي أيضا مكية بالأرجح أن سورة الأنبياء مكية كلها.

صفحة : 2689

وهي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول نزلت بعد حم السجدة وقبل سورة النحل، فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة. ولعلها نزلت بعد إسلام من أسلم من أهل المدينة كما يقتضيه قوله تعالى:)وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم)أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(، كما سيأتي بيانه، غير أن ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس أن قوله تعالى في سورة الزخرف:)ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون(، أن المراد بضرب المثل هو المثل الذي ضربه ابن الزبعري لما نزل قوله تعالى:)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(كما يأتي

يقتضي أن سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف. وقد عدت الزخرف ثانية وستين في النزول.
وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام والبصرة مائة وإحدى عشر وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة.

أغراض السورة
والأغراض التي ذكرت في هذه السور هي: الإنذار بالبعث، وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريبا.
وإقامة الحجة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من السماء.
التحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله.
والتذكير بأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله.
وذكر كثير من أخبار الرسل عليهم السلام .
والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنه رحمة للعالمين.
والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة.
وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة، وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.
وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.
ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزي كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.
ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.
وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.
وما يكرهه على فعل ما لا يريد.
وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.
وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ.
ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء.
وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال قومه.
وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم.
وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطعه الضالون قطعا.
وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم.

وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة، وأن الله سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه.
)اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون[1](افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذرين، فإن المراد بالناس مشركو مكة، ولاقتراب مبالغة في القرب، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقيق الفعل أي اشتد قرب وقوعه بهم.
وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية شبه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس، ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة، وهي هيئة المغير والمعجل في الإغارة على القوم فهو يلح في السير تكلفا للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارين معرضين عن اقتراب العدو منهم، فالكلام تمثيل.
والمراد من الحساب إما يوم الحساب، ومعنى اقترابه أنه قريب عند الله لأنه محقق الوقوع. أو قريب بالنسبة إلى ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي صلى الله عليه وسلم: بعثت أنا والساعة كهاتين ، أو اقترب الحساب كناية عن اقتراب موتهم لأنهم إذا ماتوا رأوا جزاء أعمالهم. وذلك من الحساب. وفي هذا تعريض بالتهديد لقرب هلاكهم وذلك بفنائهم يوم بدر.
أو المراد بالحساب المؤاخذة بالذنب كما في قوله تعالى:)إن حسابهم إلا على ربي(وعليه فالاقتراب مستعمل في حقيقته أيضا فهو من استعمال اللفظ في حقيته ومجازه.

صفحة : 2690

واللام في قوله)للناس(إن أبقيت على معناها الأصلي من الاختصاص فذكرها تأكيد لمعنى اللام المقدرة في الإضافة في قوله)حسابهم(لأن تقديره: حساب لهم، والضمير عائد إلى)الناس(فصار قوله)للناس(مساويا للضمير الذي أضيف إليه)حساب(فكأنه قيل: اقترب حساب للناس لهم فكان تأكيدا لفظيا. وكما تقول: أزف للحي رحيلهم، أصله أزف الرحيل للحي ثم صار أزف للحي رحيلهم، ومنه قول العرب: لا أبا لك، أصله لا أباك، فكانت لام)لك(مؤكدة لمعنى الإضافة لإمكان إغناء الإضافة عن ذكر اللام. قال الشاعر:
أبالموت الذي لا بد أني ملاق لا أباك تخوفيني
وأصل النظم: اقترب للناس الحساب. وإنما نظم التركيب على هذا النظم بأن قدم ما يدل على المضاف إليه وعرف

)الناس(تعريف الجنس ليحصل ضرب من الإبهام ثم يقع بعده التبيين. ولما في تقديم الجار والمجرور من الاهتمام بأن الاقتراب للناس ليعلم السامع أن المراد تهديد المشركين لأنهم الذين يكنى عنهم بالناس كثيرا في القرآن، وعند التقديم احتيج إلى تقدير مصاف فصار مثل: اقترب حساب للناس الحساب، وحذف المضاف لدلالة مفسره عليه. ولما كان الحساب حساب الناس المذكورين جيء بضمير الناس ليعود إلى لفظ الناس فيحصل تأكيد آخر وهذا نمط بديع من نسج الكلام، ويجوز أن تكون اللام بمعنى)من(أو بمعنى)إلى(متعلقة ب)اقترب(فيكون المجرور ظرفا لغوا، وعن ابن مالك أنه مثل لانتهاء الغاية بقولهم: تقريب منك .

وجملة)وهم في غفلة معرضون(حال من)الناس(، أي اقترب منهم الحساب في حال غفلتهم وإعراضهم. والمراد بالناس المشركون لأنهم المقصود بهذا الكلام كما يدل عليه ما بعده.

والغفلة: الذهول عن الشيء وعن طرق علمه، وقد تقدمت عند قوله تعالى:)وإن كنا عن دراستهم لغافلين(في سورة الأنعام وقوله تعالى:)ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين(في سورة الأعراف.

والإعراض: صرف العقل عن الاشتغال بالشيء. وتقدم في قوله:) فأعرض عنهم وعظهم(في سورة النساء، وقوله)فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره(في سورة الأنعام.

ودلت)في(على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها، ذلك أن غفلتهم عن يوم الحساب متأصلة فيهم بسبب سابق كفرهم. والمعنى: أنهم غافلون عن الحساب وعن اقترابه.

وإعراضهم هو إبايتهم التأمل في آيات القرآن التي تذكرهم بالبعث وتستدل لهم عليه، فمتعلق الإعراض غير متعلق الغفلة لأن المعرض عن الشيء لا يعد غافلا عنه، أي أنهم لما جاءتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به. فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث.

)ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون[2] لاهية قلوبهم(جملة مبينة لجملة)وهم في غفلة معرضون(لبيان تمكن الغفلة منهم وإعراضهم، بأنهم إذا سمعوا في القرآن تذكيرا لهم بالنظر والاستدلال استغلوا عنه باللعب واللهو فلم يفقهوا معانيه

وكان حظهم منه سماع ألفاظه كقوله تعالى:)ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون(في سورة البقرة.
والذكر: القرآن أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوة وصفه بالتذكير.
والمحدث: الجديد، أي الجديد نزوله متكررا، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلما جاءهم بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه مع قطع معذرتهم لأنه لو كانوا سمعوا ذكرا واحدا فلم يعبأوا به لانتحلوا لأنفسهم عذرا كانوا ساعتئذ في غفلة. فلما تكرر حدثان إتيانه تبين لكل منصف أنهم معرضون عنه صدا.
ونظير هذا قوله تعالى:)وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين(في سورة الشعراء، وليس المراد بمحدث ما قابل القديم في اصطلاح علم الكلام لعدم مناسبته لسباق النظم.
ومسألة صفة كلام الله تعالى تقدم الخوض فيها عند قوله تعالى:) وكلم الله موسى تكليما(في سورة النساء.

صفحة : 2691

وجملة)استمعوه(حال من ضمير النصب في)يأتيهم(وهذا الحال مستثنى من عموم أحوال أي ما يأتيهم ذكر في حال إلا في حال استماعهم.
وجملة)وهم يلعبون(حال لازمة من ضمير الرفع في) استمعوه(مفيدة لجملة)استمعوه(لأن جملة)استمعوه(حال باعتبار أنها مقيدة بحال أخرى هي المقصودة من التقييد وإلا لصار الكلام ثناء عليهم. وفائدة هذا الترتيب بين الجملتين الحاليتين الزيادة لقطع معذرتهم المستفاد من قوله)محدث(كما علمت.
و)لاهية قلوبهم(حال من المبتدأ في جملة)وهم يلعبون(وهي احتراس لجملة)استمعوه(أي استماعا لا وعي معه.
)وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون[3](جملة مستأنفة يجوز أن تكون عطفا على جملة)اقترب الناس حسابهم(إلى آخرها لأن كلتا الجملتين مسوقة لذكر أحوال تلقي المشركين لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والبهتان والتآمر على رفضها. فالذين ظلموا هم المراد بالناس كما تقدم.
وواو الجماعة عائد إلى ما عاد إليه ضمائر الغيبة الراجعة إلى) للناس(وليست جملة)وأسروا النجوى(عطفا على جملة)استمعوه

وهم يلعبون(لأن مضمونها ليس في معنى التقييد لما يأتيهم من ذكر.
و)الذين ظلموا(بدل من واو الجماعة لزيادة تقرير أنهم المقصود من النجوى. ولما في الموصول من الإيماء إلى سبب تناجيهم بما ذكر وأن سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم، وللنداء على قبح ما هم متصفون به.
وجملة)هل هذا إلا بشر مثلكم(بدل من)النجوى(لأن ذلك هو ما تناجوا به. فهو بدل مطابق. وليست هي كجملة)قالوا إن هذان لساحران(من جملة)فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى(في سورة طه فإن تلك بدل بعض من كل لأن ذلك القول هو آخر ما أسفرت عليه النجوى.
ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطله المسلمون على ما تآمروا به لئلا يتصدى الرسول صلى الله عليه وسلم للرد عليهم لأنهم علموا أن حجتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول الناس في الإسلام فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجوهم بذلك ليدخلوا الشك في قلوبهم.
والنجوى: المحادثة الخفية. والإسرار: هو الكتمان والكلام الخفي جدا. وقد تقدم الجمع بينهما في قوله تعالى)ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم(في سورة براءة، وتقدم وجه جعل النجوى مفعولا ل)أسروا(في قوله تعالى)وأسروا النجوى(في سورة طه، أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها لأن شأن التشاور في المهم كتمانه كيلا يطلع عليه المخالف فيفسده.
والاستفهام في قوله)هل هذا إلا بشر مثلكم(إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم.
وكذلك الاستفهام في قوله)أفتأتون السحر(إنكاري وأراد بالسحر الكلام الذي يتلوه عليكم.
والمعنى: أنه لما كان بشرا مثلكم فما تصديقكم لنبوءته إلا من أثر سحر سحركم به فتأتون السحر بتصديقكم بما يدعوكم إليه.
وأطلق الإتيان على القبول والمتابعة على طريق المجاز أو الاستعارة، لأن الإتيان لشيء يقتضي الرغبة فيه، ويجوز أن يراد بالإتيان هنا حضور النبي صلى الله عليه وسلم لسماع دعوته فجعلوه إتيانا، لأن غالب حضور المجالس أن يكون بإتيان إليها، وجعلوا كلامه سحرا فنهوا من ناجوهم عن الاستماع إليه. وهذا كقوله تعالى:)وقال

الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(في سورة فصلت.
وقوله)وأنتم تبصرون(في موضع الحال، أي تأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي، فعبروا عنه بالبصر لأن المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير.
)قل ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم[4](

أطلع الله رسوله على نجواهم فلم يتم لهم ما أرادوا من الإسرار بها فيعد أن حكى ما تناجوا به أمره أن يخبرهم بأن الله الذي علم نجواهم يعلم كل قول في السماء والأرض من جهر أو سر، فالتعريف في)القول(للاستغراق، وبذلك كان هذا تذييلا، وأعلمهم بأنه المتصف بتمام العلم للمسموعات وغيرها بقوله)وهو السميع العليم(.
وقرأ الجمهور)قل(بصيغة الأمر. وقرأ حمزة والكسائي، وحفص، وخلف)قال(بصيغة الماضي، وكذلك هي مرسومة في المصحف الكوفي قاله أبو شامة، أي قال الرسول لهم، حكى الله ما قاله الرسول لهم، وإنما قاله عن وحي فكان في معنى قراءة الجمهور) قل ربي يعلم القول(لأنه إذا أمر بأن يقوله فقد قاله.
وإنما لم يقل يعلم السر لمراعاة العلم بأن الذي قالوه من قبيل السر وأن إثبات علمه بكل قول يقتضي إثبات علمه بالسر وغيره بناء على متعارف الناس. وأما قوله في سورة الفرقان:)قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض(فلم يتقدم قبله ذكر للإسرار، وكان قول الذين كفروا:)إن هذا إلا إفك افتراه(صادرا منهم تارة جهرا وتارة سرا فأعلمهم الله باطلاعه على سرهم. ويعلم منه أنه مطلع على جهرهم بطريقة الفحوى.
)بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون[5]( )بل(الأولى من كلام الله تعالى إضراب انتقال من حكاية قول فريق منهم)أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(إلى حكاية قول آخر من أقوال المشركين، وهو زعمهم أن ما يخبر عنه ويحكيه هو أحلام يراها فيحكيها، فضمير)قالوا(لجماعة المشركين لا لخصوص القائلين الأولين.
و)بل(الثانية يجوز أن تكون من الكلام المحكي عنهم وهي إضراب انتقال فيما يصفون به القرآن. والمعنى: بل افتراه واختلقه من غير أحلام، أي هو كلام مكذوب.

ثم انتقلوا فقالوا)هو شاعر(أي كلامه شعر، فحرف)بل(الثالثة إضراب منهم عن كلامهم وذلك مؤذن باضطرابهم وهذا الاضطراب ناشئ عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن. وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجته كما قيل: الباطل لجلج، أي ملتبس متردد فيه.

ويجوز أن تكون)بل(الثانية والثالثة مثل)بل(الأولى للانتقال في حكاية أقوالهم. والتقدير: بل قالوا افتراه بل قالوا هو شاعر، وحذف فعل القول لدلالة القول الأول عليهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كل جماعة اعتلالا.

والأضغاث: جمع ضغث بكسر الضاد، وهو الحزمة من أعواد أو عشب أو حشيش مختلط ثم أطلق على الأخلاط مطلقا كما في سورة يوسف)قالوا أضغاث أحلام(أرادوا أن ما يخبركم به من أنه أوحي إليه ومن أخبار البعث والحساب ويوم القيامة هو أحلام يراها.

وفرعوا على ترددهم أو فرع كل فريق على مقالته نتيجة واحدة وهي المطالبة أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقة غير هذا القرآن من نوع ما يحكى عن الرسل السابقين أنهم أتوا به مثل انقلاب العصا حية.

ومن البهتان أن يسألوا الإتيان بآية يكون الادعاء بأنها سحر أروج في مثلها فإن من أشهر أعمال السحرة إظهار ما يبدو أنه خارق عادة. وقديما قال آل فرعون في معجزات موسى: إنها سحر، بخلاف آية إعجاز القرآن.

ودخلت لام الأمر على فعل الغائب لمعنى إبلاغ الأمر إليه، أي فقولوا له: ائتنا بآية. والتشبيه في قوله:)كما أرسل الأولون(في موضع الحال من ضمير)يأتنا(أي حالة كون هذا البشر حين يأتي بالآية يشبه رسالته رسالة الأولين، والمشبه ذات والمشبه به معنى الرسالة وذلك واسع في كلام العرب. قال النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتـي

على وعل من ذي المطارة عاقل أي عل مخافة وعل أو حالة كون الآية كما أرسل الأولون، أي به.

)ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون[6](استئناف ابتدائي جوابا على قولهم)كما أرسل الأولون(، والمعنى: أن الأمم التي أرسل إليها الأولون ما أغنت فيهم الآيات التي جاءتهم كما وددتم أن تكون لكم مثلها فما آمنوا، ولذلك حق عليهم الإهلاك فشأنكم أيها المشركون كشأنهم. وهذا كقوله تعالى:)وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون(في سورة الإسراء.

وإنما أمسك الله الآيات الخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم، ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها.

و)ما(نافيه. و)من(في قوله تعالى)من قرية(مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من حرف)ما(.

ومتعلق)آمنت(محذوف دل عليه السياق، أي ما آمنت بالآيات قرية.

وجملة)أهلكناها(صفة ل)قرية(وردت مستطردة للتعريض بالوعيد بأن المشركين أيضا يترقبون الإهلاك.

وذكرت القرية هنا مرادا بها أهلها ليبنى عليها الوصف بإهلاكها لأن الإهلاك أصاب أهل القرى وقراهم، فلذلك قيل)أهلكناها(دون) أهلكناهم(كما في سورة الكهف:)وتلك القرى أهلكناهم(.

وفرعت جملة)أفهم يؤمنون(على جملة)ما آمنت قبلهم من قرية(مقترنة باستفهام الإنكار، أي فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما اقترحوا كما لم يؤمن الذين من قبلهم الذين جعلوهم مثالا في قولهم)كما أرسل الأولون(وهذا أخذ لهم بلازم قولهم.

)وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[7](عطف جواب على جواب. والمقصود من هذا إبطال مقصودهم من قولهم)هل هذا إلا بشر مثلكم(إذ أرادوا أنه ليس بأهل للامتياز عنهم بالرسالة عن الله تعالى، فبين خطأهم في استدلالهم بأن الرسل الأولين الذين اعترفوا برسالتهم ما كانوا إلا بشرا وأن الرسالة ليست إلا وحيا من الله لمن اختاره من البشر.

وقوله)إلا رجالا(يقتضي أن ليس في النساء رسلا وهذا مجمع عليه. وإنما الخلاف في نبوءة النساء مثل مريم أخت موسى ومريم أم عيسى. ثم عرض بجهلهم وفضح خطأهم فأمرهم أن يسألوا أهل الذكر، أي العلم بالكتب والشرائع السالفة من الأحبار والرهبان.

وجملة)فاسألوا أهل الذكر(الخ معترضة بين الجمل المتعاطفة.

وتوجيه الخطاب لهم بعد كون الكلام جرى على أسلوب الغيبة التفات، ونكتته أن الكلام لما كان في بيان الحقائق الواقعة أعرض عنهم في تقريره وجعل من الكلام الموجه إلى كل سامع وجعلوا فيه معبرا عنهم بضمائر الغيبة، ولما أريد تجهيلهم وإلجاؤهم إلى الحجة عليهم غير الكلام إلى الخطاب تسجيلا عليهم وتقريعا لهم بتجهيلهم.

)وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين[8]
(الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف الجثة. هذا قول المحققين من أئمة اللغة مثل أبي إسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى:)فأخرج لهم عجلا جسدا(. وقد تقدم هناك، ومنه قوله تعالى:) ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا(. قيل هو شق غلام لا روح فيه ولدته إحدى نسائه، أي ما جعلناهم أجراما غير منبثة فيها الأرواح بحيث تنفي عنهم صفات البشر التي خاصتها أكل الطعام، وهذا رد لما يقولونه)ما لهذا الرسول يأكل الطعام(مع قولهم هنا) هل هذا إلا بشر مثلكم(.
وذكر الجسد يقيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا)ما لهذا الرسول يأكل الطعام(، وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور الآدميين لكنهم لا يأكلون الطعام وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم لما قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة.
وأما قوله:)وما كانوا خالدين(فهو زيادة استدلال لتحقيق بشريتهم استدلالا بما هو واقع من عدم كفاءة أولئك الرسل كما هو معلوم بالمشاهدة، لقطع معاذير الضالين، فإن زعموا أن قد كان الرسل الأولون مخالفين للبشر فماذا يصنعون في لحاق الفناء إياهم. فهذا وجه زيادة)وما كانوا خالدين(.
وأتي في نفي الخلود عنهم بصيغة)ما كانوا(تحقيقا لتمكن عدم الخلود منهم.
)ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين[9](

)ثم(عاطفة الجملة على الجمل السابقة فهي للترتيب الرتبي. والمعنى: وأهم مما ذكر أنا صدقناهم الوعد فأنجيناهم وأهلكنا الذين كذبوهم. ومضمون هذا أهم في الغرضين التبشير والإنذار. فالتبشير للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الله صادقه وعده من النصر، والإنذار لمن ماثل أقوام الرسل الأولين.
والمراد بالوعد وعدهم النصر على المكذبين بقرينة قوله تعالى) فأنجيناهم(المؤذن بأنه وعد عذاب لأقوامهم، فالكلام مسوق مساق التنويه بالرسل الأولين، وهو تعريض بوعيد الذين قالوا)فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(. وفي هذا تقريع للمشركين، أي إن كان أعجبكم ما أتى به الأولون فسألتم من رسولكم مثله فإن حالكم كحال الذين أرسلوا إليهم فترقبوا مثل ما نزل بهم ويترقب رسولكم مثل

ما لقي سلفه. وهذا كقوله تعالى:)قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين(في سورة يونس.
وانتصب الوعد ب)صدقناهم(على التوسع بنزع حرف الجر. وأصل الاستعمال أن يقال: صدقناهم في الوعد، لأن)صدق(لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد. وهذا الحذف شائع في الكلام ومنه في مثل هذا ما في المثل صدقني سن بكره .
والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى)من نشاء(احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة.
وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد.
والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب.
)لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون[10](استئناف جواب عن قولهم)فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان.
وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكي عنهم أول السورة بقوله تعالى:)ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم(كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية.
ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل)أنزلنا(بحرف)إلى(شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور ب)إلى(هو المنزل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: لقد أنزلنا لكم.
وتنكير)كتابا(للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.
والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله)ذكر رحمة ربك عبده زكريا(. وقد أوثر هذا المصدر

هنا وجعل معرفا بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجها فيصح قصد المعنيين معا من كلمة)الذكر(بان مجيء القرآن مشتملا على أعظم الهدى، هو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم، ومجيئه بلغتهم، وفي قومهم، وبواسطة واحد منهم، سمعة عظيمة لهم كما قال تعالى:)بلسان عربي مبين(وقال)كما أرسلنا فيكم رسولا منكم(.

وقد فسر السلف هذه الآية بالمعنيين. وفي تفسير الطبري هنا قال جماعة: معنى)فيه ذكركم(أنه الشرف، أي فيه شرفكم. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تذكر عظام الأمور. وقد فسر بمثل ذلك قوله تعالى)وإنه لذكر لك ولقومك(.

وعلى المعنيين يكون لتفريع قوله تعالى)أفلا تعقلون(أحسن موقع لأن الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم متجه على كلا المعنيين فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد ينكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها كما يكون الفضل في مثله مضاعفا.

صفحة : 2695

وأيضا فهو متفرع على الإقناع بإنزال القرآن آية تفوق الآيات التي سألوا مثلها وهو المفاد من الاستئناف ومن تأكيد الجملة بالقسم وحرف التحقيق قال تعالى)أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون(في سورة العنكبوت، وذلك لإعجازه اللفظي والمعنوي.

)وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين[11] فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون[12] لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون[13] قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين[14](عطف على قوله)ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها(أو على قوله تعالى)وأهلكنا المسرفين(، وهو تعريض بالتهديد.

ومناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدق رسله وعده وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرسل ونصرهم وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصف ما حل بهم ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض

بقاعدة قياس المساواة، وأن الله ينشئ بعدهم أمة مؤمنة كقوله تعالى)إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد(في سورة إبراهيم.

و)كم(اسم، له حق صدر الكلام لأن أصله اسم استفهام عن العدد، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز لأن الشيء الكثير من شأنه أن يستفهم عنه، والتقدير: قصمنا كثيرا من القرى ف)كم(هنا خبرية. وهي واقعة في محل نصب بفعل) قصمنا(.

وفي)كم(الدالة على كثرة العدد إيماء إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم أي الشرك إيماء إلى سبب الإهلاك فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون التهديد بأن ذلك حال بهم لا محالة بحكم العموم، وأن هذا ليس مرادا به قرية معينة، فما روي عن ابن عباس: أن المراد بالقرية حضوراء بفتح الحاء مدينة باليمن قتلوا نبيا اسمه شعيب بن ذي مهدم في زمن أرمياء نبي بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم . فإنما أراد أن هذه القرية ممن شملتهم هذه الآية، والتقدير: قصمنا كثيرا. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى)ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن(في سورة الأنعام.

وأطلق القرية على أهلها كما يدل عليه قوله تعالى)وأنشأنا بعدها قوما آخرين(.

ووجه اختيار لفظ)قرية(هنا نظير ما قدمناه آنفا في قوله تعالى)ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها(.

وحرف)من(في قوله تعالى)من قرية(لبيان الجنس، وهي تدخل على ما فيه معنى التمييز وهي هنا تمييز لإبهام)كم(.

والقصم: الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع. واستعير للاستئصال والإهلاك القوي كإهلاك عاد وثمود وسبأ.

وجملة)وأنشأنا بعدها قوما آخرين(معترضة بين جملة)وكم قصمنا من قرية(وجملة)فلما أحسوا بأسنا(الخ. فجملة)فلما أحسوا بأسنا(الخ تفريع على جملة)وكم قصمنا من قرية(.

وضمير)منها(عائد إلى)قرية(.

والإحساس: الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

والبأس: شدة الألم والعذاب. وحرف)من(في قوله)منها يركضون(يجوز أن يكون للابتداء، أي خارجين منها، ويجوز أن يكون للتعليل بتأويل)يركضون(معنى)يهربون(، أي من البأس الذي أحسوا به فلا بد من تقدير مضاف، أي من بأسنا الذي أحسوه في القرية. وذلك بحصول أشراط إنذار مثل الزلازل والصواعق.

والركض: سرعة سير الفرس، وأصله الضرب بالرجل فيسمى به العدو، لأن العدو يقتضي قوة الضرب بالرجل وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيها لسرعة سيرهم بركض الأفراس.
و)منها(ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير المنفصل المرفوع.

صفحة : 2696

ودخلت)إذا(الفجائية في جواب)لما(للدلالة على أنهم ابتدروا الهروب من شدة الإحساس بالبأس تصويرا لشدة الفزع. وليست) إذا(الفجائية برابطة للجواب بالشرط لأن هذا الجواب لا يحتاج إلى رابط، و)إذا(الفجائية قد تكون رابطة للجواب خلفا من الفاء الرابطة حيث يحتاج إلى الرابط لأن معنى الفجاءة يصلح للربط ولا يلازمه.
وجملة)لا تركضوا(معترضة وهي خطاب للراكضين بتخيل كونهم كالحاضرين المشاهدين في وقت حكاية قصتهم، ترشيحا لما اقتضى اجتلاب حرف المفاجأة وهذا كقول مالك بن الريب:
دعاني الهوى من أهل ودي وجيرتي
بذي الطبسين فـالـتـقـت ورائيا أي لما دعاه الهوى، أي ذكره أحبابه وهو غاز بذي الطبسين التفت وراءه كالذي يدعوه داع من خلفه فتخيل الهوى داعيا وراءه.
وتكون هذه الجملة معترضة بين جملة)فلما أحسوا بأسنا(، وبين جملة)قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين(.
ويجوز جعل الجملة مقول قول محذوف خوطبوا به حينئذ بأن سمعوه بخلق من الله تعالى أو من ملائكة العذاب. وهذا ما فسر به المفسرون ويبعده استبعاد أن يكون ذلك واقعا عند كل عذاب أصيبت به كل قرية. وأيا ما كان فالكلام تهكم بهم.
والإتراف: إعطاء الترف، وهو النعيم ورفه العيش، أي ارجعوا إلى ما أعطيتم من الرفاهية وإلى مساكنكم.
وقوله تعالى)لعلكم تسألون(من جملة التهكم. وذكر المفسرون في معنى)تسألون(احتمالات ستة. أظهرها: أن المعنى: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم.

وجملة)قالوا يا ويلنا(إن جعلت جملة)لا تركضوا(معترضة على ما قررته آنفا تكون هذه مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة)إذا هم منها يركضون(كأن سائلا سأل عما يقولونه حين يسرعون هاربين لأن شأن الهارب الفزع أن تصدر منه أقوال تدل على الفزع أو الندم عن الأسباب التي أحلت به المخاوف فيجاب بأنهم أيقنوا حين يرون العذاب أنهم كانوا ظالمين فيقرون بظلمهم وينشئون التلهف والتندم بقولهم)يا ويلنا إنا كنا ظالمين(.

وإن جعلت جملة)لا تركضوا(مقول قول محذوف على ما ذهب إليه المفسرون كانت جملة)قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين(جوابا لقول من قال لهم)لا تركضوا(على وجه التهكم بهم ويكون فصل الجملة لأنها واقعة في موقع المحاورة كما بيناه غير مرة، أي قالوا: قد عرفنا ذنبنا وحق التهكم بنا. فاعترفوا بذنبهم. قال تعالى:)فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير(في سورة الملك.

)فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين[15](تفريع على جملة)قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين(، فاسم تلك إشارة إلى القول المستفاد من قوله تعالى)قالوا يا ويلنا(، وتأنيثه لأنه اكتسب التأنيث من الإخبار عنه بدعواهم، أي ما زالوا يكررون تلك الكلمة يدعون بها على أنفسهم.

وهذا الوجه يرجح التفسير الأول لمعنى قوله تعالى)لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه(لأن شأن الأقوال التي يقولها الخائف أن يكررها إذ يغيب رأيه فلا يهتدي للإتيان بكلام آخر، بخلاف الكلام المسوق جوابا فإنه لا داعي إلى إعادته.

والمعنى: فما زالوا يكررون مقالتهم تلك حتى هلكوا عن آخرهم.

وسمي ذلك القول دعوى لأن المقصود منه هو الدعاء على أنفسهم بالويل، والدعاء يسمى دعوى كما في قوله تعالى)دعواهم فيها سبحانك اللهم(في سورة يونس. أي فما زال يكرر دعاؤهم بذلك فلم يكفوا عنه إلى أن صيرناهم كالحصيد، أي أهلكناهم.

وحرف)حتى(مؤذن بنهاية ما اقتضاه قوله تعالى)فما زالت تلك دعواهم(.

والحصيد: فعيل بمعنى مفعول، أي المحصود. وهذه الصيغة تلازم الإفراد والتذكير إذا جرت على الموصوف بها كما هنا.

والحصد: جز الزرع والنبات بالمنجل لا باليد. وقد شاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود بمنزلة الاسم الجامد.

والخامد: اسم فاعل من خمدت النار تخمد بضم الميم إذا زال لهيبها.

شبهوا بزرع حصد، أي بعد أن كان قائما على سوقه خضرا، فهو يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة، كما شبه بالزرع في قوله تعالى)كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع(في سورة الفتح. ويقال للناشئ: أنبته الله نباتا حسنا قال تعالى:)وأنبتها نباتا حسنا(في سورة آل عمران. فللإشارة إلى الشبهين شبه البهجة وشبه الهلك أوثر تشبيههم حين هلاكهم بالحصيد.

وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار المشبوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى)كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله(في سورة المائدة وقوله تعالى)مثلهم كمثل الذي استوقد نارا(في سورة البقرة. فحصل تشبيهان بليغان وليسا باستعارتين مكنيتين لأن ذكر المشبه فيهما مانع من تقوم حقيقة الاستعارة خلافا للعلامتين التفتزاني والجرجاني في شرحيهما للمفتاح متمسكين بصيغة جمعهم في قوله تعالى) جعلناهم(، فجعلا ذلك استعارتين مكنيتين إذ شبهوا بزرع حين انعدامه ونار ذهبت قوتها وحذف المشبه بهما ورمز إليهما بلازم كل منهما وهو الحصد والخمود فكان)حصيدا(وصفا في المعنى للضمير المنصوب في جعلناهم(، فالحصيد هنا وصف ليس منزلا منزلة الجامد كالذي في قوله تعالى)وحب الحصيد(، وبذلك لم يكن قوله تعالى)حصيدا(من قبيل التشبيه البليغ إذ لم يشبهوا بحصيد زرع بل أثبت لهم أنهم محصودون استعارة مكنية مثل نظيره في قوله تعالى)خامدين(الذي هو استعارة لا محالة كما هو مقتضى مجيئه بصيغة الجمع المذكر، ومبنى الاستعارة على تناسي التشبيه. وهذا تكلف منهما ولم أدر ماذا دعاهما إلى ارتكاب هذا التكلف.

وانتصب)حصيدا خامدين(على أن كليهما مفعول ثان مكرر لفعل الجعل كما يخبر عن المبتدأ بخبرين وأكثر، فإن مفعولي) جعل(أصلهما المبتدأ والخبر وليس ثانيهما وصفا لأولهما كما هو ظاهر.

) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين[16] لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين[17](كثر في القرآن الاستدلال بإيقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نظمها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة ولذلك قال تعالى في سورة الحجر:)وما خلقنا السماوات

والأرض وما بينهما إلا بالحق(. وقد بينا هنالك كيفية ملابسة الحق لكل أصناف المخلوقات وأنواعها بما يغني عن إعادته هنا.

وكثر أن ينبه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المنسبة بين خلق ما قي السماوات والأرض ملتبسا بالحق، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عمتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة الإسلام، والى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقي فيها النفوس جزاء ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقا.

فلذلك كثر أن تعقب الآيات المبينة لما في الخلق من الحق بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب، والعكس، كقوله تعالى:)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(في آخر سورة المؤمنين، وقوله تعالى:)وما خلقنا السماوات وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل(آخر الحجر، وقوله تعالى)إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل اللذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار(في سورة ص، وقوله تعالى)أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون لأن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين(في سورة الدخان، وقوله تعالى:)ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون(في سورة الأحقاف إلى غير هذه الآيات.

صفحة : 2698

فكذلك هذه الآية عقب بها ذكر القوم المهلكين، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات وإعطاء كل مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استدل بذلك على أن تلك السنة لا تختلف في ترتب المسببات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلفين من الأعمال، فإذا ما لاح لهم تخلف سبب عن سببه أيقنوا أنه تخلف مؤقت فإذا علمهم الله على لسان شرائعه بأنه ادخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علمهم أنهم لا يفرقون ذلك بالموت بل إن لهم حياة

آخرة وأن الله باعثهم بعد الموت أيقنوا بها، وإذا علمهم أنه ربما عجل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به.
ولذلك كثر تعقيب ذكر نظام خلق السماوات والأرض بذكر الجزاء الآجل والبعث وإهلاك بعض الأمم الظالمة، أو تعقيب ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السماوات والأرض.
وحسبك تعقيب ذلك بالتفريع بالفاء في قوله تعالى:)إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار(الآيات ختام سورة آل عمران.
ولأجل هذا طرد أو كاد أن يطرد ذكر لفظ)وما بينهما(بعد ذكر خلق السماوات والأرض في مثل هذا المقام لأن تخصيص ما بينهما بالذكر يدل على الاهتمام به لأن أشرفه نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال وهو مناط التكليف. فليس بناء الكلام على أن يكون الخلق لعبا منظورا فيه إلى رد اعتقاد معتقد ذلك ولكنه بني على النفي أخذا لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعبا.
واللعب: العمل أو القول الذي لا يقصد به تحصيل فائدة من مصلحة أو دفع مفسدة ولا تحصيل نفع أو دفع ضر، وإنما يقصد به إرضاء النفس حين تميل إلى العبث كما قيل: لابد للعاقل من حمقة يعيش بها . ويرادفه العبث واللهو، وضده: الجد. واللعب من الباطل إذ ليس في عمله حكمة فضده الحق أيضا.
وانتصب)لاعبين(على الحال من ضمير)خلقنا(وهي حال لازمة إذا لا يستقيم المعنى بدونها.
وجملة)لو أردنا أن نتخذ لهوا(مقررة لمعنى جملة)وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين(، تقرير بالاستدلال على مضمون الجملة، وتعليلا لنفي أن يكون خلق السماوات والأرض لعبا، أي عبثا بأن اللعب ليس من شأننا أو على الفرض والتنازل لو أردنا اللهو لكان ما يلهو به حاصلا في أشرف الأماكن من السماوات فإنها أشد اختصاصا بالله تعالى إذ جعل سكانها عبادا له مخلصين، فلذلك عبر عنها باسم الظرف المختص وهو)لدن(مضافا إلى ضمير الجلالة بقوله تعالى من)لدنا(أي غير العوالم المختصة بكم بل لكان في عالم الغيب الذي هو أشد اختصاصا بنا إذ هو عالم الملائكة المقربين. فالظرفية المفادة من)لدن(ظرفية مجازية. وإضافة) لدن(إلى ضمير الجلالة دلالة على الرفعة والتفضيل كقوله تعالى) رزقا من لدنا(في سورة القصص وقوله تعالى)وهب لنا من لدنك رحمة(في آل عمران، أي لو أردنا أن نتخذ لهوا كان اتخاذه في

عالم شهادتكم. وهذا استدلال باللزوم العرفي لأن شأن من يتخذ شيئا للتفكه به أن يستأثر به ولا يبيحه لغيره وهو مبني على متعارف عقول المخاطبين من ظنهم أن العوالم العليا أقرب إلى الله تعالى.

وجملة)إن كنا فاعلين(إن جعلت)إن(شرطية فارتباطها بالتي قبلها ارتباط الشرط بجزائه المحذوف الدال عليه جواب)لو(وهو جملة)لاتخذناه(فيكون تكريرا للتلازم، وإن جعلت)إن(حرف نفي كانت الجملة مستأنفة لتقرير الامتناع المستفاد من)لو(أي ما كنا فاعلين لهوا.

)بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون[18]( )بل(للإضراب عن اتخاذ اللهو وعن أن يكون الخلق لعبا إضراب إبطال وارتقاء، أي بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحق عليه كراهية للباطل بله أن نعمل عملا هو باطل ولعب.

صفحة : 2699

والقذف، حقيقته: رمي جسم على جسم. واستعير هنا لإيراد ما يزيل ويبطل الشيء من دليل أو زجر أو إعدام أو تكوين ما يغلب، لأن ذلك مثل رمي الجسم المبطل بشيء يأتي عليه ليتلفه أو يشتته، فالله يبطل الباطل بالحق بأن يبين للناس بطلان الباطل على لسان رسله، وبأن أوجد في عقولهم إدراكا للتميز بين الصلاح والفساد، وبأن يسلط بعض عباده على المبطلين لاستئصال المبطلين، وبأن يخلق مخلوقات يسخرها لإبطال الباطل، قال تعالى)إذ يوحي ربك الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب(في سورة الأنفال.

والدمغ: كسر الجسم الصلب الأجوف، وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف لإيراد ما يبطل، وهو استعارة أيضا حيث استعير الدمغ لمحق الباطل وإزالته كما يزيل القذف الجسم المقذوف، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين.

ودل حرف المفاجأة على سرعة محق الحق الباطل عند وروده لأن للحق صولة فهو سريع المفعول إذا ورد ووضح، قال تعالى:) أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا(إلى قوله تعالى)كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض(في سورة الرعد.

والزاهق: المنفلت من موضعه والهالك، وفعله كسمع وضرب، والمصدر الزهوق. وتقدم في قوله تعالى:)وتزهق أنفسهم وهم كافرون(في سورة براءة وقوله تعالى:)إن الباطل كان زهوقا(في سورة الإسراء.

وعندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن ابتداء من قوله تعالى:)وأسروا النجوى الذين ظلموا(إلى قوله تعالى:)كما أرسل الأولون(. وما تخلل ذلك من المواعظ والقوارع والعبر. ختم الكلام بشتمهم وتهديدهم بقوله تعالى:)ولكم الويل مما تصفون(، أي مما تصفون به محمدا صلى الله عليه وسلم والقرآن.

والويل: كلمة دعاء بسوء. وفيها في القران توجيه لأن الويل اسم للعذاب.

)وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون[19] يسبحون الليل والنهار لا يفترون[20]

(عطف على جملة)لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا(مبينة أن كل من في السماوات والأرض عباد الله تعالى مخلوقون لقبول تكليفه والقيام بما خلقوا لأجله، وهو تخلص إلى إبطال الشرك بالحجة الدامغة بعد الإضافة في إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية القران.

فاللام في وله للملك، والمجرور باللام خبر مقدم. و)من في السماوات(مبتدأ، وتقديم المجرور للاختصاص، أي له من في السماوات والأرض لا لغيره وهو قصر إفراد ردا على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهية.

و)من في السماوات والأرض(يعم العقلاء وغيرهم وغلب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول.

وقوله تعالى)ومن عنده(يجوز أن يكون معطوفا على)من في السماوات والأرض(فيكون من عطف الخاص على العام للاهتمام به. ووجه الاهتمام ظاهر وتكون جملة)لا يستكبرون عن عبادته(حالا من المعطوف عليه.

ويجوز أن يكون)من(مبتدأ وجملة)لا يستكبرون عن عبادته(خبرا. وما صدق)من(جماعة كما دل عليه قوله تعالى)لا يستكبرون(بصيغة الجمع.

)ومن عنده(هم المقربون في العوالم المفضلة وهم الملائكة .وعلى كلا الوجهين في موقع جملة)لا يستكبرون عن عبادته(يكون المقصود منها التعريض بالذين يستكبرون عن عبادة الله ويعبدون الأصنام وهم المشركين.

والاستحسار: مصدر كالحسور وهو التعب، فالسين والتاء فيه للمبالغة في الوصف كالاستكبار والاستنكار والاستيخار، أي لا يصدر منهم الاستحسار الذي هو التعب الشديد الذي يقتضيه عملهم العظيم، أي لا يقع منهم ما لو قام بعملهم غيرهم لاستحسر ثقل ذلك العمل، فعبر بالاستحسار هنا الذي هو الحسور القوي لأنه المناسب للعمل الشديد، ونفيه من قبيل نفي المقيد بقيد خرج مخرج الغالب في أمثاله. فلا يفهم من نفي الحسور القوي أنهم قد يحسرون حسورا ضعيفا.وهذا المعنى قد يعبر عنه أهل المعاني بأن المبالغة في النفي لا في المنفي.
وجملة)يسبحون الليل والنهار(بيان لجملة)ولا يستحسرون(لأن من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه ولا يعيا منه.

صفحة : 2700

والليل والنهار: ظرفان. والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه، أي يسبحون في جميع الليل والنهار.
وتسبيح الملائكة بأصوات مخلوقة فيهم لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال.
والفتور: الانقطاع عن الفعل.
)أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون[21]( )أم(هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطف إضراب انتقالي هو انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك، انتقالا من بقية الغرض السابق الذي تهيأ السامع للانتقال منه بمقتضى التخلص، الذي في قوله تعالى)وله من السماوات والأرض ومن عنده(كما تقدم، إلى التمحض لغرض إبطال الإشراك وإبطال تعدد الآلهة. وهذا الانتقال وقع اعتراضا بين جملة) يسبحون الليل والنهار لا يفترون(وجملة)لا يسأل عما يفعل(وليس إضراب الانتقال بمقتض عدم الرجوع إلى الغرض المنتقل إليه، و)أم(تؤذن بأن الكلام بعدها مسوق الاستفهام وهو استفهام إنكاري، أنكر عليه اتخاذهم آلهة.
وضمير)اتخذوا(عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر. وله نظائر كثيرة في القرآن. ويجوز جعله التفاتا عن ضمير)ولكم الويل مما تصفون(، ويجوز أن يكون متناسقا مع ضمائر)بل قالوا أضغاث أحلام(وما بعده.
ووصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من

أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضا بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام)أتعبدون ما تنحتون(في الصافات.

وذكر الأرض هنا مقابلة لقوله تعالى)ومن عنده(لأن المراد أهل السماء، وجملة)هم ينشرون(صفة ثانية ل)آلهة(.

واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة.

والمراد: إنشار الأموات، أي بعثهم. وهذا مسوق للتهكم وإدماج لإثبات البعث بطريقة سوق غيره المسمى بتجاهل المعارف، إذ أبرز تكذيبهم بالبعث الذي أخبرهم الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في صورة تكذيبهم استطاعة الله ذلك وعجزه عنه، أي أن الأولى بالقدرة على البعث شركاؤهم فكأن وقوع البعث أمر لا ينبغي النزاع فيه فإن نازع فيه المنازعون فإنما ينازعون في نسبته إلى الله ويرومون بذلك نسبته إلى شركائهم فأنكرت عليهم هذه النسبة على هذه الطريقة المفعمة بالنكت، والمشركون لم يدعوا لآلهتهم أنها تبعث الموتى ولا هم معترفون بوقوع البعث ولكن نزلوا منزلة من يزعم ذلك إبداعا في الإلزام. ونظيره قوله تعالى في سورة النحل في ذكر الآلهة)أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون(.

)لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون[22](جملة مبنية للإنكار الذي في قوله تعالى)أم اتخذوا آلهة(ولذلك فصلت ولم تعطف.

وضمير المثنى عائد إلى)السماوات والأرض(من قوله تعالى:)وله من في السماوات والأرض(أي لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها ملكا لله وعبادا له لفسدت السماوات والأرض واختل نظامها الذي خلقتا به.

وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى:)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله(في سورة الزمر، وقال تعالى)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم(في سورة الزخرف. فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده

بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

صفحة : 2701

والفساد: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيها. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح.

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفا بصفات الإلهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف، ثم إن التعدد يقتضي اختلاف متعلقات الإرادات والقدر لأن الآلهة لو استوت في تعلقات إرادتها ذلك لكان تعدد الآلهة عبثا للاستغناء بواحد منهم، ولأنه إذا حصل كائن فإن كان حدوثه بإرادة متعددين لزم اجتماع مؤثرين على مؤثر واحد وهو محال لاستحالة اجتماع علتين تامتين على معلول واحد فلا جرم أن تعدد الآلهة يستلزم اختلاف متعلقات تصرفاتها اختلافا بالأنواع، أو بالأحوال، أو بالبقاع، فالإله الذي لا تنفذ إرادته بعض الموجودات ليس بإله بالنسبة إلى تلك الموجودات التي أوجدها غيره.

ولا جرم أن تختلف متعلقات إرادات الآلهة باختلاف مصالح رعاياهم أو مواطنهم أو أحوال تصرفاتهم فكل يغار على ما في سلطانه.

فثبت أن التعدد يستلزم اختلاف الإرادات وحدوث الخلاف.

ولما كان التماثل في حقيقة الإلهية يقتضي التساوي في قوة قدرة كل إله منهم، وكان مقتضيا تمام المقدرة عند تعلق الإرادة بالقهر للضد بأن لا يصده شيء عن استئصال ضده، وكل واحد منهم يدفع عن نفسه بغزو ضده وإفساد ملكه وسلطانه، تعين أنه كلما توجه واحد منهم إلى غزو ضده أن يهلك كل ما هو تحت سلطانه فلا يزال يفسد ما في السماوات والأرض عند كل خلاف كما قال تعالى:)وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض(في سورة المؤمنون.

فلا جرم دلت مشاهدة دوام السماوات والأرض على انتظامها في متعدد العصور والأحوال على أن إلهها واحد غير متعدد.

فأما لو فرض التفاوت في حقيقته الإلهية فإن ذلك يقتضي رجحان بعض الآلهة على بعض، وهو أدخل في اقتضاء الفساد إذ تصير الغلبة للأقوى منهم فيجعل الكل تحت كلاكله ويفسد على كل ضعيف منهم ما هو في حوزته فيكون الفساد أسرع.

وهذا الاستدلال باعتبار كونه مسوقا لإبطال تعدد خاص، وهو التعدد الذي اعتقده أهل الشرك من العرب واليونان الزاعمين تعدد الآلهة بتعدد القبائل والتصرفات، وكذا ما اعتقده المانوية من الفرس المثبتين إلهين أحدهما للخير والآخر للشر أو أحدهما للنور والآخر للظلمة هو دليل قطعي.

وأما باعتبار ما نحاه المتكلمون من الاستدلال بهذه الآية على إبطال تعدد الآلهة من أصله بالنسبة لإيجاد العالم وسموه برهان التمانع، فهو دليل إقناعي كما قال سعد الدين التفتزاني في شرح النسفية. وقال في المقاصد: وفي بعضها ضعف لا يخفى .

وبيانه أن الاتفاق على إيجاد العالم يمكن صدوره من الحكيمين أو الحكماء فلا يتم الاستدلال إلا بقياس الآلهة على الملوك في العرف وهو قياس إقناعي.

ووجه تسميته برهان التمانع أن جانب الدلالة فيه على استحالة تعدد الإله هو فرض أن يتمانع الآلهة، أي يمنع بعضهم بعضا من تنفيذ مراده، والخوض فيه مقامنا غني عنه.

والمنظور إليه في الاستدلال هنا هو لزوم فساد السماوات والأرض لا إلى شيء آخر من مقدمات خارجه عن لفظ الآية حتى يصير الدليل بها دليلا قطعيا لأن ذلك له أدلة أخرى كقوله تعالى)وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض(. وسيجيء في سورة المؤمنون.

وأما الاستدلال ببرهان التمانع فللمتكلمين في تقريره طريقتان ذكرهما صاحب المواقف.

صفحة : 2702

الأولى: طريقة الاستدلال بلزوم التمانع بالفعل وهي الطريقة المشهورة. وتقريرها: أنه لو كان للعالم صانعان متماثلان في القدرة، فلا يخلو إما أن تتفق إرادتاهما وحينئذ فالفعل إن كان بإرادتيهما لزم اجتماع مؤثرين تامين على مؤثر بفتح المثلثة واحد وهو محال لامتناع اجتماع العلتين التامتين على معلول واحد. وإن كان الفعل بإحدى الإرادتين دون الأخرى لزم ترجيح إحداهما بلا مرجح لاستوائهما في الصفة والموصوف بها، وإما أن تختلف إرادتاهما

فيلزم التمانع، ومعناه أن يمنع كل منهما الآخر من الفعل لأن الفرض أنهما مستويان في القدرة.

ويرد على الاستدلال بهاته الطريقة أمور: أحدها أنه لا يلزم تساوي الإلهين في القدرة بل يجوز عقلا أن يكون أحدهما أقوى قدرة من الآخر، وأجيب عنه بأن العجز مطلقا مناف للألوهية بداهة. قاله عبد الحكيم في حاشية البيضاوي.

الأمر الثاني: يجوز أن يتفق الإلهان على أن لا يريد أحدهما إلا الأمر الذي لم يرده الآخر فلا يلزم عجز من لم يفعل.

الأمر الثالث: يجوز أن يتفق الإلهان على إيجاد الأمر المراد بالاشتراك لا بالاستقلال.

الأمر الرابع: يجوز تفويض أحدهما للآخر أن يفعل فلا يلزم عجز المفوض لأن عدم إيجاد المقدور لمانع أراده القادر لا يسمى عجزا، لا سيما وقد حصل مراده، وإن لم يفعله بنفسه.

والجواب عن هذه الثلاثة الأخيرة أن في جميعها نقصا في الألوهية لأن الألوهية من شأنها الكمال في كل حال.

إلا أن هذا الجواب لا يخرج البرهان عن حد الإقناع.

الطريقة الثانية: عول عليها التفتزاني في شرح العقائد النسفية وهي أن تعدد الإلهين يستلزم إمكان حصول التمانع بينهما، أي أن يمنع أحدهما ما يريده الآخر، لأن المتعددين يجوز عليهم الاختلاف في الإرادة. وإذا كان هذا الإمكان لازما للتعدد فإن حصل التمانع بينهما إذا تعلقت إرادة أحدهما بوجود شخص معين وتعلقت إرادة الآخر بعدم وجوده، فلا يصح أن يحصل المرادان معا للزوم اجتماع النقيضين، وإن حصل أحد المرادين لزم عجز صاحب المراد الذي لم يحصل، والعجز يستلزم الحدوث وهو محال، فاجتماع النقيضين أو حدوث الإله لازم لازم للتعدد وهو محال، ولازم اللازم لازم فيكون الملزوم الأول محالا، قال التفتزاني: وبه تندفع الإيرادات الواردة على برهان التمانع.

وأقول يرد على هذه الطريقة أن إمكان التمانع لا يوجب نهوض الدليل، لأن هذا الإمكان يستحيل وقوعه باستحالة حدوث الاختلاف بين الإلهين بناء على أن اختلاف الإرادة إنما يجيء من تفاوت العلم في الانكشاف به، ولذلك يقل الاختلاف بين الحكماء. والإلهان نفرضهما مستويين في العلم والحكمة فعلمهما وحكمتهما يقتضيان انكشافا متماثلا فلا يريد أحدهما إلا ما يريده الآخر فلا يقع بينهما تمانع. ولذلك استدل في المقاصد على لزوم حصول الاختلاف بينهما بحكم اللزوم العادي.

بقي النظر في كيفية صدور الفعل عنهما فذلك انتقال إلى ما بنيت عليه الطريقة الأولى.

وإن احتمال اتفاق الإلهين على إرادة الأشياء إذا كانت المصلحة فيها بناء على أن الإلهين حكيمان لا تختلف إرادتهما، وإن كان احتمالا صحيحا لكن يصير به تعدد الإله عبثا لأن تعدد ولاة الأمور ما كان إلا لطلب ظهور الصواب عند اختلافهما، فإذا كانا لا يختلفان فلا فائدة في التعدد، ومن المحال بناء صفة أعلى الموجودات على ما لا أثر له في نفس الأمر. فالآية دليل قطعي.

ثم رجع عن ذلك في شرح النسفية فحقق أنها دليل إقناعي على التقديرين، وقال المحقق الخيالي إلى أنها لا تكون دليلا قطعيا إلا بالنظر إلى تحقيق معنى الظرفية من قوله تعالى)فيهما(، وعين أن تكون الظرفية ظرفية التأثير، أي لو كان مؤثر فيهما، أي السماوات والأرض غير الله تكون الآية حجة قطعية. وقد بسطه عبد الحكيم في حاشيته على الخيالي ولا حاجة بنا إلى إثبات كلامه هنا.

صفحة : 2703

والاستثناء في قوله تعالى)إلا الله(استثناء من أحد طرفي القضية لا من النسبة الحكيمة، أي هو استثناء من المحكوم عليه لا من الحكم. وذلك من مواقع الاستثناء لأن أصل الاستثناء هو الإخراج من المستثنى منه فالغالب أن يكون الإخراج من المستثنى باعتبار تسلط الحكم عليه قبل الاستثناء وذلك في المفرغ وفي المنصوب، وقد يكون باعتباره قبل تسلط الحكم عليه وذلك في غير المنصوب ولا المفرغ فيقال حينئذ إن)إلا(بمعنى غير والمستثنى يعرب بدلا من المستثنى منه.

وفرع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى)فسبحان الله رب العرش عما يصفون(أي عما يصفونه به من وجود الشريك.

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة.

ووصفه هنا برب العرش للتذكير بأنه انفرد بخلق السماوات وهو شيء ينازعون فيه بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش تعريضا بهم بإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك.

)لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[23](الأظهر أن هذه الجملة حال مكملة لمدلول قوله تعالى:)لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون(كما تقدم عند قوله تعالى:)أن اتخذوا آلهة من الأرض(الخ. فالمعنى أن من عنده وهم المقربون من المخلوقات هم مع قربهم يسألون عما يفعلون ولا يسألونه عما

يفعل، أي لم يبلغ بهم قربهم إلى حد الإدلال عليه وانتصابهم لتعقب أفعاله. فلما كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعرا بفاعل حذف لقصد التعميم، أي لا يسأل سائل الله تعالى عما يفعل. وكان ممن يشملهم الفاعل المحذوف هم من عنده من المقربين، صح كون هذه الجملة حالا من)من عنده(، على أن جملة)لا يسأل عما يفعل(تمهيد لجملة)وهم يسألون(.

على أن تقديمه على جملة)وهم يسألون(اقتضته مناسبة الحديث عن تنزيهه تعالى عن الشركاء فكان انتقالا بديعا بالرجوع إلى بقية أحوال المقربين.

فالمقصود أن من عنده مع قربهم ورفعة شأنهم يحاسبهم الله على أعمالهم فهم يخافون التقصير فيما كلفوا به من الأعمال ولذلك كانوا لا يستحسرون ولا يفترون.

وبهذا تعلم أن ليس ضمير)وهم يسألون(براجع إلى ما رجع إليه ضمير)يصفون(لأن أولئك لا جدوى للإخبار بأنهم يسألون إذ لا يتردد في العلم بذلك أحد، ولا براجع إلى)آلهة من الأرض(لعدم صحة سؤالهم، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة)لا يسأل عما يفعل(حالا من)من عنده(.

والسؤال هنا بمعنى المحاسبة، وطلب بيان سبب الفعل، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما يفعل، وتخلص من ملام أو عتاب على ما يفعل. وهو مثل السؤال في الحديث)كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته(. فكونهم يسألون كناية عن العبودية لأن العبد بمظنة المؤاخذة على ما يفعل وما لا يفعل وبمظنة للخطأ في بعض ما يفعل.

وليس المقصود هنا نفي سؤال الاستشارة أو تطلب العلم كما في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في البقرة، ولا سؤال الدعاء، ولا سؤال الاستفادة والاستنباط مثل أسئلة المتفقهين أو المتكلمين عن الحكم المبثوثة في الأحكام الشرعية أو في النظم الكونية لأن ذلك استنباط وتتبع وليس مباشرة بسؤال الله تعالى، ولا لتطلب مخلص من ملام. وفي هذا إبطال لإلهية المقربين التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله تعالى، بطريقة انتفاء خاصية الإله الحق عنهم إذ هم يسألون عما يفعلون وشأن الإله أن لا يسأل. وتستخرج من جملة) لا يسأل عما يفعل(كناية عن جريان أفعال الله تعالى على مقتضى الحكمة بحيث إنها لا مجال فيها لانتقاد منتقد إذا أتقن الناظر التدبر فيها أو كشف له عما خفي منها.

)أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون[24](

جملة)أم اتخذوا من دونه آلهة(تأكيد لجملة)أم اتخذوا آلهة من الأرض(. أكد ذلك الإضراب الانتقالي بمثله استعظاما لفظاعته وليبنى عليه استدلال آخر كما بني على نظيره السابق؛ فإن الأول بني عليه دليل استحالة من طريق العقل، وهذا بني عليه دليل بطلان بشهادة الشرائع سابقها ولاحقها، فلقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول:) هاتوا برهانكم(أي، هاتوا دليلا على أن لله شركاء من شواهد الشرائع والرسل.

والبرهان: الحجة الواضحة. وتقدم في قوله تعالى)يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم(في سورة النساء.

والإشارة في قوله تعالى)هذا ذكر من معي(إلى مقدر في الذهن يفسره الخبر. والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لا يستطيع المخاطب المغالطة فيه ولا في مضمونه، كقوله تعالى:)هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه(في سورة لقمان، أي أن كتب الذكر أي الكتب الدينية في متناول الناس فانظروا هل تجدون في أحد منها أن لله شركاء وأن الله أذن باتخاذهم آلهة. وإضافة) ذكر(إلى)من معي(من إضافة المصدر إلى مفعوله وهم المذكرون بفتح الكاف .

والمعية في قوله تعالى)من معي(معية المتابعة، أي من معي من المسلمين، فما صدق)من(الموصولة الأمم، أي هذا ذكر الأمة التي هي معي، أي الذكر المنزل لأجلكم. فالإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله تعالى:)لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم(. والمراد بقوله تعالى:)هذا ذكر من معي(القرآن، وأما قوله تعالى:)وذكر من قبلي(فمعناه ذكر الأمم الذين هم قبلي يشمل جميع الكتب السالفة المعروفة: التوراة والزبور والإنجيل وكتاب لقمان. وهذا كقوله تعالى:) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط(في آل عمران.

وأضرب عن الاستدلال بأنه استدلال مضيع فيهم بقوله تعالى)بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون(، أي لا ترج منهم اعترافا ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدم ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانيا، فإن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يكتسبون علمه.

والمراد بكونهم لا يعلمون الحق أنهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع عليه بقوله تعالى)فهم معرضون(، أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها.

وإنما أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلا عليهم بأن قليلا منهم يعلمون الحق ويجحدونه، أو إيماء إلى أن قليلا منهم تهيأت نفوسهم لقبول الحق. وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها مثل عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوبا فيه سورة طه فأقبل على قراءاته بشراشره فما أتمهما حتى عزم على الإسلام.

) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون[25](لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى:)قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي(، فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وساء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.

وليس ذكر هذه الجملة لمجرد تقرير ما قبلها من آي التوحيد وإن أفادت التقرير تبعا لفائدتها المقصودة. وفيها إظهار لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحا لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي، ولم تقطع دابر الشرك شريعة كما قطعه الإسلام بحيث لم يحدث الإشراك في هذه الأمة.

وحرف)من(في قوله تعالى)من رسول(مزيد لتوكيد النفي.

وفرع فيما أوحي إليهم أمره إياهم بعبادته على الإعلان بأنه لا إله غيره، فكان استحقاق العبادة خاصا به تعالى.

وقرأ الجمهور)إلا يوحى إليه(بمثناة تحتية مبنيا للنائب، وقرأه حفص وحمزة والكسائي بالنون مبنيا للفاعل، والاستثناء المفرغ في موضع الحال.

)وقالوا اتخذ الرحمان ولدا سبحانه بل عباد مكرمون[26] لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[27] يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون[28] ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين[29](عطف قصة من أقوالهم الباطلة على قصة أخرى. فلما فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر وهو اعتقادهم أن الله اتخذ ولدا. وقد كانت خزاعة من سكان ضواحي مكة يزعمون أن الملائكة بنات الله من سروات

الجن وشاركهم في هذا الزعم بعض من قريش وغيرهم من العرب. وقد تقدم عند قوله تعالى)ويجعلون لله البنات سبحانه(في سورة النحل.

والولد اسم جمع مفرده مثله، أي اتخذ أولادا، والولد يشمل الذكر والأنثى، والذين قالوا اتخذ الله ولدا أرادوا أنه اتخذ بنات قال تعالى:)ويجعلون لله البنات سبحانه(.

ولما كان اتخاذ الولد نقصا في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة)سبحانه(تنزيها له عن ذلك فإن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص العارض بفقد الولد كما قال تعالى في سورة يونس:)قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني(.

ولما كان المراد من قوله تعالى:)وقالوا اتخذ الله ولدا(أنهم زعموا الملائكة بنات الله تعالى أعقب حرف الإضراب عن قولهم بالإخبار بأنهم عباد دون ذكر المبتدأ للعلم به. والتقدير: بل الملائكة عباد مكرمون، أي أكرمهم الله برضاه عنهم وجعلهم من عباده المقربين وفضلهم على كثير من خلقه الصالحين.

والسبق، حقيقته: التقدم في السير على سائر آخر. وقد شاع إطلاقه مجازا على التقدم في كل عمل. ومنه السبق في القول، أي التكلم قبل الغير كما في هذه الآية. ونفيه هنا كناية عن عدم المساواة، أي كناية عن التعظيم والتوقير. ونظيره في ذلك النهي عن التقدم في قوله تعالى:)يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(فإن التقدم في معنى السبق.

فقوله تعالى)لا يسبقونه في القول(معناه لا يصدر منهم قول قبل قوله، أي لا يقولون ما أذن لهم أن يقولوه. وهذا عام يدخل فيه الرد على زعم المشركين أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله إذا أراد الله عقابهم على أعمالهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله كما سيصرح نفيه.

وتقديم)بأمره(على)يعلمون(لإفادة القصر، أي لا يعلمون عملا إلا عن أمر الله تعالى فكما أنهم لا يقولون قولا لم يأذن فيه كذلك لا يعلمون عملا إلا بأمره.

وقوله تعالى)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم(تقدم نظيره في سورة البقرة.

وقوله تعالى)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(تخصيص بالذكر ليعض ما شمله قوله تعالى)لا يسبقونه بالقول(اهتماما بشأنه لأنه مما كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله.

وحذف مفعول)ارتضى(لأنه عائد صلة منصوب بفعل، والتقدير: لمن ارتضاه، أي ارتضى الشفاعة له بأن بأذن الملائكة أن يشفعوا

له إظهارا لكرامتهم عند الله أو استجابة لاستغفارهم لمن في الأرض، كما قال تعالى)والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض(في سورة الشورى. وذلك الاستغفار من جملة ما خلقوا لأجله فليس هو من التقدم بالقول.

ثم زاد تعظيمهم ربهم تقريرا بقوله تعالى)وهم من خشيته مشفقون(، أي هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره.

و)من(في قوله تعالى)من خشيته(للتعليل، والمجرور ظرف مستقر، وهو حال من المبتدأ. و)مشفقون(خبر، أي وهم لأجل خشيته، أي خشيتهم إياه.

والإشفاق: توقع المكروه والحذر منه.

والشرط الذي في قوله تعالى)ومن يقل منهم إني إله من دونه(الخ شرط على سبيل الفرض، أي لو قاله واحد منهم مع العلم بأنهم لا يقولونه لأجل ما تقرر من شدة خشيتهم. فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادعوا لهم الإلهية بأنهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وأنهم ادعوا ما يوجب لقائله نار جهنم على حد)ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك(.

صفحة : 2706

وعدل عن)إن(الشرطية إلى)من(الشرطية للدلالة على العموم مع الإيجاز. وأدخل اسم الإشارة في جواب الشرط لتحقيق التعليق بنسبته الشرط لأداته للدلالة على جدارة مضمون الجزاء بمن ثبت له مضمون الشرط، وفي هذا إبطال لدعوى عامة النصارى إلهية عيسى عليه السلام وأنهم يقولون عليه ما لم يقله. ثم صرح بما اقتضاه التعريض فقال تعالى)كذلك نجزي الظالمين(أي مثل ذلك الجزاء وهو جهنم يجزي المثبتين لله شريكا. والظلم: الشرك.

)أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما(قرأ الجمهور)أولم(بواو بعد الهمزة وهي واو العطف، فالجملة معطوفة عطف الاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأول وما فيه من العجائب. وقرأ ابن كثير)ألم ير(بدون واو عطف. قال أبو شامة: ولم تثبت الواو في مصاحف أهل مكة. قلت: معناه أنها لم تثبت في المصحف الذي أرسل به عثمان إلى مكة فالتزم قراء مكة رواية عدم الواو إلى أن قرأ بها ابن كثير، وأهملت غير قراءته.

والاستفهام على كلتا القراءتين إنكاري، توجه الإنكار على إهمالهم للنظر.
والرؤية تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار، وإنكار أعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضا بالإنكار أو بالتقرير المشوب بإنكار كما سنفصله.
والرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.
والفتق: ضده وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.
والإخبار عن السماوات والأرض بأنهما رتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة.
ثم إن قوله تعالى)كانتا(يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى)ففتقناهما(.
وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقا، لأن الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي.
والرتق يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق، فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلا من السماء ويرى البريق يلعج منها والصواعق تسقط منها فذلك فتقها، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنة، كما قال ابن عطية أي هو عبرة دلالة على عظم القدرة وتقريب لكيفية إحياء الموتى كما قال تعالى:)فأحيينا به الأرض بعد موتها(في سورة فاطر.
وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية بصرية، وكان الاستفهام أيضا إنكاريا متوجها إلى إهمالهم التدبر في المشاهدات. واحتمل أن يراد بالرتق معان غير مشاهدة ولكنها مما ينبغي طلب العلم به لما فيه من الدلائل على عظم القدرة وعلى الوحدانية، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتاهما، أي الاتصال والانفصال. ثم هذا الاحتمال يجوز أن يكون

على معنى الجملة، أي كانت السماوات والأرض رتقا واحدا، أي كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت السماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى)هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء(في سورة هود.

صفحة : 2707

ويجوز على هذا الاحتمال أن يكون الرتق والفتق على التوزيع، أي كانت السماوات رتقا في حد ذاتها وكانت الأرض رتقا في حد ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الأرض، وهذا كقوله تعالى:)قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم(في سورة فصلت.
وعلى هذين الاحتمالين يكون الاستفهام تقريريا عن إعراضهم عن استماع الآيات التي وصفت بدء الخلق ومشوبا بالإنكار على ذلك.
وعلى جميع التقادير فالمقصود من ذلك أيضا الاستدلال على أن الذي خلق السماوات والأرض وأنشأهما بعد العدم قادر على أن يخلق الخلق بعد انعدامه قال تعالى:)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم(.
ويحتمل أن يراد بالرتق العدم وبالفتق الإيجاد. وإطلاق الرؤية على العلم على هذا الاحتمال ظاهر لأن الرتق بهذا المعنى محقق أمرهما عندهم قال تعالى:)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله(.
ويحتمل أن يراد بالرتق الظلمة وبالفتق النور، فالموجودات وجدت في ظلمة ثم أفاض الله عليها النور بأن أوجد في بعض الأجسام نورا أضاء الموجودات.
ويحتمل أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة أو كانت أثيرا أو عماء كما جاء في الحديث كان في عماء ، فكانت جنسا عاليا متحدا ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كلي انحصر في فرد. ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضا وجعل لكل بعض مميزات ذاتية فصير كل متميز بحقيقة جنسا فصارت أجناسا. ثم خلق في الأجناس مميزات بالعوارض لحقائقها فصارت أنواعا. وهذا الاحتمال أسعد بطريقة الحكماء وقد اصطلحوا على

تسمية هذا التمييز بالرتق والفتق، وبعض من الصوفية وهو صاحب مرآة العارفين جعل الرتق علما على العنصر الأعظم يعني الجسم الكل، والجسم الكل هو الفلك الأعظم المعبر عنه بالعرش. ذكر ذلك الحكيم الصوفي لطف الله الأرضرومي صاحب معارج النور في أسماء الله الحسنى المتوفى في أواخر القرن الثاني عشر الذي دخل تونس عام 1185ه في مقدمات كتابه معارج النور وفي رسالة له سماها رسالة الفتق والرتق.

والظاهر أن الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير.

) وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون[30](زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للناس في أكثر أحواله. وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات. وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنه لا يتكون إلا من الرطوبة ولا يعيش إلا ملابسا لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمى مفضيا إلى الهزال ثم إلى الموت.

و)جعل(هنا بمعنى خلق، متعدية إلى مفعول واحد لأنها غير مراد منها التحول من حال إلى حال.

و)من الماء(متعلق ب)جعلنا(. و)من(ابتدائية. وفرع عليه)أفلا يؤمنون(إنكارا عليهم عدم إيمانهم الإيمان الذي دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بوحدانية الله.

)وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون[31](هذا من آثار فتق الأرض في حد ذاتها إذ أخرج الله منها الجبال وذلك فتق تكوين، وجعل فيها الطرق، أي الأرضين السهلة التي يتمكن الإنسان من المشي فيها عكس الجبال.

والرواسي: الجبال، لأنها رست في الأرض، أي رسخت فيها. والميد: الاضطراب. وقد تقدم في أول سورة النحل.

وتقدم في أول سورة النحل أن معنى)أن تميد(أن لا تميد، أو لكراهة أن تميد. والمعنى: وجعلنا في الأرض فجاجا. ولما كان)فجاجا(معناه واسعة كان في المعنى وصفا للسبيل، فلما قدم على موصوفه انتصب على الحال. والمقصود إتمام المنة بتسخير سطح

الأرض ليسلكوا منها طرقا واسعة ولو شار لجعل مسالك ضيقة بين الجبال كأنها الأدوية.
والفجاج: جمع فج. والفج: الطريق الواسع.
والسبل: جمع سبيل، وهو: الطريق مطلقا.
وجملة)لعلهم يهتدون(مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة. ويجوز أن يراد بالاهتداء في السير، أي جعلنا سبلا واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله.
فقوله تعالى)لعلهم يهتدون(من الكلام الموجه.
)وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون[32](لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس. فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى)أن تميد بهم(وبقوله تعالى)لعلهم يهتدون(.
وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى)وهم عن آياتها معرضون(. فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به.
والسقف، حقيقته: غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه، ولا يقال السقف على غطاء الخباء والخيمة، وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلناها كالسقف لأن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض، قال تعالى:)الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها(وقد تقدم في أول سورة الرعد.
وجملة)وهم عن آياتها معرضون(في موضع الحال. وآيات السماء ما تشتمل عليه السماء من الشمس والقمر والكواكب والشهب وسيرها وشروقها وغروبها وظهورها وغيبتها، وابتناء ذلك على حساب قويم وترتيب عجيب، وكلها دلائل على الحكمة البالغة فلذلك سماها آيات. وكذلك ما يبدو لنا من جهة السماء مثل السحاب والبرق والرعد.
)وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر(لما كانت في إيجاد هذه الأشياء المعدودة هنا منافع للناس سيقت في معرض المنة بصوغها في صيغة الجملة الاسمية المعرفة الجزأين لإفادة القصر، وهو قصر إفراد إضافي بتنزيل المخاطبين من المشركين منزلة من

يعتقد أن أصنامهم مشاركة لله في خلق تلك الأشياء، لأنهم لما عبدوا الأصنام، والعبادة شكر، لزمهم أنهم يشكرونها وقد جعلوها شركاء لله فلزمهم أنهم يزعمون أنها شريكة لله في خلق ما خلق لينتقل من ذلك إلى إبطال إشراكهم إياها في الإلهية.

ولكون المنة والعبرة في أيجاد نفس الليل والنهار، ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادها على حالة خاصة، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل.

وخلق الليل هو جزئي من جزئيات خلق الظلمة التي أوجد الله الكائنات فيها قبل خلق الأجسام التي تفيض النور على الموجودات، فإن الظلمة عدم والنور وجودي وهو ضد الظلمة، والعدم سابق للوجود فالحالة السابقة لوجود الأجرام النيرة هي الظلمة، والليل ظلمة ترجع لجرم الأرض عند انصراف الأشعة عن الأرض.

وأما خلق النهار فهو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية، فخلق النهار تبع لخلق الشمس وخلق الأرض ومقابلة الأرض لأشعة الشمس، ولذلك كان لذكر خلق الشمس عقب ذكر خلق النهار مناسبة قوية للتنبيه على منشأ خلق النهار كما هو معلوم.

وأما ذكر خلق القمر فلمناسبة خلق الشمس، وللتذكير بمنة إيجاد ما ينير على الناس بعض النور في بعض أوقات الظلمة. وكل ذلك من المنن.

)كل في فلك يسبحون[33](

صفحة : 2709

مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه لما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأن كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره.

وضمير)يسبحون(عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر. وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القمر والكوكب.

وقال في الكشاف: إنه روعي فيه وصفها بالسباحة التي هي من أفعال العقلاء فأجري عليها أيضا ضمير العقلاء، يعني فيكون ذلك ترشيحا للاستعارة .

وقوله تعالى)في فلك(ظرف مستقر خبر عن)كل(، و)كل(مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، أي كل تلك، فهو معرفة تقديرا. وهو المقصود من الاستئناف بأن يفاد أن كلا من المذكورات مستقر في فلك لا يصادم فلك غيره، وقد علم من لفظ)كل(ومن ظرفية)في(أن لفظ)فلك(عام، أي لكل منها فلكه فهي أفلاك كثيرة.
وجملة)يسبحون(في موضع الحال.
والسبح: مستعار للسير في متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم.
والفلك فسره أهل اللغة بأنه مدار النجوم، وكذلك فسره المفسرون لهذه الآية ولم يذكوا أنه مستعمل في هذا المعنى في كلام العرب. ويغلب على ظني أنه من مصطلحات القرآن ومنه أخذه علماء الإسلام وهو أحسن ما يعبر عنه عن الدوائر المفروضة التي يضبط بها سير كوكب من الكواكب وخاصة سير الشمس وسير القمر.
ولأظهر أن القرآن نقله من فلك البحر وهو الموج المستدير بتنزيل اسم الجمع منزلة المفرد. والأصل الأصيل في ذلك كله فلكه المغزل بفتح الفاء وسكون اللام وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغزل.
ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى)كل في فلك(فيه محسن بديعي فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة، ومثله قوله تعالى)ربك فكبر(بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف، وهذا النوع سماه السكاكي المقلوب المستوي وجعله من أصناف نوع سماه القلب. وخص هذا الصنف بما يتأتى القلب في حروف كلماته. وسماها الحريري في المقامات ما لا يستحيل بالانعكاس وبني عليه المقامة السادسة عشرة ووضح أمثله نثرا ونظما، وفي معظم ما وضعه من الأمثلة تكلف وتنافر وغرابة، وكذلك ما وضعه غيره على تفاوتها في ذلك والشواهد مذكورة في كتب البديع فعليك بتتبعها، وكلما زادت طولا زادت ثقلا.
قال العلامة الشيرازي في شرح المفتاح: وهو نوع صعب المسلك قليل الاستعمال. قلت: ولم يذكروا منه شيئا وقع في كلام العرب فهو من مبتكرات القرآن.
ذكر أهل الأدب أن القاضي الفاضل البيساني زار العماد الكاتب فلما ركب لينصرف من عنده قال له العماد: سر فلا كبا بك الفرس فقطن القاضي أن فيه محسن القلب فأجابه على البديهة: دام علا العماد وفيه محسن القلب.

)وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون[34] (عنيت الآيات من أول السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم)أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(، وقولهم)أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر(وكان من جملة أمانيهم لما أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنون موت محمد صلى الله عليه وسلم أو يرجونه أو يدبرونه قال تعالى:)أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون(في سورة الطور وقال تعالى:)وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك(في الأنفال.

وقد دل على أن هؤلاء هم المقصود من الآية قوله تعالى)أفإن مت فهم الخالدون(فلما كان تمنيهم موته وتربصهم به ريب المنون يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون.

صفحة : 2710

وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدر الله لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم فلا يشمتون به فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام.

ففي قوله تعالى)وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد(طريقة القول بالموجب، أي أنك تموت كما قالوا ولكنهم لا يرون ذلك وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون فأيقنوا بأنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتى يوقنوا أنهم يرون موتك. وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذار لهم بأنهم لا يرى موته منهم أحد.

)كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون[35](جمل معترضات بين الجملتين المتعاطفتين.

ومضمون الجملة الأولى مؤكد لمضمون الجملة المعطوف عليها، وهي)وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد(. ووجه إعادتها اختلاف القصد فإن الأولى للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.

واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى بالباطن.

وذوق الموت ذوق آلام مقدماته وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد.
والمراد بالنفس النفوس الحالة في الأجساد كالإنسان والحيوان. ولا يدخل فيه الملائكة لأن إطلاق النفوس عليهم غير متعارف في العربية بل هو اصطلاح الحكماء وهو لا يطلق عندهم إلا مقيدا بوصف المجردات، أي التي لا تحل في الأجساد ولا تلابس المادة. وأما إطلاق النفس على الله تعالى فمشاكلة: إما لفظية كما في قوله تعالى)تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك(في سورة المائدة، وإما تقديرية كما في قوله تعالى)ويحذركم الله نفسه(في آل عمران.
وجملة)ونبلوكم بالشر والخير فتنة(عطف على الجملة المعترضة بمناسبة أن ذوق الموت يقتضي سبق الحياة، والحياة مدة يعتري فيها الخير والشر جميع الأحياء، فعلم الله تعالى المسلمين أن الموت مكتوب على كل نفس حتى لا يحسبوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مخلد. وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال يوم انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى:)ليرجعن رسول الله فيقطع أيدي قوم وأرجلهم(حتى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبته الله في ذلك الهول فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبله وقال: طبت حيا وميتا والله لا يجمع الله عليك موتتين . وقد قال عبد بني الحسحاس وأجاد:

رأيت المنايا لم يدعن محمـدا ولا باقيا إلا له الموت مرصدا

وأعقب الله ذلك بتعليمهم أن الحياة مشتملة على خير وشر وأن الدنيا دار ابتلاء.
والبلوى: الاختبار. وتقدم غير مرة. وإطلاق البلوى على ما يبدو من الناس من تجلد ووهن وشكر وكفر، على ما ينالهم من اللذات والآلام مما بنى الله تعالى عليه نظام الحياة، إطلاق مجازي، لأن ابتناء النظام عليه دل على اختلاف أحوال الناس في تصرفهم فيه وتلقيهم إياه. أشبه اختبار المختبر ليعلم أحوال من يختبرهم.
و)فتنة(منصوب على المفعولية المطلقة توكيدا لفعل)نبلوكم(لأن الفتنة ترادف البلوى.
وجملة)وإلينا ترجعون(إثبات للبعث، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر.
وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وإفادة تقوي الخبر. وأما احتمال القصر فلا يقوم هنا إذ ليس ضد ذلك باعتقاد للمخاطبين كيفما افترضتهم.

)وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمان هم كافرون[36](هذا وصف آخر لما يؤذي به المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه فهو أخص من أذاهم إياه في مغيبة، فإذا رأوه يقول بعضهم لبعض:)أهذا الذي يذكر آلهتكم(.

والهزو بضم الهاء وضم الزاي مصدر هزأ به، إذا جعله للعبث والتفكه. ومعنى اتخاذه هزوا أنهم يجعلونه مستهزأ به فهذا من الإخبار بالمصدر للمبالغة، أو هو مصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق. وتقدم في سورة الكهف قوله تعالى)واتخذوا آياتي ورسلي هزوا(.

وجملة)أهذا الذي يذكر آلهتكم(مبينة لجملة)إن يتخذونك إلا هزوا(فهي في معنى قول محذوف دل عليه)إن يتخذونك إلا هزوا(لأن الاستهزاء يكون بالكلام. وقد انحصر اتخاذهم إياه عند رؤيته في الاستهزاء به دون أن يخلطوه بحديث آخر في شأنه.

والاستفهام مستعمل في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير، بقرينة الاستهزاء.

ومعنى)يذكر آلهتكم(يذكرهم بسوء، بقرينة المقام، لأنهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم مما يسوءهم، فإن الذكر يكون بخير وبشر فإذا لم يصرح بمتعلقه يصار إلى القرينة كما هنا في قوله تعالى الآتي) قالوا سمعنا فتى يذكرهم(. وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعقبه الله بجملة الحال وهي)وهم بذكر الرحمن هم كافرون(، أي يغضبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكنهها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه. فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام. والأظهر أن المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي الذكر الوارد من الرحمان.والمناسبة الانتقال من ذكر إلى ذكر. ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا)فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(. وأيضا كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث.

وعبر عن الله تعالى باسم)الرحمن(توركا عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسما لله تعالى)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا(في سورة الفرقان.

وضمير الفصل في قوله تعالى)هم كافرون(يجوز أن يفيد الحصر، أي هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممن أسلم من أهل مكة وغيرهم من العرب لإفادة أن هؤلاء باقون على كفرهم مع توفر الآيات والنذر.

ويجوز أن يكون الفصل لمجرد التأكيد تحقيقا لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر.

)خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون[37](جملة) خلق الإنسان من عجل(معترضة بين جملة)وإذا رآك الذين كفروا(وبين جملة)سأريكم آياتي(، جعلت مقدمة لجملة)سأريكم آياتي(. أما جملة)سأريكم آياتي(فهي معترضة بين جملة)وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا(وبين جملة)ويقولون متى هذا الوعد(، لأن قوله تعالى)وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا(يثير في نفوس المسلمين تساؤلا عن مدى إمهال المشركين، فكان قوله تعالى)سأريكم آياتي فلا تستعجلون(استئنافا بيانيا جاء معترضا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرع عليها. إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعد الله تعالى به المكذبين.

ومناسبة موقع الجملتين أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي)عليه الصلاة والسلام(يهيج حنق المسلمين عليهم فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث وأن لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد وما في تأخير نزوله من المصالح للدين.وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام. والوجه أن تكون الجملة الأولى تمهيدا للثانية.

والعجل: السرعة. وخلق الإنسان منه استعارة لنمكن هذا الوصف من جبلة الإنسانية. شبهت شدة ملازمة الوصف بكون مادة لتكوين موصوفه، لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهية. فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع فكأنه مخلوق من العجلة. ونحوه قوله تعالى) وكان الإنسان عجولا(وقوله تعالى)إن الإنسان خلق هلوعا(. ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والكفر ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه. وأما من فسر العجل بالطين وزعم أنها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد.

وجملة)سأريكم آياتي(هي المقصود من الاعتراض. وهي مستأنفة.

والمعنى: وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أئمة الشرك وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين.

صفحة : 2712

وتفرع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل، أي عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يوقته الله ويؤجله، ولكل أجل كتاب. فهو نهي عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد.
وحذفت ياء المتكلم من كلمة)تستعجلون(تخفيفا مع بقاء حركتها فإذا وقفت عليه حذفت الحركة من النون.
)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[38] لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا ينصرون[39] بل تأتهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون[40](نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذكر نظيره في جانب المشركين أنهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكما، فنشأ به القولان واختلف الحالان فيكون قوله تعالى)ويقولون متى هذا الوعد(عطفا على جملة)سأريكم آياتي(. وهذا معبر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقون بها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء وعنادا.وذكر مقالتهم هذه هنا لاستبطاء المسلمين النصر. وبهذا الاعتبار تكون متصلة بجملة)وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزا(فيجوز أن تكون معطوفة عليها.وخاطبوا بضمير الجماعة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين.
واستفهامهم استعملوه في التهكم مجازا مرسلا بقرينة إن كنتم صادقين لأن المشركين موقنين بعدم حصول الوعد.والمراد بالوعد ما توعدهم به القرآن من نصر رسوله واستئصال معانديه. وإلى هذه الآية ونظيرها ينظر قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين وقف القليب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم)قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا(أي ما وعدنا ربنا وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار.
وجملة)لو يعلم الذين كفروا(مستأنفة للبيان لأن المسلمين يترقبون من حكاية جملة)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم

صادقين(.ماذا يكون جوابهم عن تهكمهم. وحاصل الجواب أنه واقع لا محالة ولا سبيل إلى إنكاره.
وجواب)لو(محذوف، تقديره: لما كانوا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء برسولكم وبدينكم، ونحو ذلك مما يحتمله المقام. وقد يؤخذ من قرينة قوله تعالى)وإذا الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزا(. وحذف جواب)لو(كثير في القرآن. ونكتته تهويل جنسه فتذهب نفس السامع كل مذهب.
و)حين(هنا: اسم منصوب على المفعولية لا على الظرفية،فهو من أسماء الزمان المتصرفة، أي لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذبوا به وبمن أنذرهم به ولما عدوا تأخيره دليلا على تكذيبه.
وجملة)لا يكفون(مضاف إليها)حين(. وضمير)يكفون(فيه وجهان: أحدهما بدا لي أن يكون الضمير عائد إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب. ومعنى الكف على هذا الوجه: الإمساك وهو حقيقته، أي حين لا يمسك الملائكة اللفح بالنار عن وجود المشركين. وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى في سورة الأنفال)ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق(فإن ذلك ضرب بسياط من نار ويكون ما هنا إنذارا بما سيلقونه يوم بدر كما أن آية الأنفال حكاية لما لقوه يوم بدر.
وذكر الوجوه والأدبار للتنكيل بهم وتخويفهم لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس كما قال عباس بن مرداس:
نعرض للسيوف إذا التقينا وجوها لا
تعرض لللطام ولأن الأدبار يأنف الناس من ضربها لأن ضربها إهانة وخزي، ويسمى الكسع.
والوجه الثاني: أن يكون ضمير)يكفون(عائدا إلى الذين كفروا، والكف بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي حين تحيط بهم النار مواجهة ومدابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسرين. والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة

للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم) متى هذا الوعد(ولقوله تعالى)سأريكم آياتي(كما تقدم.
وقوله تعالى)ولا هم ينصرون(عطف على)لا يكفون(، أي لا يكف عنهم نفح النار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم فهم واقعون في ورطة العذاب. وفي هذا إيماء إلى أنهم ستحل بهم هزيمة بدر فلا يستطيعون خلاصا منها ولا يجدون نصيرا من أحلافهم.
و)بل(للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشد على النفوس لعدم التهيؤ له والتوطن عليه، كما قال كثير:

فقلت لها يا عز كل مـصـيبة إذا
وطنت يوما لها النفس ذلت وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(.
وفاعل)تأتيهم(ضمير عائد إلى الوعد. وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأول المتقدم في قوله تعالى)حين لا يكفون عن وجوههم النار(باعتبار الوقعة أو نحو ذلك، وهو إيماء إلى أن ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة. وأما على الوجه الثاني المتقدم الذي درج عليه سائر المفسرين فيما رأينا فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين في معنى الساعة.
والبغتة: المفاجأة، وهي حدوث شيء غير مترقب.
والبهت: الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة، يقال: بهته فبهت. قال تعالى في سورة البقرة:)فبهت الذي كفر(أي غلب وهو معنى التفريع في قوله تعالى)فلا يستطيعون ردها(وقوله تعالى)ولا هم ينظرون(أي لا تؤخر عنهم. وفيه تنبيه لهم إلى أنهم أنظروا زمنا طويلا لعلهم يقلعون عن ضلالهم.
وما أشد انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر قال تعالى:)ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا(في الأنفال، وقال تعالى)ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا(. ولا شك في أن المستهزئين مثل أبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف، كانوا ممن بغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممن بهتهم ذلك.
وأما إذا أريد بضمير)تأتيهم(الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة. وأما أولئك المستهزئون فكانوا قد انقرضوا منذ قرون.
)ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا يستهزئون[41](عطف على جملة)سأريكم آياتي(تطمين للنبي صلى

الله عليه وسلم وتسلية له. ومناسبة عطفها على جملة)لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار(إلى آخرها ظاهرة.وقد تقدم نظير هذه الآية في أوائل سورة الأنعام.
)قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون[42] أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون[43] بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر(بعد أن سلي الرسول صلى الله عليه وسلم على استهزائهم بالوعيد أمر أن يذكرهم بأن غرورهم بالإمهال من قبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته بأنهم إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظا لهم من العذاب غيره ولا تمنعهم منه آلهتهم.والاستفهام إنكار وتقريع، أي لا يكلؤكم منه أحد فكيف تجهلون ذلك، تنبيها لهم إذ نسوا نعمه.
وذكر الليل والنهار لاستيعاب الأزمنة كأنه قيل: من يكلؤكم في جميع الأوقات.
وقدم الليل لأنه زمن المخاوف لأن الظلام يعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان وعلل الأجسام.
وذكر النهار بعده للاستيعاب.
ومعنى)من الرحمن(من بأسه وعذابه.
وجيء بعد هذا التفريع بإضرابات ثلاثة انتقالية على سبيل التدريج الذي هو شأن الإضراب.

صفحة : 2714

فالإضراب الأول قوله تعالى)بل هم عن ذكر ربهم معرضون(، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع، أي أخر السؤال والتقريع واتركهم حتى إذا تورطوا في العذاب عرفوا أن لا كالئ لهم.
ثم أضرب إضرابا ثانيا ب)أم(المنقطعة التي هي أخت)بل(مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقريع فقال:)أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا(، أي بل ألهم آلهة، والاستفهام إنكار وتقريع، أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا. وهذا إبطال لمعتقدهم أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء.
وجملة)لا يستطيعون نصر أنفسهم(مستأنفة معترضة. وضمير) يستطيعون(عائد إلى آلهة أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لما

يجريه العرب في كلامهم. والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا هم مؤيدون من الله بالقبول.

ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجرأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد، وهو قوله تعالى)بل متعنا هؤلاء وآباءهم(، أي فما هم مستمرون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال كما متعنا آباءهم من قبل، وكما كان لآبائهم آجال انتهوا إليها كذلك يكون لهؤلاء، ولكن الآجال تختلف بحسب ما علم الله من الحكمة في مداها حتى طالت أعمار آياتهم. وهذا تعريض بأن أعمار هؤلاء لا تبلغ أعمار آبائهم، وأن الله يحل بهم الهلاك لتكذيبهم إلى أمد علمه.

وقد وجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى)قل من يكلؤكم(، ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله تعالى)هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها(الآية في سورة يونس.

و)يصحبون(إما مضارع صحبة إذا خالطه ولازمه، والصحبة تقتضي النصر والتأييد، فيجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه من أسند إليه الفعل المبني للنائب مرادا به الله تعالى، أي لا يصحبهم الله، أي لا يؤيدهم؛ فيكون قوله تعالى)منا(متعلقا ب)يصحبون(على معنى)من(الاتصالية، أي صحبة متصلة بنا بمعنى صحبة متينة. وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم)ما نعيدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(.

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم، أي لا يصحبهم صاحب، أي لا يجيرهم جار فإن الجوار يقتضي حماية الجار فيكون قوله تعالى)منا(متعلقا ب)يصحبون(على معنى)من(التي بمعنى)على(كقوله تعالى)فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا(.

وإما مضارع أصحبه المهموز بمعنى حفظه ومنعه، أي من السوء.

والإشارة ب)هؤلاء(لحاضرين في الأذهان وهم كفار قريش.

وقد استقربت أن القرآن إذا ذكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفار قريش.

)أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون[44] (تفريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدهم تأخير الوعد به دليلا على تكذيب وقوعه حتى قالوا:)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(تهكما وتكذيبا. فلما أنذرهم بما سيحل بهم في قوله تعالى)لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار(إلى قوله تعالى)ما كانوا به يستهزئون(فرع على ذلك كله استفهاما تعجيبيا

من عدم اهتدائهم إلى أمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالا على قربه بحصول أماراته.
والرؤية علمية، وسدت الجملة مسد المفعولين لأنها في تأويل مصدر، أي أعجبوا من عدم اهتدائهم إلى نقصان أرضهم من أطرافها، وأن ذلك من صنع الله تعالى بتوجه عناية خاصة، لكونه غير جار على مقتضي الغالب المعتاد، فمن تأمل علم أنه من عجيب صنع الله تعالى. وكفى بذلك دليلا على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صدق ما وعدهم به وعناية ربه به كما دل عليه فعل)نأتي(.
فالإتيان تمثيل بحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتل ويأسر كما تقدم في قوله تعالى)فأتى الله بنيانهم من القواعد(.
والتعريف في)الأرض(تعريف العهد، أي أرض العرب كما في قوله تعالى في سورة يوسف)فلن أبرح الأرض(أي أرض مصر.
والنقصان: تقليل كمية شيء.

صفحة : 2714

فالإضراب الأول قوله تعالى)بل هم عن ذكر ربهم معرضون(، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع، أي أخر السؤال والتقريع واتركهم حتى إذا تورطوا في العذاب عرفوا أن لا كالئ لهم.
ثم أضرب إضرابا ثانيا ب)أم(المنقطعة التي هي أخت)بل(مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقريع فقال:)أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا(، أي بل ألهم آلهة، والاستفهام إنكار وتقريع، أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا. وهذا إبطال لمعتقدهم أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء.
وجملة)لا يستطيعون نصر أنفسهم(مستأنفة معترضة. وضمير) يستطيعون(عائد إلى آلهة أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لما يجريه العرب في كلامهم. والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا هم مؤيدون من الله بالقبول.
ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجرأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد، وهو قوله تعالى)بل متعنا هؤلاء وآباءهم(، أي فما هم مستمرون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال كما متعنا آباءهم من قبل، وكما كان لآبائهم آجال انتهوا إليها

كذلك يكون لهؤلاء، ولكن الآجال تختلف بحسب ما علم الله من الحكمة في مداها حتى طالت أعمار آياتهم. وهذا تعريض بأن أعمار هؤلاء لا تبلغ أعمار آبائهم، وأن الله يحل بهم الهلاك لتكذيبهم إلى أمد علمه.

وقد وجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى)قل من يكلؤكم(، ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله تعالى)هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها(الآية في سورة يونس.

و)يصحبون(إما مضارع صحبة إذا خالطه ولازمه، والصحبة تقتضي النصر والتأييد، فيجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه من أسند إليه الفعل المبني للنائب مرادا به الله تعالى، أي لا يصحبهم الله، أي لا يؤيدهم؛ فيكون قوله تعالى)منا(متعلقا ب)يصحبون(على معنى)من(الاتصالية، أي صحبة متصلة بنا بمعنى صحبة متينة. وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم)ما نعيدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(.

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم، أي لا يصحبهم صاحب، أي لا يجيرهم جار فإن الجوار يقتضي حماية الجار فيكون قوله تعالى)منا(متعلقا ب)يصحبون(على معنى)من(التي بمعنى)على(كقوله تعالى)فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا(.

وإما مضارع أصحبه المهموز بمعنى حفظه ومنعه، أي من السوء.

والإشارة ب)هؤلاء(لحاضرين في الأذهان وهم كفار قريش.

وقد استقربت أن القرآن إذا ذكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفار قريش.

)أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون[44] (تفريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدهم تأخير الوعد به دليلا على تكذيب وقوعه حتى قالوا:)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(تهكما وتكذيبا. فلما أنذرهم بما سيحل بهم في قوله تعالى)لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار(إلى قوله تعالى)ما كانوا به يستهزئون(فرع على ذلك كله استفهاما تعجيبيا من عدم اهتدائهم إلى أمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالا على قربه بحصول أماراته.

والرؤية علمية، وسدت الجملة مسد المفعولين لأنها في تأويل مصدر، أي أعجبوا من عدم اهتدائهم إلى نقصان أرضهم من أطرافها، وأن ذلك من صنع الله تعالى بتوجه عناية خاصة، لكونه غير جار على مقتضي الغالب المعتاد، فمن تأمل علم أنه من عجيب صنع الله تعالى. وكفى بذلك دليلا على تصديق الرسول صلى

الله عليه وسلم وعلى صدق ما وعدهم به وعناية ربه به كما دل عليه فعل)نأتي(.
فالإتيان تمثيل بحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتل ويأسر كما تقدم في قوله تعالى)فأتى الله بنيانهم من القواعد(.
والتعريف في)الأرض(تعريف العهد، أي أرض العرب كما في قوله تعالى في سورة يوسف)فلن أبرح الأرض(أي أرض مصر.
والنقصان: تقليل كمية شيء.

صفحة : 2715

والأطراف: جمع طرف بفتح الطاء والراء . وهو ما ينتهي به الجسم من جهة من جهاته. وضده الوسط.
والمراد بنقصان الأرض: نقصان من عليها من الناس لا نقصان مساحتها لأن هذه السورة مكية فلم يكن ساعتئذ شيء من أرض المشركين في حوزة المسلمين. والقرينة المشاهدة.
والمراد: نقصان عدد المشركين بدخول كثير منهم في الإسلام ممن أسلم من أهل مكة، ومن هاجر منهم إلى الحبشة. ومن أسلم من أهل المدينة إن كانت الآية نزلت بعد إسلام أهل العقبة الأولى أو الثانية، فكان عدد المسلمين يومئذ يتجاوز المائتين. وتقدم نظير هذه الجملة في ختام سورة الرعد.
وجملة)أفهم الغالبون(مفرعة على جملة التعجيب من عدم اهتدائهم إلى هذه الحالة. والاستفهام إنكاري، أي فكيف يحسبون أنهم غلبوا المسلمين وتمكنوا من الحجة عليهم.
واختيار الجملة الاسمية في قوله تعالى)أفهم الغالبون(دون الفعلية لدلالتها بتعريف جزأيها على القصر، أي ما هم الغالبون بل المسلمون الغالبون، إذ لو كان المشركون الغالبين لما كان عددهم في تناقص. ولما خلت بلدتهم من عدد كثير منهم.
)قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون[45] (استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدم من استعجابهم بالوعد تهكما بقوله تعالى)ويقولون متى هذا الوعد(، ومن التهديد الذي وجه إليهم بقوله تعالى)لو يعلم الذين كفروا(الخ، ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى)قل من يكلؤكم بالليل والنهار(إلى قوله تعالى)حتى طال عليهم العمر(، ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصر المسلمين، واقتراب الوعد بقوله تعالى)أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها(، عقب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره

على الإنذار بما سيحل بهم في الدنيا والآخرة إنذار من طريق الوحي المنزل عليه من الله تعالى وهو القرآن، أي فلا تعرضوا عنه، ولا تتطلبوا مني آية غير ذلك، ولا تسألوا عن تعيين أجال حلول الوعيد، ولا تحسبوا أنكم تغيظونني بإعراضكم والتوغل في كفركم.

فالكلام قصر موصوف على صفة، وقصره على المتعلق بتلك الصفة تبعا لمتعلقه فهو قائم مقام قصرين. ولم يظهر لي مثال له من كلام العرب قبل القرآن.

وهذا الكلام يستلزم متاركة لهم بعد الإبلاغ في إقامة الحجة عليهم ولذلك ذيل بقوله تعالى)ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون(.

والواو للعطف على)إنما أنذركم بالوحي(عطف استئناف على استئناف لأن التذييل من قبيل الاستئناف.

والتعريف في)الصم(للاستغراق. والصم مستعار لعدم الانتفاع بالكلام المفيد تشبيها لعدم الانتفاع بالمسموع بعدم ولوج الكلام صماخ المخاطب به. وتقدم في قوله تعالى)صم بكم عمي(في سورة البقرة. ودخل في عمومه المشركون المعرضون عن القرآن وهم المقصود من سوق التذييل ليكون دخولهم في الحكم بطريقة الاستدلال بالعموم على الخصوص.

وتقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة.

واختير لفظ الدعاء لأنه المطابق للغرض إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم داعيا كما قال)أدعوا إلى الله على بصيرة(.

والأظهر أن جملة)ولا يسمع الصم الدعاء(كلام مخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من جملة المأمور بأن يقوله لهم.

وقرأ الجمهور)ولا يسمع(بتحتية في أوله ورفع)الصم(. وقرأه ابن عامر)ولا تسمع(بالتاء الفوقية المضمومة ونصب)الصم(خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه القراءة نص في انفصال الجملة عن الكلام المأمور بقوله لهم.

)ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين[46](عطف على جملة)قل إنما أنذركم بالوحي(والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي أنذرهم بأنهم سيندمون عندما ينالهم أول العذاب في الآخرة. وهذا انتقال من إنذارهم بعذاب الدنيا إلى إنذارهم بعذاب الآخرة.

وأكد الشرط بلام القسم لتحقيق وقوع الجزاء.

والمس: اتصال بظاهر الجسم.

والنفحة: المرة من الرضخ في العطية، يقال نفحه بشيء إذا أعطاه.

صفحة : 2716

وفي مادة النفح أنه عطاء قليل نزر، وبصميمة بناء المرة فيها، والتنكير، وإسناد المس إليها دون فعل آخر أربع مبالغات في التقليل، فما ظنك بعذاب يدفع قليله من حل به إلى الإقرار باستحقاقه إياه وإنشاء تعجبه من سوء حال نفسه.
والويل تقدم عند قوله تعالى)فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم(في سورة البقرة وعند قوله تعالى)وويل للكافرين من عذاب شديد(في أول سورة إبراهيم.
ومعنى)إنا كنا ظالمين(إنا كنا معتدين على أنفسنا إذ أعرضنا عن التأمل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك لأن إشراكهم معروف لديهم فليس مما يعرفونه إذا مستهم نفحة من العذاب.
)ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[47](يجوز أن تكون الواو عاطفة هذه الجملة على جملة)ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك(الخ لمناسبة قولهم)إنا كنا ظالمين(، ولبيان أنهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر وتكذيب الرسول بيانا بطريق ذكر العموم بعد الخصوص في المجازين، فشابه التذييل من أجل عموم قوله تعالى)فلا تظلم نفس شيئا(، وفي المجازي عليه من أجل قوله تعالى)وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها(.
ويجوز أن تكون الواو للحال من قوله)ربك(، وتكون نون المتكلم المعظم التفاتا لمناسبة الجزاء للأعمال كما يقال: أدى إليه الكيل صاعا بصاع، ولذلك فرع عليه قوله تعالى)فلا تظلم نفس شيئا(.
ويجوز أن تكون الجملة معترضة وتكون الواو اعتراضية. والوضع حقيقته: حط الشيء ونصبه في مكان، وهو ضد الرفع. ويطلق على صنع الشيء وتعيينه للعمل به وهو في ذلك مجاز.
والميزان: اسم آلة الوزن. وله كيفيات كثيرة تختلف باختلاف العوائد، وهي تتحد في كونها ذات طبقين متعادلين في الثقل يسميان كفتين بكسر الكاف وتشديد الفاء تكونان من خشب أو من حديد، وإذا كانتا من صفر سميتا صنجتين بصاد مفتوحة ونون ساكنة ، معلق كل طبق بخيوط في طرف يجمعهما عود من حديد أو خشب صلب، في طرفيه عروتان يشد بكل واحدة منهما طبق من الطبقين يسمى

ذلك العود شاهين وهو موضوع ممدودا، وتجعل بوسطه على السواء عروة لتمسكه منها يد الوازن، وربما جعلوا تلك العروة مستطيلة من معدن وجعلوا فيها إبرة غليظة من المعدن منوطة بعروة صغيرة من معدن مصوغة في وسط الشاهين فإذا ارتفع الشاهين تحركت تلك الإبرة فإذا ساوت وسط العروة الطويلة على سواء عرف اعتدال الوزن وإن مالت عرف عدم اعتداله، وتسمى تلك الإبرة لسانا، فإذا أريد وزن شيئين ليعلم أنهما مستويان أو أحدهما أرجح وضع كل واحد منهما في كفة، فالتي وضع فيها الأثقل منهما تنزل والأخرى ذات الأخف ترتفع وإن استويتا فالموزونان مستويان، وإذا أريد معرفة ثقل شيء في نفسه دون نسيته إلى شيء آخر جعلوا قطعا من معدن: صفر أو نحاس أو حديد أو حجر ذات مقادير مضبوطة مصطلح عليها مثل الدرهم والأوقية والرطل، فجعلوها تقديرا لتقل الموزون ليعلم مقدار ما فيه لدفع الغبن في التعاوض، ووحدتها هو المثقال، ويسمى السنج بفتح السين المهملة وسكون النون بعدها جيم .

والقسط بكسر القاف وسكون السين اسم المفعول، وهو مصدر وفعله أقسط مهموزا. وتقدم في قوله تعالى)قائما بالقسط(في سورة آل عمران.

وقد اختلف علماء السلف في المراد من الموازين هنا: أهو الحقيقة أم المجاز، فذهب الجمهور إلى أنه حقيقة وأن الله يجعل في يوم الحشر موازين لوزن أعمال العباد تشبه الميزان المتعارف. فمنهم من ذهب إلى أن لكل أحد من العباد ميزانا خاصا به توزن به أعماله، وهو ظاهر صيغة الجمع في هذه الآية وقوله تعالى)فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية(في سورة القارعة.

ومنهم من ذهب إلى أنه ميزان واحد توزن فيه أعمال العباد واحدا فواحدا، وأنه بيد جبريل، وعليه فالجمع باعتبار ما يوزن فيها ليوافق الآثار الواردة في أنه ميزان عام.

واتفق الجميع على أنه مناسب لعظمة ذلك لا يشبه ميزان الدنيا ولكنه على مثاله تقريبا. وعلى هذا التفسير يكون الوضع مستعملا في معناه الحقيقي وهو النصب والإرصاد.

صفحة : 2717

وذهب مجاهد وقتادة والضحاك وروي عن ابن عباس أيضا أن الميزان الواقع في القرآن مثل للعدل في الجزاء كقوله)والوزن يومئذ الحق(في سورة الأعراف، ومال إليه الطبري. قال في

الكشاف: الموازين الحساب السوي والجزاء على الأعمال بالنصفة من غير أن يظلم أحد اه.
أي فهو مستعار للعدل في الجزاء لمشابهته للميزان في ضبط العدل في المعاملة كقوله تعالى)وأنزلنا معهم الكتاب والميزان(.
والوضع: ترشيح ومستعار للظهور.
وذهب الأشاعرة إلى أخذ الميزان على ظاهره.
وللمعتزلة في ذلك قولان ففريق قالوا: الميزان حقيقة، وفريق قالوا: هو مجاز. وقد ذكر القولين في الكشاف فدل صنيعه على أن القولين جاريان على أقوال أئمتهم وصرح به في تقرير المواقف.
وفي المقاصد: ونسبة القول بانتفاء حقيقة الميزان إلى المعتزلة على الإطلاق قصور من بعض المتكلمين اه.
قلت: لعله أراد به النسفي في عقائده.
قال أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم : انفرد القرآن بذكر الميزان، وتفردت السنة بذكر الصراط والحوض، فلما كان هذا الأمر هكذا اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال إن الأعمال توزن حقيقة في ميزان له كفتان وشاهين وتجعل في الكفتين صحائف الحسنات والسيئات ويخلق الله الاعتماد فيها على حسب علمه بها. ومنهم من قال إنما يرجع الخبر عن الوزن إلى تعريف الله العباد بمقادير أعمالهم. ونقل الطبري وغيره عن مجاهد أنه كان يميل إلى هذا.
وليس بممتنع أن يكون الميزان والوزن على ظاهره وإنما يبقى النظر في كيفية وزن الأعمال وهي أعراض فها هنا يقف من وقف ويمشي على هذا من مشى. فمن كان رأيه الوقوف فمن الأول ينبغي أن يقف، ومن أراد المشي ليجدن سبيلا مئتاء إذ يجد ثلاثة معان ميزانا ووزنا وموزونا، فإذا مشى في طريق الميزان والوزن ووجده صحيحا في كل لفظة حتى إذا بلغ تمييز الموزون ولم يتبين له لا ينبغي أن يرجع القهقري فيبطل ما قد أثبت بل يبقي ما تقدم على حقيقته وصحته ويسعى في تأويل هذا وتبيينه اه.
وقلت: كلا القولين مقبول والكل متفقون على أن أسماء أحوال الآخرة إنما هي تقريب لنا بمتعارفنا والله تعالى قادر على كل شيء. وليس مثل هذه المباحث تعرف قدرة الله تعالى ولا بالقياس على المعتاد المتعارف تجحد تصرفاته تعالى.
ويظهر لي أن التزام صيغة جمع الموازين في الآيات الثلاث التي ذكر فيها الميزان يرجح أن المراد بالوزن فيها معناه المجازي وأن بيانه بقوله)القسط(في هذه الآية يزيد ذلك ترجيحا.
وتقدم ذكر الوزن في قوله تعالى)والوزن يومئذ الحق(في سورة الأعراف.

والقسط: العدل، ويقال: القسطاس، وهو كلمة معربة من اللغة الرومية)اللاطينية(. وقد نقل البخاري في آخر صحيحه ذلك عن مجاهد.
فعلى اعتبار جعل الموازين حقيقة في آلات وزن في الآخرة يكون لفظ القسط الذي هو مصدر بمعنى العدل للموازين على تقدير مضاف، أي ذات القسط. وعلى اعتبار في الموازين في العدل يكون لفظ القسط بدلا من الموازين فيكون تجريدا بعد الترشيح. ويجوز أن يكون مفعولا لأجله فإنه مصدر صالح لذلك.
واللام في قوله تعالى)ليوم القيامة(تحتمل أن تكون للعلة مع تقدير مضاف، أي لأجل يوم القيامة، أي الجزاء في يوم القيامة، وتحتمل أن تكون للتوقيت بمعنى)عند(التي هي للظرفية الملاصقة كما يقال: كتب لثلاث خلون من شهر كذا، وكقوله تعالى)فطلقوهن لعدتهن(أي نضع الموازين عند يوم القيامة.
وتفريع)فلا تظلم نفس شيئا(على وضع الموازين تفريع العلة على المعلول أو المعلول على العلة. والظلم: ضد العدل، ولذلك فرع نفيه على إثبات وضع العدل, و)شيئا(منصوب على المفعولية المطلقة، أي شيئا من الظلم.
ووقوعه في سياق النفي دل على تأكيد العموم، أي شيئا من الظلم. ووقوعه في سياق النفي دل على تأكيد العموم من فعل) تظلم(الواقع أيضا في سياق النفي، أي لا تظلم بنقص من خير استحقته ولا بزيادة شيء لم تستحقه، فالظلم صادق بالحالين والشيء كذلك.
وهذه الجملة كلمة جامعة لمعان عدة مع إيجاز لفظها، فنفي جنس الظلم ونفي عن كل نفس فأفاد أن لا بقاء لظلم بدون جزاء.

صفحة : 2718

وجملة)وإن كان مثقال حبة من خردل(في موضع الحال. و)إن(وصلية دالة على أن مضمون ما بعدها من شأنه أن يتوهم تخلف الحكم عنه فإذا نص على شمول الحكم إياه علم أن شموله لما عداه بطريق الأولى. وقد يرد هذا الشرط بحرف)لو(غالبا كما في قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في آل عمران. ويرد بحرف)إن(كما هنا، وقول عمرو بن معد يكرب:

ليس الجمال بمـئزر فاعلم وان

رديت بردا وقد تقدم في سورة آل عمران.

وقرأ الجمهور)مثقال(بالنصب على أنه خبر)كان(وأن اسمها ضمير عائد إلى)شيئا(. وجواب الشرط محذوف دل عليه الجملة السابقة.

وقرأ نافع وأبو جعفر)مثقال(مرفوعا على أن)كان(تامة و)مثقال(فاعل.

ومعنى القراءتين متحد المآل، وهو: أنه إن كان لنفس مثقال حبة من خردل من خير أو من شر يؤت بها في ميزان أعمالها ويجاز عليها.

وجملة)أتينا بها(على القراءة الأولى مستأنفة، وعلى القراءة الثانية إما جواب للشرط أو مستأنفة وجواب الشرط محذوف. وضمير)بها(عائد إلى)مثقال حبة(. واكتسب ضميره التأنيث لإضافة معاده إلى مؤنث وهو)حبة(.

والمثقال: ما يماثل شيئا في الثقل، أي الوزن، فمثقال الحبة: مقدارها. والحبة: الواحدة من ثمر النبات الذي يخرج من السنبل أو في المزادات التي كالقرون أو العبابيد كالقطاني.

والخردل: حبوب دقيقة كحب السمسم هي بزور شجر يسمى عند العرب الخردل. واسمه في علم النبات سينابيس . وهو صنفان بري وبستاني، وينبت في الهند ومصر وأوروبا. وشجرته ذات ساق دقيقة ينتهي ارتفاعها إلى نحو ميتر، وأوراقها كبيرة. يخرج أزهار صفرا منها تتكون بزوره إذ تخرج في مزادات صغيرة مملوءة من هذا الحب، تخرج خضراء ثم تصير سوداء مثل الخرنوب الصغير. وإذا دق هذا الحب ظهرت منه رائحة معطرة إذا قربت من الأنف شما دمعت العينان، وإذا وضع معجونها على الجلد أحدث فيه بعد هنيهة لذعا وحرارة ثم لا يستطيع الجلد تحملها طويلا ويترك موضعه من الجلد شديد الحمرة لتجمع الدم بظاهر الجلد ولذلك يجعل معجونه بالماء دواء يوضع على المحل المصاب باحتقان الدم مثل ذات الجنب والنزلات الصدرية.

وجملة)وكفى بنا حاسبين(عطف على جملة)وإن كان مثقال حبة من خردل(. مفعول)كفى(محذوف دل عليه قوله تعالى)فلا تظلم نفس شيئا(. والتقدير: وكفى الناس نحن في حال حسابهم.

ومعنى كفاهم نحن حاسبين أنهم لا يتطلعون إلى حاسب آخر تعدل مثلنا, وهذا تأمين للناس من أن يجازى أحد منهم بما لا يستحقه وفي ذلك تحذير من العذاب وترغيب في الثواب.

وضمير الجمع في قوله تعالى)حاسبين(مراعى فيه ضمير العظمة من قوله تعالى)بنا(، والباء مزيدة للتوكيد. وأصل التركيب: كفينا الناس، وهذه الباء تدخل بعد فعل)كفى(غالبا فتدخل على فاعله في الأكثر كما هنا وقوله تعالى)وكفى بالله شهيدا(في سورة

النساء. وتدخل على مفعوله كما في الحديث: كفى بالمرء إنما أن يحدث بكل ما سمع .
وانتصب)حاسبين(على الحال أو التمييز لنسبة)كفى(. وتقدمت نظائر هذا التركيب غير مرة منها في قوله تعالى)وكفى بالله شهيدا(في سورة النساء.
)ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين[48] الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون[49] وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون[50](عطف على جملة)بل قالوا أضغاث أحلام(إلى قوله تعالى)فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(لإقامة الحجة على المشركين بالدلائل العقلية والإقناعية والزجرية، ثم بدلائل شواهد التاريخ وأحوال الأمم السابقة الشاهدة بتنظير ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم بما أوتيه سلفه من الرسل والأنبياء، وأنه ما كان بدعا من الرسل في دعوته إلى التوحيد تلك الدعوة التي كذبه المشركون لأجلها مع ما تخلل ذكر من ذكر عناد الأقوام، وثبات الأقدام، والتأييد من الملك العلام، وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه بأن تلك سنة الرسل السابقين كما قال تعالى:)سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا(في سورة الإسراء. فجاء في هذه الآيات بأخبار من أحوال الرسل المتقدمين.

صفحة : 2719

وفي سوق أخبار هؤلاء الرسل والأنبياء تفصيل أيضا لما بنيت عليه السورة من قوله تعالى)وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم(الآيات ثم قوله تعالى)وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(ثم قوله تعالى)قل إنما أنذركم بالوحي(. واتصالها بجميع ذلك اتصال محكم ولذلك أعقبت بقوله تعالى)وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون(.
وابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب ولأن أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمة يلي عظمة شريعة الإسلام.
وافتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك وذهول بعضهم عنه وتناسي بعضهم إياه منزلة من ينكر تلك القصة.
ومحل التنظير في هذه القصة هو تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب مبين وتلقي القوم ذلك الكتاب بالإعراض والتكذيب.

والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل من كلام أو فعل. وقد سمى الله تعالى يوم بدر يوم الفرقان لأن فيه كان مبدأ ظهور قوة المسلمين ونصرهم، فيجوز أن يراد بالفرقان التوراة كقوله تعالى) وآتيناهما الكتاب المستبين(في سورة الصافات.

والإخبار عن الفرقان بإسناد إتيانه إلى ضمير الجلالة للتنبيه على أنه لم يعد كونه إيتاء من الله تعالى ووحيا كما أوتي محمد صلى الله عليه وسلم القرآن فكيف ينكرون إيتاء القرآن وهم يعلمون أن موسى عليه السلام ما جاء إلا بمثله. وفيه تنبيه على جلالة ذلك الموتى.

ويجوز أن يراد بالفرقان المعجزات الفارقة بين المعجزة والسحر كقوله تعالى)ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين(في سورة غافر. ويجوز أن يراد به الشريعة الفارقة بين العدل والجور كقوله تعالى)وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون(في سورة البقرة.

وعلى الاحتمالات المذكورة تجيء احتمالات في قوله تعالى الآتي) وضياء وذكرا للمتقين(. وليس يلزم أن تكون بعض هذه الصفات قسيما لبعض بل هي صفات متداخلة، فمجموع ما أوتيه موسى وهارون تتحقق فيه هذه الصفات الثلاث.

والضياء: النور. يستعمل مجازا في الهدى والعلم، وهو استعمال كثير، وهو المراد هنا وقد قال تعالى:)إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور(في سورة المائدة.

والذكر أصله: خطور شيء بالبال بعد غفلة عنه. ويطلق على الكتاب الذي فيه ذكر الله. فقوله تعالى)للمتقين(يجوز أن يكون الكلام فيه للتقوية فيكون المجرور باللام في معنى المفعول، أي الذين اتصفوا بتقوى الله، أي امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، لأنه يذكرهم بما يجهلون وبما يذهلون عنه مما علموه ويجدد في نفوسهم مراقبة ربهم. ويجوز أن يكون اللام للعلة، أي ذكر لأجل المتقين، أي كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين.

ووصفهم بما يزيد معنى المتقين بيانا بقوله تعالى)الذين يخشون ربهم بالغيب(وهو على نحو قوله تعالى)هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب(في سورة البقرة.

والباء في قوله تعالى)بالغيب(بمعنى)في(. والغيب: ما غاب عن عيون الناس، أي يخشون ربهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمة من الناس.

والإشفاق: رجاء حادث مخوف. ومعنى الإشفاق من الساعة: الإشفاق من أهوالها، فهم يعدون لها عدتها بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى)الذين يخشون ربهم بالغيب(. فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهؤلاء هم فرعون وقومه.
وقد عقب هذا التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه، وهو المقابلة بقوله تعالى)وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون(.
واسم الإشارة يشير إلى القرآن لأن حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته. ووصفه القرآن بأنه ذكر لأن لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدمة كما تقدم عند قوله تعالى)وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم(في سورة النحل.

صفحة : 2720

ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها لأن البركة زيادة الخير؛ فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحداهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فما استطاعوا. وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به من آمنوا به وفريق ممن حرموا الإيمان. فكان وصفه بأنه مبارك وافيا على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء.
وزاده تشريفا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة. وجعل الوحي إلى الرسول إنزالا لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر إذ اعتبر مستقرا في العالم العلوي حتى أنزل إلى هذا العالم.
وفرع على هذه الأوصاف العظيمة استفهام توبيخي تعجيبي من إنكارهم صدق هذا الكتاب ومن استمرارهم على ذلك الإنكار بقوله تعالى)أفأنتم له منكرون(. ولكون إنكارهم صدقه حاصلا منهم في حال الخطاب جيء بالجملة الاسمية ليتأتى جعل المسند اسما دالا على الاتصاف في زمن الحال وجعل الجملة دالة على الثبات في الوصف وفاء بحق بلاغة النظم.
)ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين[51] إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[52] قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين[53] قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين[54] قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين[55] قال بل ربكم رب

السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين[56] وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين[57](أعقبت قصة موسى وهارون بقصة إبراهيم فيما أوحي إليه من مقاومة الشرك ووضوح الحجة على بطلانه، لأن إبراهيم كان هو المثل الأول قبل مجيء الإسلام في مقاومة الشرك إذ قاومه بالحجة وبالقوة وبإعلان التوحيد إذ أقام للتوحيد هيكلا بمكة هو الكعبة وبجبل نابو من بلاد الكنعانيين حيث كانت مدينة تسمى يومئذ لوزا ثم بني بيت أيل بالقرب من موضع مدينة أورشليم في المكان الذي أقيم به هيكل سليمان من بعد، فكانت قصة إبراهيم مع قومه شاهدا على بطلان الشرك الذي كان مماثلا لحال المشركين بمكة الذين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لقطع دابره. وفي ذكر قصة إبراهيم تورك على المشركين من أهل مكة إذ كانوا على الحالة التي نعاها جدهم إبراهيم على قومه، وكفى بذلك حجة عليهم. وأيضا فإن شريعة إبراهيم أشهر شريعة بعد شريعة موسى.

وتأكيد الخبر عنه بلام القسم للوجه الذي بيناه آنفا في تأكيد الخبر عن موسى وهارون، وهو تنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم إبراهيم منزلة المنكر لكون إبراهيم أوتي رشدا وهديا.

وكذلك الإخبار عن إيتاء الرشد إبراهيم بإسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة لمثل ما قرر في قصة موسى وهارون للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه.

والرشد: الهدى والرأي الحق، وضده الغي. وتقدم في قوله تعالى) قد تبين الرشد من الغي(في سورة البقرة. وإضافة)الرشد(إلى ضمير إبراهيم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي الرشد الذي أرشده. وفائدة الإضافة هنا التنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي رشدا يليق به، ولأن رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم، أي هو الذي علمتم سمعته التي طبقت الخافقين فما ظنكم برشد أوتيه من جانب الله تعالى، فإن الإضافة لما كانت على معنى اللام كانت مفيدة للاختصاص فكأنه انفرد به. وفيه إيماء إلى أن إبراهيم كان قد انفرد بالهدى بين قومه.

وزاده تنويها وتفخيما تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى)وكنا به عالمين(أي آتيناه رشدا عظيما على علم منا بإبراهيم، أي بكونه أهلا لذلك الرشد، وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من قرآنه، أي علم من سريرته صفات قد رضيها وأحمدها فاستأهل بها اتخاذه خليلا. وهذا كقوله تعالى)ولقد اخترناهم على علم على العالمين(وقوله تعالى)الله أعلم حيث يجعل رسالاته(,

وقوله)من قبل(أي قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا. ووجه ذكر هذه القبيلة التنبيه على أن ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلا لأن شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة.
و)إذ قال(ظرف لفعل)آتينا(أي كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل الخ، فذلك هو الرشد الذي أوتيه،أي حين نزل الوحي إليه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، فذلك أول ما بدئ به الوحي.
وقوم إبراهيم كانوا من الكلدان وكان يسكن بلدا يقال له كوثى بمثلثة في آخره بعدها ألف. وهي المسماة في التوراة أور الكلدان ، ويقال: أيضا إنها أورفة في الرها ، ثم سكن هو وأبوه وأهله حاران وحاران هي حران ، وكانت بعد من بلاد الكلدان كما هو مقتضى الإصحاح 12 من التكوين لقوله فيه)اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك(, ومات أبوه في حاران كما في الإصحاح 11 من التكوين فيتعين أن دعوة إبراهيم كانت من حاران لأنه من حاران خرج إلى أرض كنعان. وقد اشتهر حران بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورا مجسمة.
والاستفهام في قوله تعالى)ما هذه التماثيل(يتسلط على الوصف في قوله تعالى)التي أنتم لها عاكفون(فكأنه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل?. ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام إلى ذات التماثيل لإبهام السؤال عن كنه التماثيل في بادئ الكلام إيماء إلى عدم الملاءمة بين حقيقتها المعبر عنها بالتماثيل وبين وصفها بالمعبودية المعبر عنه بعكوفهم عليها. وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم)وجدنا آباءنا لها عابدين(؛ فإن شأن السؤال بكلمة)ما(أنه لطلب شرح ماهية المسؤول عنه.
والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية. والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتي.
والأصنام التي كان يعبدها الكلدان قوم إبراهيم هي)بعل(وهو أعظمها، وكان مصوغا من ذهب وهو رمز الشمس في عهد سميرميس، وعبدوا رموزا للكواكب ولا شك أنهم كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا، إما بتلك الأسماء وإما بأسماء أخرى. وقد دلت الآثار على أن من أصنام أشور إخوان الكلدان صنما اسمه نسروخ وهو نسر لا محالة.

وجعل العكوف مسندا إلى ضميرهم مؤذن بأن إبراهيم لم يكن من قبل مشاركا لهم في ذلك فيعلم منه أنه في مقام الرد عليهم، ذلك أن الإتيان بالجملة الاسمية في قوله تعالى)أنتم لها عاكفون(فيه معنى دوامهم على ذلك.

وضمن)عاكفون(معنى العبادة، فلذلك عدي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.

وجاءوا في جوابه بما توهموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق، ولذلك لم يلبث أن أجابهم:)لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين(مؤكدا ذلك بلام القسم.

وفي قوله تعالى)كنتم في ضلال(من اجتلاب فعل الكون وحرف الظرفية، إيماء إلى تمكنهم من الضلال وانغماسهم فيه لإفادة أنه ضلال بواح لا شبهة فيه، وأكد ذلك بوصفه ب)مبين(. فلما ذكروا له آباءهم شركهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنهم لا عذر لهم في اتباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سن ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة.

ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالا، وإيقانهم أن آباءهم على الحق، سكوا في حال إبراهيم أنطق عن جد منه وأن ذلك اعتقاده فقالوا)أجئتنا بالحق(، فعبروا عنه)بالحق(المقابل للعب وذلك مسمى الجد. فالمعنى: بالحق في اعتقادك أم أردت به المزح، فاستفهموا وسألوه)أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين(. والباء للمصاحبة. والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمى مزحا، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطف معه وتجنب نسبته إلى الباطل استجلابا لخاطره لما رأوا من قوة حجته.

وعدل عن الإخبار عنه بوصف لاعب إلى الإخبار بأنه من زمرة اللاعبين مبالغة في توغل كلامه ذلك في باب المزح بحيث يكون قائله متمكنا في اللعب ومعدودا من الفريق الموصوف باللعب.

صفحة : 2722

وجاء هو في جوابهم بالإضراب عن قولهم)أم أنت من اللاعبين(لإبطال أن يكون من اللاعبين، وإثبات أن ربهم هو الرب الذي خلق السماوات، أي وليست تلك التماثيل أربابا إذ لا نزاع في أنها لم تخلق السماوات والأرض بل هي مصنوعة منحوتة من الحجارة كما في الآية الأخرى)قال أتعبدون ما تنحتون(فلما شذ

عنها خلق السماوات والأرض كما هو غير منكر منكم فهي منحوتة من أجزاء الأرض فما هي إلا مربوبة مخلوقة وليست أربابا ولا خالقة. فضمير الجمع في قوله تعالى)خلقهن(ضمير السماوات والأرض لا محالة.

فكان جواب إبراهيم إبطالا لقولهم)أم أنت من اللاعبين(مع مستند الإبطال بإقامة الدليل على أنه جاءهم بالحق. وليس فيه طريقة الأسلوب الحكيم كما ظنه الطيبي.

وقوله تعالى)وأنا على ذلكم من الشاهدين(إعلام لهم بأنه مرسل من الله لإقامة دين التوحيد لأن رسول كل أمة شهيد عليها كما قال تعالى)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(، ولم يكن يومئذ في قومه من يشهد ببطلان إلهية أصنامهم، فتعين أن المقصود من الشاهدين أنه بعض الذين شهدوا بتوحيد الله بالإلهية في مختلف الأزمان أو الأقطار.

ويحتمل معنى التأكيد لذلك بمنزلة القسم، كقول الفرزدق:

شهد الفرزدق حين يلقى ربه أن

الوليد أحق بـالـعـذر ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلنا عزمه على ذلك بقوله)وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين(مؤكدا عزمه بالقسم، فالواو عاطفة جملة القسم على جملة الخبر التي قبلها.

والتاء تختص بقسم على أمر متعجب منه وتختص باسم الجلالة وقد تقدم عند قوله تعالى)قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف(.

وسمى تكسيره الأصنام كيدا على طريق الاستعارة أو المشاكلة التقديرية لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها فلا يستطيع أن يمسها بسوء إلا على سبيل الكيد.

والكيد: التحيل على إلحاق الضر في صورة غير مكروهة عند المتضرر. وقد تقدم عند قوله تعالى)إن كيدكن عظيم(في سورة يوسف.

وإنما قيد كيده بما بعد انصراف المخاطبين إشارة إلى أنه يلحق الضر بالأصنام في أول وقت التمكن منه، وهذا من عزمه عليه السلام لأن المبادرة في تغيير المنكر مع كونه باليد مقام عزم وهو لا يتمكن من ذلك مع حضور عبدة الأصنام فلو حاول كسرها بحضرتهم لكان عمله باطلا، والمقصود من تغيير المنكر: إزالته بقدر الإمكان، ولذلك فإزالته باليد لا تكون إلا مع المكنة.

)ومدبرين(حال مؤكدة لعاملها. وقد تقدم نظيره غير مرة منها عند قوله تعالى)ثم وليتم مدبرين(في سورة براءة.

)فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون[58] قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين[59] قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له

إبراهيم[60] قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون[61] (الضميران البارزان في)جعلهم(وفي)لهم(عائدان إلى الأصنام بتنزيلها منزلة العاقل، وضمير)لعلهم(عائد إلى قوم إبراهيم، والقرينة تصرف الضمائر المتماثلة إلى مصارفها مثل ضميري الجمع في قوله تعالى)وعمروها أكثر مما عمروها(.

والجذاذ بضم الجيم في قراءة الجمهور: اسم جمع جذاذة، وهي فعالة من الجذ، وهو القطع مثل قلامة وكناسة، أي كسرهم وجعلهم قطعا. وقرأ الكسائي جذاذا بكسر الجيم على أنه مصدر، فهو من الإخبار بالمصدر للمبالغة.

قيل : كانت الأصنام سبعين صنما مصطفة ومعها صنم عظيم وكان هو مقابل باب بيت الأصنام، وبعد أن كسرها جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر استهزاء بهم.

ومعنى)لعلهم إليه يرجعون(رجاء أن يرجع الأقوام إلى استشارة الصنم الأكبر ليخبرهم بمن كسر بقية الأصنام لأنه يعلم أن جهلهم يطمعهم في استشارة الصنم الكبير. ولعل المراد استشارة سدنته ليخبروهم بما يتلقونه من وحيه المزعوم.

وضمير)لهم(عائد إلى الأصنام من قوله)أصنامكم(. وأجري على الأصنام ضمير جمع العقلاء محاكاة لمعنى كلام إبراهيم لأن قومه يحسبون الأصنام عقلاء. ومثله ضمائر قوله بعده)بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون(.

صفحة : 2723

وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجة الواضحة كما ذكر في سورة الأنعام.

وقول قومه من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين يدل على أنهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فعل ذلك، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعد إبراهيم إياهم بأن يكيد أصنامهم والذين قالوا سمعنا فتى يذكرهم هم الذين توعد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم.

والفتى: الذكر الذي قوي شبابه. ويكون من الناس ومن الإبل.

والأنثى: فتاة. وقد يطلقونه صفة مدح دالة على استكمال خصال الرجل المحمودة.

والذكر: التحدث بالكلام.

وحذف متعلق)يذكر(لدلالة القرينة عليه، أي يذكرهم بتوعد. وهذا كقوله تعالى)أهذا الذي يذكر آلهتكم(كما تقدم.
وموضع جملتي)يذكرهم(و)يقال له(في موضع الصفة ل)فتى(.
وفي قولهم)يقال له إبراهيم(دلالة على أن المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون إبراهيم، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره بأنه مجهولا لا يعرف وإنما يدعى أو يسمى إبراهيم، أي ليس هو من الناس المعروفين.
ورفع)إبراهيم(على أنه نائب فاعل)يقال(، لأن فعل القول إذا بني إلى المجهول كثيرا ما يضمن معنى الدعوة أو التسمية، فلذلك حصلت الفائدة من تعديته إلى المفرد البحث وإن كان شأن فعل القول أن لا يتعدى إلا إلى الجملة أو إلى مفرد فيه معنى الجملة مثل قوله تعالى)كلا إنها كلمة هو قائلها(.
ومعنى)على أعين الناس(على مشاهدة الناس، فاستعير حرف الاستعلاء لتمكن البصر فيه حتى كأن المرئي مظروف في الأعين.
ومعنى)يشهدون(لعلهم يشهدون عليه بأنه الذي توعد الأصنام بالكيد.
)قالوا آنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم[62] قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون[63] فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون[64] ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون[65] قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم[66] أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[67]
(وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء. والتقدير: فأتوا به فقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا.
وقوله تعالى)بل(إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، فنفي أن يكون فعل ذلك، لأن)بل(تقتضي نفي ما دل على كلامهم من استفهامه.
وقوله تعالى)فعله كبيرهم هذا(الخبر مستعمل في معنى التشكيك أي لعله فعله كبيرهم إذ لم يقصد إبراهيم نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر لأنه لم يدع أنه شاهد ذلك ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك حيث لم يبقى صحيحا من الأصنام إلا الكبير. وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأولى على نية أن يكر على ذلك كله بالإبطال ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته وحرفائه،

ولذلك قال)فاسألوهم إن كانوا ينطقون(تهكما بهم وتعريضا بأن ما لا ينطق ولا يعرف عن نفسه غير أهل للإلهية.
وشمل ضمير)فاسألوهم(جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائما. والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثا عظيما مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعله بهم. وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب، فخلقه خارق العادة عند تحدي الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه.

صفحة : 2724

وأما ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منه في ذات لله عز وجل: قوله)إني سقيم(وقوله)بل فعله كبيرهم هذا(. وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وأن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني... . وساق الحديث.
فمعناه أنه كذب في جوابه عن قول قومه)أأنت فعلت هذا بآلهتنا(حيث قال)بل فعله كبيرهم هذا(، لأن)بل(إذا جاء بعد استفهام أفاد إبطال المستفهم عنه. فقولهم)أأنت فعلت هذا(سؤال عن كونه محطم الأصنام، فلما قال)بل(فقد نفى ذلك عن نفسه، وهو نفي مخالف للواقع ولاعتقاده فهو كذب. غير أن الكذب مذموم ومنهي عنه ويرخص فيه للضرورة مثل ما قاله إبراهيم، فهذا الإضراب كان تمهيدا للحجة على نية أن يتضح لهم الحق بأخرة. ولذلك قال)أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم(الآية.
أما الإخبار بقوله)فعله كبيرهم هذا(فليس كذبا وإن كان مخالفا للواقع ولاعتقاد المتكلم لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه لما قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام مهد لذلك كلاما هو جار على الفرض والتقدير فكأنه قال: لو كان هذا إلها لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم تعين أن يكون هو الفاعل لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلب الإلهية عن

جميعهم بقوله)إن كانوا ينطقون(كما تقدم. فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادئ الأمر وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها. وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه. فإذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل كان تعريضا أو مزحا أو نحوهما.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة فيقول إبراهيم: لست هناكم ويذكر كذبات كذبها فمعناه أنه يذكر أنه قال كلاما خلافا للواقع بدون إذن الله بوحي، ولكنه ارتكب قول خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف.

وقوله تعالى)فرجعوا إلى أنفسهم(يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض، أي أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة إبراهيم على نحو قوله تعالى)فسلموا على أنفسكم(وقوله تعالى)ولا تقتلوا أنفسكم(، أي فقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون.

وضمائر الجمع مراد منها التوزيع كما في: ركب القوم دوابهم، ويجوز أن يكون معناه فرجع كل واحد إلى نفسه، أي ترك التأمل في تهمة إبراهيم وتدبر في دفاع إبراهيم. فلاح لكل منهم أن إبراهيم بريء فقال بعضهم لبعض)إنكم أنتم الظالمون(. وضمائر الجمع جارية على أصلها المعروف. والجملة مفيدة للحصر، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به التهمة بأنه ظلم أصنامنا مع أن الظاهر أن نسألها عمن فعل بها ذلك، ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم.

والرجوع إلى أنفسهم على الاحتمالين السابقين مستعار لشغل البال بشيء عقب شغله بالغير، كما يرجع المرء إلى بيته بعد خروجه إلى مكان غيره.

وفعل)نكسوا(مبني للمجهول، أي نكسهم ناكس. ولما لم يكن لذلك النكس فاعل إلا أنفسهم بني الفعل للمجهول فصار بمعنى: انتكسوا على رؤوسهم. وهذا تمثيل.

والنكس: قلب أعلى الشيء أسفله وأسفله أعلاه، يقال: صلب اللص منكوسا، أي مجعولا رأسه مباشرا للأرض، وهو أقبح هيئات المصلوب. ولما كان شأن انتصاب جسم الإنسان أن يكون منتصبا على قدميه فإذا نكس صار انتصابه كأنه على رأسه، فكان قوله هنا)نكسوا على رؤوسهم(تمثيلا لتغير رأيهم عن الصواب كما قالوا) إنكم أنتم الظالمون(إلى معاودة الضلال بهيئة من تغيرت أحوالهم من الانتصاب على الأرجل إلى الانتصاب على الرؤوس منكوسين. فهو من تمثيل المعقول بالمحسوس والمقصود به التشنيع. وحرف)

على(للاستعلاء أي علت أجسادهم فوق رؤوسهم بأن انكبوا انكبابا شديدا بحيث لا تبدو رؤوسهم. وتحتمل الآية وجوها أخرى أشار إليها في الكشاف.

صفحة : 2725

والمعنى: ثم تغيرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام. فقالوا)لقد علمت ما هؤلاء ينطقون(، أي أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك)فاسألوهم إن كانوا ينطقون(إلا التنصل من جريمتك.
فجملة)لقد علمت(إلى آخرها مقول قول محذوف دل عليه) فقالوا إنكم انتم الظالمون(.
وجملة)ما هؤلاء ينطقون(تفيد تقوى الاتصاف بانعدام النطق، وذلك بسبب انعدام آلته وهي الألسن.
وفعل)علمت(معلق عن العمل لوجود حرف النفي بعده. فلما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مفرعا على اعترافهم بأنها لا تنطق استفهاما إنكاريا على عبادتهم إياها وزائدا بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر.
وجعل عدم استطاعتها النفع والضر ملزوما لعدم النطق لأن النطق هو واسطة الإفهام، ومن لا يستطيع الإفهام تبين أنه معدوم العقل وتوابعه من العلم والإرادة والقدرة.
و)أف(اسم فعل دال على الضجر، وهو منقول من صورة تنفس المتجر لضيق نفسه من الغضب. وتنوين)أف(يسمى تنوين التنكير والمراد به التعظيم، أي ضجرا قويا لكم. وتقدم في سورة الإسراء) فلا تقل لهما أف(.
واللام في)لكم(لبيان المتأفف بسببه، أي أف لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله.
وإظهار اسم الجلالة لزيادة البيان وتشنيع عبادة غيره.
وفرع على الإنكار والتضجر استفهاما إنكاريا عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضحة من العقل والحس فقال)أفلا تعقلون(.
)قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين[68] قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم[69](لما غلبهم بالحجة القاهرة لم يجدوا مخلصا إلا بإهلاكه. وكذلك المبطل إذا قرعت باطله حجة فساده غضب على المحق، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته والتشفي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين عجزوا عن المعارضة. واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق لأن النار أهول ما يعاقب به وأفظعه.

والتحريق: مبالغة في الحرق، أي حرقا متلفا.

وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم لأنهم قبلوا هذا القول وسألوا ملكهم، وهو النمروذ ، إحراق إبراهيم فأمر بإحراقه لأن العقاب بإتلاف النفوس لا يملكه إلا ولاة أمور الأقوام. قيل الذي أشار بالرأي بإحراق إبراهيم رجل من القوم كردي اسمه هينون ، واستحسن القوم ذلك، والذي أمر بالإحراق بمروذ ، فالمر في قولهم)حرقوه(مستعمل في المشاورة.

ويظهر أن هذا القول كان مؤامرة سرية بينهم دون حضرة إبراهيم، وأنهم دبروه ليبغتوه به خشية هروبه لقوله تعالى)وأرادوا به كيدا(.

ونمروذ هذا يقولون: إنه ابن كوش بن حام بن نوح. ولا يصح ذلك لبعد ما بين زمن إبراهيم وزمن كوش . فالصواب أن نمروذ من نسل كوش . ويحتمل أن تكون كلمة نمروذ لقبا لملك الكلدان وليست علما. والمقدر في التاريخ أن ملك مدينة أور في زمن إبراهيم هو ألغى بن أورخ وهو الذي تقدم ذكره عند قوله تعالى)ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك(في سورة البقرة.

ونصر الآلهة بإتلاف عدوها.

ومعنى)إن كنتم فاعلين(إن كنتم فاعلين النصر. وهذا تحريض وتلهيب لحميتهم.

وجملة)قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم(مفصولة عن التي قبلها: إما لأنها وقعت كالجواب عن قولهم)حرقوه(فأشبهت جمل المحاورة، وإما لأنها استئناف عن سؤال ينشأ عن قصة التآمر على الإحراق. وبذلك يتعين تقدير جملة أخرى، أي فألقوه في النار قلنا: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وقد أظهر الله ذلك معجزة لإبراهيم إذ وجه إلى النار تعلق الإرادة بسلب قوة الإحراق، وأن تكون بردا وسلاما إن كان الكلام على الحقيقة، أو أزال عن مزاج إبراهيم التأثر بحرارة النار إن كان الكلام على التشبيه البليغ، أي كوني كبرد في عدم تحريق الملقى فيك بحرك.

صفحة : 2726

وأما كونها سلاما فهو حقيقة لا محالة، وذكر)سلاما(بعد ذكر البرد كالاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعقب ذكره بذكر السلام لذلك. وعن ابن عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

وإنما ذكر)بردا(ثم أتبع ب)سلاما(ولم يقتصر على)بردا(لإظهار عجيب صنع القدرة إذ صير النار بردا.
و)على إبراهيم(يتنازعه)بردا وسلاما(. وهو أشد مبالغة في حصول نفعهما له. ويجوز أن يتعلق بفعل الكون.
)وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين[70](تسمية عزمهم على إحراقه كيدا يقتضي أنهم دبروا ذلك خفية منه. ولعل قصدهم من ذلك أن لا يفر من البلد فلا يتم الانتصار لآلهتهم.
والأخسر: مبالغة في الخاسر، فهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة.
وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر، وهو قصر للمبالغة كأن خسارتهم لا تدانيها خسارة وكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم. والمراد بالخسارة الخيبة. وسميت خيبتهم خسارة على طريقة الاستعارة تشبيها لخيبة قصدهم إحراقه بخيبة التاجر في تجارته، كما دل عليه قوله تعالى)وأرادوا به كيدا(، أي فخابوا خيبة عظيمة. وذلك أن خيبتهم جمع لهم بها سلامة إبراهيم من أثر عقابهم وإن صار ما أعدوه للعقاب معجزة وتأييدا لإبراهيم عليه السلام .
وأما شدة الخسارة التي اقتضاها اسم التفضيل فهي بما لحقهم عقب ذلك من العذاب إذ سلط الله عليهم عذابا كما دل عليه قوله تعالى في سورة الحج)فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير(. وقد عد فيهم قوم إبراهيم، ولم أر من فسر ذلك الأخذ بوجه مقبول. والظاهر أن الله سلط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض ملكهم وخلفهم الأشوريون، وقد أثبت التاريخ أن العيلاميين من أهل السوس تسلطوا على بلاد الكلدان في حياة إبراهيم في حدود سنة 2286 قبل المسيح.
)ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين[71] ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين[72] وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين[73](هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار، هي نجاته من الحلول بين قوم عدو له كافرين بربه وربهم، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد. وتلك بأن سهل الله له المهاجرة من بلاد الكلدان إلى أرض فلسطين وهي بلاد كنعان .
وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين. واستصحب إبراهيم معه لوطا ابن أخيه)هاران(لأنه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فهمت معيتها من أن المرء لا يهاجر إلا ومعه امرأته.
وانتصب لوطا على المفعول معه لا على المفعول به لأن لوطا لم يكن مهددا من الأعداء لذاته فيتعلق به فعل الإنجاء.

وضمن)نجيناه(معنى الإخراج فعدي بحرف)إلى(.
والأرض: هي أرض فلسطين. ووصفها الله بأنه باركها للعالمين، أي للناس، يعني الساكنين بها لأن الله خلقها أرض خصب ورخاء عيش وأرض أمن. وورد في التوراة: أن الله قال لإبراهيم: إنها تفيض لبنا وعسلا.
والبركة: وفرة الخير والنفع. وتقدم في قوله تعالى)إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا(في سورة آل عمران.
وهبة إسحاق له ازدياده له على الكبر وبعد أن يئست زوجه سارة من الولادة.
وهبة يعقوب ازدياد لإسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم ورؤيته إياه كهلا صالحا.
والنافلة: الزيادة غير الموعودة، فإن إبراهيم سأل ربه فقال)رب هب لي من الصالحين(أراد الولد فولد له إسماعيل، كما في سورة الصافات ثم ولد له إسحاق عن غير مسألة كما في سورة هود فكان نافلة، وولد لإسحاق يعقوب فكان أيضا نافلة.
وانتصب)نافلة(على الحال التي عاملها)وهبنا(فتكون حالا من إسحاق ويعقوب شأن الحال الواردة بعد المفردات أن تعود إلى جميعها.
وتنوين)كلا(عوض عن المضاف إليه. والمعنى: وكلهم جعلنا صالحين، أي أصلحنا نفوسهم. والمراد إبراهيم وإسحاق ويعقوب، لأنهم الذين كان الحديث الأخير عنهم. وأما لوط فإنما ذكر على طريق المعية وسيخص بالذكر بعد هذه الآية.

صفحة : 2727

وإعادة فعل)جعل(في قوله تعالى)وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا(دون أن يقال: وأئمة يهدون، بعطف)أئمة(على)الصالحين(، اهتماما بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار.
ولأن في إعادة الفعل إعادة ذكر المفعول الأول فكانت إعادته وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول.
وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار كما يظهر بالذوق.
والأئمة: جمع إمام وهو القدوة والذي يعمل كعمله. وأصل الإمام المثال الذي يصنع الشيء على صورته في الخير أو في الشر.

وجملة)يهدون(في موضع الحال مقيدة لمعنى الإمامة، أي أنهم أئمة هدى وإرشاد.
وقوله)لأمرنا(أي كانوا هادين بأمر الله، وهو الوحي زيادة على الجعل. وفي الكشاف: فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها. وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم والنفوس إلى الاهتداء بالمهدي أميل اه.
وهذا الهدي هو تزكية نفوس الناس وإصلاحها وبث الإيمان. ويشمل هذا شؤون الإيمان وشعبه وآدابه.
وأما قوله تعالى)وأوحينا إليهم فعل الخيرات(فذلك إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات. وقد شملها قوله تعالى) فعل الخيرات(.
و)فعل الخيرات(مصدر مضاف إلى)الخيرات(، ويتعين أنه مضاف إلى مفعوله لأن الخيرات مفعولة وليست فاعلة فالمصدر هنا بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن المقصود هو مفعوله، وأما الفاعل فتبع له، أي أن يفعلوا هم ويفعل قومهم الخيرات، حتى تكون الخيرات مفعولة للناس كلهم، فحذف الفاعل للتعميم مع الاختصار لاقتضاء المفعول إياه.
واعتبار المصدر مصدرا لفعل مبني للنائب جائز إذا قامت القرينة. وهذا ما يؤذن به صنيع الزمخشري. على أن الأخفش أجازه بدون شرط.
ويجوز أن يكون)فعل الخيرات(هو الموحى به، أي وأحينا إليهم هذا الكلام، فيكون المصدر قائما مقام الفعل مرادا به الطلب. والتقدير: افعلوا الخيرات، كقوله تعالى)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب(.
وتخصيص)إقام الصلاة وإيتاء الزكاة(بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين.
وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.
ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحي إليهم الأمر بذلك كما هو بين.
ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف)ما كان لنا أن نشرك

بالله من شيء(. وقال تعالى في الثناء على إبراهيم)وما كان من المشركين(,)ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين[74] وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين[75](عطف على جملة)ولقد آتينا إبراهيم رشده(. وقدم مفعول)آتيناه(اهتماما به لينبه على أنه محل العناية إذ كان قد تأخر ذكر قصته بعد أن جرى ذكره تبعا لذكر إبراهيم تنبيها على أنه بعث بشريعة خاصة، وإلى قوم غير القوم الذين بعث إليهم إبراهيم، وإلى أنه كان في مواطن غير المواطن التي حل فيها إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب في ذلك كله.

ولأجل البعد أعيد فعل الإيتاء ليظهر عطفه على)آتينا إبراهيم رشده(. ولم يعد في قصة نوح عقب هذه.

وأعقبت قصة إبراهيم بقصة لوط للمناسبة. وخص لوط بالذكر من بين الرسل لأن أحواله تابعة لأحوال إبراهيم في مقاومة أهل الشرك والفساد. وإنما لم يذكر ما هم عليه قوم لوط من الشرك استغناء بذكر الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سنة فإنها أثر من الشرك.

والحكم: الحكمة، وهو النبوة، قال تعالى)وآتيناه الحكم صبيا(.

والعلم: علم الشريعة، والتنوين فيهما للتعظيم.

والقرية سدوم . وقد تقدم ذكر ذلك في سورة هود. والمراد من القرية أهلها كما مر في قوله تعالى)واسأل القرية(في سورة يوسف.

والخبائث: جمع خبيثة بتأويل الفعلة، أي الشنيعة. والسوء بفتح السين وسكون الواو مصدر، أي القبيح المكروه. وأما بضم السين فهو اسم مصدر لما ذكر وهو أغم من المفتوح لأن الوصف بالاسم أضعف من الوصف بالمصدر.

)ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم[76] ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين[77](لما ذكر أشهر الرسل بمناسبات أعقب يذكر أول الرسل.

وعطف)ونوحا(على)لوطا(، أي آتينا نوحا حكما وعلما، فحذف المفعول الثاني ل)آتينا(لدلالة ما قبله عليه، أي آتيناه النبوة حين نادى، أي نادانا.

ومعنى)نادى(دعا ربه أن ينصره على المكذبين من قومه بدليل قوله)فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم(.

وبناء)قبل(على الضم يدل على مضاف إليه مقدر، أي من قبل هؤلاء، أي قبل الأنبياء المذكورين. وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنته المرادة له تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة.

وأهل نوح: أهل بيته عدا أحد بنيه الذي كفر به.

والكرب العظيم: هو الطوفان. والكرب: شدة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

ووجه كون الطوفان كربا عظيما أنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مده ولا يزال لاحقا بمواقع هروبهم حتى يعمهم فيبقوا زمنا يذوقون آلام الخوف فالغرق وهم يغرقون ويطفون حتى يموتوا بانحباس التنفس؛ وفي ذلك كله كرب متكرر، فلذلك وصف بالعظيم.

وعدي)نصرناه(بحرف)من(لتضمينه معنى المنع والحماية، كما في قوله تعالى)إنكم منا لا تنصرون(، وهو أبلغ من تعديته ب)على(لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدو بشيء. وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة.

ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد. وجملة)إنهم كانوا قوم سوء(علة لنصر نوح عليه لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم.

والسوء بفتح السين تقدم آنفا.

وإضافة قوم إلى السوء إشارة إلى أنهم عرفوا به. والمراد به الكفر والتكبر والعناد والاستسخار برسولهم.

و)أجمعين(حال من ضمير النصب في)أغرقناهم(لإفادة أنه لم ينج من الغرق أحد من القوم ولو كان قريبا من نوح فإن الله قد أغرق ابن نوح.

وهذا تهديد لقريش لئلا يتكلوا على قرابتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كما روي أنه لما قرأ على عتبة بن ربيعة سورة فصلت حتى بلغ)فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود(فزع عتبة وقال له: ناشدتك الرحم.

)وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين[78] ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما(شروع في عداد جمع من الأنبياء الذين لم يكونوا رسلا. وقد روعي في تخصيصهم بالذكر ما اشتهر به كل فرد منهم من المزية التي أنعم الله بها عليه، بمناسبة ذكر ما فضل الله به موسى وهارون من إيتاء الكتاب الماثل للقرآن وما عقب ذلك. ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل عصر له ميزة خاصة مثل عصر داود وسليمان إذ تطور أمر جامعة بني إسرائيل من كونها مسوسة

بالأنبياء من عهد يوشع بن نون. ثم بما طرأ عليها من الفوضى من بعد موت شمشون إلى قيام شاول حمي داود إلا أنه كان ملكا قاصرا على قيادة الجند ولم يكن نبيا، وأما تدبير الأمور فكان للأنبياء والقضاة مثل صمويل .

فداود أول من جمعت له النبوة والملك في أنبياء بني إسرائيل. وبلغ ملك إسرائيل في مدة داود حدا عظيما من البأس والقوة وإخضاع الأعداد. وأوتي داود الزبور فيه حكمة وعظة فكان تكملة للتوراة التي كانت تعليم شريعة، فاستكمل زمن داود الحكمة ورقائق الكلام.

وأوتي سليمان الحكمة وسخر له أهل الصنائع والإبداع فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه عظمة النظام والثروة والحكمة والتجارة فكان في قصتهما مثل.

صفحة : 2729

وكانت تلك القصة منتظمة في هذا السلك الشريف سلك إيتاء الفرقان والهدي والرشد والإرشاد إلى الخير والحكم والعلم.

وكان في قصة داود وسليمان تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء فلذلك خص داود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما فيكون)داود(عطفا على)نوحا(في قوله)ونوحا(، أي وآتينا داود وسليمان حكما وعلما إذ يحكمان... إلى آخره، ف)إذ يحكمان(متعلق ب)آتينا(المحذوف، أي كان وقت حكمهما في قضية الحرث مظهرا من مظاهر حكمهما وعملهما.

والحكم: الحكمة، وهو النبوة. والعلم: أصالة الفهم.)وإذ نفشت(متعلق ب)يحكمان(.

فهذه القضية التي تضمنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء، والجمع بين المصالح والتفاصيل بين مراتب الاجتهاد، واختلاف طرق القضاء بالحق مع كون الحق حاصلا للمحق. فمضمونها أنها الفقه في الدين الذي جاء به المرسلون من قبل.

وخلاصتها أن داود جلس للقضاء بين الناس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعا فكان يجلس خارج باب بيت القضاء. فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلا فأفسدت ما فيه فقضى داود أن تعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث، فلما حكم بذلك وخرج الخصمان فقص أمرهما على سليمان، فقال: لو كنت أنا قاضيا

لحكمت بغير هذا. فبلغ ذلك داود فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟ قال: إني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويصلحه عاما كاملا حتى يعود كما كان ويرده إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تسلم أراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدة فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأول صرف إلى كل فريق ما كان له. فقال داود: وفقت يا بني. وقضى بينهما بذلك.

فمعنى)نفشت فيه(دخلته ليلا، قالوا: والنفش الانفلات للرعي ليلا. وأضيف الغنم إلى القوم لأنها كانت لجماعة من الناس كما يؤخذ من قوله تعالى)غنم القوم(. وكذلك كان الحرث شركة بين أناس. كما يؤخذ مما أخرجه ابن كثير في تفسيره عن مسروق من رواية ابن أبي حاتم. وهو ظاهر تقرير الكشاف. وأما ما ورد في الروايات الأخرى من ذكر رجلين فإنما يحمل على أن اللذين حضرا للخصومة هما راعي الغنم وعامل الحرث.

واعلم أن مقتضى عطف داود وسليمان على إبراهيم ومقتضى قوله)وكنا لحكمهم شاهدين(أي عالمين وقوله تعالى)وكلا آتينا حكما وعلما(ومقتضى وقوع الحكمين في قضية واحدة وفي وقت واحد، إذ أن الحكمين لم يكونا عن وحي من الله وأنهما إنما كانا عن علم أوتيه داود وسليمان، فلذلك من القضاء بالاجتهاد. وهو جار على القول الصحيح من جواز الاجتهاد للأنبياء ولنبينا صلى الله عليه وسلم ووقوعه في مختلف المسائل.

وقد كان قضاء داود حقا لأنه مستند إلى غرم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضا ناجزا فكان ذلك القضاء حقا. وحسبك أنه موافق لما جاءت به السنة في إفساد المواشي.

وكان حكم سليمان حقا لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين فهو يشبه الصلح. ولعل أصحاب الغنم لم يكن لهم سواها كما هو الغالب، وقد رضي الخصمان بحكم سليمان لأن الخصمين كانا من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، ولو لم يرضيا لكان المصير إلى حكم داود إذ ليس الإرفاق بواجب.

ونظير ذلك قضاء عمر بن الخطاب على محمد بن مسلمة بأن يمر الماء من العريض على أرضه إلى أرض الضحاك بن خليفة وقال لمحمد بن مسلمة: لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع؟ فقال محمد: لا والله، فقال عمر: والله ليمرن به ولو على بطنك، ففعل الضحاك.

وذلك أن عمر علم أنهما من أهل الفضل وأنهما يرضيان لما عزم عليهما، فكان قضاء سليمان أرجح.

صفحة : 2730

وتشبه هذه القضية قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الزبير والأنصاري في السقي من ماء شراج الحرة إذ قضى أول مرة بأن يمسك الزبير الماء حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل الماء إلى جاره، فلما لم يرض الأنصاري قضى رسول الله بأن يمسك الزبير الماء حتى يبلغ الجدر ثم يرسل، فاستوفى للزبير حقه. وإنما ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالأرفق ثم لما لم يرض أحد الخصمين قضي بينهما بالفصل، فكان قضاء النبي مبتدأ بأفضل الوجهين على نحو قضاء سليمان.

فمعنى قوله تعالى)ففهمناها سليمان(أنه ألهمه وجها آخر في القضاء أرجح لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن فهم سليمان في القضية كان أعمق. وذلك أنه أرفق بهما فكانت المسألة مما يتجاذبه دليلان فيصار إلى الترجيح، والمرجحات لا تنحصر، وقد لا تبدو للمجتهد، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان. وحسبك أنه الموافق لقضاء النبي في قضية الزبير. وللاجتهادات مجال في تعارض الأدلة.

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يهتد إلى المعارض لقوله تعالى)وكلا آتينا حكما وعلما(في معرض الثناء عليهما.

وفي بقية القصة ما يصلح لأن يكون أصلا في رجوع الحاكم عن حكمه، كما قال ابن عطية وابن العربي؛ إلا أن ذلك لم تتضمنه الآية ولا جاءت به السنة الصحيحة، فلا ينبغي أن يكون تأصيلا وأن ما حاولاه من ذلك غفلة.

وإضافة)حكم(إلى ضمير الجمع باعتبار اجتماع الحاكمين والمتحاكمين. وتأنيث الضمير في قوله)ففهمناها(، ولم يتقدم لفظ معاد مؤنث اللفظ، على تأويل الحكم في قوله تعالى) لحكمهم(بمعنى الحكومة أو الخصومة.

وجملة)وكلا آتينا حكما وعلما(تذييل للاحتراس لدفع توهم أن حكم داود كان خطأ أو جورا وإنما كان حكم سليمان أصوب.

وتقدمت ترجمة داود عليه السلام عند قوله تعالى)وآتينا داود زبورا(في سورة النساء، وقوله تعالى)ومن ذريته داود(في سورة الأنعام.
وتقدمت ترجمة سليمان عليه السلام عند قوله تعالى)واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان(في سورة البقرة.
)وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين[79](هذه مزية اختص بها داود هي تسخير الجبال له وهو الذي بينه جملة) يسبحن(فهي إما بيان لجملة)سخرنا(أو حال مبينة. وذكرها هنا استطراد وإدماج.
)والطير(عطف على)الجبال(أو مفعول معه، أي مع الطير يعني طير الجبال.
و)مع(ظرف متعلق بفعل)يسبحن(، وقدم على متعلقه للاهتمام به لإظهار كرامة داوود، فيكون المعنى: أن داود كان إذا سبح بين الجبال سمع الجبال تسبح مثل تسبيحه. وهذا معنى التأويب في قوله في الآية الأخرى)يا جبال أوبي معه(إذ التأويب الترجيع، مشتق من الأوب وهو الرجوع. وكذلك الطير إذا سمعت تسبيحه تغرد تغريدا مثل تسبيحه وتلك كلها معجزة له. ويتعين أن يكون هذا التسخير حاصلا له بعد أن أوتي النبوة كما يقتضيه سياق تعداده في عداد ما أوتيه الأنبياء من دلائل الكرامة على الله، ولا يعرف لداود بعد أن أوتي النبوة مزاولة صعود الجبال ولا الرعي فيها وقد كان من قبل النبوة راعيا. فلعل هذا التسخير كان أيام سياحته في جبل برية زيف الذي به كهف كان يأوي إليه داود مع أصحابه الملتفين حوله في تلك السياحة أيام خروجه فارا من الملك شاول طالوت حين تنكر له شاول بوشاية بعض حساد داود، كما حكي في الإصحاحين 23-24 من سفر صمويل الأول. وهذا سر التعبير ب)مع(متعلقة بفعل)سخرنا(هنا. وفي آية سورة ص إشارة إلى أنه تسخير متابعة لا تسخير خدمة بخلاف قوله الآتي)ولسليمان الريح(إذ عدي فعل التسخير الذي نابت عنه واو العطف بلام الملك. وكذلك جاء لفظ) مع(في آية سورة سبأ)يا جبال أوبي معه(.
وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة له كرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده.

وجملة)وكنا فاعلين(معترضة بين الإخبار عما أوتيه داود. وفاعل هنا بمعنى قادر، لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه. وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل، أي وكنا قادرين على ذلك.

)وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون[80](وامتن الله بصنعه علمها داود فانتفع بها الناس وهي صنعة الدروع، أي دروع السرد. قيل كانت الدروع من قبل داود ذات حراشف من الحديد، فكانت تثقل على الكماة إذا لبسوها فألهم الله داود صنع دروع الحلق الدقيقة فهي أخف محملا وأحسن وقاية.

وفي الإصحاح السابع عشر من سفر صمويل الأول أن جالوت الفلسطيني خرج لمبارزة داود لابسا درعا حرشفيا، فكانت الدروع الحرشفية مستعملة في وقت شباب داود فاستعمل العرب دروع السرد.

واشتهر عند العرب، ولقد أجاد كعب بن زهير وصفها بقوله:

شم العرانين أبطال لبـوسـهـم من نسج داود في الهيجا سرابيل

بيض سوابغ قد شكت لها حلـق كأنها حلق القفعـاء مـجـدول

وكانت الدروع التبعية مشهورة عند العرب فلعل تبعا اقتبسها من بني إسرائيل بعد داود أو لعل الدروع التبعية كانت من ذات الحراشف، وقد جمعها النابغة بقوله:

وكل صموت نثلة تبـعـية ونسج سليم كل قمصاء ذائل

أراد بسليم ترخيم سليمان، يعني سليمان بن داوود، فنسب عمل أبيه إليه لأنه كان مدخرا لها.

واللبوس بفتح اللام أصله اسم لكل ما يلبس فهو فعول بمعنى مفعول مثل رسول. وغلب إطلاقه على ما يلبس من لامة الحرب من الحديد، وهو الدرع فلا يطلق على الدرع لباس ويطلق عليها لبوس كما يطلق لبوس على الثياب. وقال ابن عطية: اللبوس في اللغة السلاح فمنه الرمح ومنه قول الشاعر وهو أبو كبير الهذلي.

ومعي لبوس للبئيس كـأنـه روق

بجبهة ذي نعاج مجفل وقرأ الجمهور)ليحصنكم(بالمثناة التحتية على ظاهر إضمار لفظ)لبوس(. وإسناد الإحصان إلى اللبوس إسناد مجازي. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر بالمثناة الفوقية على تأويل معنى)لبوس(بالدرع، وهي مؤنثة. وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب)لنحصنكم(بالنون.

وضمائر الخطاب في)لكم، ليحصنكم، من بأسكم، فهل أنتم شاكرون(موجهة إلى المشركين تبعا لقوله تعالى قبل ذلك)وهذا

ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون(لأنهم أهملوا شكر نعم الله تعالى التي منها هذه النعمة إذ عبدوا غيره.
والإحصان: الوقاية والحماية. والبأس: الحرب.
ولذلك كان الاستفهام في قوله تعالى)فهل أنتم شاكرون(مستعملا في استبطاء عدم الشكر ومكنى به عن الأمر بالشكر.
وكان العدول عن إيلاء)هل(الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الاسمية مع أن ل)هل(مزيد اختصاص بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون، وعدل إلى)فهل أنتم شاكرون(ليدل العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار، أي فهل تقرر شكركم وثبت لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة نظير قوله تعالى)فهل أنتم منتهون(في آية تحريم الخمر.
)ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين[81](عطف على جملة)وسخرنا مع داود الجبال يسبحن(بمناسبة تسخير خارق للعادة في كلتا القصتين معجزة للنبيين عليهما السلام .
والأرض التي بارك الله فيها عي أرض الشام. وتسخير الريح: تسخيرها لما تصلح له. وهو سير المراكب في البحر. والمراد أنها تجري إلى الشام راجعة عن الأقطار التي خرجت إليها لمصالح ملك سليمان من غزو أو تجارة بقرينة أنها مسخرة لسليمان فلا بد أن تكون سائرة لفائدة الأمة التي هو ملكها.
وعلم من أنها تجري إلى الأرض التي بارك الله فيها أنها تخرج من تلك الأرض حاملة الجنود أو مصدرة البضائع التي تصدرها مملكة سليمان إلى بلاد الأرض وتقفل راجعة بالبضائع والميرة ومواد الصناعة وأسلحة الجند إلى أرض فلسطين، فوقع في الكلام اكتفاء اعتمادا على القرينة. وقد صرح بما اكتفى عنه هنا في آية سورة سبأ)ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر(.

صفحة : 2732

ووصفها هنا ب)عاصفة(بمعنى قوية. ووصفها في سورة ص بأنها) رخاء(في قوله تعالى)فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب(. والرخاء: الليلة المناسبة لسير الفلك. وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أن المراد المواتاة لإرادة سليمان كما دل عليه قوله تعالى)تجري بأمره(في الآيتين المشعر باختلاف مقصد

سليمان منها كما إذا كان هو راكبا في البحر فإنه يريدها رخاء لئلا تزعجه وإذا أصدرت مملكته بضاعة أو اجتلبتها سارت عاصفة وهذا بين بالتأمل.

وعبر)بأمره(عن رغبته وما يلائم أسفار سفائنه وهي رياح موسمية منتظمة سخرها الله له.

وأمر سليمان دعاؤه الله أن يجري الريح كما يريد سليمان: إما دعوة عامة كقوله)وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي(فيشمل كل ما به استقامة أمور الملك وتصاريفه، وإما دعوة خاصة عند كل سفر لمراكب سليمان فجعل الله الرياح الموسمية في بحار فلسطين مدة ملك سليمان إكراما له وتأييدا إذ كان همه نشر دين الحق في الأرض.

وإنما جعل الله الريح تجري بأمر سليمان ولم يجعلها تجري لسفنه لأن الله سخر الريح لكل السفن التي فيها مصلحة ملك سليمان فإنه كانت تأتيه سفن ترشيش يظن أنها طرطوشة بالأندلس أو قرطجنة بإفريقية وسفن حيرام ملك صور حاملة الذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس وهدايا الآنية والحلل والسلاح والطيب والخيل والبغال كما في الإصحاح 10 من سفر الملوك الأول.

وجملة)وكنا بكل شيء عالمين(معترضة بين الجمل المسوقة لذكر عناية الله بسليمان. والمناسبة أن تسخير الريح لمصالح سليمان أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم وما هو منها لائق بمصلحة سليمان فيجري الأمور على ما تقتضيه الحكمة التي أرادها سبحانه إذ قال)وشددنا ملكه(.

)ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين[82](هذا ذكر معجزة وكرامة لسليمان. وهي أن سخر إليه من القوى المجردة من طوائف الجن والشياطين التي تتأتى لها معرفة الأعمال العظيمة من غوص البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ومن أعمال أخرى أجملت في قوله تعالى)ويعملون عملا دون ذلك(. وفصل بعضها في آيات أخرى كقوله تعالى)يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات(وهذه أعمال متعارفة. وإنما اختص سليمان بعظمتها مثل بناء هيكل بيت المقدس وبسرعة إتمامها.

ومعنى)وكنا لهم حافظين(أن الله بقدرته سخرهم لسليمان ومنعهم عن أن ينفلتوا عنه أو أن يعصوه، وجعلهم يعلمون في خفاء ولا يؤذوا أحدا من الناس؛ فجمع الله بحكمته بين تسخيرهم لسليمان وعلمه كيف يحكمهم ويستخدمهم ويطوعهم، وجعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له، وحال دونهم ودون الناس لئلا يؤذوهم. ولما توفي سليمان لم يسخر الله الجن لغيره استجابة لدعوته إذ

قال)وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي(. ولما مكن الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم من الجني الذي كاد أن يفسد عليه صلاته وهم بأن يربطه، ذكر دعوة سليمان فأطلقه فجمع الله له بين التمكين من الجن وبين تحقيق رغبة سليمان.

وقوله)لهم(يتعلق ب)حافظين(، واللام لام التقوية. والتقدير: حافظينهم، أي مانعينهم عن الناس.

)وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين [83] فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين[84](عطف على)داود وسليمان(أي وآتينا أيوب حكما وعلما إذ نادى ربه. وتخصيصه بالذكر مع من ذكر من الأشياء لما اختص به من الصبر حتى كان مثلا فيه. وتقدمت ترجمة أيوب في سورة الأنعام.

وأما القصة التي أشارت إليها هذه الآية فهي المفصلة في السفر الخاص بأيوب من أسفار النبيين الإسرائيلية. وحاصلها أنه كان نبيا وذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاث في يوم واحد، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر. وتلقى رثاء أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالا أكثر من ماله وولدت له زوجه أولادا وبنات بعدد من هلكوا له من قبل.

وقد ذكرت قصته بأبسط من هنا في صورة ص. ولأهل القصص فيها مبالغات لا تليق بمقام النبوة.

و)إذ(ظرف قيد به إيتاء أيوب رباطة القلب وحكمة الصبر لأن ذلك الوقت كان أجلى مظاهر علمه وحكمته كما أشارت إليه القصة. وتقدم نظيره آنفا عند قوله تعالى)ونوحا إذ نادى من قبل(فصار أيوب مضرب المثل في الصبر.

وقوله)أني مسني الضر(بفتح الهمزة على تقدير باء الجر، أي نادى ربه بأني مسني الضر.

والمس: الإصابة الخفيفة. والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حل به من الضر كالمس الخفيف.

والضر بضم الضاد ما يتضرر به المرء في جسده من مرض أو هزل، أو في ماله من نقص ونحوه.
وفي قوله تعالى)وأنت أرحم الراحمين(التعريض بطلب كشف الضر عنه بدون سؤال فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه بالأرحمية تعريضا بسؤاله، كما قال أمية بن أبي الصلت:
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه عن
تعرضه الثناء وكون الله تعالى أرحم الراحمين لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبا للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وإما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية.
ولكون ثناء أيوب تعريضا بالدعاء فرع عليه قوله تعالى)فاستجبنا له فكشفنا ما به من مضر(. والسين والتاء للمبالغة في الإجابة، أي استجبنا دعوته العرضية بإثر كلامه وكشفنا ما به من ضر، إشارة إلى سرعة كشف الضر عنه، والتعقيب في كل شيء بحسبه. وهو ما تقتضيه العادة في البرء وحصول الرزق وولادة الأولاد.
والكشف: مستعمل في الإزالة السريعة. شبهت إزالة الأمراض والأضرار المتمكنة التي يعتاد أنها لا تزول إلا بطول بإزالة الغطاء عن الشيء في السرعة.
والموصول في قوله تعالى)ما به من ضر(مقصود منه الإبهام. ثم تفسيره ب)من(البيانية لقصد تهويل ذلك الضر لكثرة أنواعه بحيث يطول عدها. ومثله قوله تعالى)وما بكم من نعمة فمن الله(إشارة إلى تكثيرها. ألا ترى إلى مقابلته ضدها بقوله تعالى)ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون(، لإفادة أنهم يهرعون إلى الله في أقل ضر وينسون شكره على عظيم النعم، أي كشفنا ما حل به من ضر في جسده وماله فأعيدت صحته وثروته.
والإيتاء: عطاء، أي أعطيناه أهله، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته. وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أن الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، وهو على تقدير مضاف بين من السياق، أي مثل أهله بأن رزق أولاده بعدد ما فقد، وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابنا وست بنات من زوجه التي كانت بلغت سن العقم.
وانتصب)رحمة(على المفعول لأجله. ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويها بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل. والمراد رحمة بأيوب إذ قال)وأنت أرحم الراحمين(.

والذكرى: التذكير بما هو مظنة أن ينسى أو يغفل عنه. وهو معطوف على رحمة فهو مفعول لأجله، أي وتنبيها للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم.
وبما في)العابدين(من العموم صارت الجملة تذييلا.
)وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين[85] وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين[86](عطف على)وأيوب(أي وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكما وعلما.

صفحة : 2734

وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لإشراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى)كل من الصابرين(. جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب.
فأما صبر إسماعيل عليه السلام فقد تقرر بصبره على الرضى بالذبح حين قال له إبراهيم)إني أرى في المنام أني إذبحك(فقال) ستجدني إن شاء الله من الصابرين(، وتقرر بسكناه بواد غير ذي زرع امتثالا لأمر أبيه المتلقى من الله تعالى. وتقدمت ترجمة إسماعيل في سورة البقرة.
وأما إدريس فهو اسم أخنوخ على إرجح الأقوال. وقد ذكر أخنوخ في التوراة في سفر التكوين جدا لنوح. وتقدمت ترجمته في سورة مريم ووصف هنالك بأنه صديق نبي وقد وصفه الله تعالى هنا فليعد في صف الصابرين. والظاهر أن صبره كان على تتبع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب. وقد عدت من صبره قصص ، منها أنه كان يترك الطعام والنوم مدة طويلة لتصفو نفسه للاهتداء إلى الحكمة والعلم.
وأما ذو الكفل فهو نبي اختلف في تعيينه, فقيل هو إلياس المسمى في كتب اليهود إيليا .
وقيل: هو خليفة اليسع في نبوة بني إسرائيل. والظاهر أنه عوبديا الذي له كتاب من كتب أنبياء اليهود وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثنى عشر وتعرف بكتب الأنبياء الصغار.
والكفل بكسر الكاف وسكون الفاء أصله: النصيب من شيء، مشتق من كفل إذ تعهد لقب بهذا لأنه تعهد بأمر بني إسرائيل لليسع. وذلك أن اليسع لما كبر أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل فقال: من يتكفل لي بثلاث أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. فلم يتكفل له بذلك إلا شاب اسمه عوبديا ، وأنه ثبت على ما تكفل به فكان لذلك من أفضل الصابرين. وقد

وعد عوبديا من أنبياء بني إسرائيل على إجمال في خبره انظر سفر الملوك الأول الإصحاح 18. ورؤيا عوبديا صفحة 891 من الكتاب المقدس . وروى العبري عن أبي موسى الأشعري ومجاهد أن ذا الكفل لم يكن نبيا. وتقدمت ترجمة إلياس واليسع في سورة الأنعام.

وجملة)أنهم من الصالحين(تعليل لإدخالهم في الرحمة، وتذييل للكلام يفيد أن تلك سنة الله مع جميع الصالحين.

)وذا النون إذ ذبت مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين[87] فاستتجبنا له ونجيناه من الغم و كذلك ننجي المؤمنين[88](عطف على)وذا الكفل(. وذكر ذي النون في جملة من خصوا بالذكر من الأنبياء لأجل ما قصته من الآيات في الالتجاء إلى الله والندم على ما صدر منه من الجزع واستجابة الله تعالى له.

و)ذو النون(وصف، أي صاحب الحوت. لقب به يونس بن متي عليه السلام وتقدمت ترجمته في سورة الأنعام وتقدمت قصته مع قومه في سورة يونس.

وذهابه مغاضبا قيل خروجه غضبان من قومه أهل نينوى إذ أبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به وهم غاضبون من دعوته، فالمغاضبة مفاعلة. وهذا مقتضى المروي عن ابن عباس. وقيل: إنه أوحى إليه أن العذاب نازل بهم بعد مدة فلما أشرفت المدة على الانقضاء آمنوا فخرج غضبان من عدم تحقق ما أنذرهم به، فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب لأنه غضب غريب. وهذا مقتضى المروي عن ابن مسعود والحسن والشعبي وسعيد بن جبير، وروي عن ابن عباس أيضا واختاره ابن جرير. والوجه أن يكون مغاضبا حالا مرادا بها التشبيه، أي خرج كالمغاضب. وسيأتي هذا المعنى في سورة الصافات.

وقوله تعالى)فظن أن لن نقدر عليه(يقتضي أنه خرج خروجا غير مأذون له فيه من الله. ظن أنه إذا ابتعد عن المدينة المرسل إليها يرسل الله غيره إليهم. وقد روي عن ابن عباس أن حزقيال ملك إسرائيل كان في زمنه خمسة أنبياء منهم يونس، فاختاره الملك ليذهب إلى أهل نينوى لدعوتهم فأبى وقال: هاهنا أنبياء غيري وخرج مغاضبا الملك. وهذا بعيد من القرآن في آيات أخرى ومن كتب بني إسرائيل.

ومحل العبرة من الآية لا يتوقف على تعيين القصة.

ومعنى)فظن أن لن نقدر عليه(قيل نقدر مضارع قدر عليه أمرا بمعنى ضيق كقوله تعالى)الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(وقوله تعالى)ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله(أي ظن أن لن نضيق عليه تحتيم الإقامة مع القوم الذين أرسل إليهم أو تحتيم قيامه بتبليغ الرسالة، وأنه إذا خرج من ذلك المكان سقط تعلق تكليف التبليغ عنه اجتهادا منه، فعوتب بما حل به إذ كان عليه أن يستعلم ربه عما يريد فعله. وفي الكشاف : أن ابن عباس دخل على معاوية فقال له معاوية لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك. فقال: وما هي ? فقرأ معاوية هذه الآية وقال: أو يظن نبي الله أن الله لا يقدر عليه? قال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة يعني التضييق عليه.

وقيل)نقدر(هنا بمعنى نحكم مأخوذ من القدرة، أي ظن أن لن نؤاخذه بخروجه من بين قومه دون إذن. ونقل عن هذا مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وهو رواية عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج. وعلى هذا يكون يونس اجتهد وأخطأ.

وعلى هذا الوجه فالتفريع تفريع خطور هذا الظن في نفسه بعد أن كان الخروج منه بادرة بدافع الغضب من غير تأمل في لوازمه وعواقبه، قالوا: وكان في طبعه ضيق الصدر.

وقيل معنى الكلام على الاستفهام حذفت همزته. والتقدير: أفظن أن لن نقدر عليه? ونسب إلى سليمان بن المعتمر أو أبي المعتمر. قال منذر بن سعيد في تفسيره: وقد قرئ به.

وعندي فيه تأويلان آخران وهما أنه ظن وهو في جوف الحوت أن الله غير مخلصه في بطن الحوت لأنه رأى ذلك مستحيلا عادة، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة، أي ظن بعد أن ابتلعه الحوت.

وأما نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره أو عجلته أو خطأ اجتهاده، ولذلك قال:)إني كنت من الظالمين(مبالغة في اعترافه بظلم نفسه، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف، وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين وهو أدل على أرسخية الوصف، أو أنه ظن بحسب الأسباب المعتادة أنه يهاجر من دار قومه، ولم يظن أن الله يعوقه عن ذلك إذ لم يسبق إليه وحي من الله.

و)إني(مفسرة لفعل)نادى(وتقيمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كل شيء.

والظلمات: جمع ظلمة. والمراد ظلمة الليل، وظلمة قعر البحر. وظلمة بطن الحوت. وقيل: الظلمات مبالغة في شدة الظلمة كقوله

تعالى)يخرجهم من الظلمات إلى النور(وقد تقدم أنا نظن أن الظلمة لم ترد مفردة في القرآن.
والاستجابة: مبالغة في الإجابة. وهي إجابة توبته مما فرط منه. والإنجاء وقع حين الاستجابة إذ الصحيح أنه ما بقى في بطن الحوت إلا ساعة قليلة. وعطف بالواو هنا بخلاف عطف)فكشفنا(على) فاستجبنا(. وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتى خرج الحوت إلى قرب الشاطئ فتقيأه فخرج يسبح إلى الشاطئ.
وهذا الحوت هو من صنف الحوت العظيم الذي يبتلع الأشياء الضخمة ولا يقضمها بأسنانه. وشاع بين الناس تسمية صنف من الحوت بحوت يونس رجما بالغيب.
وجملة)وكذلك ننجي المؤمنين(تذييل. والإشارة ب)كذلك(إلى الإنجاء الذي أنجى به يونس، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غموم يحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة. وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم.

صفحة : 2736

وأعلم أن كلمة)ننجي(كتبت في المصاحف بنون واحد كما كتبت بنون واحد في قوله في سورة يوسف)ننجي من نشاء(ووجه أبو علي هذا الرسم بأن النون الثانية لما كانت ساكنة وكان وقوع الجيم بعدها يقتضي إخفاءها لأن النون الساكنة تخفي مع الأحرف الشجرية وهي الجيم والشين والضاد فلما أخفيت حذفت في النطق فشابه إخفاؤها حالة الإدغام فحذفها كاتب المصحف في الخط لخفاء النطق بها في اللفظ، أي كما حذفوا نون)إن(مع) لا(في نحو)إلا تفعلوه(من حيث إنها تدغم في اللام. وقرأ جمهور القراء بإثبات النونين في النطق فيكون حذف إحدى النونين في الخط مجرد تنبيه على اعتبار من اعتبارات الأداء. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بنون واحدة وبتشديد الجيم على اعتبار إدغام النون في الجيم كما تدغم في اللام والراء. وأنكر ذلك عليها أبو حاتم والزجاج وقالا: هو لحن. ووجه أبو عبيد والفراء وثعلب وقراءتها بأن)ننجي(سكنت ياؤه ولم تحرك على لغة من يقول بقي ورضي فيسكن الياء كما في قراءة الحسن)وذروا ما بقي من الربا(بتسكين ياء)بقي(. وعن أبي عبيد والقتبي أن النون الثانية أدغمت في الجيم.

ووجه ابن جني متابعا للأخفش الصغير بأن أصل هذه القراءة: ننجي بفتح النون الثانية وتشديد الجيم فحذفت النون الثانية لتوالي المثلين فصار نجي. وعن بعض النحاة تأويل هذه القراءة بأن نجي فعل مضي مبني للنائب وأن نائب الفاعل ضمير يعود إلى النجاء المأخوذ من الفعل، أو المأخوذ من اسم الإشارة في قوله)وكذلك(.
وانتصب)المؤمنين(على المفعول به على رأي من يجوز إنابة المصدر مع وجود المفعول به. كما في قراءة أبي جعفر)ليجزى(بفتح الزاي قوما بما كانوا يكسبون بتقدير ليجزى الجزاء قوما. وقال الزمخشري في الكشاف: إن هذا التوجيه بارد التعسف.
)وزكريا إذ نادى رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين[89] فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه(كان أمر زكريا الذي أشار إليه قوله)إذ نادى ربه(آية من آيات الله في عنايته بأوليائه المنقطعين لعبادته فخص بالذكر لذلك. والقول في عطف)وزكريا(كالقول في نظائره السابقة.
وجملة)رب لا تذرني فردا(مبينة لجملة)نادى ربه(. وأطلق الفرد على من لا ولد له تشبيها له بالمنفرد الذي لا قرين له. قال تعالى)وكلهم آتيه يوم القيامة فردا(، ويقال مثله الواحد للذي لا رفيق له، قال الحارث بن هشام:

وعلمت أني إن أقاتـل واحـدا أقتل

ولا يضرر عدوي مشهدي فشبه من لا ولد بالمفرد لأن الولد يصير أباه كالشفع لأنه كجزء منه. ولا يقال لذي الولد زوج ولا شفع.
وجملة)وأنت خير الوارثين(ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحق فاقض علي من صفتك العلية شيئا. وقد شاع في الكتاب والسنة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، كما قال أيوب)وأنت أرحم الراحمين(، ودل ذكر ذلك على أنه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في آية سورة مريم)يرثني ويرث من آل يعقوب(حذفت هاته الجملة لدلالة المحكي هنا عليها.
والتقدير: يرثني الإرث الذي لا يداني إرثك عبادك، أي بقاء ما تركوه في الدنيا لتصرف قدرتك، أو يرثني مالي وعلمي وأنت ترث نفسي كلها بالمصير إليك مصيرا أبديا فأرثك خير إرث لأنه أشمل وأبقى وأنت خير الوارثين في تحقق هذا الوصف.
وإصلاح زوجه: جعلها صالحة للحمل بعد أن كانت عاقرا وتقدم ذكر زكريا في سورة آل عمران وذكر زوجه في سورة مريم)إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين[90](جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدمة في الثناء على الأنبياء المذكورين، وما أوتوه من النصر، واستجابة الدعوات، والإنجاء من كيد الأعداء، وما تبع ذلك، ابتداء من قوله تعالى)ولقد آتينا

موسى وهارون الفرقان وضياء(. فضمائر الجمع عائدة إلى المذكورين. وحرف التأكيد مفيد معنى التعليل والتسبب، أي ما استحقوا ما أوتوه إلا لمبادرتهم إلى مسالك الخير وجدهم في تحصيلها.
وأفاد فعل الكون أن ذلك كان دأبهم وهجيراهم.

صفحة : 2737

والمسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمة والحد للخيرات، أي لفعلها، تشبيها للمداومة والاهتمام بمسارعة السائر إلى المكان المقصود الجاد في مسالكه.
والخيرات: جمع خير بفتح الخاء وسكون الياء وهو جمع بالألف والتاء على خلاف القياس فهو مثل سرادقات وحمامات واصطبلات. والخير ضد الشر، فهو ما فيه نفع. وأما قوله تعالى)فيهن خيرات حسان(فيحتمل أنه مثل هذا، ويحتمل أنه جمع خيرة بفتح فسكون الذي هو مخفف خيرة المشدد الياء، وهي المرأة ذات الأخلاق الخيرية. وقد تقدم الكلام على)الخيرات(في قوله تعالى)وأولئك لهم الخيرات(في سورة براءة، وعطف على ذلك أنهم يدعون الله رغبة في ثوابه ورهبة من غضبه، كقوله تعالى)يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه(.
والرغب والرهب بفتح ثانيهما مصدران من رغب ورهب. وهما وصف لمصدر يدعوننا لبيان نوع الدعاء بما هو أعم في جنسه، أو يقدر مضاف، أي ذوي رغب ورهب، فأقيم المضاف إليه مقامه فأخذ إعرابه.
وذكر فعل الكون في قوله تعالى)وكانوا لنا خاشعين (مثل ذكره في قوله تعالى)كانوا يسارعون(.
والخشوع: خوف القلب بالتفكر دون اضطراب الأعضاء الظاهرة.
)والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين[91](لما انتهى التنويه بفضل رجال من الأنبياء أعقب بالثناء على امرأة نبيه إشارة إلى أن أسباب الفضل غير محجورة، كما قال الله تعالى)إن المسلمين والمسلمات(الآية. هذه هي مريم ابنة عمران. وعبر عنها بالموصول دلالة على أنها قد اشتهرت بمضمون الصلة كما هو شأن طريق الموصوليه غالبا، وأيضا لما في الصلة من معنى تسفيه اليهود الذين تقولوا عنها إفكا وزورا، وليبنى على تلك الصلة ما تفرع عليها من قوله تعالى)فنفخنا فيها من روحنا(الذي هو في حكم الصلة أيضا، فكأنه قيل: والتي نفخنا فيها

من روحنا، لأن كلا الأمرين موجب ثناء. وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنة البشرية لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر، ليرى الناس مثالا من التكوين الأول كما أشار إليه قوله تعالى)إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون(.

والنفخ، حقيقته: إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين. وأطلق هنا تمثيلا لإلقاء روح التكوين للنسل في رحم المرأة دفعة واحدة بدون الوسائل المعتادة تشبيها لهيئة التكوين السريع بهيئة النفخ. وقد قيل: إن الملك نفخ مما هو له كالفم.

والظرفية المفادة ب)في(كون مريم ظرفا لحلول الروح المنفوخ فيها إذ كانت وعاءه، ولذلك قيل)فيها(ولم قيل)فيه(للإشارة إلى أن الحمل الذي كون في رحمها حمل من غير الطريق المعتاد، كأنه قيل: فنفخنا في بطنها. وذلك أعرق في مخالفة العادة لأن خرق العادة تقوى دلالته بمقدار ما يضمحل فيه من الوسائل المعتادة.

والروح: هو القوة التي بها الحياة قال تعالى)فإذا سويته ونفخت فيه من روحي(، أي جعلت آدم روحا فصار حيا. وحرف) من(تبعيضي، والمنفوخ روح لأنه جعل بعض روح الله، أي بعض جنس الروح الذي به يجعل الله الأجسام ذات حياة.

وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف لأنه روح مبعوث من لدن الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي.

وجعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما قال في سورة المؤمنين)وجعلنا ابن مريم وأمه آية(. وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو)والليل إذا يغشى( ) والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها(.

وإفراد الآية لأنه أريد بها الجنس. وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنهما آية علم أن كل واحد آية خاصة. ومن لطائف هذا الإفراد أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة. ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل.

)إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[92]( )إن(مكسورة الهمزة عند جميع القراء. فهي ابتداء كلام. واتفقت القراءات المشهورة على رفع)أمتكم(. والأظهر أن الجملة محكية بقول محذوف يدل عليه السياق. وحذف القول في مثله شائع في القرآن.

والخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم إن هذه أمتكم إلى آخره. والمقول محكي بالمعنى، أي قائلين لكل واحد من رسلنا وأنبيائنا المذكورين ما تضمنته جملة)إن هذه أمتكم(.

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع. وهي طريقة شائعة في الإخبار عن الجماعات. ومنه قولهم: ركب القوم دوابهم، فتكون هذه الآية جارية على أسلوب نظيرها في سورة المؤمنين. وفيه ما يزيد هذه توضيحا فإنه ورد هنالك ذكر عدة من الأنبياء تفصيلا وإجمالا، كما ذكروا في هذه السورة، ثم عقب بقوله تعالى)يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم( )وأن(بفتح الهمزة وبكسرها)هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون(، فظاهر العطف يقتضي دخول قوله تعالى)و إن هذه أمتكم أمة واحدة(في الكلام المخاطب به الرسل، والتأكيد على هذا الوجه لمجرد الاهتمام بالخبر ليتلقاه الأنبياء بقوة عزم، أو روعي فيه حال الأمم الذين يبلغهم ذلك لأن الإخبار باتحاد الحال المختلفة غريب قد يثير ترددا في المراد منه فقد يحمل على المجاز فأكد برفع ذلك. وهو وإن كان خطابا للرسل فإن مما يقصد منه تبليغ ذلك لأتباعهم ليعلموا أن دين الله واحد، وذلك عون على قبول كل أمة لما جاء به رسولها لأنه معضود بشهادة من قبله من الرسل.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافا والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أي أن هذه الملة، وهي الإسلام، هي ملة واحدة لسائر الرسل. أي أصولها واحدة كقوله تعالى)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا(الآية. والتأكيد على هذا لرد إنكار من ينكر ذلك مثل المشركين.

والإشارة بقوله تعالى)هذه(إلى ما يفسره الخبر في قوله تعالى) أمتكم(كقوله تعالى)قال هذا فراق بيني وبينك(. فالإشارة إلى الحالة التي هم عليها يعني في أمور الدين كما هو شأن حال الأنبياء والرسل. فما أفادته الإشارة من التمييز للمشار إليه مقصود منه جميع ما عليه الرسل من أصول الشرائع وهو التوحيد والعمل الصالح.

والأمة هنا بمعنى الملة كقوله تعالى)قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(وقال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل

يأثمن ذو أمة وهو طائع وأصل الأمة: الجماعة التي حالها واحد، فأطلقت على ما تكون عليه الجماعة من الدين بقرينة أن الأمم ليست واحدة.

و)أمة واحدة(حال من)أمتكم(مؤكدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم.
ومعنى كونها واحدة أنها توحد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعا وإن كان يجمعها وصف الشرك فلذلك جنس عام وقد أومأ إلى هذا قوله تعالى)وأنا ربكم(، أي لا غيري. وسيأتي بسط القول في عربية هذا التركيب في تفسير سورة المؤمنين.
وأفاد قوله تعالى)وأنا ربكم(الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على)أمة واحدة(، إذ المعنى: وأنا ربكم ربا واحدا، ولذلك فرع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعي فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.
)وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون[93](عطف على جملة) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون(أي أعرضوا عن قولنا و)تقطعوا(وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل. فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى)إن هذه أمتكم أمة واحدة(يكون الكلام انتقالا من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتا.

صفحة : 2739

ثم يجوز أن تكون الواو عاطفة قصة على قصة لمناسبة واضحة كما عطف نظيرها بالفاء في سورة المؤمنين. ويجوز كونها للحال، أي أمرنا الرسل بملة الإسلام، وهي الملة الواحدة، فكان من ضلال المشركين أن تقطعوا أمرهم وخالفوا الرسل وعدلوا عن دين التوحيد وهو شريعة إبراهيم أصلهم. ويؤيد هذا الوجه أن نظير هذه الآية في سورة المؤمنين جاء فيه العطف بفاء التفريع.

والتقطع: مطاوع قطع، أي تفرقوا. وأسند التقطع إليهم لأنهم جعلوا أنفسهم فرقا فعبدوا آلهة متعددة واتخذت كل قبيلة لنفسها إلها من الأصنام مع الله، فشبه فعلهم ذلك بالتقطع.

وفي جمهرة الأنساب لابن حزم: كان الحصين بن عبيد الخزاعي، وهو والد عمران بن حصين لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله: يا حصين ما تعبد؟ قال: عشرة آلهة، قال: ما هم وأين هم؟ قال: تسعة في الأرض وواحد في السماء، قال: فمن لحاجتك؟ قال: الذي في السماء، قال: فمن لطلبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: فمن لكذا؟ فمن لكذا؟ كل ذلك يقول: الذي في السماء، قال رسول الله: فألغ التسعة. وفي كتاب الدعوات من سنن الترمذي أنه قال: سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء .

والأمر: الحال. والمراد به الدين كما دل عليه قوله تعالى)إن الذين فرقوا دينهم(في سورة الأنعام.

ولما ضمن)تقطعوا(معنى توزعوا عدي إلى)دينهم(فنصبه. والأصل: تقطعوا في دينهم وتوزعوه.

وزيادة)بينهم(لإفادة أنهم تعاونوا وتظاهروا على تقطع أمرهم. قرب قبيلة اتخذت صنما لم تكن تعبده قبيلة أخرى ثم سولوا لجيرتهم وأحلافهم أن يعبدوه فألحقوه بآلهتهم. وهكذا حتى كان في الكعبة عدة أصنام وتماثيل لأن الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب. وقد روي أن عمرو بن لحي الملقب بخزاعة هو الذي نقل الأصنام إلى العرب.

وجملة)كل إلينا راجعون(مستأنفة استئنافا بيانيا لجواب سؤال يجيش في نفس سامع قوله تعالى)وتقطعوا أمرهم(وهو معرفة عاقبة هذا التقطع.

وتنوين)كل(عوض عن المضاف إليه، أي كلهم، أي أصحاب ضمائر الغيبة وهم المشركون. والكلام يفيد تعريضا بالتهديد.

ودل على ذلك التفريع في قوله تعالى)فمن يعمل من الصالحات(إلى آخره.

)فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون[94](فرع على الوعيد المعرض به في قوله تعالى) كل إلينا راجعون(تفريع بديع من بيان صفة ما توعدوا به، وذلك من قوله تعالى)فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا(الآيات.

وقدم وعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماما به، ولوقوعه عقب الوعيد تعجيلا لمسرة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد، فليس هو مقصودا من التفريع، ولكنه يشبه الاستطراد تنويها بالمؤمنين كما سيعتنى بهم عقب تفصيل وعيد الكافرين بقوله تعالى

)إن الذين سبقت لهم من الحسنى أولئك عنها مبعدون(إلى آخر السورة.
والكفران مصدر أصله: عدم الاعتراف بالإحسان، ضد الشكران واستعمل هنا في حرمان الجزاء على العمل الصالح على طريقة المجاز لأن الاعتراف بالخير يستلزم الجزاء عليه عرفا كقوله تعالى)وما تفعلوا من خير فلن تكفروه(. فالمعنى: أنهم يعطون جزاء أعمالهم الصالحة.
وأكد ذلك بقوله)وإنا له كاتبون(مؤكدا بحرف التأكيد للاهتمام به.
والكتابة كناية عن تحققه وعدم إضاعته لأن الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة. وهذا لزوم عرفي قال الحارث بن حلزة:
وهل ينقض ما في المهارق الأهواء وذلك مع كون الكتابة مستعملة في معناها الأصلي كما جاءت بذلك الظاهر من الكتاب والسنة.
)وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون[95](جملة معترضة، والمراد بالقرية أهلها. وهذا يعم كل قرية من قرى الكفر، كما قال تعالى:)تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا(.
والحرام: الشيء الممنوع، قال عنتره:
حرمت علي وليتها لم تحرم أي منعت أي منعها أهلها.

أي ممنوع على قرية قدرنا إهلاكها أن لا يرجعوا، ف)حرام(خبر مقدم و)أنهم لا يرجعون(في قوة مصدر مبتدأ. والخبر عن) أن(وصلتها لا يكون إلا مقدما، كما ذكره ابن الحاجب في أماليه في ذكر هذه الآية.

صفحة : 2740

وفعل)أهلكناها(مستعمل في إرادة وقوع الفعل، أي أردنا إهلاكها.
والرجوع: العود إلى ما كان فيه المرء؛ فيحتمل أن المراد رجوعهم عن الكفر فيتعين أن تكون)لا(في قوله تعالى)لا يرجعون(زائدة للتوكيد، لأن)حرام(في معنى النفي و)لا(نافية ونفي النفي إثبات، فيصير المعنى منع عدم رجوعهم إلى الإيمان، فيؤول إلى أنهم راجعون إلى الإيمان، وليس هذا بمراد. فتعين أن المعنى: منع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنه قد سبق تقدير هلاكها. وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى

الإيمان وتهديدهم بالهلاك. وهؤلاء هم الذين قدر الله هلاكهم يوم بدر بسيوف المؤمنين.

ويجوز أن يراد رجوعهم إلى الآخرة بالبعث، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى)كل إلينا راجعون(فتكون)لا(نافية. والمعنى: ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي دعواهم باطلة، أي فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضده، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنه إثبات بطريق الملازمة فكأنه إثبات الشيء بحجة. ويفيد تأكيدا لقوله تعالى)كل إلينا راجعون(.

وجملة)أهلكناها(إدماج للوعيد بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

وفعل)أهلكناها(مستعمل في أصل معناه، أي وقع إهلاكنا إياها. والمعنى: ما من قرية أهلكناها فانقرضت من الدنيا إلا وهم راجعون إلينا بالبعث. وقيل)حرام(اسم مشترك بين الممنوع والواجب. وأنشدوا قول الخنساء:

وإن حراما لا أرى الدهر باكـيا على شجوة إلا بكيت على صخر وفي كتاب لسان العرب في حديث عمر: في الحرام كفارة يمين: هو أن يقول الرجل: حرام الله لا أفعل، كما يقول: يمين الله لا أفعل، وهي لغة العقيليين آه. ورأيت في مجموعة أدبية عتيقة من كتب جامع الزيتونة عددها 4561 : أن بني عقيل يقولون حرام الله لآتينك كما يقال يمين الله لآتينك آه. وهو يشرح كلام لسان العرب بأن هذا اليمين لا يختص بالحلف على النفي كما في مثال لسان العرب.

فيتأتى على هذا وجه ثالث في تفسير قوله تعالى)حرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون(أي ويمين منا على قرية، فحرف) على(داخل على المسلطة عليه اليمين، كما تقول: عزمت عليك، وكما يقال: حلفت على فلان أن لا ينطق. كقول الراعي:

أني حلفت على يمين برة لا أكتم اليوم الخليفة قيلا وفتح همزة)أن(في اليمين أحد وجهين فيها في سياق القسم.

ومعنى)لا يرجعون(على هذا الوجه لا يرجعون إلى الإيمان لأن الله علم ذلك منهم فقدر إهلاكهم.

وقرأ الجمهور)وحرام(بفتح الحاء وبألف بعد الراء . وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم)وحرم(بكسر الحاء وسكون الراء ، وهو اسم بمعنى حرام. والكلمة مكتوبة في المصحف بدون ألف ومروية في روايات القراء بوجهين، وحذف الألف المشبعة من الفتحة كثير في المصاحف.

)حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون[96] واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين[97](

صفحة : 2741

)حتى(ابتدائية. والجملة بعدها كلام مستأنف لا محل له من الإعراب ولكن)حتى(تكسبه ارتباطا بالكلام الذي قبله. وظاهر كلام الزمخشري: أن معنى الغاية لا يفارق)متى(حين تكون للابتداء، ولذلك عني هو ومن تبعه من المفسرين بتطلب المغيا بها هاهنا فجعلها في الكشاف غاية لقوله)وحرام(فقال:)حتى(متعلقة ب)حرام(وهي غاية له لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة(آه. أي فهو من تعليق الحكم على أمر لا يقع كقوله تعالى) ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط(. ويتركب على كلامه الوجهان اللذان تقدما في معنى الرجوع من قوله تعالى)أنهم لا يرجعون(، أي لا يرجعون عن كفرهم حتى ينقضي العالم، أو انتفاء رجوعهم إلينا في اعتقادهم يزول عند انقضاء الدنيا. فيكون المقصود الإخبار عن دوام كفرهم على كلا الوجهين. وعلى هذا التفسير ففتح ياجوج وماجوج هو فتح السد الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف.

وتوقيت وعد الساعة بخروج ياجوج وماجوج أن خروجهم أول علامات اقتراب القيامة.

وقد عده المفسرون من الأشراط الصغرى لقيام الساعة.

وفسر اقتراب الوعد باقتراب القيامة. وسميت وعدا لأن البعث سماه الله وعدا في قوله تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين(.

وعلى هذا أيضا جعلوا ضمير)وهم من كل حدب ينسلون(عائد إلى)ياجوج وماجوج(فالجملة حال من قوله)ياجوج وماجوج(.

وبناء على هذا التفسير تكون هذه الآية وصفت انتشار ياجوج وماجوج وصفا بديعا قبل خروجهم بخمسة قرون فعددنا هذه الآية من معجزات القرآن العلمية والغيبية. ولعل تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات قرب الساعة قصد منه مع التوقيت إدماج الإنذار للعرب المخاطبين ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيرا لذرياتهم من كوارث ظهور هذين الفريقين فقد كان زوال ملك العرب العتيد وتدهور حضارتهم وقوتهم على أيدي ياجوج وماجوج وهم المغول والتتار كما بين ذلك الإنذار النبوي في ساعة من

ساعات الوحي. فقد روت زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها.

والاقتراب على هذا اقتراب نسبي على نسبة ما بقي من أجل الدنيا بما مضى منه كقوله تعالى)اقتربت الساعة وانشق القمر(.

ويجوز أن يكون المراد بفتح ياجوج وماجوج تمثيل إخراج الأموات إلى الحشر، فالفتح معنى الشق كقوله تعالى)يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير(ويكون اسم ياجوج وماجوج تشبيها بليغا. وتخصيصهما بالذكر لشهرة كثرة عددهما عند العرب من خبر ذي القرنين. ويدل لهذا حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله لآدم يوم القيامة أخرج بعث النار، فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول الله: من كل ألف تسعمائة وتسعه وتسعون. قالوا: يا رسول الله: وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا، فإن منكم رجلا ومن يأجوج وماجوج تسعمائة وتسعه وتسعين .

أو يكون اسم يأجوج ومأجوج استعمل مثلا للكثرة كما في قول ذي الرمة:

لو أن ياجوج وماجوج معا وعاد عاد

واستجاشوا تبعا أي حتى إذا أخرجت الأموات كيأجوج ومأجوج على نحو قوله تعالى)يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر(، فيكون تشبيها بليغا من تشبيه المعقول بالمعقول. ويؤيده قراءة ابن عباس وابن مسعود ومجاهد،)جدث(بجيم ومثلثة، أي من كل قبر في معنى قوله تعالى)وإذا القبور بعثرت(فيكون ضميرا)وهم من كل حدب ينسلون(عائدين إلى مفهوم من المقام دلت عليه قرينة الرجوع من قوله تعالى)لا يرجعون(أي أهل كل قرية أهلكناها.

والاقتراب، على هذا الوجه: القرب الشديد وهو المشارفة، أي اقترب الوعد الذي وعده المشركون، وهو العذاب بأن رأوا النار والحساب.

وعلامة التأنيث في فعل)فتحت(لتأويل ياجوج وماجوج بالأمة. ثم يقدر المضاف وهو سد فيكتسب التأنيث من المضاف إليه.

وياجوج وماجوج هم قبيلتان من أمة واحدة مثل طسم وجديس.

وإسناد فعل)فتحت(إلى)ياجوج وماجوج(بتقدير مضاف، أي فتح ردمهما أو سدهما. وفعل الفتح قرينة على المفعول.

وقرأ الجمهور)فتحت(بتخفيف التاء الفوقية التي بعد الفاء. وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتشديدهما.
وتقدم الكلام على ياجوج وماجوج في سورة الكهف.
والحدب: النشز من الأرض، وهو ما ارتفع منها.
و)ينسلون(يمشون النسلان بفتحتين وفعله من باب ضرب، وأصله: مشي الذئب. والمراد: المشي السريع. وإيثار التعبير به هنا من نكث القرآن الغيبية، لأن ياجوج وماجوج لما انتشروا في الأرض انتشروا كالذئاب جياعا مفسدين.
هذا حاصل ما تفرق من كلام المفسرين وما فرضوه من الوجوه، وهي تدور حول محور التزام أن)حتى(الابتدائية تفيد أن ما بعدها غاية لما قبلها مع تقدير مفعول)فتحت(بأنه سد ياجوج وماجوج. ومع حمل ياجوج وماجوج على حقيقة مدلول الاسم، وذلك ما زج بهم في مضيق تعاصى عليهم فيه تبيين انتظام الكلام فألجئوا إلى تعيين المغيا وإلى تعيين غاية مناسبة له ولهاته المحامل كما علمت مما سبق.
ولا أرى متابعتهم في الأمور الثلاثة.
فأما دلالة)حتى(الابتدائية على معنى الغاية، أي كون ما بعدها غاية لمضمون ما قبلها، فلا أراه لازما. ولأمر ما فرق العرب بين استعمالها جارة وعاطفة وبين استعمالها ابتدائية، أليس قد صرح النحاة بأن الابتدائية يكون الكلام بعدها جملة مستأنفة تصريحا جرى مجرى الصواب على ألسنتهم فما رعوه حق رعايته فإن معنى الغاية في)حتى(الجارة وهي الأصل في استعمال هذا الحرف ظاهر لأنها بمعنى)إلى(. وفي)حتى(العاطفة لأنها تفيد التشريك في الحكم فتعين أن يكون المعطوف بها نهاية للمعطوف عليه في المعنى المراد.
فأما)حتى(الابتدائية فإن وجود معنى الغاية معها في مواقعها غير منضبط ولا مطرد، ولما كان ما بعدها كلاما مستقلا تعين أن يكون وجودها بين الكلامين لمجرد الربط بين الكلامين فقد نقلت من معنى تنهية مدلول ما قبلها بما بعدها إلى الدلالة على تنهية المتكلم غرض كلامه بما يورده بعد)حتى(ولا يقصد تنهية مدلول ما قبل) حتى(بما عند حصول ما بعدها)الذي هو المعنى الأصل للغاية(. وانظر إلى استعمال)حتى(في مواقع من معلقة لبيد.
وفي قوله تعالى)وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله(فإن قول الرسول ليس غاية للزلزلة ولكنه ناشئ عنها. وقد مثلت حالة الكافرين في ذلك الحين بأبلغ تمثيل وأشده وقعا في نفس السامع، إذ جعلت مفرعة على فتح ياجوج وماجوج

واقتراب الوعد الحق للإشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم ثم بتصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة الذي يفيد الحصول دفعة بلا تدرج ولا مهلة، ثم بالإتيان بضمير القصة ليحصل للسامع علم مجمل يفصله ما يفسر ضمير القصة فقال تعالى)فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا(إلى آخره.

والشخوص: إحداد البصر دون تحرك كما يقع للمبهوت.

وجملة)يا ويلنا(مقول قول محذوف كما هو ظاهر، أي يقولون حينئذ: يا ويلنا.

ودلت)في(على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف، أي كانت لنا غفلة عظيمة، وهي غفلة الإعراض عن أدلة الجزاء والبعث.

و)يا ويلنا(دعاء على أنفسهم من شدة ما لحقهم.

و)بل(للإضراب الإبطالي، أي ما كنا في غفلة لأننا قد دعينا وأنذرنا وإنما كنا ظالمين أنفسنا بمكابرتنا وإعراضنا.

والمشار إليه ب)هذا هو مجموع تلك الأحوال من الحشر والحساب والجزاء.

)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون[98] لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون[99] لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون[100](جملة)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(جواب عن قولهم)يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا(إلى آخره. فهي مقول قول محذوف على طريقة المحاورات. فالتقدير: يقال لهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم.

وهو ارتقاء في ثبورهم فهم قالوا)يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا(فأخبروا بأن آلهتهم وهم أعز عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان، ولذلك أكد الخبر بحرف التأكيد لأنهم كانوا بحيث ينكرون ذلك.

صفحة : 2743

و)ما(موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل. وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تعليبا، على أن)ما(تستعمل فيما هو أعم من العاقل وغيره استعمالا كثيرا في كلام العرب.

وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد كما دلت عليه الإشارة)لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها(.

والحصب: اسم بمعنى المحصوب به. أي المرمي به. ومنه سميت الحصباء لأنها حجارة يرمى بها، أي يرمون في جهنم، كما قال تعالى)وقودها الناس والحجارة(. أي الكفار وأصنامهم.

وجملة)أنتم لها واردون(بيان لجملة)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(. والمقصود منه: تقريب الحصب بهم في جهنم لما يدل عليه قوله)واردون(من الاتصاف بورود النار في الحال كما هو شأن الخبر باسم الفاعل فإنه حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال.

وقد زيد في نكايتهم بإظهار خطئهم في عبادتهم تلك الأصنام بأن أشهدوا إيرادها النار وقيل لهم:)لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها(.

وذيل ذلك بقوله تعالى)وكل فيها خالدون(أي هم وأصنامهم.

والزفير: النفس يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثر بالغم. وهو هنا من أحوال المشركين دون الأصنام. وقرينة معاد الضمائر واضحة.

وعطف جملة)وهم فيها لا يسمعون(اقتضاه قوله)لهم فيها زفير(لأن شأن الزفير أن يسمع فأخبر الله بأنهم من شدة العذاب يفقدون السمع بهذه المناسبة.

فالآية واضحة السياق في المقصود منها غنية عن التلفيق.

وقد روى ابن إسحاق في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد الحرام فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في مجلس من رجال قريش، فتلا رسول الله عليهم)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون(ثم قال رسول الله وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي قبل أن يسلم فحدثه الوليد بن المغيرة بما جرى في ذلك المجلس فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبدوهم؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فحكي ذلك لرسول الله، فقال رسول الله: إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيطان الذي أمرهم بعبادتهم، فأنزل الله)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون(اه.

وقريب من هذا في أسباب النزول للواحدي، وفي الكشاف مع زيادات أن ابن الزبعرى لقي النبي صلى الله عليه وسلم فذكر هذا وزاد فقال: خصمت ورب هذه البنية ألست تزعم أن الملائكة عباد مكرمون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرا عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون المسيح، وهذه اليهود يعبدون عزيرا، فضج أهل مكة أي فرحا وقالوا: إن محمدا قد خصم. ورويت القصة في بعض كتب العربية وأن النبي صلى الله

عليه وسلم قال لابن الزبعري: ما أجهلك بلغة قومك إني قلت)وما تعبدون(، و)ما(لما لا يعقل ولم أقل)ومن تعبدون(.
وأن الآية حكت ما يجري يوم الحشر وليس سياقها إنذارا للمشركين حتى يكون قوله)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى(تخصيصا لها، أو تكون القصة سببا لنزوله.
)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون[101] لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون[102] لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون[103](جملة)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى(مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولما كان فريق القرية هم المشركين فالفريق المقابل له هم المؤمنون. ولا علاقة لهذه الجملة بجملة) إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(ولا هي مخصصة لعموم قوله تعالى)وما تعبدون من دون الله(بل قوله تعالى)الذين سبقت لهم منا الحسنى(عام يعم كل مؤمن مات على الإيمان والعمل الصالح.

صفحة : 2744

والسبق، حقيقته: تجاوز الغير في السير إلى مكان معين. ومنه سباق الخيل. واستعمل هنا مجازا في ثبوت الأمن في الماضي، يقال كان هذا في العصور السابقة، أي التي مضت أزمانها لما بين السبق وبين التقدم في الملازمة، أي الذين حصلت لهم الحسنى في الدنيا، أي حصل لهم الإيمان والعمل الصالح من الله، أي بتوفيقه وتقديره، كما حصل الإهلاك لأضدادهم بما قدر لهم من الخذلان.
والحسنى: الحالة الحسنة في الدين، قال تعالى)للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(أو الموعدة الحسنى، أي تقرر وعد الله إياهم بالمعاملة الحسنى. وتقدم في سورة يونس.
وذكر الموصول في تعريفهم لأن الموصول للإيماء إلى أن سبب فوزهم هو سبق تقدير الهداية لهم. وذكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله.

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تشبه بالبعد.
وجملة)لا يسمعون حسيسها(بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ منه المرئي.
والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.
وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدل على العموم وهو)فيما اشتهت أنفسهم(وما يدل على الدوام وهو)خالدون(.
والشهوة: تشوق النفس إلى ما يلذ لها.
وجملة)لا يحزنهم الفزع(خبر ثان عن الموصول.
والفزع: نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع، والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم.
وذلك مفاد قوله تعالى)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(فهؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى)ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله(.
والتلقي: التعرض للشيء عند حلوله تعرض كرامة. والصيغة تشعر بتكلف لقائه وهو تكلف تهيؤ واستعداد.
وجملة)هذا يومكم الذي كنتم توعدون(مقول لقول محذوف، أي يقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون، تذكيرا لهم بما وعدوا في الدنيا من الثواب، لئلا يحسبوا أن الموعود به يقع في يوم آخر. أي هذا يوم تعجيل وعدكم. والإشارة باسم إشارة القريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنه اليوم الحاضر.
وإضافة)يوم(إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه كقول جرير:
يا أيها الراكب المزجي مطيته هذا زمانك إني قد خلا زمني أي هذا الزمن المختص بك، أي لتتصرف فيه.
)يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين[104](جملة مستأنفة قصد منها إعادة ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانه إبطالا لإحالة المشركين

وقوعه بعلة أن الأجساد التي يدعى بعثها قد انتابها الفناء العظيم)و قالوا أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد(.
والمناسبة في هذا الانتقال هو ما جرى من ذكر الحشر والعقاب والثواب من قوله تعالى)لهم فيها زفير(وقوله تعالى)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى(الآية.
وقد رتب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة. وأصل الجملة: نعيد الخلق كما بدأنا أول خلق يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب وعدا علينا. فحول النظم فقدم الظرف بادئ ذي بدء للتشويق إلى متعلقه، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباق إذ جعل ابتداء خلق جديد وهو البعث مؤقتا بوقت نقض خلق قديم وهو طي السماء.
وقدم)كما بدأنا أول خلق(وهو حال من الضمير المنصوب في) نعيده(للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس فضل تمكن. وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث، فليس قوله) يوم نطوي السماء(متعلقا بما قبله من قوله تعالى)وتتلقاهم الملائكة(.

صفحة : 2745

وعقب ذلك بما يفيد تحقيق حصول البعث من كونه وعدا على الله بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فعدي بحرف)على(في قوله تعالى)وعدا علينا(أي حقا واجبا.
وجملة)إنا كنا فاعلين(مؤكدة بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر قدرة الله لأنهم لما نفوا البعث بعلة تعذر إعادة الأجسام بعد فنائها فقد لزمهم إحالتهم ذلك في جانب قدرة الله.
والمراد بقوله)فاعلين(أنه الفاعل لما وعد به، أي القادر. والمعنى: إنا كنا قادرين على ذلك.
وفي ذكر فعل الكون إفادة أن قدرته قد تحققت بما دل عليه دليل قوله)كما بدأنا أول خلق نعيده(.
والطي: رد بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر، وضده النشر.
والسجل: بكسر السين وكسر الجيم هنا، وفيه لغات. يطلق على الورقة التي يكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة، ولعله تسمية على تقدير مضاف محذوف، أي صاحب السجل، وقيل سجل: اسم ملك في السماء ترفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها.

ولا يحسن حمله هنا على معنى الصحيفة لأنه لا يلائم إضافة الطي إليه ولا إرادفه لقوله)للكتاب(أو)للكتب(، ولا حمله على معنى الملك الموكل بصحائف الأعمال لأنه لم يكن مشهورا فكيف يشبه بفعله. فالوجه: أن يراد بالسجل الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق.

وقرأ الجمهور)للكتاب(بصيغة الإفراد. وقرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف)للكتب(بضم الكاف وضم التاء بصيغة الجمع. ولما كان تعريف السجل وتعريف الكتاب تعريف جنس استوى في المعرف الإفراد والجمع. فأما قراءتهما بصيغة الإفراد ففيها محسن مراعاة النظير في الصيغة، وأما قراءة الكتب بصيغة الجمع مع كون السجل مفردا ففيها حسن التفنن بالتضاد.

ورسمها في المصحف بدون ألف يحتمل القراءتين لأن الألف قد يحذف في مثله.

واللام في قوله)للكتاب(لتقوية العامل فهي داخلة على مفعول) طي(.

ومعنى طي السماء تغيير أجرامها من موقع إلى موقع أو اقتراب بعضها من بعض كما تتغير أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليكتب الكاتب في إحدى صفحتيها. وهذا مظهر من مظاهر انقراض النظام الحالي، وهو انقراض له أحوال كثيرة وصف بعضها في سور من القرآن.

وليس في الآية دليل على اضمحلال السماوات بل على اختلال نظامها، وفي سورة الزمر)والسماوات مطويات بيمينه(. ومسألة دثور السماوات)أي اضمحلالها(فرضها الحكماء المتقدمون ومال إلى القول باضمحلالها في آخر الأمر انكسمائس الملطي و فيثاغورس و أفلاطون .

وقرأ الجمهور)نطوي(بنون العظمة وكسر الواو ونصب)السماء(. وقرأه أبو جعفر بضم تاء مضارعة المؤنث وفتح الواو مبنيا للنائب وبرفع)السماء(.

والبدء: الفعل الذي لم يسبق مماثله بالنسبة إلى فاعل أو إلى زمان أو نحو ذلك. وبدء الخلق كونه لم يكن قبل، أي كما جعلنا خلقا مبدوءا غير مسبوق في نوعه.

و خلق: مصدر بمعنى المفعول.

ومعنى إعادة الخلق إعادة مماثلة في صورته فإن الخلق أي المخلوق اعتبار أنه فرد من جنس إذا اضمحل فقيل فإنما يعاد مثله لأن الأجناس لا تحقق لها في الخارج إلا في ضمن أفرادها كما قال تعالى)سنعيدها سيرتها الأولى(أي مثل سيرتها في جنسها، أي في أنها عصا من العصي.

وظاهر ما أفاده الكاف من التشبيه في قوله تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(أن إعادة خلق الأجسام شبهت بابتداء خلقها. ووجه الشبه هو إمكان كليهما والقدرة عليهما وهو الذي سيق له الكلام، على أن التشبيه صالح للماثلة في غير ذلك. روى مسلم عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين الحديث. فهذا تفسير لبعض ما أفاده التشبيه وهو من طريق الوحي واللفظ لا يأباه فيجب أن يعتبر معنى للكاف مع المعنى الذي دلت عليه بظاهر السياق. وهذا من تفاريع المقدمة التاسعة من مقدمات تفسيرنا هذا.

وانتصب)وعدا(على أنه مفعول مطلق ل)نعيده(لأن الإخبار بالإعادة في معنى الوعد بذلك فانتصب على بيان النوع للإعادة. ويجوز كونه مفعولا مطلقا مؤكدا لمضمون جملة)كما بدأنا أول خلق نعيده(.

صفحة : 2746

)ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون[105] إن في هذا لبالغا لقوم عابدين[106](إن كان المراد بالأرض أرض الجنة كما في قوله تعالى في سورة الزمر) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا(إلى قوله تعالى)وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء(فمناسبة ذكر هذه الآية عقب التي تقدمتها ظاهرة. ولها ارتباط بقوله تعالى)أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها(.

وإن كان المراد أرضا من الدنيا، أي مصيرها بيد عباد الله الصالحين كانت هذه الآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة على حد قوله تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(.

على أن في إطلاق اسم الأرض ما يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح. وقد صدق الله وعده في الحالين وعلى الاحتمالين. وفي حديث أبي داود والترمذي عن ثوبان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها .

وقرأ الجمهور)في الزبور(بصيغة الإفراد وهو اسم المزبور، أي المكتوب، فعول معنى مفعول، مثل: ناقة حلوب وركوب. وقرأ حمزة بصيغة الجمع زبور بوزن فعول جمع زبر بكسر فسكون أي مزبور، فوزنه مثل قشر وقشور، أي في الكتب.

فعلى قراءة الجمهور فهو غالب في الإطلاق على كتاب داوود قال تعالى)وآتينا داود زبورا(في سورة النساء وفي سورة الإسراء، فيكون تخصيص هذا الوعد بكتاب داود لأنه لم يذكر وعد عام للصالحين بهذا الإرث في الكتب السماوية قبله. وما ورد في التوراة فيما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام)إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده(فذلك خاص بأرض المقدس وببني إسرائيل.

والزبور: كتاب داود وهو مبثوث في الكتاب المسمى بالمزامير من كتب اليهود. ولم أذكر الآن الجملة التي تضمنت هذا الوعد في المزامير. ووجدت في محاضرة للإيطالي المستعرب فويدو أن نص هذا الوعد من الزبور باللغة العبرية هكذا صديقين يرشون أرض بشين معجمة في يرشون وبصاد مهملة في أرض ، أي الصديقون يرثون الأرض. والمقصود: الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة وذلك قبل أن يجيء مثل هذا الوعد في القرآن في سورة النور في قوله تعالى)وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم(.

وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر لفرق من العباد الصالحين.

ومعنى)من بعد الذكر(أن ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمة. فيعد أن ألقيت إليهم الأوامر وعدوا بميراث الأرض.

وقيل المراد ب)الذكر(كتاب الشريعة وهو التوراة.

قال تعالى)ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين(فيكون الظرف في قوله تعالى)من بعد الذكر(مستقرا في موضع الحال من الزبور. والمقصود من هذه الحال الإيماء إلى أن الوعد المتحدث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة. وهو الوعد الذي ذكر في قوله تعالى حكاية عن موسى)يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم(، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان لأن ذلك وعد كان قبل داود، فإن ملك داود أحد مظاهره. بل المراد الإيماء إلى أنه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل وليسوا إلا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيهم عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم آنفا.

وجملة)إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين(تذييل للوعد وإعلان بأن قد آن أوانه وجاء إبانه. فإنه لم يأت بعد داود قوم مؤمنون ورثوا الأرض، فما جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغ إليهم.
فالإشارة بقوله تعالى)إن في هذا(إلى الوعد الموعود في الزبور والمبلغ في القرآن.

صفحة : 2747

والمراد بالقوم العابدين من شأنهم العبادة لا ينحرفون عنها قيد أنملة كما أشعر بذلك جريان وصف العابدين على لفظ)
قوم(المشعر بأن العبادة هي قوام قوميتهم كما قدمناه عند قوله تعالى)وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(في آخر سورة يونس. فكأنه يقول: فقد أبلغتكم الوعد فاجتهدوا في نواله. والقوم العابدون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، والموجودون يومئذ والذين جاءوا من بعدهم.
والعبادة: الوقوف عند حدود الشريعة. قال تعالى)كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله(. وقد ورثوا هذا الميراث العظيم وتركوه للأمة بعدهم، فهم فيه أطوار كشأن مختلف أحوال الرشد والسفه في التصرف في مواريث الأسلاف.
وما أشبه هذا الوعد المذكور هنا ونوطه بالعبادة بالوعد الذي وعدته هذه الأمة في القرآن)وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون(.
)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[107](أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وذكروا إجمالا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل.
وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلما وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية

مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين، فهذه الجملة عطف على جملة)وجعلناها وابنها آية للعالمين(ختاما لمناقب الأنبياء، وما بينهما اعتراض واستطراد. ولهذه الجملة اتصال بآية)وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(.

ووزانها في وصف شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وزان آية) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان(وآية)ولقد آتينا إبراهيم رشده(والآيات التي بعدها في وصف ما أوتيه الرسل السابقون.

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح مرسله تعالى ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به. وذكر فيها الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير)رحمة(للتعظيم؛ إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب، وهي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل دون خصوصية أزيد من ذلك فجمع ستة معان لا غير خصوصية إنما هي وفرة معان. وليس تنكير حبيب ومنزل إلا للوحدة لأنه أراد فردا معينا من جنس الأحباب وفردا معينا من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل، ومنزله.

واعلم أن انتصاب)رحمة(على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لصيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة. ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إنما أنا رحمة مهداة .

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.
فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلامذة أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس: زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق آه. ذكره عنه عياض في الشفاء. قلت: يعني أن محمدا صلى الله عليه وسلم فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخلقه. قالت عائشة كان خلقه القرآن . ولهذا خص الله محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى)لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم(وقال تعالى)فبما رحمة من الله لنت لهم أي برحمة جبلك عليها وفطرك بها فكنت لهم لينا. وفي حديث مسلم: أن رسول الله لما شج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة .
وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته. أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى)للعالمين متعلق(بقوله)رحمة(.
والتعريف في)العالمين(لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم. والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم، أي الإنسان، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدم من احتمال المعنيين في قوله تعالى)الحمد لله رب العالمين(. فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة إما لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك، وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في

سياسة الأمم المشروعة هي لها مثل شريعة التوراة فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى)ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون(فإن كثيرا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة قال تعالى)فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم(وقال)فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم(إلى آيات كثيرة.

لا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابا منه لموسى عليه السلام)ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي(الآية. ففي قوله تعالى)وسعت كل شيء(إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى)وما جعل عليكم في الدين من حرج(وقال تعالى)يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة .

صفحة : 2749

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى)ولكم في القصاص حياة(. فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم. وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد ب)العالمين(في قوله تعالى)إلا رحمة للعالمين(النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان قال تعالى)هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا(وقال تعالى)والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم(.

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعد فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه.

ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان ففي حديث الموطأ عن أبي هريرة مرفوعا: أن الله غفر لرجل وجد كلبا يلهث من العطش فنزل في بئر فملأ خفه ماء وأمسكه بفمه حتى رقي فسقى الكلب فغفر الله له .

أما المؤذي والمضر من الحيوان فقد أذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم. وفي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يعوز الفقيه تتبعها.

)قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون[108](عقب الوصف الجامع لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متبع لها وهو الإيمان بوحدانية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه، لنبذ الشرك المبثوث بين الأمم يومئذ. وللاهتمام بذلك صدرت جملته بالأمر بأن يقول لهم لاستصغاء أسماعهم.

وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عليه، فالدعوة إليه هي مقادة الاجتلاب إلى الشريعة كلها، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا)أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب(.

وما كان إنكارهم البعث إلا لأنهم لم يجدوه في دين شركهم إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدثونهم إلا عن حالهم في الدنيا فما كان تصلبهم في إنكار البعث إلا شعبة من شعب الشرك. فلا

جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقا لشقة الخلاف بين النبي وبين المشركين المعرضين الذين افتتحت السورة بوصف حالهم بقوله تعالى)اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم(.

وأفادت)إنما(المكسورة الهمزة وإتلاؤها بغفل)يوحى(قصر الوحي إلى الرسول على مضمون جملة)أنما إلهيكم إله واحد(. وهو قصر صفة على موصوف. و)أنما(المفتوحة الهمزة هي أخت)

إنما(المكسورة الهمزة في إفادة القصر لأن)أنما(المفتوحة مركبة من)أن(المفتوحة الهمزة و)ما(الكافة. كما ركبت)إنما(المكسورة من)إن(المكسورة الهمزة و)ما(الكافة. وإذ كانت)أن(المفتوحة أخت)إن(المكسورة في إفادة التأكيد فكذلك كانت عند اتصالها ب)ما(الكافة أختا لها في إفادة القصر. وتقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى)فإن توليتم فاعملوا أنما على رسولنا البلاغ المبين(في سورة العقود.

وإذ قد أتليت)أنما(المفتوحه بالاسم الجامع لحقيقة الإله، وأخبر عنه بأنه إله واحد فقد أفادت أن صاحب هذه الحقيقة مستأثر بالوحدانية فلا يكون في هذه الحقيقة تعدد أفراد فأفادت قصرا ثانيا، وهو قصر موصوف على صفة.

والقصر الأول إضافي، أي ما يوحي إلى في شأن الإله إلا أن الإله إله واحد. والقصر الثاني أيضا إضافي. أي في شأن الإله من حيث الوحدانية. ولما كان القصر الإضافي من شأنه رد اعتقاد المخاطب بجملة القصر لزم اعتبار رد اعتقاد المشركين بالقصرين.